طبعة ثالثة بزيادات مهمة

إعلام الفئام بمحاسن الإسلام
و
تنبيه البريّة على مطاعن المسيحيّة

رسالة التخصص المقدّمة بكليّة الدّعوة والإرشاد بجامعة العُلوم الإسلاميّة،
علامة بنوري تاؤن، كراتشي
سنة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م

تأليف
المفتي رضاء الحق عفا الله عنه
خادم الحديث النبويّ والإفتاء بدار العلوم زكريّا

طُبع تحت إشراف
فضيلة الشيخ شبير أحمد السّالوجي حفظه الله ورعاه
مُدير دار العُلوم زكريّا، لينيشيا، جنوب إفريقية

دار العُلوم زكريا
لينيشيا. جنُوب إفريقيا

اسم الكتاب : إعلامُ الفِئَام بمَحاسِن الإسلام، وتَنبيهُ البَرِيَّة على مَطاعِن المَسِيحِيَّة

تأليف : صاحب الفضيلة المفتي رضاء الحق حفظه الله تعالى

الموضوع : المقارنة بين الأديان.

طُبع تحت إشراف : فضيلة الشيخ شبير أحمد السالوجي حفظه الله تعالى

عدد الصفحات : ٣٨٤

الطبعة الأولى : ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، زمزم ببلشرز، كراتشي، باكستان

الطبعة الثانية : ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م، زمزم ببلشرز، كراتشي، باكستان

الطبعة الثالثة : جمادى الأولى ١٤٤٣هـ/ يناير ٢٠٢٢م، مكتبة أحمد حسن،

دابيل، مديرية: نوساري، ولاية: غجرات، الهند

للاتصال: ٠٠٩١٩٦٦٢٥٩٦٩٩٦

owaismya@yahoo.com

الناشر : دارالعلوم زكريا، لينيشيا، جَنوب إفريقيا

مقدمة الطبعة الثانية

بقلم المؤلف: المفتي رضاء الحق حفظه الله تعالى
الأستاذ والمفتي بدارالعلوم زكريا، جنوب إفريقيا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المفضل المِنعام الذي شرَّفنا بالتمسك بالدين الحق المتين وهو الإسلام، ووفَّقنا لإزالة الأوهام التي أثارها أذناب المسيحيَّةِ ضدَّ الإسلام في الأنام، وتقبَّل أقلامنا لدفع الشبهات واعتراضات المسيحيين على الملة الحنيفية السمحة البيضاء التي هي كغيث الغمام. والصلاة والسلام على سيد الإنس والجان، المتحلي بالأعمال العالية والأخلاق الفاضلة والأقوال الفارعة محمد، وعلى آله وصحبه وأزواجه على ممرِّ الزمان في كل حين وآن.

أما بعد، فنقول: إن الصراع بين الحق والباطل مما لا يخفى على أولي الألباب، فالباطلُ تمويه وتدليس وخداع وتلبيس، والحقُّ ناصح نظيف وعسل لطيف. وقد قمنا قبل خمسين عامًا تقريبًا بمقالة سميناها «إعلام الفئام بمحاسن الإسلام، وتنبيه البرية على مطاعن المسيحية» حول حقانية مذهب الإسلام وبطلان المسيحية على رؤوس الأشهاد، تحت رئاسة سماحة الشيخ العلامة المحقق الكبير محمد يوسف البنوري، في ظلال الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء التي استقى من نميرها الأداني، واقتبس من نورها الأقاصي، ألا وهي جامعة العلوم الإسلامية علامة بنوري تاون الكراتشي الباكستان، التي أسَّسها العلامة محمد يوسف البنوري، منهل العلم ومنبع الخير، وهي التي يشمل فيضها في أكناف العالم، وينتشر ضوؤها في المشارق والمغارب.

وطبعت هذه المقالة قبل سنوات في مكتبة زمزم كراتشي؛ ولكن نفدت نسخها فكادت

لا توجد منها نسخة إلا في بعض المكتبات. ولما فقد الكتاب ولا يزال يحرص على تحصيله بعض الطلاب رغَّبني رفيقي في التأليف الشيخ مولانا محمد عثمان البستوي المدرس في دار العلوم زكريا أن يطبع مرةً ثانيةً لأبناء العلم في ثوب قشيب ولباس جديد.

ولما أردنا أن نطبعه كرَّرنا في تصحيحه نظرة خاطفة بدون مطالعة غائرة لكثرة الأشغال وتشتت البال وازدحام الأعمال. فهذه طبعة جديدة ثانية نقدمها للراغبين ونرجو من الله تعالى أن يُهِبَّ عليه رياح القبول. وأضاف فيه رفيقي المذكور بعض التعليقات وباب الربا لتكميل الفائدة فجزاه الله تعالى الخير. وصحَّحنا في الكتاب بعض الأخطاء وغيَّرنا بعض العبارات.

ونرجو أن تكون هذه الطبعة تثلج الصدور، وتشفي القلوب، وتقر بها النواظر، ويطمئن بها أهل البصائر. ونأمل من القارئين لنا الدعوات في مبارك الأوقات لا سيما عقب الصلوات. وصلى الله تعالى على سيدنا محمد سيد السادات، وعلى آله والصحابة والصحابيات، وعلى من تبعهم إلى يوم يحشر فيه الكائنات.

كتبه

رضاء الحق عفا الله عنه

٢٣ ذو الحجة ١٤٤٢هـ/ ٣ أغسطس ٢٠٢١م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى روح شيخي ووالدي الشيخ شمس الهادي رحمه الله تعالى، الذي كان يتمنى كثيرًا في حياته أن تتحلى هذه المَقالة بحلية الطبع، لكن مع الأسف أنه توفي قبل طبعها بسنتين. رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً.

وإلى روح أمي، وإلى أرواح مشايخي الذين بذلوا جهدهم في تعليم العبد الضعيف. اللهم برد مضاجعهم، وأسكنهم في جنة الفردوس.

الفقير إلى الله رضاء الحق

ابن[1] الشيخ شمس الهادي الشاه منصوري عفا الله عنهما

(١) تكتب همزة «ابن» في ستة مواضع: (١) إذا أضيف إلى مضمر، مثل: هذا زيد ابنك. (٢) إذا أضيف إلى غير الوالد سواء كان مضافًا إلى العم، مثل: المعتضد بالله ابن أخي المعتمد على الله. أو يكون مضافًا إلى الأب الأعلى، مثل: «معاوية ابن معاوية» أي: معاوية بن يزيد بن معاوية. (٣) إذا وقع «ابن» خبرًا لما قبله، مثل: إن محمدًا صلى الله عليه وسلم ابن عبد الله. (٤) إذا كان في أول السطر على كل حال. (٥) إذا وقع موصوفه بعد الاستفهام، مثل: هل تميم ابن مرٍّ. (٦) إذا وقع بين وصفين دون علمين، مثل: الكريم ابن الكريم ابن الكريم. كذا في «تصحيح التصحيف وتحرير التحريف»، ص٧١، لصلاح الدين خليل بن أبيك الصدفي (م:٧٦٤هـ)، ذكر سبعة مواضع، جعلناها ستة مع تفسير بعض الأمثلة.

وإنما تحذف الهمزة عن «ابن» إذا وقع صفة بين علمين من أعلام الأسماء والكنى والألقاب لشدة اتصال الصفة بالموصوف، كأنها كالجزء منه، ولهذا يحذف التنوين من موصوفه مثل علي بن محمد.

تصدير

فضيلة الشيخ شبير أحمد السالوجي/ حفظه الله تعالى ورعاه
مدير دار العلوم زكريا، لينيشيا، جَنوب إفريقيا

الحمد لله رب العالمين، الذي بعث رسله ليكونوا حجة على الناس يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئا، والصلاة والسلام على النبي الأمي محمد العربي صلى الله عليه وسلم، نبي الرحمة الذي بُعِثَ على فَترة من الرسل، بعد أن ضلت الأفهام وحرفت الحقائق وسَيْطرت الأوهام، وعلى آله وأصحابه الذين كانوا كالنجوم بين الأنام.

لا شك أن الدين الحق الذي لا يقبل الله دينًا سواه إنما هو دين الإسلام. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (آل عمران: ١٩) أي إن الدين المقبول هو دين الإسلام لا غير، الذي ختم الله به الأديان، وجعل رسوله محمدًا خاتم الأنبياء والمرسلين. أرسله بالحجة الساطعة والبرهان القاطع الذي يدل على صدق نبوته ورسالته عليه السلام، وهذا هو القرآن المعجز الذي جادل فيه اليهودُ والنصارى، وكابروا وعاندوا فلم يقروا بأنه كلام الرحمن مع أنه أظهر من الشمس في رابعة النهار.

ولهذا قال تعالى في شأنهم: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾(آل عمران: ١٩) ١٩

وإن من يكره الدين الإسلامي من أهل الكتاب لم يقفوا من الإسلام موقف الاعتراف به كما اعترف هو بدينهم قبل الانحراف، وكتابهم قبل التحريف، وبرسولهم، بل ولا مجرد قبوله كحقيقة عقدية قائمة على أصولها، وإنما اتخذوا موقفا معاديا له ومناوئا لكتابه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فالإسلام دين يقوم على حقيقة وحدانية الله تعالى وعدم الغلوِّ في الأنبياء وعدم القول على الله إلا الحق. يقول الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله مخاطِبًا أهلَ الكتاب –والمقصود هنا النصارى–: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ

وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ (النساء: ١٧١)، ولكن النصارى لم يستمعوا إلى هذا النداء الرباني، بل أصروا على التثليث وغلوا في عيسى بن مريم ووصفوا محمدًا صلى الله عليه وسلم بأوصاف لا تليق، فكفروا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- وكتابه.

ومن هنا انقسموا إلى ثلاثة مذاهب رئيسة: أرثوذكسية، وكاثوليكية، وبروتستانتية، وهي مذاهب تختلف في أصل الدين وطبيعة المسيح، وهل الله واحد أم ثلاثة؟ وفي داخل كل مذهب وُجِدت فرق، وتعددت هذه الفِرق تعددًا كبيرًا بسبب التحريف ودرجاته. ولا شك أن هذا التعدد في الفِرق هو تحقيق لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه الترمذي وأبو داود عن معاوية بن أبي سفيان مرفوعًا: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، وهي الجماعة».

ومما تجدر الإشارة إليه أن هناك فرقًا أخرى معادية للإسلام نشأت في كنف النصرانية أو انتسبت إليها، منها:

- فرقة الجزويت الكاثوليكية اليسوعية المتعصبة التي لا هدف لها سوى القضاء على الإسلام .

- المارونية: وهي طائفة نصرانية كاثوليكية شرقية تقول بأن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة وقد أعلنوا طاعتهم لِبابا روما وتعاونوا مع الصليبيين ضد الإسلام إبان الحروب الصلبية.

- المونية: وهي حركة مشبوهة تدعو إلى توحيد الأديان في بوتقة دين جديد بهدف إلغاء الفوارق الدينية بين الناس لينصهروا في «صن مون» الكوري.

- شهود يَهْوَه: وهي منظمة سرية تدَّعي أنها نصرانية، وهي تعمل لحساب اليهود، وتتعاون مع المنظمات التبشيرية ضد الإسلام، وتعرف باسم «جمعية العالم الجديد».

- الاستشراق: وهو تيار فكري يدرس الحضارة الشرقية من خلال نظرة نصرانية ضيقة في أغلب الأحوال، ولذا تأتي الدراسات الاستشراقية في معظمها ضد حقائق الإسلام.

– التغريب: وهو تيار فكري ذو أبعاد سياسية اجتماعية وثقافية وفنية، يهدف إلى صبغ حياة المسلمين بصبغة غربية، وإلغاء شخصيتهم المستقلة وجعلهم أسرى التبعية الكاملة للحضارة الغربية.

– حركة التنصير: وهي الحركة التي ظهرت إثر فشل الحروب الصلبية، بغية نشر النصرانية بين الأمم المختلفة وخاصة بين المسلمين من أجل القضاء على الإسلام. ولا يسع هذا التصدير أن نستعرض فيه مذاهب النصرانية وحركاتها المناوئة للإسلام، ونحن نكتفي بوقفة على هذه الحركة الأخيرة الذكر: حركة التنصير؛ لأنها أوسع انتشارًا وأشد خطرًا وأكثر نشاطًا وتخطيطًا ضد الإسلام والمسلمين، وإن الوسائل التي تتسلح بها جمعيات هذه الحركة في العالم من الميزانية، ووسائل الإعلام، ووسائل المواصلات والاتصالات، والقوة البشرية التي نالت التدريب اللائق، وفيهم علماء ومهندسون ومخططون، لا يمكن حشدها بالجهود الشخصية وإنما هي مدعمة من الحكومات والدوائر السياسية، أو على الأقل تنال هذه الجمعيات هذه المعونات بمعرفة الحكومات، فإن كثيرًا من هذه الجمعيات تملك طائرات، ومحطات إذاعة، ووسائل الوصول والعمل في المناطق القاصية المنعزلة، ولا يمكن ذلك إلا بمعونة نظم الحكم في العالم المسيحي. ومن جهة أخرى يتعرض أدنى نشاط للدعوة الإسلامية لرقابة شديدة، وتصدر تعليمات من هذه الدول بتجفيف سائر منابع الدعم لهذا النشاط، وتنفذ الحكومات الإسلامية سائر هذه التعليمات، فتوقف النشاط الإسلامي، وفي الوقت نفسه تسمح للمنصرين بنشر شبكتهم.

ولم يقف العلماء الغيارى على الدين الإسلامي مكتوفي الأيدي من حملات التنصير عَبْرَ التاريخ فقاوموها، وإن كانت المقاومة على غير مستوى الحملات من نواح عدة، ولكن مبدأ المقاومة كان موجودًا، ولا يزال قائمًا مع اختلاف في القوة والوسائل والأساليب. ولما سقطت الهند في أيدي الإنجليز والمستعمرين، وكانت وفود المنصرين تتوالى عليها، وأخذ المنصرون في تنفيذ مخططاتهم، فانبرى للتصدي لهم علماء المسلمين في تلك البلاد بكل بسالة وجرأة، فناظروا هؤلاء الدعاةَ والقساوسة، وأظهروا لهم صدق الإسلام، وأجابوا عن جميع مطاعنهم على الإسلام والقرآن. فبكَّتوهم وألجأوهم إلى الإقرار أو الفرار، وكان على رأس هؤلاء العلماء الشيخ محمد رحمة الله الكيرانوي، والشيخ الإمام محمد قاسم النانوتوي،

وغيرهما، ولم يقتصروا على التأليف، بل أسَّسوا مراكز لتدريب الدعاة المسلمين على مقاومة التنصير. وقد سجَّل التاريخُ ما كان لهؤلاء الدعاة من مواقف حاسمة في وجه افتراءات المنصِّرين على الإسلام.

وهذا الكتاب الذي بين أيديكم أيها القراء! جزء من تلك السلسلة التي ألفها علماء ديوبند في هذا الموضوع لكشف النصرانية وتعريف ووصف معتقداتها وطُقوسها وعباداتها، وما في كتبهم من تحريفات وخرافات تمس بكرامة الأنبياء والمرسلين، وبيان أن النصرانية الحقيقية قد اندرست، وحلت محلَّها ديانة تعارضها على طول الخط بدلائل قوية وشواهد محكمة تقصم ظهر الباطل. ألَّفه سماحة العلامة المحدِّث الفقيه المفتي رضاء الحق – أدام الله ظلَّه علينا بكل خير وعافية – شيخ الحديث ورئيس دار الإفتاء بدار العلوم زكريا بِجَنوب إفريقيا.

وبما أن فضيلته يتمتع بتعمق في كثير من شعب العلوم وفنونه كعلمائنا القدامى مثل علوم القرآن، والحديث، والأصول، والفقه، وأسماء الرجال، والتاريخ إلى جانب تضلَّعه من العلوم العربية من النحو والصرف، وعلم القوافي، والعروض، وقرض الشعر، والمعاني، والبيان، ومن العلوم العقلية من المنطق، والفلسفة، فإن أعماله العلمية والتدريسية والتأليفية قد زادت تعمقًا وبحثًا وشمولًا ولباقةً. وكتابه هذا وإن كان من باكورة تأليفاته حيث يعود تاريخ تأليفه إلى حوالى ثمان وثلاثين سنة ينم عن عميق علمه، وسعة دراسته، وطول باعه في الجدل والمناظرة، وقوة حفظه، وعلوِّ كعبه في المجال العلمي.

فندعو الله تعالى أن يرعاه ويكافئه على ذلك مكافأة الْمحسنين، ويبارك في حياته، ويكثر من أمثاله في حراسة الدين والدفاع عن حوزته، ويوفقه لتأليف كثير من أمثاله في خير وعافية، وأن ينفع به المسلمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

شبير أحمد السالوجي عفا الله عنه

خادم دار العلوم زكريا، جَنوب إفريقية

في شهر رجب المرجب ١٤٣٠هـ/ سبتمبر ٢٠٠٩ م

تقريظ

بقلم الشيخ العلامة الدكتورعبد الرزاق اسكندر/ حفظه الله تعالى

مدير جامعة العلوم الإسلامية علامة بنوري تاؤن، كراتشي، باكستان

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا. وأفضل الصَّلاة وأتَمُّ التسليم على سيدنا محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين، الذي بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وعلى آله وصحبه، الذين حملوا هذه الأمانة وبلَّغوها إلى الأمم والشعوب، وعلى من تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن الصِّراع بين الحق والباطل قديم قِدَم التاريخ، منذ أن وُجد الإنسان على وجه هذه الأرض. والحق جنودُه الأنبياء وأتباعهم، والباطل جنودُه إبليس وأتباعه من الإنس والجن. وجنود الحق سِلاحهم دائما البيناتُ الواضحات من الوحي والحُجَج البالغات التي يقبلها العقل والفطرة السليمة، وسلاح الباطل الأوهام والعادات الموروثة، والتعاليم المحرَّفة، والخِداع والتلبيس، لذلك كانت الهزيمة دائما في نصيب الباطل. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ ﴾ (الأنبياء: ١٨)

ومن صُور هذا الصراع هو الصراع بين الإسلام وبين المسيحية المحرفة. وما يواجهه المسلمون عامة، والعلماء والدعاة خاصة من التنصير المسيحي في معظم البلدان.

لقد وقع الصراع بين الحق والباطل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فقد واجه صلى الله عليه وسلم أهلَ الشرك والوثنية وواجه أهلَ الكتاب من اليهود والنصارى. وكانت صورةً من صور هذا الصراع: مواجهته صلى الله عليه وسلم وفدَ علماء نجران الذين جاءوا إلى المدينة المنورة، وجادلوا النبي صلى الله عليه وسلم في أمر العقيدة حول سيدنا عيسى عليه

السلام، فنزلت آيات من أول سوة آل عمران، فأبطلت دعواهم وردَّت شبهاتِهم فرجعوا خائبين.

وقد قام علماء المسلمين ودعاتُهم في كل عصر وفي كل مكان بإعداد العدَّة لِمواجهة هذه الفتنة بالقلم واللسان، فبارزوا علماءهم، فكانت الهزيمة دائما في نصيب الباطل.

وعند ما استولى الاستعمارُ على الهند بالمكر والخديعة وقُضِيَ على الدولة الإسلامية وجد المنصِّرون أرضًا خِصْبة لنشر دعوة المسيحية بين أهلها، فقام كبار العلماء المسلمين في مواجهتهم وتحدَّوْهم، وناظَروهم على مَرأى من الناس ومسمع، فكانت الهزيمة دائما في نصيب الباطل، وكتبوا كتبا مفيدة في هذا الموضوع، ومن هؤلاء العلماء: العلامة رحمة الله الكيرانوي -رحمه الله تعالى-، والشيخ الإمام محمد قاسم النانوتوي -رحمه الله تعالى-، وغيرهما من العلماء، جزاهم الله عن الإسلام وأهله خير الجزاء.

وهذا الكتاب «إعلام الفئام بمحاسن الإسلام وتنبيه البرية على مطاعن المسيحية» لفضيلة المفتي وشيخ الحديث الشيخ رضاء الحق -حفظه الله تعالى وبارك في عمره- حلقة من حلقات هذه السلسلة، وهي عبارة عن رسالة التخصص (الماجستير) التي اختارها أيام دراسته في قسم التخصص في الدعوة والإرشاد في جامعة العلوم الإسلامية (المدرسة العربية الإسلامية سابقًا) بكراتشي، باكستان، التي أسَّسها شيخنا المحدث الكبير العلامة محمد يوسف البنوري -رحمه الله تعالى- الذي كان غَيُورا على الإسلام، وحريصًا على حفاظ إيمان هذه الأمة من الفتن. لذلك فتح في ضمن التخصصات «التخصص في الدعوة الإرشاد» لإعداد العلماء الذين يدافعون عن هذه الدين الحنيف، ويكتفون هذه الفتن للأمة بالحجة والبرهان حتى لا يقعوا في حبائلهم.

وقد قام فضيلة الشيخ رضاء الحق بإعداد هذه الرسالة، ثم طرأت عليه الأعذار المختلفة من المرض والأسفار حتى ضاعت منها بعض الأجزاء. وعند ما رزقه الله الصحة والفراغ بدأ فيها وصرف فيها جهده فجاءت في أحسن صورة وأكملها في الموضوع.

وقد قام فضيلته بالمقارنة بين الدين المسيحي والدين الإسلامي -وبضدها تتبيَّن

الأشياء- في العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، والنكاح، والطلاق. كما تناول تاريخ المسيحية وفرقها، وعقائدها الباطلة. وقارن بين حياة المسيح عليه السلام كما وردت في أناجيلهم، وحياة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، كما يعرفه القارئ من فهرس الكتاب.

فجزى الله تعالى فضيلة الشيخ المفتي رضاء الحق -حفظه الله تعالى- عن العلم والعلماء خير الجزاء على أداء فرض الكفاية، ونفع بهذا الكتاب العلماء وطلاب الدراسات العليا للشريعة.

وإنني أتمنى أن يصل هذا الكتاب إلى المكتبات والجامعات الإسلامية، وإلى الدعاة الذين يوجهون هذه الفتنة، فيكون لهم سلاح وعدَّة.

وصلى الله على نبينا محمد خاتم النبيين وآله وصحبه وسلم.

كتبه

عبد الرزاق اسكندر

الوارد زائرًا إلى دار العلوم زكريا

في شهر شعبان المعظم١٤٣٠هـ / أكتوبر ٢٠٠٩م

مقدمة لتلخيص عقائد النصارى

لخصها الشيخ محمد عثمان البستوي
المدرس بدار العلوم زكريا، جنوب إفريقيا

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الله تعالى خلق آدم عليه السلام بقدرته الكاملة من غير أب ولا أم، كذلك خلق الله تعالى عيسى عليه السلام بقدرته من أم، بلا أب، من مريم عليها السلام. قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء: ١٧١)

بعث الله تعالى عيسى ابن مريم نبيًّا إلى بني إسرائيل، فأبغضه معظم اليهود وعادوه، و كفروا بنبوته حتى تصدوا لقتله، فرفعه الله تعالى بروحه وجسده إلى السماء، وألقى شَبَهَه على من دَلَّ عليه لاعتقاله وأسره، واسمه يهوذا الاسخريوطي، كما في إنجيل برناباس،[(١)] فصلبه اليهود، ثم شكُّوا في أمرهم هل المصلوب عيسى ابن مريم، أو هو يهوذا الاسخريوطي؟ قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ (النساء)

وفصلت الآياتُ ١٦-٣٦ من سورة مريم قصةَ عيسى عليه السلام منذ ولادته إلى رفعه إلى السماء.

وأعطى الله تعالى عيسى عليه السلام كثيرا من الآيات والمعجزات، منها: أنه كان

---

(١) قال برنابا: «ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي اصعد منها يسوع، وكان التلاميذ كلهم نيامًا، فأتى اللهُ العجيبَ بأمر عجيب، فتغيَّر يهوذا في النطق وفي الوجه، فصار شبهًا بيسوع حتى أننا اعتقدنا أنه يسوع، أما هو (أي: يهوذا) فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم، لذلك تعجبنا وأجبنا: أنت يا سيد هو معلمنا، أنسيتنا الآن؟ أما هو فقال متبسمًا: هل أنتم أغبياء حتى لا تعرفون يهوذا الاسخريوطي، وبينما كان يقول هذا دخلت الجنود وألقوا أيديهم على يهوذا؛ لأنه كان شبيها بيسوع من كل وجه». (إنجيل برنابا، الفصل السادس عشر بعد المئتين. وللتفصيل راجع: الفصل السابع عشر بعد المئتين بتمامه).

يخلق، أي: يصنع ويصوِّر من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، ويحيي الموتى بإذن الله تعالى؛ قال الله تعالى وهو يمتن على عيسى بهذه النعم: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ (المائدة: ١١٠)

وكان عيسى عليه السلام يوحِّد الله تعالى، ويعلم الناس التوحيد، قال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ (المائدة: ١١٧)

وعيسى عليه السلام حي في السماء، وسينزل مع دنو الساعة قرب المنارة البيضاء من شرقي دمشق، ومعه ملكان قد لزم مناكبهما عند صلاة الفجر، و يصلي خلف المهدي، ثم يقتل الدجالَ عند باب لُدّ بعد صلاة الفجر. و يُقتل كثيرٌ من اليهود مع الدجال، ويؤمن به سائر أهل الكتاب، ويحكم عيسى بشرع محمد صلى الله عليه وسلم، ثم يأتيه أجله الطبيعي بعد نحو أربعين سنة.

جمع الشيخ المفتي رفيع العثماني في نهاية كتابه «*علامات قيامت اور نزول مسيح*» «أشراط الساعة ونزول المسيح» أحوال عيسى عليه السلام من نزوله من السماء إلى وفاته مرتبةً مع التوثيق والإحالة. وليراجع لتفصيل مكان نزول عيسى عليه السلام ووقته كتابنا «العصيدة السماوية شرح العقيدة الطحاوية» (٢/ ٥٧٩-٥٨٦، ط: الثالثة).

وكان حواريو عيسى عليه السلام يؤمنون بالله ورسوله وكانوا مسلمين. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ (المائدة: ١١١)

وأما النصرانية الحالية فدين باطل؛ لأنها تقول بالتثليث وغيرها من عقائد الكفر، وأتباع النصرانية كفرة كالمشركين، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ (التوبة)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ (النساء: ١٧١)

مبدأ المسيحية، وانفصالها عن الشريعة الموسوية:

لم يسم عيسى عليه السلام أتباعه بـ«النصارى» أو«المسيحيين»؛ فإنه لم يبعث لتأسيس دين جديد، وإنما كان الغرض من بعثته إصلاح اليهود المنحرفين عن دين موسى، ومن بعده من الأنبياء عليهم السلام، وإكمال اليهودية. قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ (البقرة: ٨٧)

وقال تعالى:﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة: ٤٦)

ورُوِيَ هذا المعنى في إنجيل متى عن عيسى عليه السلام:«لا تظُنُّوا أني جئتُ لأُبطِل الشريعةَ وتعاليم الأنبياء، ما جئتُ لأُبطِل، بل لأُكَمِّل. الحقَّ أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرفٌ واحدٌ أو نقطةٌ واحدةٌ من الشريعة حتى يتِمَّ كلُّ شيء». (متى ٥/ ١٧-١٨).

أضف إلى ذلك أن حواريي عيسى عليه السلام لم يحاولوا أصلًا وضعَ دين غير اليهودية. جاء في «دائرة المعارف البريطانية» في هذا الصدد: «هم-أتباع عيسى عليه السلام- ظلوا أوفياء للهيكل القائم، ومتقيدين بالمعبد اليهودي، ولم يخطر ببالهم اختراع فرقة جديدة أو الانفصال من عائلة بني إسرائيل».(Encyclopaedia Britannica, London, 1962, 5/676)

مبدأ تسمية أتباع عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالمسيحيين:

وأول من سمى المنتمين إلى عيسى عليه السلام بالمسيحيين (Christian) هم مشركو إنطاكية عام ٤٣م أو ٤٤م، حين وصل إليها بولس وبرنابا، وبدءا بالدعوة والتبليغ. جاء في كتاب الأعمال عن الحواري برنابا: «وذهب برنابا إلى طَرطوسَ يبحَث عن شاوُلَ، فلما وجده جاء به إلى أنطاكية، فأقاما سنةً كاملةً يجتمعان إلى جماعة الكنيسة، فعَلَّما جمعًا كبيرًا. وفي أنطاكية تُسمَّى التلاميذ أولَّ مرةٍ بالمسيحيين». (أعمال ١١/ ٢٥-٢٦).

وسمى أعداء النصارى المسيحيين بهذا الاسم استهزاءً بهم وطعنًا فيهم، ولم يرضَ أتباع عيسى عليه السلام أن يسموا أنفسهم بهذا الاسم، ولكن لما بدأ أعداؤهم ينادونهم بهذا الاسم قال لهم رؤساؤهم: كيف تخجلون إذا سموكم مسيحيين نسبةً إلى المسيح؟ ويحكي

الكتاب المقدس هذه القصة على مايلي: «هنيئًا لكم إذا عَيَّروكم من أجل اسم المسيح؛ لأن روحَ المجدِ روحَ الله يَستقِرُّ عليكم، لا يتألَّـمْ أحدٌ منكم ألمَ قاتِلٍ أو سارقٍ أو شريرٍ أو متطَفِّلٍ، ولكنَّه إذا تألَّمَ لأنه مسيحيٌّ، فلا يَخجَلْ وليُمَجِّد اللهَ بهذا الاسم». (بطرس الأولى ٤/ ١٤-١٦).

يقول كاتب «دائرة المعارف البريطانية» تعليقًا على أحوالهم: «كأن فرقة جديدة نشأت في اليهودية، وكان هؤلاء أتباع يسوع الناصري، ويقولون: إنه المسيح. ويعتبرون أنفسهم إسرائيليين جدًا صادقين». (Encyclopaedia Britannica, London, 1962, 17/470)

ثم تفرقت بنو إسرائيل على فرقتين: سميت إحداهما باليهودية، والأخرى بالمسيحية.

مبدأ تحريف الدين المسيحي، وترجمة موجزة لـ بولس:

إن حواري عيسى عليه السلام وغيرهم من أتباع الدين المسيحي كانوا يأخذون بما جاء به عيسى عليه السلام من العقائد، والتوجيهات. وأما غيرهم من اليهود الأعداء للتوجيهات العيسوية، فكانوا من ألد أعداء عيسى عليه السلام وأتباعه. ومن أعداء الدين المسيحي هؤلاء بولس (ت:٦٤م)، لقد اضطهد أتباعَ الدين المسيحي كثيرًا، وصب عليهم ألوانا من العذاب، فلما رأى أن الظلم والاعتداء لا ينفعان في كف الناس عن الدين المسيحي والقضاء على أتباعه، احتال على تحريف ومسخ الدين المسيحي، فتظاهر بأنه من أتباع الدين المسيحي، ومظهر من مظاهر العنايات الروحية لعيسى عليه السلام، وناصرٌ للمسيحية. وبدأ يحرف الدين المسيح ويفتُّ في عضده في ستار من الدعوة إليه.

كان بولس من اليهود المتعصبين، واسمه شاؤل، من سكان مدينة رومية: «ترسس»، يقول بولس عن نفسه: «أنا يهودي ومواطنٌ رومانيٌّ مِن طَرسوسَ في كِيليكِيَّةَ، وهي مدينة معروفة جيدًا». (أعمال الرسل ٢١/ ٣٩).

وكان بولس من أكبر أعداء المسيحية، وقد صرَّح به نفسه في كتاب الأعمال في كثير من المواضع. منها قوله: «واضطهَدتُ مذهب يسوع حتى الموت، فاعتقَلتُ الرجال والنساءَ، وألقيتُهم في السُّجون، وبهذا يشهد لي رئيس الكهنة وشيوخ الشعب كلُّهم، فمنهم أخذتُ رسائلَ إلى إخوتنا اليهود في دِمشقَ، فذهبتُ إليها لاعتقالِ من كان فيها مؤمنا بهذا المذهب،

فأسوقُه إلى أُورُشليم لمعاقبته». (أعمال الرسل ٢٢/ ٤).

ثم تحول فجأة إلى المسيحية، و علل تحوله إليها بأنه كان في طريقه إلى دمشق، إذ تلألأ نور المسيح في السماء، ودعاه إلى الإيمان، فاعتنق المسيحية. وبعد أن اعتنق المسيحية لم يتلق تعاليمها وتوجيهاتها من الحواريين، بل قضى ثلاث سنوات أولًا في جنوب دمشق، ثم ظهر أكبرَ داعيةٍ إلى المسيحية، ولم يستيقن الحواريون في أول أمره باعتناقه المسيحية، ثم جاء به الحواري (برنابا) معه إلى غيره من الحواريين، وصدَّقَه، وأقنعهم، وشرح صدرهم، فاطمأن الحواريون كلهم بـ بولس. وسيقت بعض تفاصيله في كتاب الأعمال (٩/ ٢٦-٢٨).

ثم شارك بولس الحواريين في الدعوة والتبليغ، وبدأ يخترع دينا جديدًا بعد أن انضم إلى جماعتهم، وفتح الباب إلى اعتبار أقواله كلها أساسًا للدين بقوله: إن المسيح سيظهر عليه لاحقًا أيضًا. جاء في كتاب الأعمال: «فقلتُ: من أنتَ يا ربُّ؟ قال الربُّ: أنا يسوع الذي تَضطهِدُه أنتَ. قمْ وقِفْ على قدمَيك لأني ظَهرتُ لكَ لأجعلَ منكَ خادمًا لي وشاهِدًا على هذه الرؤيا الذي رأيتَني فيها، وعلى غيره من الرؤي التي سأظهَر فيها لكَ». (أعمال ٢٦/ ١٥-١٦).

وكان يعقوب بن زبدي ويهوداه الاسكريوتي-من حواريي عيسى الاثني عشرة- ماتَا قبل مجلس أورشليم، ولم يعرف من أحوال سبعة من الحواريين، وهم (١) يعقوب بن حَلفي، و(٢) تُوما، و(٣)برتولوماؤُس، و(٤)يهوذاه تداؤس، و(٥) أندَراؤُس، و(٦)فيلبُّس، و(٧) متى، بعد صعود عيسى عليه السلام إلى السماء. ولم يبق إلا ثلاثة منهم، وكان يوحنَّا بن زبدي -أحد هؤلاء الثلاثة- من أعضاء مجلس أورشليم، ثم غاب حتى لم يعد له ذكر، ولا علم مصيره. ولم يبق إلا اثنان من الحواريين: برنابا- وأصل اسمه يوسف اللاوي-وبُطرُس، وأصل اسمه كيفا. وتفصيله في كتاب «الأعمال» (الإصحاح ١-١٥).

ولما اختلفوا مع بولس بعد مجلس أورشليم في أنطاكية، انفصل هذان الاثنان من بولس ولم يجتمعا معه أبدًا. ولذا نجد ذكر بولس وبرنابا وبطرس مع بعضهم في كتاب الأعمال في مواضع كثيرة، ثم لا نجد للاثنين الأخيرين ذكرًا بعد هذا الاختلاف في الإصحاح ١٥ إلى الإصحاح الأخير ٢٨؛ لأن مؤلف كتاب الأعمال هو لوقا، من تلامذة بولس وحماة فكرته.

ويرجع هذا الاختلاف العنيف بين بولس من جهة، وبين بطرس وبرنابا من جهة

أخرى إلى أن بولس كان يقول بنسخ الشريعة الموسوية والختانِ وغيره، وأما بطرس وبرنابا فكانا لا يريان نسخ الشريعة الموسوية، كما قال عيسى عليه السلام: إنه لم يأت لنسخ الشريعة الموسوية؛ بل جاء ليُكمِّلها. «لا تظُنُّوا أني جئتُ لأُبطِل الشريعةَ وتعاليم الأنبياء، ما جئتُ لأُبطِل، بل لأُكَمِّل». (متى ٥/ ١٧)

المسيحية الحالية على خلاف توجيهات عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعلى وفاق توجيهات بولس الكفرية:

أدخل بولس كثيرًا من العقائد الكفرية في المسيحية، والواقع أن المسيحية الحالية ليست على ما جاء به عيسى عليه السلام من العقائد والتوجيهات؛ بل تقوم على ما اخترعه بولس من العقائد والتوجيهات. وعلى سبيل المثال نسوق بعض العقائد الأساسية في المسيحية، التي تسهِّل فهمَ أن المسيحية الحالية لاتمتُّ إلى توجيهات عيسى عليه السلام بصلةٍ، وإنما قوامها توجيهاتُ بولس، الذي حرَّف المسيحية تحريفًا.

(١) الإيمان بألوهية عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

الذي جاء بفكرة ألوهية عسيى عليه السلام هو بولس، قال بولس في رسالته إلى كنيسة «فيلبي»: «المسيح هو في صورة الله، ما اعتبر مساواتَه لله غنيمةً له، بل أخلى ذاتَه واتخذ صورة العبد صار شبيهًا بالبشر، وظهر في صورة الإنسان، تواضعَ، أطاع حتى الموت، الموت على الصليب...، ويشهد كلُّ لسانٍ أن يسوعَ المسيح هو الرب تمجيدا لله الأب». (فيلبي ٢/ ٥-١١).

كما يقول في عيسى عليه السلام في رسالته إلى كنيسة «كولوسي»: «هو صورة الله الذي لا يرى». (كولوسي ١/ ١٥).

وما جاء به بولس من العقيدة يخالف توجيهات عيسى عليه السلام على طول الخط، فقد صرحت الأناجيلُ الأربعة وإنجيل برنابا في أمكنة كثيرة بأن الله تعالى وحده لاشريك له، وأن عيسى عليه السلام رسوله وبشرٌ من البشر. وإليكم بعض النصوص على سبيل المثال:

إثبات التوحيد من الأناجيل:

في إنجيل يوحنا: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك: أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلتَه». (يوحنا ١٧/ ٣. ومثله في إنجيل متى ٢٣/ ٩).

انظر إلى هذه الآية البينة، فإنها تصرِّح بوحدانية الله ورسالة المسيح، فكيف يكون إلهًا، بل هو رسول الله.

وفي إنجيل مُرقُس: «فأجابه يسوع: أن أوَّل كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل! الرب إلهنا رب واحد». (مرقس ١٧/ ٢٩).

وفي لوقا: «فأجابه يسوع وقال: اذهب يا شيطان! إنه مكتوب للرب، إلهَك تسجد وإياه وحده تعبد». (لوقا ٤/ ٩).

هذه الآيات تنادي بأنه يجب على كل مسيحي أن يؤمن بأن «لا إله إلا الله»،لا أن الله– والعياذ بالله منه– ثلاثة.

إثبات عبدية عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكونه رسول الله:

في أعمال الرسل: «يا بني إسرائيل اسمعوا هذا الكلامَ: كان يسوع الناصريُّ رجلًا أيده الله بينكم بما أجرَى على يده من العجائب والمعجزات والآيات كما أنتم تعرِفون». (أعمال الرسل ٢/ ٢٢).

وفي إنجيل يوحنا: «والحياةُ الأبديةُ هي أن يعرِفوك أنتَ الإلهَ الحقَّ وحدكَ، ويعرِفوا يسوعَ المسيحَ الذي أرسلتَه». (يوحنا ١٧/ ٣).

وفي موضع آخر: «ومن لا يحبُّني لا يسمَع كلامي. وما كلامي من عندي، بل من عند الأب الذي أرسلَني». (يوحنا ١٤/ ٢٤).

وفي موضع آخر: «ولكنَّكم الآنَ تُريدون قتلي، أنا الذي كلَّمكم بالحق، كما سمعتُه من الله». (يوحنا ٢/ ٢٢).

وفي إنجيل برنابا: «إني رجل فانٍ كسائر الناس، على أني وأن أقامني الله نبيًّا على بيت إسرائيل لأجل صحة الضعفاء، وإصلاح الخطاة، خادمُ الله». (إنجيل برنابا، الفصل الثاني والخمسون).

(٢) عقيدة الكفارة:

لم يصرح عيسى عليه السلام ولا حواريوه بعقيدة الكفارة، وأول ما جاء ذكرُه بالتوضيح في رسالة بولس إلى أهل رومة. راجع التفاصيل في (رومة ٥/ ١٢-١٥).

ونكتفي بسرد نص واحد هنا: قال بولس: «كما أنه بمعصية إنسانٍ واحدٍ صار البشرُ خاطئين، فكذلك بطاعة إنسانٍ واحدٍ يصير البشر أبرارًا». (رومة ٥/ ٢٠).

وقال بولس في رسالته إلى أهل غلاطية: «والمسيح حرَّرنا من لعنةِ الشريعة بأن صار لعنةً من أجلِنا، فالكتاب يقول: ملعونٌ كلُّ من مات معلَّقًا على خشبة». (غلاطية ٣/ ١٣).

وشرح بولس عقيدة الكفارة في رسالته إلى أهل رومة بقوله: كما أن المسيح تطهر وتحرر من الذنوب بالصلب، كذلك نتطهر من الذنوب ونتحرر منها مستقبلا بالمعمودية تشبهًا بصلب المسيح. يقول بولس: «ألا تعلمون أنَّنا حين تعَمَّدْنا لنتَّحِد بالمسيحِ يسوعَ تعمَّدنا لنموتَ معه، فدُفِنَّا معه بالمعمودِية وشاركناه في موتِه، حتى كما أقامه الأب بقدرته المجِيدة من بين الأموات، نسلُك نحن أيضًا في حياة جديدةٍ، فإذا كنا اتَّحدْنا به في موت يُشبِه موتَه، فكذلك نتحِد به في قيامته، ونحن نعلم أن الإنسانَ القديمَ فينا صُلِبَ مع المسيحِ حتى يزول سلطانُ الخطيئة في جسدنا، فلا نبقى عبيدًا للخطيئة». (رومة ٦/ ٣-٦)

هذه العقيدة لا يقول بها أحد قبل بولس، فهو محدثُ هذه العقيدة، وإنما أحدثها ليحرر نفسه وغيره من أحكام الشريعة، ويوفر مبررات شرعية لولوغه في الشهوات والخرافات.

(٣) يكفي الإيمان للنجاة، ولاحاجة إلى العمل بالشريعة:

قال بولس: حسبنا الإيمان، ولاحاجة إلى الأعمال. قال بولس في رسالته إلى أهل غلاطية: «نعرِف أن اللهَ لا يُبَرِّر الإنسانَ لأنه يعمَل بأحكامِ الشَّريعة؛ بل لأنه يؤمن بيسوعَ المسيحِ ليُبَرِّرَنا الإيمانُ بالمسيحِ، لا العملُ بأحكام الشريعة، فالإنسان لا يَتَبَرَّرُ لعَمله بأحكام الشريعة». (غلاطية ٢/ ١٦).

بل يرى بولس الشريعة لعنة؛ قال بولس في رسالته إلى أهل غلاطية: «والمسيحُ حرَّرَنا من لعنة الشريعة بأن صار لعنةً مِن أجلِنا». (غلاطية ٣/ ١٣).

ويشرح بولس نسخ الشريعة في مكان آخر بقوله: «فقبلَ أن يجيءَ الإيمانُ كنَّا محبوسِين بحَراسة الشريعةِ إلى أن يَنكشِف الإيمانُ المنتظَرُ، فالشريعةُ كانت مُؤَدِّبًا لنا إلى أن يجيءَ المسيحُ حتى نتبرَّر بالإيمان. فلما جاء الإيمانُ تحرَّرنا من حَراسة المؤدِّب».(غلاطية ٣/ ٢٣-٢٥).

ثبت في ضوء هذه الأقوال كلها أن بولس استأصل أهمية التوراة العملية – التي كانت تقوم عليها توجيهات عيسى عليه السلام- ونسخَ كلَّ حكم من أحكامها.

في حين جاء في إنجيل متى قول عيسى عليه السلام: «لا تظُنُّوا أني جئتُ لأُبطِل الشريعةَ وتعاليم الأنبياء، ما جئتُ لأُبطِل، بل لأُكَمِّل». (متى ٥/ ١٧)

وعلى عكس توجيهات بولس أكد عيسى عليه السلام على ضرورة الأعمال بجانب الإيمان.

تأكيد عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على ضرورة الأعمال بجانب الإيمان:

في إنجيل لوقا: قال يسوع: «كيف تدعونني يا ربُّ، يا ربُّ، ولا تعمَلون بما أقول؟ كلُّ من يجيء إليَّ ويسمَع كلامي ويعمَل به أُشَبِّهُه لك برجُلٍ بنى بيتًا، فحفَر وعمَّق وجعَل الأساس على الصَّخر، فلما فاض النهرُ صدَم ذلك البيتَ، فما قدِر أن يُزَعزِعه لجودة بنائه. وأما الذي يسمَع كلامي ولا يعمَل به، فيُشبِه رجلًا بنى بيتَه على التُّراب بغير أساسٍ، فصَدَمه النهر، فسقَط في الحال، وكان خرابُه عظيمًا». (لوقا ٦/ ٤٦-٤٩).

وفي رسالة القدِّيس يعقوب: «ماذا ينفع الإنسانَ، يا إخوتي، أن يدعيَ الإيمانَ من غير أعمالٍ؟ أيقدِر هذا الإيمان أن يُخَلِّصَه؟». (يعقوب ٢/ ١٤).

وفي هذه الرسالة في موضع آخر: «الإيمان بغير الأعمال يكون في حدِّ ذاته ميتًا». (يعقوب ٢/ ١٧).

وفي موضع آخر من هذه الرسالةِ الإيمانُ من غير أعمال عقيمٌ، قال: «أيها الجاهل أتريد أن تعرِف كيف يكون الإيمان عقيما من غير أعمال؟». (يعقوب ٢/ ٢٠).

وفي موضع آخر: «ترونَ، إذًا، أن الإنسان يتبرَّرُ بالأعمال، لا بالإيمان وحده». (يعقوب ٢/ ٢٤).

(٤) عقيدة نسخ التوراة والأمرِ بالختان:

قال بولس في رسالته إلى أهل غلاطية: «فقبلَ أن يجيءَ الإيمانُ كنَّا محبوسِين بحَراسة الشريعةِ إلى أن يَنكشِف الإيمانُ المنتظَرُ، فالشريعةُ كانت مُؤَدِّبًا لنا إلى أن يجيءَ المسيحُ حتى نتبرَّر بالإيمان. فلما جاء الإيمانُ تحرَّرنا من حَراسة المؤدِّب».(غلاطية ٣/ ٢٣-٢٥).

وكتب بولس في موضع آخر: «فالمسيح حرَّرنا لنكون أحرارًا...، فأنا بولس أقول لكم: إذا اختتنتم فلا يفيدُكم المسيحُ شيئًا». (غلاطية ٥/ ١-٢. ومثله في ٦/ ١١-١٨).

ذات مرة حدث خلافٌ عنيف بين أتباع عيسى عليه السلام المسيحيين من اليهود، وبين المسيحيين غير المختونين من أنطاكية في مسألة الختان وغيره، فطلبوا مؤتمرا في أورشليم، ورغم أن الحواريين -رفضًا للنزاع- لم ينسخوا الأمر بالختان وغيره، وإنما توصلوا بصورة موقتة إلى أن الأمم الأخرى بإمكانها أن تدخل في الدين المسيحي من غير العمل بالختان. فما كان من بولس بعد هذا القرار إلا أن بدأ يبلغ الناس أن أحكام التوراة كلها قد نُسِخَت. وأن الختان كان لعنة، قد تم تخليصنا منها، ولن تستفيدوا من المسيح شيئًا إن مارستم الختان، فعارض الحواري: بطرس والحواري برنابا بولسَ معارضةً شديدةً، فإن دعوة بولس هذه كانت على خلاف الدين المسيحي. راجع التفاصيل في «غلاطية»، الإصحاح ٢، ٣، و٥.

لما عارض برنابا وبطرس تحريفَ بولس في الدين المسيحي، ادعى بولس أنه لا يحتاج إلى أخذ العلم من إنسان، فإنه ينزل عليه الوحي مباشرة.

قال بولس في رسالته إلى أهل غلاطية: «فاعلموا أيها الإخوة، أن البشارةَ التي بشَّرتُكم بها غيرُ صادرة عن البشر. فأنا ما تلقيتها ولا أخذتها عن إنسان، بل عن وحي مِن يسوعَ المسيحِ». (غلاطية ١/ ١١-١٢).

لم يأت عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليبطل التوراة، وأكَّد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على ضرورة الختان:

قال المسيح: «لا تظُنُّوا أني جئتُ لأُبطِل الشريعةَ وتعاليم الأنبياء، ما جئتُ لأُبطِل، بل لأُكَمِّل». (متى ٥/ ١٧)

والأمر بالختان مستمر من عهد إبراهيم عليه السلام. في سِفر التكوين: «وقال الله

لإبراهيم: احفظْ عهدي، أنتَ ونسلُك من بعدِك جِيلًا بعد جيلٍ، وهذا هو عهدي الذي تَحفَظُونه بيني وبينكم، وبين نسلِك من بعدِك: أن يُخْتَنَ كلُّ ذكَرٍ منكم، فتَختِنُون الغُلفَةَ من أبدانكم، ويكون ذلك علامةَ عهدٍ بيني وبينكم ...، وأيُّ ذكَر لا يُختَنُ يُقطَع من شعبِهِ لأنه نقَض عهدي». (التكوين ١٧/ ٩-١١، و١٤).

وفي سِفر اللاوين كلم الربُّ موسى فقال: «وفي اليوم الثامن يُختَنُ المولودُ». (اللاوين ١٢/ ٣).

وكان عيسى عليه السلام مختونًا. ففي إنجيل لوقا: «ولما بلغ الطِّفل يومَه الثامن، وهو يوم خِتانه، سُمِّيَ يسوعَ، كما سمَّاه المَلاكُ قبلَما حبِلت به مريمُ». (لوقا ٢/ ٢١).

وفي إنجيل برنابا: قال يسوع: «قد أخبر الله إبراهيم بحقيقة الخِتان، وأثبت هذا العهد قائلًا: النفس التي لا تَختُن جسدَها إياها أبدد من بين شعبي إلى الأبد. دعوا الخوفَ للذي لم يقطع عزلته؛ لأنه محروم من الفردوس». (إنجيل برنابا، الفصل الثالث والعشرون)

(٥) العشاء الرباني:

العشاء الرباني (LORD SUPPER أو EUCHARIST) من التقاليد الشهيرة عند النصارى.

وأصل العشاء الرباني -كما تقول الأناجيل- أن عيسى عليه السلام كان يتعشى مع الحواريين قبل أسره بيوم واحد، فتناول كأسا وشكر، ثم قال: اقتسموها بينكم، ثم تناول الخبز وشكر، وناولهم قائلا: هذا هو جسدي، الذي يبذل لكم. (إنجيل لوقا ٢٢/ ١٧-١٩).

وأول من اخترع اعتبار هذا العمل تقليدًا دائمًا هو بولس، وكان لوقا من تلامذة بولس، فاتبعه.

وشرح بولس اعتبار العشاء الرباني تقليدًا دائمًا في رسالته إلى كنيسة «كورنثوس»: «إن الربَّ يسوعَ في الليلة التي أُسلِم فيها أخَذ خبزًا وشكَر وكَسره وقال: هذا هو جسدي، إنه لأجلكم. اعمَلوا هذا لذِكري. وكذلك أخَذ الكأسَ بعدَ العَشاء وقال: هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي. كلَّما شربتم، فاعمَلوا هذا لذكري». (كورنثوس الأولى ١١/ ٢٣-٢٥).

وزاد بولس«اعمَلوا هذا لذِكري» فأدخل العشاء الرباني في التقاليد والعبادات الهامة في المسيحية.

أهم الأسباب وراء حلول توجيهات بولس الكفرية محل توجيهات عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

شهدت القرون الثلاثة الأول معارضةَ عامةِ أحبار النصارى لأفكار بولس معارضةً شديدةً، وصادف أن اعتنقت الحكومة البيزنطية المسيحية دينًا رسميًّا في القرن الثالث. فتغلب أنصار بولس على الحكومة، وداست الحكومة معارضي بولس بالقوة والحديد، وأتلفَتْ جميعَ المواد التي قد يستدل بها معارضو بولس. ولم تنقطع معارضة بولس، حتى شهد القرن الرابع تطورَ هذه الاختلافات المذهبية، وتعدت إلى المدن والقرى كلها، التي قضى عليه الإمبراطور قسطنطين بالظلم والقهر عام ٣٢٥م، واستمرت هذه المخالفة والمعارضة رغم ذلك مدة طويلةً، فصل الكلام عليها المستر/ جيك كنن في كتابه(From Christ to Constantine).

وجاء في دائرة المعارف البريطانية (١٧/ ٣٩٥) حول بولس: «وترى مدرسة من مدارس الكتاب والمؤلفين -ومنهم «دبلوريد»- أن بولس حرف المسيحية تحريفًا، جعله ثاني مؤسسيها». وأضافت قائلة: «يقولون: اتبعوا المسيح أو بولس؛ فإنه يعز الجمع بينهما في العمل».

ويقول مترجم بولس- وهو والتروون لوئي ونيك- (Walter von loe winek): «يقول بال دي غاردي: «لم يكن بولس على علمٍ يُوثَقُ به فيما يخص يسوع المسيح والإنجيل. فعلى المثقفين ألا يولوا هذا المسمى بـ«بولس» الأهمية على الإطلاق». وأضاف قائلا: «لقد مزَّق بولس المسيحية تمزيقًا، وأضفى عليها صورةً مخالفة لما هو عليه اليهودية، ومسخ توجيهاتِ يسوع المسيح الأصلية مسخًا». راجع: (Paul His Life and Work, Trans. Pg.5).

وكذلك يقول المستر/ جيمس ميك كنن: «أسلوب تفكير بولس يختلف تمامًا عن أسلوب تفكير يسوع المسيح، فادعاء بولس أنه تلقى العلم من يسوع المسيح مباشرةً عن طريق الوحي، أمر في غاية من الصعوبة. راجع: (From Christ to Constantine, Pg.91).

و قِس عليه أن كتابًا باسم (The Nazarene Gaspal Restored) نُشِر في أمريكا من تأليف كل من روبرت جريفز (Robert Graves) وجوشوا بودرو (Joshua Podro)-

والأخير من أبناء البابوات المسيحية الشهيرة- وتناولت مقدمة الكتاب بولس بالنقد المفصل، وأكدت على أن بولس مسخ دينَ المسيح مسخًا شنيعًا. فغضب عليه حواريو المسيح الأصول.

وادعى بولس أيضًا أنه يأتيه الوحي، فلا يحتاج إلى تعليم يفنى. والوحي بالدعوة والتبليغ خاص بالنبي، فكيف أتى بولسَ.

خلاصة القول أن بولس سرَّبَ أفكاره الباطلة إلى المسيحية، وكان ضالًّا، وهذا ما ينص عليه إنجيل برنابا. قال برنابا في إنجيله: «أيها الأعزاء إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم والآيات، التي اتخذها الشيطان ذريعةً لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرِين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر به الله دائمًا، مجوِّزين كلَّ لحم نجس، الذين ضل في عدادهم أيضًا بولس الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى». (إنجيل برنابا، قبل الفصل الأول).

وهذا ما حملهم على كتمان هذا الإنجيل، والمنع من قراءته دومًا.

خلاصة القول:

وحاصل القول أن العقائد المسيحية مسَخَها بولس والحكامُ وأجيالُ الرهبان، وانفصلت المسيحية عن الشريعة الموسوية، وحل محلَّ شريعةِ موسى وتوجيهات عيسى عليهما السلام ما أحدثه بولس من نظرية ألوهية المسيح، ونظرية الكفارة، وجعلوها من أسس عقائد المسيحية.

ولم يكتف بولس في سعيه لتسريب نظرياته إلى العقائد المسيحية بالدعوة اللسانية؛ بل أرسل إلى مختلف الكنائس، والنصارى في مختلف المدن رسائلَ دعوية، لنشر نظرياته وأفكاره. وضموا جميع رسائل بولس إلى الكتاب المقدس.

وحظيت مساعي بولس وعقائدُه كلها بتأييد وإشراف المجالس المسيحية كلها ابتداءً من مجلس نيقية الأول عام٣٢٥م، وانتهاء إلى مجلس روما عام ١٨٦٩م. فما عليه المسيحية الحالية من تصور العبادة والتقاليد والرسوم الدينية يعارض توجيهات عيسى عليه السلام. وعادت المسيحية عبارةً عن مجموعة من عقائد التثليث، والكفارة، والمعمودية، والعشاء

الرباني، وتقاليد عيد الفسح، وعيد الميلاد. وحُرِمَت روحِ دينها الحقيقي، وهذا ما عليه اليهودية كذلك. ولذا أمر القرآن الكريمُ اليهودَ والنصارى بالاتباع الكامل للتوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (المائدة: ٦٨)

والاتباع الكامل للتوراة والإنجيل يعني تخليهم عن الكفر والشرك، وإيمانُهم بآخر النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، واتباعهم لما جاء به من الشريعة، كما أرشد إليه عيسى عليه السلام أتباعَه.

إعلام الأحباب بِمُحتويات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه المقالة تحتوي على المقارنة بين الديانة المسيحية، والديانة الإسلامية في العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، والنكاح، والطلاق، وتنطوي على تاريخ المسيحية، وبيان أدوارها، وأطوارها، وفرقها، وتسفيه عقولهم الزائغة، وردِّ أقوالهم السخيفة من عقيدة الكَفَّارة، والصليب، والعشاء الرباني، وغيرها، كما تشتمل على تمثيل حياة المسيح عليه الصلاة والسلام في مرآة أناجيلهم، وأسفارهم، وتصوير حياة محمد صلى الله عليه وسلم في ضوء القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، والمقارنة بين الحياتين. وتجدها متحلية بإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ونبذة من معجزاته، وبشاراته في الكتب السابقة، وهذا أعظم ما تنكره أذناب المسيحية، وأتباع النصرانية. وترى فيها غيرها من الجواهر الغالية، والفوائد العالية، والفرائد الثمينة، والعوائد القيِّمة التي التقطتُها من كتب الأكابر، وانتقيتها من أسفار الأوائل والأواخر، وانتخبتها من زُبُر السبَّاقين في مِضمار التحقيق والتصنيف. شكر الله مساعيَهم، وتقبل الله من الجامع هذا التأليف.

رضاء الحق عفا الله عنه
طالب بقسم التخصص في الدعوة والإرشاد
المدرسة العربية بنوري تاون، كراتشي، رقم: ٥

ذكر الأسباب لتأخير طبع الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلي العظيم، والصلاة على رسوله محمد النبي الكريم، وعلى آله وصحبه، وعلى من تبعهم إلى اليوم الذي يقوم فيه الناس أمام الرب الرحيم.

وبعد: فإن العبد الضعيف الظلوم الجهول يقدم إلى حضرات الناظرين المقالة التي ألقيت على كاهلي حينما كنت أَدرُس في التخصص في الدعوة والإرشاد، وخرجت قرعتي بعد ما أكملت مطالعة بعض الكتب بالمقارنة بين المسيحية والإسلام، فبدأت فيها بحمد الله، وما كنت أهلًا لهذا الأمر الجليل، والخطب الجسيم، بيد أن توفيق الله عز وجل ساعدني، فوصلت إلى ختامها، وقوضت عن عرائسها، وحجالها، وخيامها، وكنت فرغت عن تسويدها قبل سنوات. وكنت كلما فرغت عن جزء منها قدمته إلى سيادة الشيخ البحَّاثة مولانا محمد إسحق السنديلوي، فكان سيادته يلاحظه، ويمحو، ويثبت. ثم بقيت المسودة في زوايا الخمول كأنها لم تكن شيئا. وذلك لاشتغالي بالتدريس في جامعة العلوم الإسلامية علامة بنوري تاؤن كراتشي مدة طويلة، ثم في دار العلوم زكريا مدة مديدة.

ثم بعد زمن طويل ينوف على خمس وثلاثين سنة التمس مني حِبّي وأخي في الله تعالى الشيخ محمد عثمان البستوي – أمين مكتبة دار العلوم زكريا، والمدرس بها- حفظه الله تعالى ورعاه – أن تطبع هذه المقالة بكتابة الكمبيوتر، فوافقته، فشمر الأخ المخلص ذيله لكتابتها بالكمبيوتر، وتهيأ لخدمة الكتاب. فجزاه الله تعالى خير الجزاء في الدنيا والعقبى.

وهذه بضاعة مزجاة أسأل الله تعالى أن ينفع بها، ويجعلها ذخيرة نافعة فى العقبى، وذريعة للنجاة لي ولوالدي ولِمشايِخي ولعائلتي ولِمن ساعدني في هذا العمل المبارك.

ذكر بعض الأحوال التي عرضت عند كتابة هذا المقال

حينما ابتدأت المقالة أحدقتني أمراض مزمنة، لا سيما مرض الدِّق، ووجع الصدر الذي كسر عظامي وأخنأني، وأنحفني، ولج بي، وشتَّت الحال وكسر البالَ وجعلني أدقَّ من الهلال. وذلك المرض كان بي حينما كنت مقيمًا في مضافات بشاور، لكن فساد نسيم كراتشي، وقلة الاكتراث بالمرض رقاه إلى ذروة الكمال، واجتواء هذه القرية، واستيخامها أوصلني إلى حافة الزوال، وحينما اشتدت صولته، وصالت شدته وحدته التجأت إلى الأطباء فشاوروني -والمستشار مؤتمن بفحوى الحديث- بالالتجاء إلى المستشفى المخصوص لهذا المرض، فاضطررت إليه وولجت فيه، وما على المضطرِّ من بأس، لكن البيئة لم تساعدني والظروف لم توافقني، والمستشفى جعلني على شفا جرف هار، فلم تكن طمأنينة ولا قرار، وصرت كالنون إذا نُحِّيَ عن البحار، أو كالضب إذا أُلقيَ في الأنهار، فكنت كما قلت:

فقلبي كئيب للهموم دريئة ۞ تباريح حب والسلافة أنفع
أَلَا فاسقني من كأس علم جريعة ۞ فهذا مدام العاشقين وأنجع
وقلب الرضا بالصالحين معلق ۞ فذا الفكر في حقل الخواطر يرتع

فقضيت فيه أربعة أشهر وأنا كسير البال، شتيت الحال، مختل الذهن، مغبون العقل، كأني مجنون وما بي جنون، بيد أن مغناطيس مجلس العلماء لم يزل يَجْذبني إلى رويضات العلم حتى استضعفت نفسي أضعاف ما كنت عليه في الغابر، ثم عدت إلى الجامعة، والعود كان أجدى وأنفع، والرجوع أفيد وأنجع، فعافاني الله وشفاني من ذلك المرض، وذلك ببركة صحبة الصالحين -ولستُ منهم- ولها تأثير عظيم في دفع الأهوال والنكبات.

وحينما استأهلت لأن أكتب شيئا، وعزمت أن أرفع ذراعي وجدت مخلاة ذهني وكنانته فارغة كما أصبح فؤاد أم موسى فارغا، ورأيت وعاء حفظي خاليا عما وعيته ورتبته لطول الزمان، وضعف البنيان، وغلبة النسيان، وكثرة الهموم والأحزان، والذهول عن

الكراسات التي قيدت فيها ما حماه ناطور الجنان، فلمست نفسي كأني حديث عهد بالمقالة التي فُوِّضت إليَّ، ثم أنشأت مطالعة الكتب، وأسهرت فيها الليالي، وجددت الطِّراز القديم، وتوكلت على الله الكريم، حتى رفعت القلم عن ترسيمها، وفرغت من تسويدها وتبييضها. وذلك بتوفيق الله سبحانه وتعالى. ومع ذلك فإني معترف بأنها ليست مستوعبة جميع ما أردت وأحببت أن آتي به من المقارنة في البيوع، بل هي عارية عن هذا اللباس القشيب، وذلك لقلة المتاع وقصور الباع، وأكثر ما يوجد في المبايعات في الإنجليزية مع أنها من المخترعات.(١) ونحن أبعد الناس عن هذه اللغة. وإلى الله المشتكى، فلعل الله يرزقني الاستطاعة على أن أضيف إليها هذه المباحث المطلوبة ودونه خرط القتاد، والله على كل شيء قدير، وإليه الاستناد، وعليه التعويل والاعتماد.

وأنا العبد الضعيف
رضاء الحق عفا الله عنه

---

(١) المراد نظام بياعات المسيحين.

أمور يجب التنبيه عليها

(١) جميع ما نقلت بِقَضِّه وقضيضه من عبارات الكتاب المقدس عندهم (BIBLE)، فهو من الترجمة التي تُرجِمت في مدينة بيروت عن يد مرسَلي الجمعية الأمريكانية لأجل انتشار الكتب المقدسة، المنشأة في ١٨٠٤م في مدينة لندن، وطبع في مطبعة المدرسة من مدينة أوكسفورد ١٨٩٩م، وهذه الترجمة يعول عليها المسيحيون كما أفصح عنه عبد الرحمن الجزري في كتابه «أدلة اليقين» (ص٣٠٢) بقوله: «نقلته من الترجمة التي يعول عليها المبشرون طبع الجمعية الأميركانية بمدينة نيويورك».[1]

(٢) كثيرًا ما اكتفيت واقتصرت بالإحالة على كتاب واحد، وإن كان الكلام الذي نقلته كالأحاديث والآثار في كتب متعددة. وبهذا المنهاج مشيت في نقل الأحاديث، فإذا أحلت على البخاري مثلًا فلا تظنن أن الحديث فيه خاصة، بل ربَّما يوجد في كتب أخرى.

(٣) رُبَّما أعربتُ العبارات الأردية، ويكون ذلك خلاصة وفَذْلَكَةً، لا ترجمةً مخافة الإطالة والإسهاب وتحصيلًا للمطلوب، فلا تحسبنَّه خيانةً.

(٤) الذي نسخته من آيات الكتاب المقدس شاهدًا، أو دليلًا، فذلك إتمامًا للحجة عليهم؛ لأنهم يزعمونه حجة ودليلًا. وأظن أن كونه حجة لا يقع في زوايا قلوبهم، بل هذا قول بأفواههم، وساحتهم منزهة من العمل والاعتقاد بكتابهم. ولقد خلَّصهم ونجاهم رسولهم بولس من هذه المتاعب والمشقات، فلا تجد أكثرهم مؤمنين بالكتاب المقدس إلا وهم به كافرون. وحكمُ الكتابِ المقدسِ لنا أن ما وافق منه دينَنا وكتابَنا، أو ما صدقه القرآنُ

---

(١) الآن لا توجد عندنا الترجمة المذكورة للكتاب المقدس، وقد زدنا في هذه الطبعة الثانية عبارات من الكتاب المقدس من النسخة التي تصدرها جمعية الكتاب المقدس في لبنان. العهد القديم – الإصدار الثاني ١٩٩٥، الطبعة الرابعة. والعهد الجديد- الإصدار الرابع ١٩٩٣، الطبعة الثلاثون.

قال في تقديم هذه الترجمة: «هذه الترجمة هي أول ترجمة عربية وضعتها لجنة مؤلفة من علماء الكتابيِّين ولاهوتيِّين ينتمون إلى مختلف الكنائس المسيحية من كاثوليكية أرثوذكسية وإنجيلية...، في هذه الترجمة استندت اللجنة إلى أفضل النصوص المطبوعة للكتاب المقدس في اللغتين: العبرية واليونانية».

فهو الحق، وما خالفه أو كذَّبه القرآنُ فهو الباطل، وما لا نعلم أنه صادق أو كاذب لا نكذبه ولا نصدقه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا حدَّثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولو: آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان حقًّا لم تكذبوهم، وإن كان باطلًا لم تصدقوهم». (مسند الإمام أحمد، رقم:١٧٢٢٥).

(٥) ما خنت أحدًا من المصنفين حتى نسبت كلمة الغير إلى نفسي، بل أحلت ما نقلت على من نقلت عنه إلا أن يكون أمرًا مشهورًا لا يختص به أحد، أونسيت وغفلت. والإنسان ابن الخطأ والنسيان.

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي فطرنا على المِلَّة الحنيفية السمحة السهلة البيضاء برحمته الكاملة، وأفاض علينا شآبيب نعمه السابغة، الذي لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك والأمر والعبادة. فسبحان الله الذي بيده ملكوت كل شي، له القدرة، ومنه البداية، وإليه النهاية، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له نظير ولا شريك ولا صاحبة. ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾. أرسل رسله مبشِّرين بالجنة، ومنذِرين من الهاوية. فبلَّغوا الرسالة وأدُّوا الأمانة. أنزل معهم الكتب ليحق الحق بكلماته، ويقطع دابر الكفرة.

والصلاة والسلام الأتمَّان الأكملان على خير البرية، شفيع الأمم يوم القيامة، بعثه الله لتبليغ الحق إلى الخلق، فبلغ ما أنزله وأخرج الأمم من الضلالة والجهالة إلى النور والهداية، وأقام على الكفرة والفجرة حجة الله البالغة.

فمبلَغ العلم فيه أنه بشر ۞ وأنه خير خلق الله كلهم

وعلى آله، وأصحابه الذين شيَّدوا أركان الدين بالسيوف والألسنة، السالكين منهج الإصابة والحجة، وعلى من تبعهم من الأئمة الأربعة، خصوصًا على الإمام الأعظم أبي حنيفة، وعلى جميع الصالحين من الأمة.

أما بعد: فقد اتفق جميع العقلاء من الأديان على أن دين الإسلام أعلى مرتبة، وأوفق طبعًا، وأقوى دليلًا، وأشمل فائدةً، وأسهل عملًا من سائر الأديان السماوية، صارع الأديان جميعها فصرعها، وغالب المذاهب كلها فغلبها، وظاهر المشارب الباطلة فظهرها. ليست هذه كلمة خرجت من أفواهنا جزافًا، بل شهدت بها الأعداء، فقد قيل في جريدة (ايجبت): «كما أن المسيحية لا يمكن أن ترقى إلى مرتبة الإسلام في العلم والتمدن، كذلك لا يمكن أن تبلغه في الأخلاق». وقال الفلسفي المشهور (موسيورينان): «كلما دخلت مساجد المسلمين

وجدت في نفسي انجذابًا إلى الإسلام، بل وددت لو كنت مسلمًا».(١)

لكن الشقاء الأزلي، والإعراض الأبدي ألقى البعض في أودية الإنكار المستمر، وطرحهم في مزابل الْهَوَى، وأنبت العناد في قلوبهم، فصارت قلوبهم لا تلين ولا تنفعل، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء. خصوصًا فرقة النصارى، فإن مكائدهم وكيدة، وأفكارهم ذميمة، وعقائدهم فاسدة يشقون عصا المسلمين، ويشتتون سوادهم، ويزلزلون أقدامهم. ولنقدم إليك تفصيل بعض مكائدهم الفاسدة: لما تسلطوا على الهند تَهيَّأوا لأن يقلعوا الإسلام من قلوب المسلمين، ويطفئوا نور الله بأفواههم -والله متم نوره ولو كره الكافرون-، فلم يفوزوا إلى الآن في المرام، ولا يفوزون إن شاء الله تعالى إلى يوم القيامة، بل عادوا خائبين خاسرين، فلم يرجعوا إلا بِخُفَّيْ حُنَين.

واحتالوا لتضليل المسلمين حيلًا شتى، فمن حيلهم: قتل المسلمين، وهتكهم، وتعذيبهم بأنواع العذاب. وسيجيء بعض بيانه إن شاء الله تعالى.

ومنها: صرف أموال طائلة، وبناء المدارس والكليات والمستشفيات لصرف قلوب المسلمين عن التعليم الديني، وإدخالهم في المدارس الحكومية الإنجليزية، لكن أكبر حيلهم، وأنجحها في إخراج المسلمين من حظيرة الإسلام تبليغ دينهم في حمقائهم، ونشر الكتب والجرائد والمجلات في ضعفاء المسلمين، صرفوا لذلك آلاف من الروبيات، بيد أن المسلمين لم يلتفتوا في أول الأمر إلى كيدهم ولم يُلقوا لهم بالًا، وزعموه أضعف من نسج العنكبوت، ثم لما قويت تلك الفتنة أحسوها وشمروا أذيالهم لمقارعتها واستيصالها وقلع أصلها وتدميرها بالدلائل والبراهين، واعتنوا بإبطال شبهاتهم، ونزلوا إلى ميدان المناظرة كما نزلوا إلى ميدان التأليف والتصنيف، ودعَوْا بأعلى نداء من هو مركز دائرة تبليغهم (المسيحيين) إلى ميدان المناظرة، فحازوا -رحمهم الله تعالى رحمة واسعة ووفَّقنا لاتباعهم- قصبات السبق في هذا المضمار، وهزموهم هزيْمةً تكون عبرةً للأشرار. وأظهر الله الإسلام، وأزال الله من قلوب الناس جميع الظلام. ومُقَدَّمُهم في ذلك: مناظر الإسلام العالم النِّحرير كشاف

(١) *عيسائيت كاپس منظر* (أسباب المسيحية)، ص١٩، منقول من أخبار كوثر.

المُعضَلات، حَلَّال المشكلات، مُذَلِّلُ الصعاب، سيف الله المْبير على الأعداء، مخدوم الملوك والعلماء المحقق المدقق رحمة الله الكيرانوي -رحمه الله تعالى ورزقه جنة واسعة- فناظر رؤساءهم فهزمهم، وباحثهم فأزلَّهم، وصنَّف في الرد عليهم كتبًا عظيمة الفوائد، جليلة العوائد، لا يُمكن أن يصنف مثلها -والله على كل شيء قدير- في قابل الزمان.

قال عبد الحي الحسني-رحمه الله تعالى-: « وطلب رحمةُ الله صاحب الترجمة من فندر القسيس صاحب «ميزان الحق»، الذي كان أعلى القَسُوس كعبًا في معرفة العلوم الإسلامية أن يناظره بِمَحضَر الناس ليتضح الحق، فأجاب ذلك في المسائل الخمسة التي هي أمهات المسائل بين الفريقين، أعني التحريف، والنسخ، والتثليث، وحقيقة القرآن، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فانعقد المجلس العام بـ «أكبر آباد»...فظهرت الغلبة لرحمة الله».[1]

ومن كتبه «إظهارالحق» كتاب لا مثل له ولا نظير. وقد قال فيه «لندن تائمز» - جريدة يومية تصدر من لندن-: «لو طالع الناس هذا الكتاب لامتنع رقي المذهب المسيحي وتوقف».[2] وقد وصفه الموافق والمخالف. و«إزالة الأوهام»، و«إزالة الشكوك»، و«الإعجاز العيسوي»، و«أوضح الأحاديث في إبطال التثليث»، و«البروق اللامعة»، و«معدل اعوجاج الميزان»، و «تقليب المطاعن»، و «معيار التحقيق».[3]

ومن المجاهدين الكبار الذين ناظروا قسيسيهم وهزموهم، وألقوهم في ورطة السكوت وشبكة الحيرة، وألقمهم الحجر، حجة الإسلام والمسلمين، قاسم العلوم والخيرات، جامع المعقولات والمنقولات، آية من آيات الله البينات، مؤسس دار العلوم الديوبندية: مولانا محمد قاسم النانوتوي -رحمه الله تعالى وأسكنه بُحْبُوْحَة جنانه- فناقش وناظر من هو أعلى كعبًا فيهم: القسيس نولس الذي كان خطيبًا فصيحًا فيهم، وهزمهم، وسوَّد وجوههم، وألَّف في الرد عليهم رسائل لو رقمت بماء الذهب لكان أحرى بها. منها «حجة الإسلام» و«*ميله خداشناسى*» فيه تفصيل مناظرة وقعت بينه -رحمه الله تعالى- وبين

(١) نزهة الخواطر ٨/ ١٦١ .

(٢) من مقدمة «*بائبل سے قرآن تک*» ١/ ٢١٥ بحوالة «*ایک مجاہد معمار*» (المجاهد المعمار). ونزهة الخواطر ٨/ ١٦٢ .

(٣) من مقدمة «*بائبل سے قرآن تک*» ١/ ٢١٢ .

المسيحيين. وغيرهما من العلماء الأعلام ممن له يد طولى في ردِّ دلائل المسيحيين، وكسر أعناق الضالين المضلين.

ثم لما تحررت هذه القطعة، أي الهند من تسلط الإنجليز، وتجزئت جزئين: جزء يسمي بـ «الْهند» (هندوستان)، وجزء يسمى بـ«باكستان»، صرفوا همهم إلى «باكستان»؛ لأنهم تيقنوا أنها تكون عينا معينا تفجر منها أنهار الإسلام، وطريقًا عظيمًا لسالكي دين محمد صلى الله عليه وسلم سيد الأبرار، ومأمنًا يأمن فيه مَن غرس في قلبه شجرة الإسلام، فأرادوا أن يقتنصوهم في حبائل مختلفة، وفتحوا أبواب الأموال على الفقراء والجهال، فإن المال فخ قوي للفقراء الذين لا يجدون ما يسد جوعهم، ويستر بدنهم، وبنوا المستشفيات بحيلة الخدمة الإنسانية، وعرضوا على الشبانِ والفتيانِ الفتيات الجميلات، وبنوا المدارس والكليات التي يعلِّمون فيها بالتوجه الخاص بقصد استمالة قلوبهم، وتحويل عقولهم، فيصير الجاهل الحريص لهم بعد ما كان لنا.

ومن أقوى تدابيرهم في هذه القطعة تبليغ دينهم بالجرائد، والمجلات، وغير ذلك. وقد فازوا في ذلك إلى حد لا يخطر ببالهم؛ إذ المسلمون نائمون ميتون جامدون خامدون، لا يلوون أعناقهم إلى سد باب هذه الفتنة إلى أن قالت الجريدة اليومية «*نوائے وقت*» الصادرة من لاهور: «زاد عدد المسحيين في «باكستان» (أي في حدودها) في ستين سنة ٣٦ ضعفًا، وحكم وزير الداخلية بتحقيق هذه الإضافة المحيرة كان في «باكستان» في الإحصاءات الإنسانية سنة١٩٤١م أحد عشر ألف مسيحي ١١٠٠٠، لكن الآن حسب رواية «براسيكتر» جريدة تصدر من كندا يرتقي عددهم إلى ٢٨٨٣٦٢، خَضَعَ هذا الجمع الكبير للمسيحية. وقال رومن كيتهولك في سنة ٥٨-١٩٥٧م: لقد حصل لنا فوز عظيم في جعل المسلمين مسيحين بـ«باكستان».[1] وبالجملة ظهرت هذه الفتنة في أتم شكلها وأكمل شبحها وألقت جرانها.

فشمر العلماء -كثَّرهم الله تعالى وبارك في مساعيهم- لِسَدِّها -وهُمْ السد المنيع لكل فتنة تقوم على رؤوس المسلمين- فألفوا وصنفوا وبلغوا ودفعوا هذه الفتنة. والله دافع كل

---

(١) *عيسائيت كاپس منظر بحواله نوائے وقت* . ترجمته من الأردية، صفحه: ١٠-١١ .

بلاء من حصن الإسلام، وحافظ دينه دين الإسلام، ومقويه بالدلائل والبراهين، ورافعه على أديان العالمين. ولنعم ما قال البوصيري في لاميته:

الله أكبر أن دين محمد ❁ وكتابه أقوى وأقوم قيلا
طلعتْ به شمس الهداية للورى ❁ وأبى لها وصفُ الكمال أفولا
والحق أبلج في شريعته التي ❁ جمعت فروعًا للهدَى وأصولا
لا تذكروا كتب السوالف عنده ❁ طلع الصباح فأطفأ القنديلا
درستْ معالِـمُها ألا فاستخبروا ❁ عنها رسومًا قد عفت وطُلولا [1]

البشارة العظمى:

ومن بواعث الفرح والسرور أن فتحت الجامعة الإسلامية الواقعة بـ نيوتاؤن في حدود كراتشي تحت إدارة شيخ الإسلام العالم الكبير المحقق الخبير الفقيه المحدث الشهير شيخ الحديث بالجامعة الإسلامية نيوتاؤن، وعضو المجمع العلمي بدمشق ورئيس مجلس «تحفظ ختم النبوة» بـ «باكستان» الشيخ مولانا محمد يوسف البنوري نَسَأَ الله تعالى في أجله، ومتَّعنا وسائر المسلمين بطول حياته، وأقام ظله علينا إلى الأبد.

آمين آمين لا أرضى بواحدة ❁ حتى أضم إليها ألف آمينا
من قال آمين أبقى الله مهجته ❁ فإن هذا دعاء يشمل البشرا

درجةَ التخصص في الدعوة والإرشاد -كما فتح التخصصين في الحديث النبوي والفقه قبل ذلك- لرد الفرق الباطلة كالقاديانية، والمسيحية، والرفض، والبدعة؛ والدعوة على منهاج صحيح، ومنوال رائع، يعلم فيها آدابها، وشرائطها، وطرقها وفقا لأَمزِجَة العهد الحاضر تحت إشراف مولاي وسندي، الشيخ الكامل، العالم الألمعي، والفاضل اللوذعي، سيف الله الصارم، الذي لا يخاف في الله لومة لائم، قامع الرفض والبدعة، صاحب التصانيف الجليلة الشان: مولانا محمد إسحاق الصديقي الندوي السنديلوي، لا زالت فيوضه على الأقاصي والأداني.

---

(١) ديوان البصيري، ص١٨٣.

وبعد ما طالعنا قدرًا يعتد به من كتب المخالفين وردِّهم فُوِّضت إلينا مقالات، وخرجت قرعتي بمقالة «المقارنة بين الدين المسيحي ودين الإسلام»، وإن لم أكن أهلا لِهذا الأمر الجليل، ولقد حق لي أن أقول (بتغيير يسير):

بنده اين بار گران را نتوان كرد كشيد ۞ لكن مع ذلك *قرعه فال بنام من ديوانه زدند*

معناه: العبد الضعيف لا يستطيع أن يتحمل هذا الحمل الثقيل، مع هذا خرجت القرعة باسم هذا المجنون، فماذا فعل.

فبدأت بها بتوفيق الله وتوقيفه. والله أسأل أن يوفِّقنِي لإتْمامها كما وفَّقنِي لبدئها، والإتْمام بيد العزيز المنان. والمرجو من الإخوان الخلان أن يعفوا عن زلاتي وأن يصحِّحوا خطئي وأغلاطي، وأن يكونوا أصحاب شفقة ورحمة، لا عناد وخصومة. وإني أقول من صميم القلب لحضراتكم: إني لست بأهل لِهذا الأمر الجليل والحمل الثقيل، فليعذروني إن أخطأت؛ فإن الإنسان مركب الخطأ والنسيان.

مقدمة في بيان فرق المسيحيين

يتحزب النصارى كإخوانهم الضالين المضلين إلى فروع مختلفة، وعمدتهم اليوم ثلاث فرق: ملكانية، نسطورية، ويعقوبية. قال العلامة الشهرستاني -رحمه الله تعالى-: ثم افترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة، وكبار فرقهم ثلاثة: الملكانية، والنسطورية، واليعقوبية.[(١)]

وقال ابن الحزم -رحمه الله تعالى-: وعمدتهم اليوم ثلث فرق، فأعظمها فرقة الملكانية، وهي مذهب جميع ملوك النصارى حيث كانوا حاشى الحبشة والنوبة. وقولهم: إن الله تبارك وتعالى عبارة عن ثلاثة أشياء: أب، وابن، وروح القدس، كلها لم تزل. وإن عيسى عليه السلام إله تام كله وإنسان تام، ليس أحدهما غير الآخر، وإن الإنسان منه هو الذي صُلِب وقتل، وإن الإله منه لم ينله شيء من ذلك، وإن مريم ولدت الإله والإنسان، وإنهما معًا شيء واحد: ابن الله. تعالى الله عن كفرهم.

وقالت النسطورية مثل ذلك سواء بسواء إلا أنهم قالوا: إن مريم لم تلد الإله وإنما ولدت الإنسان، وأن الله تعالى لم يلد الإنسان، وإنما وَلَدَ الإله. تعالى الله عن كفرهم.

وقالت اليعقوبية: إن المسيح هو الله تعالى بنفسه، وإن الله تعالى عن عظيم كفرهم مات وصلب وقتل. وإن العالَمَ بقي ثلاثة أيام بلا مدبر والفلك بلا مدبر، ثم قام ورجع كما كان، وإن الله تعالى عاد محدثا، وإن المحدث عاد قديمًا، وإنه تعالى هو كان في بطن مريم محمولا به.[(٢)]

وقال الخوارزمي -حمه الله تعالى- في تسميتهم بذلك: هم ثلاثة أصناف: الملكانية، وهم منسوبون إلى ملكاء وهم مقدمَّهم. الثاني: النسطورية، وهم منسوبون إلى نسطورس، وكان أحدث رأيًا، فنفَوْه عن مَملكة الروم، فليس بها أحد منهم. والثالث: اليعقوبية، وهم

(١) الملل والنحل، لابن حزم الظاهري ١/ ٢٤٧ .

(٢) الملل والنحل، لابن حزم الظاهري ١/ ٤٨، بحذف يسير.

ينسبون إلى مار يعقوب، وهم قليلون.(١)

وبعد مدة مديدة انحصرت النصاري معظمهم في فرقتين: الأولى كاثوليكية (رومن كيتهولك)، والثانية: بروتستانية (بروتسنت). وتفصيل ذلك أن اليعقوبية والنسطورية الذين كانوا موجودين فيما غبر من الزمان انقرضوا إلا القليل، ولم يبق إلا الملكانية ويسمون الكاثوليكية، وبالجملة أهل المذهب الكاثوليكي كلهم ملكانية، ورئيسهم هو الأُسْقُفُّ العظيم والحِبر الكبير يسمونه البابا. يقولون: إن المسيح اليسوع بنى هذه الفرقة، ويزعمون أن بطرس نائب المسيح رئيس كليسا، وهكذا كل بابا، ومستقره روما عند دولة إيطاليا، وهو عندهم حاكم فوق الحاكمين حتى جعلوا له في سنة ٧٢٦م وفق ١٠٨هـ دولة جمهورية، ولم يزل حتى صارت له سطوة، وصاروا رؤساء في الدين والدنيا، حتى صار لهم تيجان ثلاثة، وكان للملوك تاج واحد دلالة على كمال ملكهم، وبلغ اعتبارهم إلى أنهم إذا كانوا يركبون على الخيل يمسك لهم الركاب كثير من ملوكهم، وكانوا إذا أمرو بالمحاربة لا يخالفهم أحد، ويحرقون من خالفهم بالنار وهو حي، وكان البابا مرة ألزم إمبراطور (ملك ملوك) المانيا أن يقف حافيًا ثلاثة أيام في فصل الشتاء ليطلب منه الغفران.

فلما بلغت شوكتهم إلى هذا الحد اضطربت ممالك أوربا منهم، ونشأت فتن كبيرة، ومن ههنا نشأ انحطاط أمرهم. ثم إن الملكانية الذين يسمون كاثوليكية استمروا على مذهب الكاثوليكي إلى القرن التاسع، وكثر المنكرون رئاسة البابا صاحب رومة، وصاروا يعرضون عن أحكامه واختياراته الزائدة، ألقوا أساس فرقة مستقلة تسمى «بروتستان» وكان بانيه «مارتن لوتهر» ١٤٨٣م / ٨٨٨هـ، فمنع البابائية، ومنع عن تجارة الغفرانات التي اتخذوها تجارة، وأبطل كل الرسوم إلا الاصطباغ، والعشاء الرباني، وقال في حق البابا كلمات عنيفة كما نقل الشيخ رحمة الله بعض أقواله فيهم، مثلاً: إن البابا ومتعلقيه زُمرة الأشرار الذين تسلطت عليهم الشياطين وملؤوا أجسامهم، والبابا صار بحيث يخرج من بصاقه ومخاطه الشياطين.(٢)

---

(١) مفاتيح العلوم، للشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد الخوارزمي، الباب الثاني، الفصل الثالث.

(٢) إظهار الحق ١/ ٣٤ .

وصار الكاثوليكيون يسمون المنكرين بـ «بروتستان»، وصارت هذه التسمية عندهم مثل تسمية المبتدعة الخارجين عن مذهب أهل السنة، وكان هذا الاصطلاح في القرن التاسع، وهذا هو الفرق الأعظم بين الفريقين، وكثير منهم لايستنكفون من هذه التسمية، لكن الأكثر منهم إذا قيل لهم: «أنت بروتستان»؟ يستنكف من ذلك، بل يقول: أنا كاثوليكي؛ وإن كان غير معترف برئاسة البابا.

نبذة من الاختلافات بين الفريقين:

وقد وقعت اختلافات ومنازعات كثيرة بين الفريقين، وهذا مع اتفاق كلمتهم على بعض العقائد. قال العلامة الآلوسي-رحمه الله تعالى-: ويجمعهم في الاعتقاد دستور إيمانهم الملخص من الإنجيل وهو هذا: نومن بإله واحد أب، ضامن الكل، خالق السماء والأرض كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدُّهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر الذي به كان كل شي، الذي مِن أجلنا نحن البشر ومِن أجل خطايانا نزل من السماء، وتجسَّد من الروح القدس، ومن مريم العذراء، وصلب عنا على عهد بيلاطس، وتألم وقُبِر وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الأب ليدين الأحياء والأموات الذي لا فناء لِـمُلكه، وبالروح القدس الرب المُحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الأب والابن يسجد له ويمجد الناطق بالأنبياء وبكنية واحدة جامعة مقدسة رسولية، ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ونترجى قيام الموتى والحياة في الدهر العتيد آمين.(١) فاتفقوا على هذه العقيدة.

وأما اختلافاتهم فمعظمه في رئاسة البابا، فالكاثوليكية يعترفون برئاسة بابا، وله اختيار بيع الغفرانات، والبروتستان لايعترفون بذلك. والكاثوليكية يعترفون بالتوحيد في التثليث، وبعض البروتستان يعترفون بالتوحيد فقط لما رأوا من صحة الأدلة من الكتاب

---

(١) الجواب الفسيح في رد عبد المسيح، ص٧، لِفتِي الحنفية: أبو البركات نعمان بن محمد خير الدين الآفندي الآلوسي البغدادي.

والسنة عليه، لكن هم قليل أقل. اختلفوا في الصوم فهو فرض عند الكاثوليكية، سنة عند البروتسنان. والكاثوليكية يجوِّزون في حالة الصيام تناول الطعام والشراب، لكنهم يقولون: لا يجوز تناول اللحم بجميع أنواعه، وكذا ما تولد من الحيوان كاللبن والسمن إلا الحوت.(١)

وذكر العلامة الهندي بعض عقائد الفِرقة الكاثوليكية: (١) إن مريم عليها السلام قد حبِلت بها أمها بلا قرب الزوج. (٢) إن مريم والدة الله حقيقة الله. (٣)إن كل خبز من الخبزات وإن كانت بِمقدار مليونات في الشرق والغرب يستحيل إلى المسيح الكامل. (٤) إن خبزًا واحدًا إذا كسره الكاهن ولو إلى مئة ألف كسرة يصير مسيحا كاملًا. (٥) لا بدَّ أن يصنع الصور ويسجد قُدّامَهُنَّ. (٦) لا خلاص بدون الإيمان بالبابا وإن كان غير صالح في نفسه. (٧) إن أسقُفَّ رومية هو البابا دون غيره، وهو رأس الكنيسة ومعصوم من الغلط. (٨) كنيسة رومية أم الكنائس ومعلمتها. (٩) إن للبابا ولِـمُتعلقيه خزانة من قدر جزيل من استحقاقات القِدِّيْسِين أن يمنحوا الغفرانات، سيما إذا استَوفَوْا ثَمنا وافيا لأجلها. (١٠) إن البابا له منصب تحليل الحرام، وتحريم الحلال. (١١) إن أنفُس الصديقين تتوجه إلى العذاب حتى تمنحها البابا الغفران. (١٢) إن مسافة جهنم فراغ مكعب في قلب الأرض، كل من أضلاعه مئتا ميل. (١٣) إن البابا يرسم الصليب على نعليه، وغيرُه على وجهه. (١٤) بعض القِدِّيسين وجهه كوجه الكلب، وجسده كجسد الإنسان، وهو يشفع لهم عند الله. (١٥) إن خشبة الصليب وتصاوير الأب الأزلي والابن والروح القُدُس يسجد لها بالسجود الحقيقي العبادي، وصور القِدِّيسين يسجد لها بالسجود الإكراميِّ. (١٦)إن البابا هو القاضي الأعلى في الحكم. (١٧)إن الأساقفة والشمامسة ممنوعون من الزواج، ولذلك يزنون. وقد قال القِدِّيس برنردوس: نزعوا من الكنيسة الزواج المُكرَّم والمضجع الذي هو بلا دنس، فملؤوها بالزنا في المضاجع مع الذكور والأمهات والأخوات وبكل أنواع الأدناس.(٢)

هذه هي الاختلافات العظام بين الكاثوليكية والبروتستان، والحاصل أن الكاثوليكية

(١) ملخص من الفتوحات الإسلامية ١/ ٣١١-٣١٥.

(٢) إظهار الحق بحذف كثير من ٢/ ١١٨-١٢٥ .

انغمسوا في مبتدعات ومُختَرعات ومُزَخْرفات. والبروتستان أخف منهم وأصلح عقيدة في بعض الأمور مع قولهم بالتثليث، والعَشاء الرباني، والاصطباغ، وإنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، والطعن في الإسلام، وهم كانوا متسلطين على الهند، أخرجهم الله وأذَلَّهم. وذلك فضل الله علينا عظيم، والكل عندنا سواء في الكفر، والإضرار، والزَّنْدَقَة، وكسر بيضة الإسلام.:

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة ۞ وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

بعض المصطلحات في الديانة المسيحية:

قد وقع فيما مضى بعض المصطلحات والمسميات لمراتب مختلفة في الديانة المسيحية من البابا وغيره، وإليك معانيها. وتلك الاصطلاحات وردت مرارًا في الكتاب، فكانوا يُسَمُّون صاحبَ الدين والمُقيم لِـمَراسمه البَطْرَك، ويبعث نوابه إلى من بعُد عنهم ويسمونه الأُسْقُفّ، أي نائب البَطْرَك، ويسمُّون القرَّاء بالقِسِّيس، وصاحب الصلاة بالجاثَلِيق، وقَوَمَة المسجد بالشمامسة، والمنقطع الذي حَبَسَ نفسه في الخلوة للعبادة بالراهب، والقاضي بالمَطْرَان. ولم يكن بِمِصر لذلك العهد أسقف إلى أن جاء دهدس وكان الأساقفة يسمون البطرك أبا، والقسوس يسمون الأساقفة أبا، فوقع الاشتراك، فاخترع اسم البابا لبطرك الإسكندرية للتميز، ومعناه: أب الآباء، ثم انتقل إلى بطرك رومة؛ لأنه صاحب الكرسي.[1]

(١) تاريخ ابن خلدون بحذف يسير ٢/ ٢٩٧.

مختصر تاريخ المسيحية

حال العهد الذي بعث فيه المسيح على نبينا وعليه الصلاة والسلام:

سنة الله تعالى في عباده أنه يرسل رسلا وأنبياء إذا تفرقت كلمة القوم، وفسدت ضمائرهم، وتوغَّلوا في المعاصي، وأحدقت بهم العقائدُ الباطلة، وانتشرت فيهم المفاسد والشرور، وانمحت فيهم مخايِلُ الخير والرشد والهدى، وانبثَّتْ في قلوبهم وساوس الشيطان ودسائسه، ورسخت في أذهانهم مكايد وحيل تبعدهم عن الشريعة الغراء البيضاء النقية، وتزينت في صدورهم الآثام والأرجاس، فظنوها محاسن وطاعات كسراب بِقِيعة يحسَبه الظمآن ماءًا. وهكذا كانت بنو اسرائيل قبل المسيح عليه السلام، فاليهود حرَّفت شريعة موسى وأفرطتْ وفرَّطت. ومن ذلك تهالكهم في حب المال كما حكاه عبد الوهاب النجار في كتابه الشهير بـ «قصص الأنبياء» في المهمة التي جاء بها المسيح، فكانوا يحرِّضون الفقراء على النذر للهَيْكل لياخذوا أموالهم، وكان فيهم قوم يسمَّون الصديقين ينكرون القيامة، يقولون: لا تقوم قيامة ولا حساب ولا نشور، وفيهم فريق يسمى فريسيون تجرَّدوا لعبادة الله تعالى وانقطعوا عن العِباد، لكنهم انحرفوا عن سَنَن السلف وأقبلوا على الشهوات يراءون الناس. كان هناك الكهنة وخدمة الهيكل، وكانوا قد صاروا إلى حال ردئية يحرفون كلام الله. كل ذلك كان يستدعي إصلاحًا.

وبالجملة دخلت فيهم بدعٌ ومُختَرَعات، فكان الرياء ناشئا فيهم، وكانت الأضحية لُعْبةً عندهم، يزعمون أنها كفّارة لكل صغيرة وكبيرة، وكانت لِزعمائهم يد طُولانيَّة في شرائعهم على أنهم كانوا مظلومين تعدى عليهم الرومُ، وكانوا تحت حكمهم، وكانوا ينتظرون النبيَّ. وبيَّن لهم أئمتهم تاريخ أسلافهم بأنهم كانوا حاكمين في الأرض، فأثَّر ذلك فيهم وتمنوا أن لو كان النبيُّ فيهم، ففي هذه الأحوال والظروف نزلت عليهم رحمة الله، فأرسل الله فيهم

رسولَه اسمُه المسيح عيسى بن مريم، فبلَّغ ما أنزل الله، وأصلح ما أفسدوا، وبيَّن الحلال والحرام، وهاجر في سبيل الله إلى بلاد شتى كالجليل وكفر ناحوم، وبلغ حواريوه، ثم بعد ما رُفِع نزل ثانيا كما هو معتقدهم، وأمرهم بتبليغ رسالته إلى بعض النواحي.

قال ابن خلدون: «إن الذي بعث من الحواريين إلى رومة: بطرس، ومعه بولس من الأتباع ولم يكن حواريًّا، وإلى أرض السودان والحبشة: متَّى العشار، واندراوس إلى أرض بابل، وإلى المشرق توماس، وإلى أرض أفريقية فيلبس، وإلى أفسوس قرية أصحاب الكهف يوحَنَّا، وإلى أرض العرب والحجاز برتلوماوس، وإلى أرض برقة والبربر شمعون القناناني».[1] وانتشر دينهم.

الأسباب التي تدخلت في نشر دينهم:

انتشر دينهم في الساهرة لأسباب سردها العلماء:

منها: الجهل والظلمة التي أحاطت بالأرض، فكان الناس في حاجة إلى صديع الفجر لينمحي الظلام ويطمئن الأنام في راحة وفرحة. والوثنيون يتعجبون من استمساكهم بدينهم وتحملهم في ذلك أشد الأذى، فألقى الحواريون على الناس دينًا، فوجده الناس شفاء لعلتهم ورِوَاءً لِغُلَّتِهم، ووقعوا عليه وقوع الفَراش على السراج والمصباح.

ومنها: سهولة العمل بدينهم ووضعهم العقائد والأعمال على طَرَف الثُّمام، فكانوا يقدمون دينهم موافقًا لأمزجتهم، فأثَّر هذا الطريق في طبائع الناس أثر النار في الحديد، فإن الناس إلى المعهود والمألوف أميل. «إن الطيور على أشباهها تقع». فاخترعوا الأب، والابن، وروح القدس ليميلوا به طبائع الفلاسفة وقرائحهم حيث كانوا قائلين بالعقل والعاقل والمعقول، وهذا أساس قصر التثليث الذي يتحَصَّنُ فيه عباد المسيح. وهذا أصل عقائدهم، وعليه يدور رَحى نجاتهم في مزعومهم.

ومنها: صفاء قلوبهم عن الرياء، فإن اليهود كانوا مرائين مفاخرين بخلاف المسيحين، فإن قلوبهم كانت صافية عن رين الرياء وصدأ الحسد وشَيْن الكبر.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٢٩٤ .

ومنها: إيمانهم بالآخرة والجزاء والثواب، فإن اليهود لم يؤمنوا بالآخرة وما فيها من المُكافأة والمجازاة. نعم أصحاب أهل الأديان الأُخرى كانوا يؤمنون بالآخرة، فالزرتشيون يعبرون عن الوجود المطلق أو الله بالنور، والسماء والكواكب النيرة بِمركز النور، ويزعمون أن الأرواح تصير كالكواكب وتستنير دائما، بيد أن بعض فرق اليهود الذين كانوا ينكرون الجزاء في الآخرة فأحدثوا بذلك نقصًا في اليهودية، وقالوا: كيف خوى بطن الدين السماوي عن لذيذ طعام المجازاة فنبذوه وراء ظهورهم، فلما جاءت دين المسيحية بالإيمان بالجزاء في الآخرة اعتنقوه وتقبلوه قبولًا حسنًا، واستراحوا في ظله الممدود.

ومنها: الاتفاق بينهم ووحدة كلمتم، فالوِفاق يثمر الفوز، والوحدة تنتج الفلاح والنجاح حتى كانوا شركاء في أكلهم وشربهم ومتاعهم وأراضيهم وشؤونِهم كلها، فخضعت بذلك قلوب أولي الألباب ووصلوا إلى هسبانية وإفريقية.

ومنها: إظهار الكرامات والخوارق بين أيدي الناس، وهذا أبلغ طرق الدعوة في من قوِي تعلُّقُه بالأسباب.(١)

ولا يخفى على القارئ المتصدي للتحقيق أن المسيحين ابتلوا في هذا ببليات ونِكَايات، وهذه المصائب امتَدَّتْ إلى عهد قسطنطين الأعظم، كما قال المؤرخون أن يعقوب أخا يوحنًا قتِل لما دخل إلى رومة، قتله غاليوسُ قيصر، والملك نيرونُ قيصر أعدم بطرسَ كبيرَ الحواريين وبولسَ، وكانا داعيَيْن في رومة، وقتِل مَرْقَسُ الإنجيليُّ وثارت اليهود في عهده على أسقُف بيت المقدس، وهو يعقوب النجار، وهدموا البِيعة ودفنوا الصليبَ، وهكذا جرت القضية حتى جاء قسطنطينُ الأعظم ٣٠٦م مؤسِّس المدينة المشهورة.

قصة اختراع الصليب:

ولما قتِل المسيح -على زعمهم- ودفِن ورفِع من القبر كان التلاميذ كل يوم يزورون ضريحه وموضع صليبه يصلون هناك ويخضعون، فقالت اليهود: هذا المكان يكون له شأن أي شان، فثقل ذلك عليهم وأحسوه رِفعةً ونهضةً للمسيحية وذريعة لإظهار شوكتهم،

(١) هذه الوجوه مستفادة من «المسيح والمسيحية» بالأردية للشيخ عبد الحليم شرر، ص٥٧-٦٥، عرَّبَها العبد الضعيف.

فطرحوا عليه حينما رأوه خاليا ترابًا وزبلًا حتى صار مزبلة، فلما كانت أيام قسطنطين جاءت أم هَيْلانة، وكانت امرأة صالحة متورعة، نشأت في صلاح وأخذت بدين المسيح، وسألت عن موضع الصليب، فأُخبرت أنهم جعلوه مزبلة ومطرحًا للقاذورات، فاستعظمت ذلك واستخرجت الخشبة التي صلب عليها، فطهَّرتْها وطيَّبتْها وغشَّتْها بالحرير ورصَّعَتْها بالذهب، وأمرت بكنيسة كبيرة هائلة بمكان الخشبة، وخرَّبت مسجد بني إسرائيل وأمرت بإلقاء العذرات والقاذورات على الصخرة التي كانت عليها القبة التي هي قبلة اليهود، وكان من ميلاد المسيح إلى وجود الصليب ثلاث مئة وثمان وعشرون سنة، وهذا عهد مبارك للمسيحية ارتفع شأنها فيه، وكانت مذهبًا لدولة الروم، وكانت حينئذ دولة كبيرة وملكا عظيما كما لا يخفى على من له أدنى إلمام بالتاريخ.

الاختلافات بينهم والمجامع العشرة لهم:

وبعد وصول قمرهم إلى التمام وثمراتهم إلى النضج انتقص أمرهم وظهر الاختلاف واللغط بينهم، وانعقدت فيهم مجالس متعادية ومجامع مختلفة. تفصيله: أن آريوس خالف الكنيسة فمنعه بِطْريقُ الإسكندرية عن دخول الكنيسة، فخرج آريوس إلى الملك مستعينًا به، ومعه أسقفان، وطلبوا المناظرة والمناقشة فاستحضره الملك وقال لآريوس: اشرح مقالتك. فقال آريوس: أقول «إن الأب كان إذا لم يكن ابن، ثم أوجد الابن فكان كلمةً له، فهو مُحدَث مخلوق، ثم فوَّض الأمر إلى الابن المسمى كلمة، فكان هو خالق السموات والأرض، ثم إن الكلمة تجسَّدت من مريم العذراء ومن روح القدس، فصار ذلك مسيحًا واحدًا». فقال بِطريق الإسكندرية: أخبِرنا أيهما وجبت علينا عبادته؟ عبادة من خلقنا أو عبادة من لم يخلقنا؟ فقال آريوس: بل عبادة من أخرجنا من الليس إلى الأيس، فقال: فإن كان الابن خالقنا كما وصفت، وكان الابن مخلوقًا، فعبادة الابن الذي خلقنا وهو مخلوق أوجب من عبادة الأب الذي ليس بمخلوق، بل تصير عبادة الأب الخالق كفرًا، وعبادة الابن المخلوق إيمانًا، وذلك من أقبح الأقوال، فاستحسن الملك مقالته وأمر أن يلعنوا آريوس وكل من يتفَوَّه بمقالته. ثم طلب البطارقةَ وقال: اتفقوا حتى يكون لنا مجمع، فاجتمع من الأكناف ألفان وثمانية وأربعون أسقفا، فلما اجتمعوا ارتفعت الأصوات، فتعجب الملك وأمرهم أن يتناظروا واتفق

٣١٨ أسقفًا على رأي واحد، فعقدوا مجلسًا خاصا جلس في وسطه، وأخذ سيفه وخاتمه وقضيبه، فدفعها إليهم، وقال: قد سلطتكم على الدولة وباركوا عليه، وقال: ظهرت النصرانية، واتفقوا على الأمانة التي أسلفناها، أوله: نؤمن بالله الواحد الأب الخ. ثم ذهب آريوس يدعو إلى مقالته، فجمع جمعًا عظيمًا وقال: إن هؤلاء تعدوا عليَّ وظلموني، ووافقه كثير من الذين معه وقالوا: صدقتَ، فوثبوا على آريوس وضربوه ضربًا مبرحًا، حتى كادوا أن يقتلوه لولم يخلصه بعض المخلصين.

ثم كان لهم مجمع ثانٍ بعد ٥٨ سنة من المجمع الأول، وهذا حينما قال بعض الوزراء للملك: إن مقالة آريوس غلبت على الناس، فجمع الملك البطارقة ولعنوا آريوس وأشياعه، وكان من مقالتهم «أن روح القدس مصنوع مخلوق»، فردوا مقالتهم ولعنوهم، ثم خرج نسطورس وكان من مقالته «أن مريم ليست والدة الإله حقيقة، والمسيح ليس إلهاً بذاته، بل بالموهبة والكرامة» فاجتمع مئتا أسقف وأجمعوا على تخطئة نسطورس ونفيه، وأثبتوا بزعمهم أن مريم ولدت إلهاً، وأن المسيح إله حقيقة، لا بالموهبة، وهذا مجمع ثالث.

ولما نفَوْا نسطورسَ قام يوحنَّا بطرك إنطاكية في حمايته، فجمع الأساقفة وناظرهم، ولم يزل الملك «تذوس» يسعى الصلح بينهم حتى أصلح بينهم، فكتب أولئك صحيفة مضمونها: «إن مريم القديسية ولدت إلها وهو ربنا اليسوع». وبعد موت نسطورس أحيىَ مقالته ابنُ صرما وبثَّها في بلاد المشرق، فجمعوا مجمعًا واتفقوا على لعن نسطورس ومن قال بقوله هذا، وهو المجمع الرابع.

ثم خرج راهب بالقسطنطنية يقال له أوطيوس قال: «إن جسد المسيح ليس هو مع أجسادنا في الطبيعة، وإن للمسيح قبل التجسُّد طبيعتين، وبعد التجسد طبيعة واحدة». ثم سار إلى قسطنطينة، فأحضر بطريقُ الإسكندرية مجمعًا عظيمًا، وتناظروا فلعنوه، فاستعان بالملك فاحضر البطاركة، فأيد بطريق الاسكندرية مقالة أوطيوس، وفسدت الأمانة.

ثم كان لهم مجمع سادس في دولة مرقيون، وذلك أنه اجتمع عنده الأساقفة وأعلموه أن مقالة أوطيوس غلبت على الناس، فجمع الملك الأساقفة واجتمع في ذلك ٦٣٠ أسقفا، فنظروا في مقالته فأفسدوا مقالته ولعنوه، وثَبَّتُوا قول الأساقفة.

ثم كان لهم بعد ذلك مجمع سابع في أيام انسطاس الملك، وذلك أنه جاء سورس إلى الملك فقال: إن أصحاب المجمع السادس وهُم ٦٣٠ نفَرًا قد أخطئوا، والصواب ما قاله أوطيوس، واكتب إلى جميع البلاد أن يلعنوا ٦٣٠ أسقفًا، فأجابه الملك، ولما بلغ إلى بطرك بيت المقدس جمع الرهبان، فلعنوا الملك وسورس. ولَـمَّا بلغ الملكَ نفَى البطركَ إلى أيلة، وبعث يوحنَّا بطركا على بيت المقدس، فاجتمع الرهبان عنده وقالوا له: إياك أن تقبل من سورس، لكن اقبل عن ٦٣٠ ونحن معك، ففعل، ولما بلغ الملك بعث قائدا وأمره أن يأخذ يوحنا بلعنة أولئك ويكلفه بمخالفتهم، فإن لم يفعل أنزله عن الكرسي، فجاء القائد وألقَى يوحنَّا في الحبس، ثم لما حضر القائد عند يوحنا أقر بلعنة كل من لعنه الرهبان، ففزع رسول الملك وبلَغ ذلك الملكَ فهمَّ بنفي يوحنا، فاجتمع الرهبان وكتبوا أنهم لا يقبلون مقالة سورس، فانفض هذا المجمع بين لاعن وملعون.

ثم كان مجمع ثامن، وذلك أن بعض الأساقفة قالوا: «لا تقوم القيامة»، والبعض يقول: «إن جسد المسيح خيال ليس حقيقة». فبعثهم الملك إلى بطرك قسطنطنية فتناظروا واحتج عليهم، وأمر الملك أن يكون لهم مجمع، فجمع البطاركة فاجتمع ١٦٤ أسقفًا، ولعنوا القائلين المذكورين.

ثم كان لهم مجمع تاسع على عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، وذلك أنه كان برومة راهب له تلميذان، فجاءا إلى قسطا الوالي فوبَّخاه على قبح مذهبه، فأمر به قُسْطَا فقطعت يداه ورجلاه وقطع لسانه، هكذا صنع بأحد التلميذين، ونفى التلميذ الآخر، فبلغ ملكَ قسطنطنية، فأرسل إليه أن يوجه الأساقفة ليعلموا حقيقة الحال، فجمع ٢٩٨ أسقفًا وكان رئيسهم بطرك قسطنطنية وبطرك إنطاكية، فلعنوا من تقدَّم من القسيسين والبطاركة واحدًا واحدًا، ولَخَّصوا الأمانة وزادوا ونقصوا.

ثم كان لهم مجمع عاشر، وذلك لما مات الملك و وُلِّيَ ابنُه بعده، اجتمع أهل الْمجمع السادس وقالوا: كنا على الباطل، فجمع الملك أهل المجامع الخمسة ولعنوا من لعنهم وخالفهم، فهذه عشرة مجامع لهم اشتملت على لعن المخالف والمناوي.[1] والله أعلم.

(١) هذا التفصيل مستفاد وملخص من إغاثة اللهفان ٢/ ٢٨٠-٢٨١، ومنحة القريب، ص١٥-٢٦، وتاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٠٢-٣٠٦.

كلمةٌ في الكتاب المقدس وعدمِ صحته:

الكتاب المقدس ينطوي على كتابين وعهدين: العهد القديم، والعهد الجديد، ويسمى بائيبل، وهذا لفظ يوناني معناه: الكتاب. والعهد القديم أو العتيق يحيط بتسعة وثلاثين كتابًا: (١)سِفْر التكوين. (٢) الخروج. (٣) سِفْر اللاوين. (٤) العدد. (٥) التثنية أو الاستثناء، ويسمَّى الخمسة بالتوراة، ومعناه التعليم. (٦) سِفْر يوشع بن نون. (٧) القضاة. (٨)راعوت. (٩) صموئيل الأول. (١٠) صموئيل الثاني. (١١) الملوك الأول. (١٢) الملوك الثاني. (١٣) الأيام الأول. (١٤) الأيام الثاني. (١٥) عزرا. (١٦) نحمياء. (١٧) استير. (١٨)أيوب. (١٩) المزامير. (٢٠) الأمثال. (٢١) نشيد الإنشاد. (٢٢) الجامعة. (٢٣) أشعيا. (٢٤) أرميا. (٢٥) المراثي. (٢٦) حزقيال. (٢٧) دانيال. (٢٨) هوشع. (٢٩)يوئيل. (٣٠)عاموص. (٣١)عوبديا. (٣٢) يونان. (٣٣) ميخا. (٣٤) ناحوم. (٣٥) حبقوق. (٣٦)صفنيا. (٣٧)حجِّي. (٣٨) زكريَّا. (٣٩) ملاخي.

وجعل الشيخ رحمة الله الكيرانوي كتاب «استير» في المختلفات وهو مذكور في النسخة العربية التي هي في أيدينا.

وذكر الشيخ الكيرانوي كتبًا أخر المختلَف فيها عند المسيحيين التي لا توجد في النسخة المطبوعة التي هي في أيدينا، وهي: (١) كتاب باروك. (٢) جزء من كتاب دانيال. (٣) كتاب طوبيا. (٤) كتاب يهوديت. (٥) كتاب وزدم (الحكمة). (٦) كتاب إيكليزيا ستيكس (يشوع بن سيراخ). (٧)كتاب المقابيين الأول. (٨) كتاب المقابيين الثاني.(١)

والعهد الجديد يشتمل على سبعة وعشرين كتابًا: (١) إنجيل متَّى. (٢) إنجيل مرقس. (٣) إنجيل لوقا. (٤) إنجيل يوحنا. (٥) أعمال الرسل. (٦) رسالة بولس إلى رومة. (٧)رسالته إلى كورنثوس. (٨) رسالته الثانية إلى كورنثوس. (٩)رسالته إلى غلاطية. (١٠)رسالته إلى أفسس، (١١) رسالته إلى فيليبس. (١٢) رسالته إلى كولوس. (١٣) رسالته إلى تسالونيكي. (١٤) رسالته الثانية إلى تسالونيكي. (١٥) رسالته إلى تيموثاوس.

---

(١) وهذه الكتب كلها موجودة في النسخة التي تصدرها جمعية الكتاب المقدس في لبنان.

(١٦)رسالته الثانية إلى تيموثاوس. (١٧) رسالته إلى تيطس. (١٨) رسالته إلى فيلمون. (١٩)رسالته إلى العبرانيين. (٢٠) رسالة يعقوب. (٢١) رسالة إلى بطرس. (٢٢)الرسالة الثانية إلى بطرس. (٢٣) الرسالة الأولى ليوحنا. (٢٤)الرسالة الثانية ليوحنا. (٢٥)الرسالة الثالثة ليوحنا. (٢٦) رسالة يهودا. (٢٧) رؤيا يوحنا.

وهذه الكتب كلها موجودة في النسخة العربية التي هي في أيدينا.

وقال الشيخ رحمة الله الكيرانوي في «إظهار الحق»: أن المتفق عليه عشرون كتابًا. وجعل رسالة بولس إلى العبرانيين، والرسالة الثانية لبطرس، والرسالتين الثانية والثالثة ليوحنا، ورسالة يعقوب ويهودا، ورؤيا يوحنا من المختلفات.[1] والله أعلم.

نسبة الكتاب المقدس إلى الأنبياء والحواريين وتابعيهم:

إذا وعَيْت هذا فاعلم أنه يشترط لكل كتاب ينسب إلى نبي من الأنبياء أن يكون له سند متصل قوي رواه جَمٌّ غفير عن جم غفير بحيث لا يمكن فيه وهم واهم وشكُّ شاك، وهذا مفقود في حق الكتاب المقدس، فإنهم يعترفون أنه لا يوجد له سند متصل لتظافر الحوادث والوقائع والفتن على بني إسرائيل، على أن بعض الفِرق يردون بعض الكتب ويرفضونها.

قال في «الفارق»: وأنت ترى أن نيفا وسبعين كتابًا من كتب العهد الجديد منسوبة إلى عيسى بن مريم والحواريين وتابعيهم، قد رفضتْها كنيسة كريك وكاتوليك وبروتسنت، وادعت أن كلا من هذه الكتب من الأكاذيب المصطنعة، ومثل ذلك كتب العهد العتيق ككتاب المشاهداتِ، والسِّفرَ الصغير للتكوين، وكتاب المعراج، وكتاب الأسرار، وكتاب تستمنت، وكتاب الإقرار المنسوب جميع ذلك إلى موسى عليه السلام.[2]

وهكذا التوراة الموجودة في أيديهم ليست ما أُنزِل على موسى عليه السلام. وقد حقق المحقق نورتن في الجزء الثاني من كتاب الإسناد بدلائل أن التوراة المتداولة بين الناس ليس

(١) إظهار الحق، ص ٩٥-٩٨ .

(٢) الفارق بين المخلوق والخالق، لعبد الرحمن الباجه جي زاده، ص٩.

لها سند. من شاء فليراجعه.(١)

وبذلك اعترف صاحب كتاب «خلاصة الأدلة السَّنية على صدق أصول الديانة المسحية» أن نسخة التوراة فقدت وطرحت بين الرِّثث (سقط المتاع) (٢)، ويستحيل أن تبقى نسخة منها.

وعندنا شواهد على أن التوراة الموجودة ليست هي المنزلة على موسى عليه السلام:

منها: أن موسى عليه السلام كتب التوراة وسلَّمها إلى الكهنة كما في سفر التثنية: «وكتب موسى عليه السلام هذه التوراة وسلمها لكهنة بني لاوي حاملي تابوت عهدَ أيوب ولجميع شيوخ إسرائيل، وأمرهم موسى عليه السلام في نهاية السبع السنين في ميعاد سنة الإبراء في عيد المظال فيما يجيء جميع إسرائيل لكي يظهروا أمام الربِّ إلهك في المكان الذي يختاره، تُقْرَءُ هذه التوراة أمام كل إسرائيل في مسامعهم».(٣)

ولم يثبت قراءة التوراة بعد ذلك إلا مرتين ليوشع عليه السلام، ففي سفر هوشع «وكلم الرب يشوع قائلا: مُر الكهنة حاملي تابوت الشهادة أن يصعدوا من الأردن».(٤)

وفي موضع آخر: «وكلم بني إسرائيل قائلًا: إذا سأل بنوكم غدًا آباءهم قائلين: ما هذه الحجارة؟ تعلمون بنيكم قائلين على اليابسة عبر إسرائيل الأردن».(٥)

وفي عهد سليمان لما جمع الكهنة وأخرجوا التابوت لم يجدوا فيه إلا الحجران اللَّذان كتب فيهما الأحكام العشرة، كما في الملوك الأول «لم يكن في التابوت إلا لَوْحَا الحجر اللَّذان وضعهما موسى هناك في حوريب حين عاهد الربُّ بني إسرائيل عند خروجهم من مصر».(٦)

ثم بعد سليمان افترق بنو إسرائيل فرقتين، وفشا فيهم عبادة الأوثان مئتين وخمسين سنة

(١) إزالة الشكوك ٢/ ٧٨.

(٢) خلاصة الأدلة السنية، ص١٠، طبع في بيروت في مطبعة الأميركان، سنة ١٨٧٧م.

(٣) التثنية ٣١/ ١٢.

(٤) يشوع ٤/ ١٥.

(٥) يشوع ٤/ ٢١-٢٢.

(٦) الملوك الأول ٨/ ٩.

على وجه التقريب، وارتدوا وصَالَ عليهم العدو مرتين: مرة سلطان مصر، ومرة سلطان بني إسرائيل الذي ارتد.

وبالجملة أربع مئة سنة بعد سليمان كانوا على هذه الحال حتى جاء منسا، وفي عهده انتشر الكفر والارتداد ووضع الأوثان في بيت المقدس. وبعد ذلك جاء يوسيا بن آمون، وتاب توبة نصوحًا، وفتش التوراة فلم يجدها حتى ادَّعى حلقيا الكاهن أني وجدت التوارة في بيت المقدس مدفونة وأعطاها بيد سلطان يوسيا الملك.

والعجب أن الملك وسائر الناس لم يجدوا نسخة التوراة وفاز به هذا الرجل، فالمعقول أنه اجتهد وجمع الأحوال في مدة تفتيشهم حتى أعطاه الملكَ. بعد ذلك لما حمل بخت نصر على بني إسرائيل هدم الجليل وبيت المقدس ولم يبق بأيديهم كتاب ولا وصية.[1]

ومنها: أن المصنف يعبر عن نفسه بالمتكلم أو ما يفيد معناه، وموسى عليه السلام ذكر في التوراة كلها بصيغ الغائب. فهذا ينادي بأعلى نداء بأنه إبداع شخص آخر بعده، وهذا ظاهر؛ فإن التوراة الموجودة سيرة من السير من آدم عليه السلام إلى موسى عليه السلام ومن بعده كتاريخ ابن خلدون وابن جرير. وأما التوراة المنزلة على موسى عليه السلام فهو كتاب الله فيه أمر، ونهي، ووعد، ووعيد، وأحكام، ومواعظ، ولا تكون فيها هذه النوازل إلا قليلا أقل.

ومنها: أن فيها ذكر وفاة موسى عليه السلام وقبره فكيف يكون منزلا عليه. وإليك عبارة الأصحاح الرابع وثلاثين «أنه لم يخل في بني إسرائيل نبي مثل موسى عليه السلام لم يعرف قبره إلى الآن ». وفي سفر التثنية «هذا هو الكلام الذي كلم به موسى جميع إسرائيل في عبر الأردن في البرية في العربة».[2]

وأجاب البعض عن هذا الإشكال -وهو الداء العضال- أن هذا الفصل الأخير من يشوع. ولا يصح من وجوه:

---

(١) مقدمة تفسير حقاني، ص١٧٩ .

(٢) التثنية ١/ ١.

الأول: أن ذكر يشوع فيه بصيغة الغائب.

والثاني: أن هذا تدليس بأن جعل ما ليس من التوراة منها، ولا يليق هذا بنبي ذي شأن عظيم.

والثالث: قيل فيه: «ولم يعرف قبره إلى اليوم». فيترشح منه أنه كتب بعد ذلك بمدة طويلة انطمست فيها آثار القبر وانمحت. وماذا ليشوع يقول «لم يعرف قبره إلى اليوم» وهو صاحبه وملازمه في السفر والحضر. فعلم أنها كتبت بعد زمن طويل.

ومنها: أن التوراة تشتمل على حوادث وواقعات تشمئز العقول منها، وتتنفر الطباع، ولا يخطر ببال ذي بال أن يكون هذا كلام الله، بل لا يتصور أن يصدر من رجل من عامة الناس فضلًا عن الأنبياء والخواص، ونقدم إليك نماذج: منها: قصَّ التوراة قصَّةَ آدم عليه السلام ولم تحك توبته كما هو الظاهر لمن نظر في التكوين، قال في طريق الأولياء (ص٣٣): «يا أسفى أنه لم تثبت توبته ولم يستغفر الله لذنبه مرة». قال بادري وليم اسمت: بعد ما أظهر معصية آدم عليه السلام بأكل الشجرة فيا أسفا ألف مرة لا يوجد لتوبته علاقة وما دعا لعفوه مرة.[(١)]

والقرآن يصرح ويفصح أولًا أنه فعل ما فعل ناسيًا، لا عازمًا، قال تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ (طه: ١١٥). ولو عزم اجتهادًا فقد تاب، وقال: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣)

هَذَيانه في نوح عليه السلام:

وقالت التوراة في حق نوح عليه السلام ما لا ينبغي أن يقال، وطعنت فيه بشرب الخمر، والسكر، وكشف العورة، ورؤية الولد ذلك المنظر الشنيع، وإخبار الإخوة بذلك، ولعن نوح ابنه؛ ففي سفر التكوين «شرب (نوح) من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجًا، فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما، ووجههما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما،

(١) إزالة الشكوك، لرحمة الله الهندي ٢/ ٣٤٩ .

فلما استيقظ نوح من خمر وعلم ما فعل به ابنه الصغير، فقال: ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته». [١]

فانظر أيها القاري الذكي أن فيه انتساب قبائح مختلفة إلى نوح عليه السلام الذي هو من أولي العزم من الرسل: شرب الخمر، ولا يليق بنبي فساد العقل، وكشف العورة، وهو عيب في عامة الناس، فما ظنك بالخواص والأنبياء الذين هم معصومون من هذه القبائح والمعائب؟ والدعاء على كنعان مع أ نه غير مذنب، ولو كان إلقاء الرداء ذنبا فذلك صدر من حام لا من ابنه.

بدين عقل ودانش بايد گريست

معناه: ينبغي أن يُبكَى على هذا العقل والنُّهيَة.

طعنه في إبراهيم عليه السلام:

والتوراة عزت إلى إبراهيم عليه السلام ما لا تستطيع الآذان أن تسمعه، فقال وحدث: «لما قرب أن يدخل أنه قال لسارة: إني قد علمتُ أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون: هذه امرأته، فيقتلونني ويستبقونك، قُوْلي إنك أختي ليكون لي خير بسببك، وتحيى نفسي من أجلك، فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدًّا، ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون، فأخِذت المرأة إلى بيت فرعون، فصنع إلى أبرام خيرًا بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال، فضرب الرب فرعونَ وبيته ضربات عظيمة بسبب سارة امرأة أبرام، فدعا فرعون أبرام وقال: ما هذا الذي صنعت بي؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك». [٢]

ذكر في هذه القصة أمور لا يمكن أن تكون في من له شأن عظيم من الأنبياء:

الأول: أنكر الزوجية قبل أن يدرك الخوف، ولم ينتظر ما يفعل الله تعالى.

والثاني: إنكار الزوجية لم يكن لتعفيفها، بل لحفظ النفس وطلب الخير، والظاهر أنه

---

(١) التكوين ٩/ ٢١-٢٦.

(٢) التكوين ١٢/ ١١-١٩.

المال كما قاله بعد ذلك .

الثالث: أن إبراهيم أخذ بسبب امرأته مالًا خطيرًا، والظاهر أنه كان مهرًا لها من حمير وجمال. سبحان الله تكاد السموات يتفطرن وتنشق الأرض وتخر الجبال من تصور هذا الأمر الفظيع.

والرابع: أن الله ضرب فرعون وأهله، ولا يليق هذا بالله تعالى، إذ الظلم كان من فرعون ويعذب أهله وامرأته، أيُّ قصور صدر منهم، وأيُّ ذنب وقعوا فيه؟ بل الذنب على إبراهيم - معاذ الله ثم معاذ الله- على قولهم، إذ لم يطلعهم أنها امرأته، ولو تَبَيَّنَ لم يقع هذا.

والقصة مذكورة في الأحاديث النبوية ليست فيها هذه الأباطيل، وإليك نص حديث البخاري مع الشرح والإيضاح: عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، قال: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات صورة، وإلا فليس في الحقيقة كذبا، فالمراد من «إني سقيم» أي سقيم القلب، أو سأسقم، أو سقيم الحجة على الخروج معكم. وقوله: «بل فعله كبيرهم...إن كانوا ينطقون» يعني فعلهم مشروط بالنطق، وإذ انتفى الشرط انتفى المشروط. وفي «هذه أختي» ما ذكر في الحديث أن المراد الأخت في الإسلام. ثنتين منهن في ذات الله تعالى، والثالث أيضًا في ذات الله، لكن فيه جر النفع إليه أيضًا. وقد جاء في روايةٍ: كلهن في الله تعالى؛ قوله: «إني سقيم»، وقوله: «بل فعله كبيرهم هذا»، وقال: بينا هو ذات يوم وسارةُ إذ أتى على جبَّار من الجبابرة، فقيل له: إن ههنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه ؟ قال: أختي. إنما قال ذلك؛ لأنه كان من عادته أن لا يتعرض إلا لذات الزوج، أو لأنه كان مجوسيا وعقيدتهم أن الأخ أحق بأخته، أو أراد إن قلت: زوجتي، أكرهني على الطلاق. فأتى سارة قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني، فأخبرته أنكِ أختي فلا تكذبيني. فأرسل إليها، فلما دخلت عليه وذهب يتناولها بيده فأُخِذَ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك. فدعت الله فأُطْلِقَ، ثم تناولها ثانية، فأُخِذَ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق. فدعا بعض حجبته فقال: إنك لم تأتني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان. فأخدمها هاجر فأتته، وهو قائم يصلي، فأومأ بيده مهيا (ما الخبر)، قالت: رد الله كيد الكافر - أو الفاجر - في نحره، وأخدم هاجر. قال أبوهريرة:

تلك أمكم يا بني ماء السماء.(١) ليست فيها المعائب والمطاعن التي عزتها التوراة إليه عليه السلام، ففيه أن الكذب الصوري إنما تصدى له بعد ما وقف على خديعة الملك، ولا عيب فيه، فإن الكذب ولوكان حقيقةً جائزٌ لحفظ النفس والعرض. وليس فيه قبول المال عند ما كانت سارة عند الملك، بل لما تمكنت عظمتها في قلبه أمر بإخدام هاجر. وفيه تطهير سارة وأخذ الظالم، وهو أليق بشأن الأنبياء وأوفق بعقل العقلاء. وليس فيه شائنة ضرب الله أهل فرعون الملكِ. فسبحان الذي جعل الإسلام نورًا، الاهتداء به يليق، ومَطْهَرًا عن دنس المعائب، الاقتداء به حقيق.

حديث خرافة في التوراة يتعلق بلوط عليه السلام:

وإليك قصة لوط عليه السلام كما جاء في التوراة المحرفة، وهو نبي ورسول اتَّهمته بقبائح وشنائع يجب أن يتنزه منها ساحة الأنبياء عليهم السلام، فقد ورد في التوراة: «وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه؛ لأنه خاف أن يسكن في صوغر، فسكن في المفازة هو وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض بعل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هَلُمَّ نسقي أبانا خمرا ونضطجع معه، فنحيي من أبينا نسلًا، فسقتا أباهما خمرًا في تلك اللَّيلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه خمرا الليلة أيضًا فادخلي واضطجعي معه، فنحيي من أبينا نسلًا، فسقتا أباهما خمرًا تلك الليلة أيضًا، وقامت الصغيرة واضطجعت، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحبِلت ابنتا لوط من أبيها، فولدت البكر ابنا ودعت اسمه موآب، وهو أب الموآبين إلى اليوم. والصغيرة أيضًا ولدت ودعت اسمه ابن عَمِّي، وهو أبو بنِي عَمُّون إلى اليوم.(٢)

هذه الخرافة يأبى الإنسان أن يمثلها على لوح الذهن، ويكتبها في صحيفة الخاطر؛ فإن فيها إلحاق العار والشَّين بنبي ورسول وبناته العفيفات؛ فإن بنات النبي لا يمكن أن يطعن بمثل هذا الطعن الذي لا يتصور في بغايا الأسواق. فسقي الخمر والمكر بالأب والمضاجعة

(١) صحيح البخاري، رقم: ٣٣٥٨.

(٢) التكوين ١٩/ ٣٠-٣٨ .

والمجامعة يستحيل في حق هاتين الشريفتين. وفيه إلحاق العار بلوط عليه السلام، إذ لو فرضنا أنه شرب الخمر، فقد سكر أو لم يسكر، فإن كان الأوَّل، كيف يمكن هذا الفعل القبيح فيه؛ فإن العقل إذا كان مخمورا والقلب مستورا والأعضاء ساكنة والجوارح باردة لا يمكن هذا الفعل القبيح. فعلم أنه لم يسكر كاملًا ونسبة هذا مع بقاء الحواس وعدم السكر وظيفة أهل الكتاب. قاتلهم الله وعاقبهم بهذه الجسارة والوقاحة.

أقول: ولوط عليه السلام على الفرض لما فعل هذا الفعل في الليلة الأولى، وعلم بذلك بعده، فلِم لم يعاتب على هذه الجريمة مع أنه لم يُحْكَ أنه ذمها وعاتب عليها.

يعقوب عليه السلام كما صَوَّرته التوراة:

ونسبت التوراة إلى يعقوب عليه السلام الخيانة بالأب، وأخذ النبوة كرهًا، والخيانة بالأخ، والخداع والمكر بالله تعالى، وهو ما ذكر في الأصحاح السابع والعشرين، وحاصله: أن إسحاق عليه السلام كان له ابنان يعقوب وعيسو، ولما شاخ إسحق أراد أن يمنح النبوة لعيسو ابنه فبعثه للعيد وقال: اصنع لي طعاما أبارك لك بعد أكله. وكانت أم يعقوب تسمع فأخبرت ابنها وقالت: اذهب إلى الغنم وخذ لي جديين جيدين فاصنعهما أطعِمةً لأبيك كما يحب، فقال يعقوب: هو ذا عيسو رجل أشعر وأنا أملس، فلو عرفني أكون كمتهاون، فقالت: اسمع قولي واذهب، فذهب وأخذ، فأحضر لأمه وصنعت كما يحب، وأخذت ثياب عيسو وألبست يديه (يعقوب) شَعر المعز، فدخل إلى أبيه وقدم إليه الطعام، فقال: أنا عيسو، فقال إسحق: تقدم لأجُسَّك، فتقدم فجسَّه فكانت يداه مشعرتين كعيسو، فأكل، وأحضرا خمرًا فشرب فقبله وبارك، ولما حضر عيسو وسأله إسحاق وأجاب أنه عيسو ارتعد وعلم بمكره، لكن الأمر قد تم.[1]

هذا ما لخصته من الإصحاح السابع والعشرين من سفر التكوين. يشتمل هذا الإصحاح على عزو الكذب إلى يعقوب عليه السلام، والخيانة بالأب والأخ، وأخذ عهدة النبوة بالمكر والخداع. ولا نعلم حال هذا الإله الذي لا يعلم من هو مستحق للنبوة، فيعطي

---

(١) التكوين، الإصحاح: ٢٧ .

لغير المستحق ويدفع المستحق. هذه قصص التوراة ترتعد منها الفرائص.

وقد ذكر في التوراة أن يعقوب صارع الله، ولما تعب الله قال ليعقوب: أطلقني، قال: لا أطلقك حتى تباركني ولم يَفْلِت (الله) منه. وإليك نص التوراة: «فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان (وهو الله) في شكل الإنسان - كما هو المصرح بعد ذلك- حتى طلوع الفجر، ولما رآه أنه لا يقدر عليه ضرب (أي الله) حق فخذه، فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه، وقال: اطلقني؛ لأنه قد طلع الفجر».(١)

انظر إلى هذه القصة المختلقة من أولها إلى آخرها، فيها المصارعة مع الله، وكون الله مُجَسَّما، وعجز الله عن المصارعة حتى ضرب فخذه، وأخذ البركة كرها، وغير ذلك من الفضائح والشنائع.

موسى وهارون عليهما السلام كما صَوَّرتهما التوراة:

لقد صرحت التوراة بخيانة موسى عليه السلام، فقال الله لموسى: «مت في الجبل كما مات هارون وضم إلى قومك كما ضم إلى قومه؛ لأنكما خُنتما في وسط بني إسرائيل عند ماء مريبة قارش في برية صين إذ لم تُقدِّساني في وسط بني إسرائيل».(٢)

ونطقت بالاستقالة من منصب الرسالة كما في الخروج: «وقال: لست صاحب كلام، فقال: استمع أيها السيد! أرسِلْ بيد من تُرسِل، فحمي غضب الرب على موسى وقال: أليس هارون اللاوي أخاك؟».(٣)

وقد نطق القرآن الحكيم أن الله سبحانه وتعالى لما أرسل موسى دعا إلى الله أن يرسل معه هارون لعقدة في لسانه حيث قال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾﴾ (طه) ليس فيه الاستقالة من الرسالة لذنب تكلم به.

وقد اتهمت التوراة الموجودة في أيديهم هارون بالردة واتخاذ العجل وثنًا ومعبودًا. قال

---

(١) التكوين ٣٢/ ٢٤-٢٨.

(٢) التثنية ٣٢/ ٥١.

(٣) الخروج ٤/ ١٣-١٤.

في الخروج: «ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم وضع لنا آلهة تسير أمامنا؛ لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ما ذا أصابه؟ فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها، فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون، فأخذ ذلك من أيديهم وصوَّره بالإزميل ووضعه عِجلًا مسبوكًا. فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر!».(١)

هذا نص التوراة في نبي من أنبياء بني إسرائيل يتهمه بالارتداد، واتخاذ الصنم، ومخالفة أمر الله. -معاذ الله- كيف يرتد نبيٌّ ويتخذ العجل، وهو إنما يجيء لقَلع عِرق الشرك، ونشر كلمة التوحيد!

وما أحسن ما قال القرآن في هذا الموضوع: لم يصنع هذا هارون، بل انتهز رجل يقال له السامري، وقد ارتد واتخذ الحلي ووضع العجل واتخذه إلها، ومنعه هارون عليه السلام. قال عز وجل: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾(طه: ٨٥) وقال بعد ذلك: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾ (طه) وبعد ذلك بآية: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ (طه: ٩٠)

داود عليه السلام كما صوَّرته التوراة:

لقد نسبت التوراة إلى داود عليه السلام ما تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ويؤمنون بالله العظيم، وما يستحيل تصوره، وهي نسبة الزنا، وقتل المجاهد في سبيل الله، واستقاء الخمر منه، والاستنفار من المعترك إلى البيت والمسكن، وغير ذلك من الفضائح والفظائع، كما في صموئيل الثاني: «وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشَّى على سطح بيت الملك، فرأى من أعلى السطح امرأة تستَحِمُّ، وكانت المرأة جميلة المنظر جدًّا، فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: أليست هذه بَثْشَبَع بنت أَلِيْعَام امرأة أورِيا الحِثِّي، فأرسل داود رسلا وأخذها، فدخلت إليه فاضطجع معها، وهي مطهرة عن طمثها، ثم

---

(١) الخروج ٣٢/ ١-٥.

رجعت إلى بيتها، وحبِلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت: إني حبلى، فأرسل داود إلى يوآب وكان ضابط العسكر يقول: أرسل إليَّ أوريا الحثي، فأرسل يوآب أوريا إلى داود، فأتى أوريا إليه، فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب، وقال داود لأوريا: انزل إلى بيتك واغسل رجليك. يعني أمر داود أوريا أن يذهب إلى البيت ويضطجع مع امرأته ليخفى أمر الزنا، فأبى أوريا وقال: تنور الحرب تسجر وأنا استلذ بالنساء، ولما علم داود أنه لا يذهب احتال لقتله وأمر يوآب (أمير العسكر) أن يجعله في موضع يتيقن فيه الموت، ففعل وقتل».(١)

هذه خلاصة هذا الأصحاح -معاذ الله، نعوذ بالله من هذه الهفوات الشنيعة-. انظر إلى كتاب يؤمن به النصارى واليهود ويعتقدون أنه منزل من الله كيف يحيط على قذف نبي من الأنبياء ويلصق العار والشائنة به. هذه التصورات لايمكن أن تتحصل في الذهن. وعندي أنه ليس تصور محالٍ (بالإضافة) بل تصورٌ محالٌ وفرضٌ مستحيلٌ لمن كان في قلبه شمة من الإيمان، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

فنسبة النظر إلى امرأة الغير مع وجود حرائم كثيرة، ثم السفاح بها، ثم الاحتيال برجل مؤمن، ثم قتله في ميدان المحاربة، قبائح وفضائح ومثالب ومعائب لايمكن أن يلحق برجل مسلم فضلًا عن نبي ورسول!

وقد ذكر في التوراة بعد ذلك «أن الله سلط على نساء داود الشابوم ابن داود فدخل وزنى بنساء أبيه». -معاذ الله- ما هذه الجرأة! هل تُجَوِّزه في نساء النبي؟ هذا وما إثم الحريمات حتى يتسلط عليهن ابن داود؟ هل يقال لهذه الخرافات والأباطيل أنها منزلة من الحكيم الجليل؟ كلَّا ثم كلَّا.

سليمان عليه السلام كما صوَّرته التوراة:

قد بينت التوراة في سليمان عليه السلام ما تمجُّه الآذان والأسماع، وتتنفر منه القلوب والطباع، وهو كونه مشغوفا بحب النساء ومغازلتهن واستغراقه في عبادة الأوثان، فاستمع

---

(١) صموئيل الثاني ١١/ ٢-٨ .

ما تقول التوراة فيه: «وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون: موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحيثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل: لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم؛ لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتكم، فالتصق سليمان بهولاء بالمحبة، وكانت له سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السراري فأمالت نساؤه قلبَه. وكان في زمن شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتروت إله الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمانُ الشر في عيني الربِّ ولم يتبع الربَّ تمامًا كدأب أبيه. حينئذ بنى سليمان مرتفعة لِكموش رجس الموآبين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولمولك رجس بني عمون، وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويَذْبَحْن لآلِهتهن.[(١)]

عُيِّبَ فيه سليمانُ عليه السلام بعيوب يجب التنزه عنها: الاستغراق في محبة النساء، والإعراض عن حكم الله إذ منعه الله عن نساء الموآبين والعمونيين وغيرها، وفَعَل ذلك، وجعل حريْماته عابدات أوثان وتابعات أرجاس، وتركهن الإله الحق، وكانت نساؤه يوقدن للآلِهة الباطلة ويذبحن للآلِهة.

هذه نبذة من خرافات العهد القديم في الأنبياء عليهم السلام، وما صدفنا عنه أكثرُ مِمَّا تصدينا إليه إلا أن القليل أنموذج الكثير، والغُرْفة تنبيء عن البحر الكبير، ولا نشغل أفكارنا بذكر الباطل، فإن الأباطيل الداحضة ينبو عنها العاقل.

---

(١) الملوك الأول ١١/ ١-٩.

ذكر الأناجيل المشهورة

وإليك ذكر أناجيلهم. الأناجيل المشهورة المتداولة بأيديهم أربعة: إنجيل متى، إنجيل مرقس، إنجيل لوقا، إنجيل يوحنا. نسخها أربعة أشخاص وسميت بأسمائهم. ثم اعلم أن الأناجيل الموجودة المشهورة ليست الإنجيل المنزل على المسيح عليه السلام؛ فإنه كان واحدًا، ويشير إليه ما قال المسيح في بدء رسالته وأوائل نبوته: «وبعد ما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل».[1]

فدعوة الإيمان بالإنجيل في بدء الرسالة تصريح بوجود الإنجيل المنزل دفعة واحدة على المسيح عليه السلام. وأما هذه الأناجيل فمكتوبة بعد المسيح عليه السلام ليس فيها إلا هَدْيُ المسيح عليه السلام وحواريه، بل فيها أحكام لا نعلم أنها من الإنجيل أم لا؟ والله تعالى أعلم.

فإن قيل: يجوز أن يكون الإنجيل واحدًا لا أربعة، واختلافها باختلاف بعض التعبيرات مع وحدة المعنى كما في القرآن الكريم، فإنه كتاب واحد مع أن فيه سبعة أحرف ولغات، فَقِس عليه حال الإنجيل.

قلنا: ليس هذا مثله؛ فإن اللغات الواردة في القرآن مرجعها واحد ليس فيها تناقض، بل بعضها شرح وبيان للبعض كما يعرفه من تدبر فيه وتفكر، مثلًا جاء في قوله تعالى في السارق ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (المائدة: ٣٨)، وجاء في قراة عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه «فَاقْطَعُوا أَيْمَانَهُمَا». فهذا تفسير لذلك وتبيين، ليس فيه تخالف وتهافت. بخلاف الأناجيل، فإن فيها تناقضًا وتهافتًا ظاهرا. وتفكر في بعض الأمثلة التالية

(١) مُرقُس ١/ ١٥.

ليتضح لك ذلك:

(١) قال متى في نسب المسيح عليه السلام: المسيح بن يوسف بن يعقوب. ولفظه: «ومتان ولد يعقوب، ويعقوب ولد يوسف رجل مريم ».[١] وقال لوقا: «وهو –على ما كان يظن– ابن يوسف بن هالي ».[٢] فجعله ابن يوسف بن هالي، ومتى جعله من ولد يعقوب. ويفهم من البعض أنه من ولد سليمان بن داود، ومن لوقا أنه من ولد ناثان بن داود.

(٢) ويستنتج من متى أن يوحنا المعمدان هو إيليا كما قال: «أردتم أن تقبلوا، فهذا هو إيليا».[٣] ويدل يوحنا أنه ليس إيليا: «فسألوه (يوحنا) إذًا ماذا إيليا أنت؟ فقال: لست أنا، النبي أنت؟ فأجاب: لا».[٤]

(٣) ويصرح مرقس أن ثلاث نسوة أتين إلى القبر، قال: «وباكرًا جدًّا في أول الأسبوع أتين إلى القبر إذ طلعت الشمس، هن: مريم المجدلية، ومريم أم يعقوب، وسالوته».[٥] ويقول يوحنا : إن امرأة واحدة أتت.

قال: «وأول الأسبوع جاءت مريم المجدلية إلى القبر باكرًا والظَّلام باق، فنظرت الحجر مرفوعًا من القبر».[٦]

هذه نماذج الاختلافات، وليس هذا إلا كقطرة من بحر؛ فإن العهدين مملوءان من الاختلافات والأغلوطات والتضاد، ومع هذه التناقضات الفاحشة التي لا يمكن التوفيق بينها، كيف يعد هذا إنجيلًا واحدًا، بل هي أناجيل وسير مختلفة، كتبها المؤرخون وفق علمهم، فتناقضوا، وتهافتوا.

---

(١) متى، الإصحاح: ٣ .

(٢) لوقا ٣/ ٣٣.

(٣) متى ١٩/ ١٣.

(٤) يوحنا ١/ ٢١.

(٥) مُرقُس ١٦/ ٢.

(٦) يوحنا، الإصحاح: ٢.

كلمة موجزة في مصنفيهم:

أولهم: متى:

هو من الحواريين الاثنى عشر. كان مأمورًا بأخذ العشر في كفر ناحوم، يزعمون إنجيله من أقدم الأناجيل. ومذهب القدماء منهم أنه كتب إنجيله بالعبرانية، وقد استشهد عليه العلامة عبد الرحمن باجه جي زاده بشواهد كثيرة، وإليك بعضها: ففي المجلد ١٩ من انسائيكلو بيديا بريتنكاه «كتب كل كتاب من العهد الجديد في اللسان اليوناني إلا إنجيل متى، والرسالة العبرانية، فإن تاليفهما باللسان العبراني أمرٌ يقينيٌ بالدلائل».

وقال لاردنر في صفحة ١١٩ من المجلد الثاني من الكليات: «وكتب بي بيسر أن متى كتب إنجيله بالعبرانية». وفي صحيفة ١٧٠ من المجلد المسطور: «كتب أرنيوس أن متى كتب إنجيله لليهود بلسانهم في الأيام التي كان بولس وبطرس يعظان في الروم». وفي صحيفة ٥٧٣ من المجلد المذكور قال لأرجن في ذلك ثلاث فقرات: «الأولى: نقلها يوسي بيس أن متى أعطى الإنجيل للمؤمنين من اليهود باللسان العبراني. والثانية: أن متىَّ كتب أولًا وأعطى الإنجيل للعبرانيين. والثالثة: أن متىَّ كتب الإنجيل للعبرانيين الذين كانوا ينتظرون شخصًا موعودًا من نسل إبراهيم وداود».(١)

فقد استنار لك من هذا أن أصل إنجيل متى كانت بالعبرانية ثم نقل إلى اليونانية، ولا ندري من تَرْجَمَه ونقله من العبرانية؟ وفي أي زمان ترجمه؟ وما حال ناقليه هل يعتمد عليهم أم لا؟ يهوديون أم مسيحيون؟ وقد اعترف به المسيحيون؛ فإنهم يقولون: إنه كتب بالعبرانية، وكانت في مكتبة قيصرية، لكن هذه النسخة العبرانية قد فقدت، قال جيروم وهو من علماء النصارى المتقدمين في ترجمة إنجيل متىَّ: لا يوجد إسناد هذه الترجمة، وحتى الآن لم يعلم باليقين اسم المترجِم.(٢)

---

(١) إظهار الحق ١/ ٤٢٣-٤٢٤.

(٢) الفارق بين المخلوق والخالق، ص٢١.

الثاني: إنجيل مُرقُس:

بضم الميم والقاف، ليس بحواري المسيح عليه السلام، بل هو تلميذ بطرس أقام كليَّة الإسكندرية، ولهذا يقولون لبابا خليفة الكلية الاسكندرية، واستشهد ٦٨م، وإنجيله أيضًا تاريخ ووقائع من وقائع المسيح نقله من شيخه البطرس، لا يمكن أن يقال له كتاب إلهامي، وقد اعترف به المسيحيون. قال ريس في المجلد التاسع عشر من كتابه المشهور إنسائيكلو بيديا الذي كتبه بمعرفة كثير من المحققين نقلًا عن مستركول في الفصل الثاني من رسالته في بيان الإلهام ما ملخصه: أن الكتب التي كتبها تلاميذ الحواريين مثل إنجيل مرقس ولوقا وكتاب الأعمال ليست بإلهامية.(١)

ولما ثبت أنه ليس من الحواريين وأنه كان منكرًا لألوهية المسيح، فكيف يعد إنجيله من الأناجيل النازلة على المسيح عليه السلام، وكيف يقال أنه كتاب إلهامي؟

والثالث: إنجيل لوقا:

ولوقا هذا من تلاميذ بولس الرسول مُحَرِّف الدين العيسوي ومُخَرِّبه، المخترع لعقيدة الفداء والتثليث، وإذا لم يلق بولس المسيحَ عليه السلام فما ظنُّك بتلميذه لوقا، وكان لوقا سافر مع بولس، قال بولس في رساته إلى أهل كولوليسي: «يسلم عليكم لوقا الطبيب الحبيب وديماس».(٢)

الرابع: إنجيل يوحنا:

يدعي النصارى أن مصنفه يوحنا بن زبدي من الحواريين، وحكم عليه في الرومية أن يلقى في الزيت المُغْلَى، فلم يمت، ثم نفي إلى جزيرة بالحموس، وبعد وفاة الملك راح إلى إفسس، وكان بعض الجماعات كثيرينطوس مابيسوس يعطون المسيحية ويكرِّزون(٣) بأن المسيح ليس إلا إنسانًا ولم يكن قبل أمه مريم، فاجتمعت أساقفة آسيا وخدماء الوطن في ٩٦م عند يوحنا والتمسوا منه أن يكتب عن المسيح وينادى بإنجيل مما لم يكتبه الإنجيليون

---

(١) الفارق بين المخلوق والخالق، ص ٢٦٧.

(٢) وللمزيد من البحث عن إنجيل لوقا راجع: الفارق بين المخلوق والخالق، ص٣٢٥-٣٢٧.

(٣) قوله: يكرزون، أي يدعون وينادون.

الآخرون، وأن يكتب بنوع خصوصي لاهوت المسيح، فلم يسعه أن ينكر إجابة طلبهم.[1]

لاح من هذا البيان أشياء:

الأول: أن مسيحي القرن الأول يعتقدون أن المسيح إنسان كامل كأناس آخرين، وما اعتقدوه من اللاهوت والناسوت في المسيح عليه السلام من اختراعات أذهانهم، لا تجد لها أثرا في عهد الحواريين .

والثاني: أن يوحنا الحواري لم يكن قائلا بخرافاتهم، لكنهم أكرهوه على تصنيف وابتداع إنجيل مشتمل على خُزَعْبلات وأباطيل.

الثالث: أن كتابهم ليس بإلهامي نزل على المسيح عليه السلام بل كتب بأمر الفرقة المارقة الخارجة من دين الله.

وذهبت طائفة عظيمة إلى أن يوحنا مصنف إنجيل يوحنا ليس من الحواريين. قال في «الفارق»: إن كثيرا من علمائهم أنكروا كون هذا الإنجيل تأليف يوحنا التلميذ؛ فمن ذلك ما كتبه استارلن ونقله عنه كاتلك هولد في صحيفة ٢٠٥ من المجلد السابع المطبوع ١٨٤٤م، ونصه: «إن كافة إنجيل يوحنا تصنيف طالب من طلبة المدرسة الاسكندرية». وقال المحقق برطشبند: «إن هذا الإنجيل كله وكذا رسائل يوحنا ليست من تصنيفه، بل صنفها أحد في ابتداء القرن الثاني ونسبه إلى يوحنًا ليعتبره الناس».[2]

تحريف الكتاب المقدس:

لقد بين القرآن الكريم تحريف الكتاب المقدس التوراة والإنجيل، وفيه قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ (فصلت: ٤٥)

وقد استشهد المسيحيون بسلامة الكتاب المقدس -في اعتقادهم، والمحرف في اعتقادنا- بآيات من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ (آل

---

(١) الفارق بين المخلوق والخالق، ص٣٤١.

(٢) الفارق بين المخلوق والخالق، ص٣٢.

عمران: ٣ – ٤) وقال عز وجل: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (المائدة: ٦٨)

وقال عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (النساء: ١٣٦)

فدلت الآيات المذكورة على أن التوراة والإنجيل -والمتبادر ما يتعارف بين الناس والموجود في العهد المسعود عهد النبي صلى الله عليه وسلم- مأمور بهما بالإيمان كالقرآن.

ونحن نجيب -وهو الصواب- أن المراد بالتوراة والإنجيل المنزَّلَين على موسى وعيسى عليهما السلام، لا الموجودَين المحرفين في أيديهم، ونحن نؤمن بالتوراة والإنجيل الأصليَّن وإن كانا عنقاء بل أشد افتقادًا منها. أما الموجودان الآن فقد ثبت تحريفهما، وصدَّقه المسيحيون، فقد سلَّموا التحريف في هذا القول «إن الذين يشهدون في السماء ثلاثة، وهم: الأب، والكلمة، والروح القدس؛ وهؤلاء الثلاثة واحدة. والشهود الذين يشهدون في الأرض ثلاثة، وهم: الروح، والماء، والدم؛ وهؤلاء الثلاثة تتحد في واحد». ففي هاتين الآيتين كان أصل العبارة على ما زعم محققوهم هذا القدر: «الشهود الذين يشهدون ثلاثة، وهم: الروح، والماء، والدم، وهؤلاء الثلاثة تتحد في واحد»، فزاد معتقدو التثليث هذه العبارة «في السماء ثلاثة، وهم: الأب، والكلمة، والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة واحدة، والشهود الذين يشهدون في الأرض» فيما بين أصل العبارة، وهذه العبارة إلحاقية محرفة عند جمهور بروتشنت، ومحققيهم، وكريسباخُ وشولز متفقان على كونها محرفة. وقال هورن مع تعصبه: إنها إلحاقية واجبة الترك.[1]

و يقر اليهود أن سبعين كاهنا اجتمعوا على اتفاق من جميعهم على تبديل ثلاثة عشر حرفًا من التوراة، وذلك بعد المسيح في عهد القياصرة الذين كانوا تحت قهرهم حيث زال الملك عنهم، ولم يتولهم ملك يخافونه ويأخذ على أيديهم، ومن رضي بتبديل حرف واحد من كتاب الله فلا يؤمَنُ عليه تحريف غيره.

(١) إظهار الحق ١/ ٣٩٤-٣٩٥.

واليهود أيضًا تعترف أن الساحرة حرفوا مواضع من التوراة، وبدلوها تبديلا ظاهرا، وزادوا ونقصوا. والسامرة يدعي ذلك عليهم.(١) وأقر القسيس فندر بأن التحريف وقع في سبعة أو ثمانية مواضع.(٢)

ويا للعجب كيف يقولون أن القرآن يصدق التوراة والإنجيل الموجودين، وقد وقع فيهما استهانة الأنبياء وسبُّهم والبهتان عليهم، والتثليث، والكفارة، وابنية المسيح، وغير ذلك. والقرآن ينهى عن هذا أشد النهي، بل هذا من أهم ما يبينه القرآن.

وقد بين القرآن تحريفه في مواضع شتى فقال عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة: ٧٩)

وقال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٧٥)

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (المائدة: ١٥)

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ (هود: ١١٠)

نماذج من التحريف والتناقض في كتابهم المقدس:

لاحاجة بعد ما أقروا بالتحريف إلى مزيد بيان، فإن المرء أدرى بما في بيته، لكن نفصِّل بعض التحريفات والتناقضات في كتابهم. وقد أطنب العلماء -شكر الله مساعيهم- في هذا الموضوع، لا سيما الشيخ الهندي الكيرانوي رحمة الله عليه. فالتحريف: وهو التغيير الواقع في كلام الله بالزيادة والنقصان، أو التبديل الواقع فيها. قال الشيخ الهندي ما فَذْلَكَتُه: أن النسخ المعتبرة عندهم للعهد العتيق ثلاث نسخ: النسخة العبرانية، واليونانية، والسامرية، وبينها اختلافات. مثلًا: الزمان من خلق آدم إلى طوفان نوح على وفق العبرانية ١٦٥٦ سنة، وعلى

(١) هداية الحيارى على هامش ذيل الفارق بين المخلوق والخالق، ص٢٧.

(٢) إظهار الحق ١/ ٣٩٦.

وفق اليونانية ٢٢٦٢ سنة، وعلى وفق السامرية ١٣٠٧سنة. وهذا اختلاف بالتبديل.(١)

وهكذا التحريف بالزيادة، فإن الكتب الثمانية، وهي: كتاب استير، وباروخ، وطوبيا، ويهوديت، ووزدم، وايكليز ياسيتكس، والكتاب الأول لمقابيين، والكتاب الثاني لمقابيين كانت غير مقبولة عندهم إلى سنة ٣٢٥ مسيحية، ثم انعقدت المجالس مرة بعد أخرى حتى سلَّموا هذه الكتب، وهذه زيادة. وأثبت علماء بروتستنت أن الترجمة اللاطينة محرفة. قال هورن في المجلد الرابع من تفسيره: وقعت التحريفات والالحاقات الكثيرة في هذه الترجمة من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر.(٢)

والتحريف بالحذف أيضًا كثير. مثلًا في النسخة العبرانية عبارة سفر التكوين هكذا: «ولما سكن إسرائيل تلك الأرض مضى روبيل وضاجع بلها سرية أبيه، فسمع إسرائيل». قال جامعو تفسير هنري واسكات: اليهود يسلمون أن شيئًا سقط من هذه الآية والترجمة اليونانية، تتمها هكذا: «وكان قبيحا في نظره».(٣)

وقد فصَّل هذه المباحثَ الشيخُ الكيرانوي أحسن تفصيل فليرجع إليه. والآن نقدم إليك نماذج التناقضات في كتبهم:

الأول: كما في صموئيل الثاني: «ونصب داود تذكارا عند رجوعه من ضربه ثمانية عشر أنفاس من روم في وادي الملح».(٤) وفي المزامير: «فرجع يوآب وضرب عن ادوم في وادي الملح اثني عشر ألفًا».(٥)

الثاني: في الملوك الثاني: «كان أخزيا ابن اثنتين و عشرين سنة حين ملك، وملك سنة واحدة في أورشَلِيم واسم أمه عَثْليا بنت عمري ملك إسرائيل».(٦) وفي أخبار الأيام الثاني: «كان أخزيا ابن اثنتين وأربعين سنة حين مَلَكَ وملك سنة واحدة في أورشَلِيم واسم أمه

(١) إظهار الحق ١/ ٣٣٨-٣٣٩ .
(٢) إظهار الحق ١/ ٤٥٣ .
(٣) إظهار الحق ١/ ٤١٥-٤١٦.
(٤) صموئيل الثاني ٨/ ١٣.
(٥) المزامير، الإصحاح: ٦٠.
(٦) الملوك الثاني ٨/ ٢٦.

عَثْلِيا بت عُمْري».[(١)]

والعجب أن أباه يهورام حين ملك كان عمره اثنتين وثلاثين سنة، وتولى الملك ثماني سنوات كما صرح به في أخبار الأيام الثاني: «كان ابن اثنتين وثلاثين سنة حين ملك، وملك ثماني سنوات في أورشَلِيم».[(٢)] فكان عمره حين الموت أربعين سنة. وهذا يفهمه صبيان المكاتب. وبعد موته لما تولى الملكَ ابنه الأصغر (كما هو المصرح) كان ابن اثنتين وأربعين سنة فكان ابنه الأصغر أكبر من أبيه سنتين فما ظنك بالأكبر!!! هذا هو العجب العجاب. وهذا تناقص صريح وتحريف بديهي لايمكن أن ينكره عاقل، وإن كان المنصرون مُصرِّين على سلامة كتابهم من التحريف، ولقد أحسن من قال:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ۞ وينكر الفم طعم الشهد من سقم

الثالث: في التكوين: «ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وإن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم، فحزن الرب أنه عمل الإنسان».[(٣)] وحاصله أنه ندم لخلق الإنسان؛ لأنهم يعملون الشر. وفي صموئيل الثاني: «وأيضًا نصيح إسرائيل لا يكذب ولا يندم؛ لأنه ليس إنسانًا ليندم».[(٤)]

هذه نبذة من اختلافات العهد القديم. وقد مرَّ بعض اختلافات الإنجيل، وإليك بعضًا آخر:

الأول: قال متى في بيان خروج المسيح عليه الصلاة والسلام من أريحا: «وإذا أعميان جالسان في الطريق».[(٥)] وذكر مُرقُص واحدًا، قال: «كان بارتيماوس جالسًا على الطريق يستعطي».[(٦)] وأنت تعلم أن بين الواحد والاثنين اختلاف بين.

الثاني: يعلم من متى أن يوحنا كان لا يأكل ولا يشرب، وعبارته: «لأنه جاء يوحنا لا

(١) أخبار الأيام الثاني ٢٢/ ٢.
(٢) أخبار الأيام الثاني ٢١/ ٢٠.
(٣) التكوين ٦/ ٥-٦.
(٤) صموئيل الثاني ١٥/ ٢٩.
(٥) متى ٢٠/ ٣٠.
(٦) مرقس ١٠/ ٤٦.

يأكل ولا يشرب، فيقولون: فيه شيطان».[١] ويفهم من مُرقُص أنه كان يأكل ويشرب. قال: «كان يوحنا يلبس وَبَرَ الإبل ومِنْطَقة من جلد على حَقْويه، ويأكل جرادًا وعَسَلًا بَرِّيًّا».[٢]

الثالث: اختلفوا في اسم من آمن بالمسيح حين اجتاز من المدينة، فقال متى: «وفيما يسوع مجتاز من هناك رأى إنسانًا جالسًا عند مكان الجِباية اسمه متَّى فقال له: اتْبَعْنِي. فقام وتَبِعه».[٣] ويعلم من مُرقُس ولوقا أن اسمه لاوي بن حلفي. قال: «وفيما هو مجتاز رأى لاوي بن حلفي جالسًا عند مكان الجِباية».[٤] وقال لوقا: «وبعد هذا خرج، فنظر عَشَّارًا اسمه لاوي جالسًا عند مكان الجباية فقال له: اتبَعني».[٥] وإن قيل: يجوز أن يكون لرجل واحد أسماء مختلفة، فيكون متى ولاوي اسم شخص واحد. فنقول في الجواب مستفيدين من كلام الشيخ رحمة الله: أنه قد جاء في أسماء الحواريين يعقوب بن حلفي، وجعلوا متى شخصًا آخر من الحواريين، فلو كانا واحدًا لجعلوا متَّى بن حلفي كما أن لاوي هو ابن حلفي.[٦]

وكتبهم مشحونة بالاختلافات، وفيما ذكرنا كفاية لمن له دراية، وهداية لمن به مرض ضلالة، والله يهدي إلى أقوم الطريق، وبيده أزمة التوفيق والتسديد.[٧]

---

(١) متى ١١/ ١٩.

(٢) مرقص ١/ ٦.

(٣) متى ٩/ ٩.

(٤) مرقص ٢/ ١٤.

(٥) لوقا ٥/ ٢٧.

(٦) إزالة الشكوك ١/ ٣٨.

(٧) وللمزيد من الاختلافات في الكتاب المقدس راجع كتاب «الاختلافات في الكتاب المقدس» للشيخ سمير سامي شحاتة. ذكر المصنف فيه أكثر من ثلاث مئة اختلاف.

حياة اليسوع المسيح في ضوء الأناجيل وعقيدة المسيحيين في عيسى عليه الصلاة والسلام

نسوق إليكم فيما يلي قول النصارى في المسيح عليه السلام، وما قالوه في حياته ملخصًا كما جاء في الأناجيل. قالوا: أرسل الله جبريل في بلدة اسمها: ناصرة، إلى امرأة اسمها: مريم، وكانت مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا، فسلم جبريل عليها وقال: وجدتِ منحة الله وها أنتِ ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوعا، وفيما هو متفكر إذ قال له ملاك الرب وظهر عليه في النوم: يا يوسف لا تخف، فإن الحبل نفخة من الروح القدس، فتلد ابنا اسمه يسوع، فقالت مريم: أنى يكون لي ولد ولا أعلم رجلًا. فقال ملاك الرب: ينزل عليك روح القدس ويكون المولود المقدس ابن الله. قالت: إني أمة الله، نسمع قولك بالرأس والعين.

ولادته عليه السلام:

وفي تلك الأيام صدر أمر من أوغسطس بأن يكتتب كل المسكونة، فصعد يوسف من الجليل من الناصرة إلى اليهودية مدينة داود تدعى بيت اللحم ليكتب مع مريم -وهو حبلى- اسمهما، وفيما هما هناك اذ تمت أيامها لتلد فولدت ابنها البكر وكان في تلك الكورة زعاة يحرسون حراسات الليل على رعيتهم، وإذا ملاك الرب وقف بهم، ومجد الرب أضاء حولهم، فخافوا خوفًا عظيماً فقال لهم الملاك: لا تخافوا، فها أنا أبشِّركم بفرح عظيم: أنه ولد لكم اليوم في مدينة داود مُخَلِّصٌ هو المسيح الرب، فجاءوا مسرعين ووجدوا مريم ويوسف والطفل مضطجعًا في المذود، فلما رأوه أخبروا بالكلام الذي قيل لهم عن الصبي، وجميع من سمعوا تعجبوا مما قيل لهم من الرعاة.

اختتانه وتسميته عليه السلام:

وبعد ثمانية أيام اختتنوه وسمَّوْه يسوعًا. ولما تمت أيام تطهيرها صعدوا به إلى يروشليم

ليقدموا للرب، وكان رجل في أورشليم اسمه سمعان، وهذا الرجل كان بَرًّا تقيًّا، فأتى بالروح إلى الهيكل، وعند ما دخل بالصبي يسوع أبواه ليصنعا له حسب عادة الناموس أخذه على ذراعيه وبارك الله ودعا، ولما أكملوا كل شيء وفق ناموس الرب رجعوا إلى الجليل إلى مدينتهم الناصرة، وكان الصبي ينمو ويتقوى بالروح ممتلئا حكمة، وقد أنعم الله عليه، وكان أبواه يمشيان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح.

ظهوره عليه السلام:

ولما تولد في بيت لحم في أيام هيردوس رأوا نجمًا في المشرق، وجاءت المجوس إلى يروشليم قائلين أين المولود ملكُ اليهود؟ أتينا نسجد له. فلما سمع هيردوس اضطرب هو وجميع أورشليم، فجمع كل الكهنة وكتبة الشعوب وسألهم: أين يولد المسيح؟ فقالوا: في بيت لحم اليهودية. حينئذ دعا هيردوس المجوسَ سرًّا وسألهم عن وقت طلوع النجم وقال: اذهبوا وفَحِّصُوا بدقة عن الصبي، ومتى وجدتموه فأخبروني لكي آتي أنا أيضًا وأسجد له. فلما سمعوا من الملك ذهبوا، وإذا النجم الذي رأوه في المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف فوق مكان كان فيه الصبي، فأتوا إلى البيت وسجدوا له وقدَّموا له هدايا ذهبًا ولُبَانًا(١) ومرًّا. ثم أوحي إليهم في حلم أن لا يرجعوا إلى هيرودوس، فانصرفوا في طريق آخر إلى كورتهم (قبيلتهم)، وبعد ما انصرفوا إذا ملاك الرب قد ظهر قائلًا ليوسف قم وخذ الصبي واذهب إلى مصر، فقام وأخذ الصبى وجاء ليلا إلى مصر وكان هناك إلى وفاة الملك. ولما رأى هيرودس أن المجوس سخروا به وخدعوه غضب، فحكم فقتل من في بيت لحم من الصبيان، وبعد موته ملاكُ الرب ظهر ليوسف في حلم قائلاً: قم وخذ الصبي واذهب إلى إسرائيل، لكن لما سمع أن أرخيلاوس تملك على اليهودية بعد هيردوس خاف أن يقع عليه وقائع، وإذا أوحي إليه أن انصرف إلى نواحي الجليل فأتى وسكن في مدينة يقال لها: ناصرة.

وجوده في الهيكل:

ولما تم له اثنتا عشرة سنة صعد إلى أورشليم كعادة العيد، وبعد ما أكملوا المدة

---

(١) اللُّبان: (بالضم) ضرب من الصَّمغ، يقال له: الكُنْدُر. (تاج العروس)

ورجعوا، وتخلف عنهم الصبي يسوع في أورشلم، ويوسف وأمه لم يعرفا الأمر، ولما لم يجداه رجعا إلى أورشليم يطلبانه، وبعد ثلاثة أيام وجداه في الهيكل جالسا في المعلمين يسمعهم ويسألهم، والذين يستمعون إليه يَبْهتون من فطانته وذكاوته وأجوبته، فلما أبصراه اندهشا وقالت له: «يا بني! لما فعلت بنا هكذا؟ إنا نطلبك معذَّبَين»، فقال لهما: «لما كنتما تطلبانني؟ ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون في ما لأبي».

الاصطباغ والوحي:

وحينما بلغ عمره ثلاثين سنة جاء من الجليل إلى الأردن إلى يوحنًّا ليَعْتَمِد منه بِمَعْمُوْدِيَّة التوبة لمغفرة الخطايا، لكن يوحنًّا أنكر قائلا: أنا محتاج لأن اعتمد منك وأنت تأتي إلي. فأجاب يسوع وقال له: اسمح الآن؛ لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل برٍّ. حينئذ سمح له، فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء، وإذا السَّموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلًا مثل حمامة آتيًا عليه وصوتًا من السموات قائلًا: هذا هو ابنى الحبيب الذي به سُرِرت وفرحت، ورجع من الأردن ممتلئًا من الروح القُدُس.

معجزاته عليه السلام:

مَن طالع الإنجيل وأمعن فيه تيقن أن حياة المسيح عليه السلام لم تكن إلا وعاء للمُعجزات، ما من لَمحة إلَّا له فيها خارقة، والآن نذكر منها ما هو يوافق القرآن الحكيم، فكان يحي الموتى ويشفي المرضى كما في إنجيل متَّى: «وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ويكرِّز (يعلن) بشارة الملكوت، ويَشفي كل مرض، وكل ضعف في الشعب، فذاع خبره في جميع سورية، فأحضروا إليه جميع السقماء المصابين بأمراض وأوجاع مختلفةٍ والمجانين والمصروعين والمفلوجين، فشفاهم».[1] والأناجيل مملوءة من معجزاته عليه السلام من شاء فلينظر.

---

(١) متى ٤/ ٢٣-٢٤.

حوارى اليسوع المسيح عليه الصلاة والسلام:

كان له اثنا عشر حواريًّا، اختارهم من بين أمته يُقوُّونه في دينه، ويلازمونه في السفر والحضر، ويساعدونه في الشدائد. وأسماءهم مذكورة في العهد الجديد. قال متى: «ثم دعا تلاميذه الاثني عشر رسولًا وأعطاهم سلطانًا على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويَشفوا كل مرض. وأما أسماء الاثني عشر رسولًا فهي هذه: (١) سِمعان الذي يقال له بُطرُس. (٢)أَندراوُس، أخوه. (٣) يعقوب بن زبدي. (٤) يوحنَّا، أخوه. (٥) فيلُبُّس. (٦)بَرتولماوُس. (٧) توما. (٨) متى العشار. (٩) يعقوب بن حَلفي. (١٠) لباوس الملقب تَدَّاوُس. (١١) سِمعان القانوي. (١٢) يهوذا الإسخريوطي الذي أسلم المسيح».[(١)]

تبليغه وتعنيفه اليهود، وغضبهم عليه:

ثم إنه قد بلَّغ ودعا، وأمر ونهى فقال: «متى صليتم فلا تكونوا كالمرائين، ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين، ولا تكنزوا لكم كنوزًا على الأرض». وخاطب اليهود خصوصًا وحذَّر تلاميذه من اتِّباعهم، وعَنَّفَهُم بألفاظ شديدة، فقال في أعمالهم: «لا تعملوا؛ لأنهم يقولون ما لا يفعلون». وقال مخاطبا: «لكن ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون؛ لأنكم تُغلقون ملكوت السماوات قُدام الناس، فلا تدخلون أنتم ولا تَدَعون الداخلين ليدخلوا، ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون -هم بعض اليهود-؛ لأنكم تأكلون بيوت الأرامل. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون؛ لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلًا واحدًا. ومتى حصل تصنعونه لجهنم أكثرَ منكم مضاعَفا. أيها القادة والعميان الذين يصدفون عن البعوضة ويبلعون الجَمَل» إلى غير ذلك. فغضب لذلك اليهود وعزموا على قتله وشرعوا في الحيل الزائغة. واطَّلع على ذلك اليسوع المسيح وأخبر تلاميذه بذلك، كما قال متى:

«ولما أكمل يسوع هذه الأقوال كلها قال لتلاميذه: «تعلمون أنه بعد يومين يكون الفصح وابن الإنسان يصلب». وحينئذ اجتمع رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشعب إلى دار رئيس الكهنة الذي يدعى قيافًا وتشاوروا لكي يمسكوا يسوع بمكر ويقتلوه، ولكنهم

---

(١) متى ١٠/ ١-٤.

قالوا: ليس في العيد لئلا يكون شغب في الشعب. حينئذ ذهب واحد من الاثني عشر الذي يدعى يهوذا الإسخريوطي إلى رؤساء الكهنة، وقال: ماذا تريدون أن تعطوني وأنا أسلمه إليكم؟ فجعلوا له ثلاثين من الفضة، ومن ذلك الوقت كان يطلب فرصة ليسلمه».(١)

العشاء الأخير:

وفي أول يوم الفطر تقدم التلاميذ إلى يسوع قائلين: أين تريدون أن نُعِدَّ لك لتأكل الفصح؟ فقال: اذهبوا إلى المدينة إلى فلان وقولوا له: المعلم يقول: إن أجلي قريب. عندك أصنع الفصح مع تلاميذي، ففعل التلاميذ ما أمرهم يسوع، وهيئوا الفصح، ولما كان المساء اتكأ مع الاثني عشر، وفيما هم يأكلون قال: الحق أقول لكم أن واحدا منكم يسلمني، فحزِنوا جدًّا، وابتدأ كل واحد منهم يقول: هل أنا هو يا رب؟ فأجاب وقال: الذي يغمس يده معي في الصفحة هو يسلمني. إن ابن الإنسان ماض كما هو مكتوب عنه، ولكن ويل لذلك الرجل الذي به يسلم ابن الإنسان، كان خيرا لذلك الرجل لولم يولد. فأجاب يهوذا مُسَلِّمُه وقال: هل أنا هو يا سيدي؟ قال له: أنت قلت؟ وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسَّر وأعطى التلاميذ وقال: خذوا وكلوا هذا هو جسدي، وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلا: اشربوا منها كلكم؛ لأن هذا هو دمي الذي يُسْفَك من أجل كثيرين لِـمَغفرة الخطايا.

قتله على الصليب عندهم:

وفيما هو متكلم إذ يهوذا أحد الاثني عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعِصِيّ من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب، والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلا: الذي أقبّله هو هو، أمسكوه، فللوقت تقدم إلى يسوع وقال: السلام يا سيدي وقبَّله، فقال له يسوع: يا صاحب لماذا جئت؟ حينئذٍ تقدموا وألقوا الأيادي على يسوع وأمسكوه، وإذا واحد من الذين مع يسوع استل سيفه، فمنعه يسوع، فأمسكوه ومضوا به إلى رئيس الكهنة، فدخل وجلس بين

(١) متى ٢٦/ ١-١٦.

الكهنة، وجاءوا بشاهدي زور ليحتالوا في قتله بعد سعي بليغ، ولما آن وقت انفلاق الصبح تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع ليقتلوه، فأوثقوه ومضوا به إلى بيلاطس النبطي الوالي، فوقف يسوع أمام الوالي، وكان الوالي يعتاد في العيد أن يطلق أسيرًا واحدا مَن أراده، وكان حينئذ أسير مشهور يسمى باراباس ففيما هم مجتمعون قال لهم بيلاطس: مَنْ تريدون أن أُطلِق لكم باراباس أم يسوع؟ لأنه علم أنهم أسلموه حَسَدًا، ولكن رؤساء الكهنة والشيوخ حرَّضوا الجميع على أن يطلقوا باراباس ويهلكوا يسوع، فاتفق الجمع على صلبه، فأخذ عسكر الوالي يسوعَ إلى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتيبة فعَرُّوه وألبسوه رداء قرمزيا، وضفروا إكليلا من شوك ووضعوه على رأسه، وقصبة في يمينه، وكانوا يجثون قُدَّامه ويستهزئون به قائلين: السلام يا ملك اليهود، بصقوا عليه وأخذوا القصبة وضربوا رأسه، وبعد ما استهزءوا به نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا به للصلب، وسخروا رجلًا قيروانيا ليحمل صلبه وصلبوه (يسوع)، وصُلِبَ معه لصان: واحد عن اليمين وواحد عن اليسار. ومن الساعة السادسة كانت ظلمة على كل الأرض إلى الساعة التاسعة، ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا: إيلي إيلي لما شبقتني، أي إلهي إلهي لماذا تركتني؟ وصاح بصوت عظيم، وأسلم الروح.

دفنه ورفعه إلى السماء بعد ثلاثة أيام:

وجاء رجل اسمه يوسف وقت المساء يطلب جسد المسيح، فأعطاه بيلاطس، فأخذه يوسف ولفَّه بكتان نَقِيٍّ ودفنه. وفي الغد اجتمع رؤساء الكهنة إلى بيلاطس، وقالوا: إن ذلك المضل قال في حياته: إنّي أقوم بعد ثلاثة أيام، فأمر بضبط القبر إلى اليوم الثالث لئلا ينبشوه من قبره، وبعد السبت عند فجر أول الأسبوع حدثت زلزلة عظيمة، وجاء ملاك الرب ودَحْرَجَ الحجر عن الباب، وقام اليسوع من القبر وتكلم مع امرأتين مريم المَجْدلية ومريم الأخرى اللتين جاءتا لتزورا قبره، وبعد ما لاقى تلاميذه وبارك فيهم أُصعِد إلى السماء وجلس عن يمين الرب.(١)

---

(١) هذه خلاصة ما في الأناجيل، وحياة المسيح (مسیح کی زندگی) لايلس ريناود، وغير ذلك من كتبهم.

عقيدة المسلمين في عيسى عليه السلام وفق ما نطق به كلام الله تعالى:

هو عبد الله ورسوله، اسمه عيسى بن مريم. والمسيح قيل: اسمه، لقوله تعالى: ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ (آل عمران: ٤٥). وقيل: لقبه. واختلف في معناه كما فصله العلامة الآلوسي: عيسى معرب يشوع، ومعناه السيِّد. وعن كثير من السلف أن المسيح مشتق. واختلفوا في وجه إطلاقه على عيسى، فقيل: أنه مسيح بالبركة واليمن. وروي ذلك عن الحسن وابن جبير. وقيل: لأنه كان يمسح عين الأكمه فيبصر، وروي ذلك عن الكلبي. وقيل: لأنه كان لا يمسح ذا عاهة بيده إلا برئ، رواه عطاء والضحاك عن ابن عباس. وقال الجبائي: لأنه كان يمسح بدهن زيت بورك فيه، وكانت الأنبياء تتمسح به. وقيل: لأن جبريل مسحه بجناحيه وقت الولادة ليكون عَوْذَة من الشيطان الرجيم. وقيل: لأنه حين مسح الله ظهر آدم فاستخرج منه ذرات ذريته، لم يرده إلى مقامه كما فعل بباقي الذرات، بل حفظه عنده حتى ألقاها إلى مريم، فكان قد بقي عليه اسم المسيح أي الممسوح.[1]

المسلمون قاطبة متفقون على أن عيسى وأمه عليهما السلام كانا عبدين كاملين من عباد الله، عيسى عبد الله ورسوله، وأمه صدِّيقة من أولياء الله تعالى صدقت بكلمات ربها وكانت من القانتين. وقد فرط فيه فرقة، وأفرطت الأخرى. فأفرطت النصارى وفرَّطت اليهود، فقالت النصارى بألوهيتهما ويصلون لِـمَريم، واليهود ينسبون المسيح إلى غير رشدة، وأمَّه إلى السِّفاح -معاذ الله-. فأفرط النصارى كما فرطت اليهود. والمسملون يعتقدون أن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله كما أن مريم طاهرة نظيفة، نفخ في جيب درعها جبرئيلُ، وقد بين الله تعالى ذلك في القرآن الكريم بقوله عزَّ وجلَّ في سورة مريم: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾ يعني اعتزلت وانفردت ﴿مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ يعني أتت مكانا شرقيا من بيت المقدس أو من دارها لتتخلى للعبادة ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ قيل: قعدت في مشرفة لتتطهر من الحيض، ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ والأكثر على أنه جبريل جاءها في صورة شاب أمرد وضيئ الوجه، وسمي روحاً لأنه سبب لما فيه روح العباد. ويقدر

(١) روح المعاني ٣/ ١٦١.

جبريل عليه السلام أن يتمثل بصورة رجل كما كان يتمثل حين يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم بصورة دِحيَة الكلبي رضي الله عنه. وكان أحسن الصحابة وجهاً. ثم إنه نفخ في جيبها، وقيل: في كمها، وقيل: في فمها، وقيل: غير ذلك. فدخلت النفخة في جوفها فحملت بعيسى عليه السلام. ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩﴾. قالتْ تعجبًا: ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠﴾ أي لم أتزوج ولم أبغ ولم أزن. ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ٢٢﴾ يعني لما ثقلت اعتزلت بعيدًا من أهلها. ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾. واختلفوا في مدة حملها، فقيل: ساعة واحدة وهو المروي عن ابن عباس، وقيل: كانت سبعة أشهر، وقيل: ستة أشهر. وقيل غير ذلك. ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ قال ابن عباس: لما اشتد عليها الطلق نظرت إلى أكمة، فصعدت مسرعة فإذا عليها جذع نخلة نخرة ليس عليها سعف، وكان وقت الشتاء فـ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ استحياء من الناس وخوفًا من أئمتهم، وإلا فهي تعلم ما جرى بينها وبين جبريل من الوعد الكريم. ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ وروي أن جبريل عليه السلام ضرب برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولا، وجعل الرطب يقع بين يديها، وكان برنيًّا، وقيل: عجوة، وإنما كان رطبا؛ لأنه ورد: «لا للنفساء خير من الرطب، ولا للمريض خير من عسل».(١) ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾. وكان عيسى عليه السلام يرضع، فلما سمع ما قالوا ترك الرضاع وأقبل بوجهه عليهم، وقيل: إن زكريا عليه السلام أقبل يستنطقه. ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا

---

(١) الجواب الفسيح، ص١٧٩. وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٩/ ٥٦٦): «روى عبد بن حميد من طريق شقيق بن سلمة قال: لو علم الله أن شيئا للنفساء خير من الرطب لأمر مريم به. ومن طريق عمرو بن ميمون قال: ليس للنفساء خير من الرطب أو التمر. ومن طريق الربيع بن خثيم قال: ليس للنفساء مثل الرطب ولا للمريض مثل العسل. ثم قال الحافظ ابن حجر: «أسانيدها صحيحة».

كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

هذه قصة المسيح بن مريم بيَّنها الله تعالى، ليس فيها مسئلة البنوة، وكونه كفارة للذنوب، وغير ذلك من الخرافات والاختراعات، بل صورة صحيحة للواقعة، ليس فيها استخفاف ولا تذليل، ولا تناقض ولا تدافع، ولله دَرُّ العلامة ابن حزم حيث جمع أقوالهم في اليسوع المسيح وتناقضهم في ذلك واستخفافهم وضلالتهم فقال: وجملة أمرهم في المسيح عليه السلام أنه مرة بنص أناجيلهم ابن الله، ومرة هو ابن يوسف وابن داود وابن إنسان، ومرة هو إله يخلق ويرزق، ومرة هو خروف[1] الله، ومرة هو في الله والله فيه، ومرة هو في تلاميذه وتلاميذه فيه، ومرة هو علم الله وقدرته، ومرة لا يحكم على أحد ولا ينفذ إرادته، ومرة هو نبي وغلام الله، ومرة أسلمه الله إلى أعداءه، ومرة قد انعزل الله له عن الملك وتولاه هو، وصار يشرف الله تعالى، ويعطي مفاتيح السموات ويولي أصحابه خطة التحريم والتحليل في السموات والأرض، ومرة يجوع ويطلب ما يأكل، ويعطش ويشرب ويعرق من الخوف، ويلعن الشجرة إذا لم يجد فيها تينًا يأكله، ويفشل فيركب حماره، ويؤخذ، ويلطم وجهه، ويضرب رأسه، ويبزق في وجهه، ويضرب ظهره بالسياط، ويميته الشُرط، ويتهكمون به، ويسقى الخمر في الحنظل، ويصلب بين سارقين، ويسمر يداه، ومات في الساعة، ودفن، ثم يحيى بعد الموت، وسقوه العسل، ثم انطلق إلى شغله. هذا كله نص أناجيلهم.[2]

وهل هناك استهانة واحتقار أكثر من هذا! إذ اتفقوا على أن اليهود أخذوه وساقوه بينهم ذليلًا مقهورًا، وهو يحمل الخشبة التي صلبوه عليها، وأنهم يبصقون في وجهه ويضربونه، ثم صلبوه وطعنوه بالحربة حتى مات وتركوه مصلوبًا حتى التصق شعره بجلده لما يبس دمه بحرارة الشمس، ثم دفن وأقام تحت التراب ثلاثة أيام، ثم قام بلاَهُوْتِيَّته من قبره. هذا قول جميعهم، وليس فيهم من ينكر.[3]

---

(١) الخروف: الذكر من الضأن، ولعل المراد هنا: المحبوب. وقيل: ولد الفرس.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/ ٥٩، للعلامة ابن حزم الظاهري رحمة الله عليه، بحذف.

(٣) منحة القريب المجيب، ص ١٥٩.

نبوته عليه السلام:

ثم إن مريم بعد أن فطمته وصلح للتعلم جعلته مع صبيان اليهود ليتعلم، ثم بعد ذلك بمدة أتاه الوحي وادَّعى النبوة. واختلف في زمن رسالته فقيل: في الصبا وهو ابن ثلاث سنين، وفي البحر: أن الوحي أتاه بعد البلوغ وهو ابن ثلاثين سنة، فكانت نبوته ثلاث سنين.[(١)]

معجزاته عليه السلام:

وأكرمه الله تعالى بالمعجزات الباهرة، يشفي الله به المرضى الذين عجز عن مداواتهم الأطباء، ويُبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، ويحيي الموتى بإذن الله، وغيرها من المعجزات، قال الله تعالى: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ (المائدة: ١١٠)

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ٤٩)

دعوته لليهود، وتدبيرهم القتل، ورفعه إلى السماء:

ثم لما بلغ ثلاثين سنة (على قول) بعثه الله نبيًّا أمَرَ ونَهَى، وسنة الله في أنبيائه أنهم يصابون من الكفار بِمصائب شديدة، فهذا إبراهيم عليه السلام صَدَّه نَمرود عن الإبلاغ وألقاه في النار، وهذا موسى عليه السلام لم يستمع له فرعون وردَّه ولم يلق له بالًا ورَدَّ كلامه أفظع ردٍّ، وكذلك عيسى عليه السلام خالفته اليهود ومكروا ليقتلوه، ومكر الله والله خير الماكرين. فروي عن ابن عباس رضي الله عنه أن رهطا من اليهود سبُّوه عليه السلام وأمه، فدعا عليهم، فمُسِخوا قردة وخنازير، فبلغ ذلك يهوذا رأس اليهود، فاتفقوا على قتله،

---

(١) روح المعاني ٣/ ١٦٧.

فساروا إليه ليقتلوه، فأدخله جبريل عليه السلام بيتا ورفعه منه إلى السماء ولم يشعروا بذلك، فدخل عليه طيطانوس ليقتله، فلم يجده وأبطأ عليهم، وألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام، فلما خرج قتلوه وصلبوه. وقال ابن المنذر: أتى عيسى عليه السلام ومعه سبعة وعشرون فأحاطوا بهم، فلما دخلوا عليهم صَيَّرَهم الله كلهم على صورة عيسى عليه السلام، فقالوا لهم: سحرتمونا، لَيَبْرُزَنَّ لنا عيسى (عليه السلام)، أو لنقتلنكم جميعًا، فقال عيسى عليه السلام لأصحابه: من يشتري نفسه منكم بالجنة؟ فقال رجل منهم: أنا، فخرج إليهم فقال: أنا عيسى، فقتلوه وصلبوه. ورفع الله تعالى عيسى عليه السلام من بينهم.(١)

وقيل: كان رجل من الحواريين ينافق عيسى عليه السلام، فلما أراد قتله قال: أنا أدلكم عليه، وأخذ على ذلك ثلاثين درهما، فدخل بيت عيسى، فرُفِع عليه السلام وألقي شبهه على المنافق، فدخلوا عليه فقتلوه، وهم يظنون أنه عيسى عليه السلام.(٢)

وكان عيسى عليه السلام يلبس الصوف والشعر، ويأكل من نبات الأرض، ورُبَّما تَقَوَّت من غزل أمه.(٣)

وبالجملة لم يفوزوا في مرامهم، ورفعه الله تعالى إلى السماء، والآن هو في السماء يجيء في آخر الزمان عند قرب القيامة، فيحكم بدين محمد صلى الله عليه وسلم، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله الكريم: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ (النساء)

وقد جاء في نزوله أحاديث، منها: قوله عليه الصلاة والسلام: «ينزل عيسى بن مريم إلى الأرض فيتزوج ويولد له ويمكث خمسًا وأربعين سنة ثم يموت فيدفن معي في قبري».(٤)

---

(١) الجواب الفسيح، ص ١٨٤.

(٢) روح المعاني ٦/ ١٠.

(٣) المختصر في أخبار البشر ١/ ٣٥.

(٤) أورده ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/ ٩١٥) بإسناده عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا، وقال: «هذا حديث لا يصح، والإفريقي ضعيف بمرة». وأورده أيضًا في كتابه «الوفاء في حقوق المصطفى» (٢/ ٨٢٤). وقال الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٢/ ٥٦٣): «قال ابن القطان: من الناس من يوثق عبد الرحمن الإفريقي ويربأ به عن حضيض رد

وفي معالم التنزيل: فبعث الله جبريل، فأدخله في خوخة في سقفها روزنة، فرفع إلى السماء من تلك الروزنة، فأمر يهوذا رأس اليهود رجلًا من أصحابه يقال له: ططيانوس أن يدخل الخوخة ويقتله، فلما دخل لم ير عيسى، فأبطأ عليهم، فظنوا أنه يقاتله فيها، فألقى الله شبه عيسى عليه السلام فقتلوه وصلبوه.(١)

خلاصة الاختلاف بين المسلمين والمسيحيين في شأن عيسى عليه السلام:

فقد ظهر فيما سبق الاختلاف بين المسلمين والمسيحيين في أمور في شأن المسيح عليه السلام:

يقولون: قُتِل وصلِب بأيدي اليهود. ونعتقد معشر المسلمين أنه لم يقتل ولم يصلب، بل رفع إلى السماء حيًّا وحفظه الله من كيدهم ومكرهم. ومكروا ومكر اللهُ، والله خير الماكرين.

ويقولون: كان قتله كفارة عن ذنوب بني آدم. ونعتقد أن عقيدة الكفارة باطلة من خُزَعْبَلاتِ بولس محرِّف الدين العيسوي.

ويزعمون أنه ابن الله وثالث ثلاثة. ونحن نقول: هو بشر وعبد الله ورسوله خُلِق من بطن مريم، ومن قال غير ذلك فقد جاء ظلمًا وزورًا، والله على ما نقول شهيد.

ويقولون: كان أعظم حوارييه يهوذا مكر باليسوع وأخذه وأحاله إلى اليهود. ونقول: كانت حواريُّه وأصحابه من المؤمنين الصادقين.

والآن نريد أن نبحث على وجه الإيجاز عن كل مسألة من هذه المسائل ليعلم أن الحق مع المسلمين، والمسيحيون ليسوا على شيء، بل مذهبهم كسَراب بِقِيعَة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا. والله ولي التوفيق، وبيده أزمة التحقيق. ونذكر هاهنا حال حواري عيسى عليه السلام لقلة محتوياته، ثم نبين إن شاء الله تعالى المسائل الأخرى. فإن لكل مقال مقامًا، ولكل مقام مقالًا.

الرواية، ولكن الحق فيه أنه ضعيف. وكان البخاري يقوى أمره، ولم يذكره في كتاب الضعفاء».وقال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في تعليقاته على «التصريح بما تواتر في نزول المسيح» (ص٢٤٠): «هذه رواية ضعيفة».

(١) معالم التنزيل ٢/ ٤٤.

عقيدة المسلمين في حواري عيسى عليه السلام:

يشهد القرآن العظيم على أن المسيح عليه السلام من أولي العزم من الرسل، كان له حواريون وأصحاب صادقون يؤمنون به ويبلغون دينه ويلازمونه في الحضر والسفر وينصرونه في دين الله كما نطق به القرآن الكريم. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (آل عمران)

وقال تعالى في مقام آخر: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ (المائدة: ١١١)

وقال عز وجل في موضع آخر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ (الصف: ١٤)

هكذا يفصح القرآن حال مخلصي عيسى عليه السلام وخاصته الذين اختارهم ليكونوا ناصريه. وقد ذكرنا أسماءهم من قبل.

والحواريون مَنْ هُم، ولِـمَ سموا حواريين؟ فيه أقوال شتى جمعها المفسرون. وأقدم لك في ذلك ما ذكره العلامة الآلوسي في تفسيره «روح المعاني» فقال: أصله من التحوير، أي التبييض. وقال بعد ذلك بسطور: واختلف في سبب تسمية أولئك القوم بذلك، فقيل: سموا بذالك لبياض ثيابهم، وهو المروي عن سعيد بن جبير. وقيل: لأنهم كانوا قصارين يبيضون الثياب للناس، وهو المروي عن مقاتل وجماعة. وقيل: لنقاء قلوبهم وطهارة أخلاقهم، وإليه يشير كلام قتادة.

وفي تعين أنهم مِنْ أي الطوائف مِنَ الناس خلافٌ أيضًا، فقيل: قوم كانوا يصطادون السمك، فيهم يعقوب وشمعون ويوحنا، فمر بهم عيسى عليه السلام فقال لهم: أنتم تصيدون السمك، فإن اتبعتموني صرتم بحيث تصيدون الناس بالحياة الأبدية، فقالوا له: من أنت؟ قال: عيسى بن مريم عبد الله ورسوله. فطلبوا منه المعجزة، وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة فما اصطاد شيئًا، فأمر عيسى عليه السلام بإلقائها في الماء مرة أخرى ففعل

فاصطاد ما ملأ سفينتين.

وقيل: هم اثنا عشر رجلًا، أو تسعة وعشرون من سائر الناس، اتبعوا عيسى عليه السلام، وكانوا إذا جاءوا قالوا: يا روح الله جعنا. فيضرب بيده على الأرض فيخرج لكل واحد رغيفان. وإذا عطشوا قالوا: عطشنا، فيضرب بيده على الأرض فيخرج الماء فيشربون. فقالوا: من أفضل منا! إذا شئنا أطعمتنا، وإذا عطشنا أسقيتنا، وقد آمنا بك. فقال: أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه. فصاروا يغسلون الثياب بالكراء ويأكلون.

وقيل: إن واحدًا من الملوك صنع طعامًا وجمع الناس عليه، وكان عيسى على قصعة فكانت القصعة لا تنقص، فذكر ذلك للملك فذهب إليه الملك مع أقاربه، فأولئك هم الحواريون.

وقيل: إن أمه دفعته إلى صباغ، فكان إذا أراد أن يعلمه شيئا وجده أعلم فيه، فغاب الصباغ يومًا لِهَمٍّ وقال له: هاهنا ثياب مختلفة، وقد جعلتُ على كل واحد منها علامة، فاصبغها بتلك الألوان. فطبخ عيسى عليه السلام جبًّا واحدًا وجعل الجميع فيه وقال: كوني بإذن الله كما أريد، فرجع الصباغ فأخبره بما فعل، فقال: أفسدت علي الثياب. قال: قم فانظر، فكان يخرج ثوبًا أحمر وثوبًا أخضر وثوبًا أصفر كما كان يريد، فتعجب الحاضرون منه، وآمنوا به، وكانوا الحواريين.

ونقل جمع عن القفال أنه يجوز أن يكون بعضهم من الملوك، وبعضهم من الصيادين، وبعضهم من القصارين، وبعضهم من الصباغين، وبعضهم من سائر الناس، وسموا جميعًا الحواريين؛ لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه السلام، والمخلصين في طاعته ومحبته .انتهى.

والمسيحيون يزعمون في زعمائهم وأصحاب نبيهم ما لا ينبغي أن يُتَفَوَّهَ به، فنسبوا اليهوذا الإسخريوطي إلى أنه قبض على المسيح وأخذ ثلاثين درهمًا، فاختار النار على الإيمان كما نطق به إنجيلهم: وقال اليسوع: «ولكن الويلَ لمن يُسلِّم ابن الإنسان، كان خيرًا له أن لا يُولَد».[1] وما قال متىَّ أنه ندم وردَّ الثلاثين من الفضة يخالف الويلَ القائل في حقه، ويخالِف قولَ بطرس في حقه في أعمال الرسل: «يا إخوتي كان لا بدَّ أن يتم ما أنبأ به الروح القدس في

(١) متى ٢٦/٢٤.

الكتاب من قبلُ بلسان داود، على يهوذا، الذي جعَل نفسَه دليلًا للذين قَبضوا على يسوع. كان واحدا مِنَّا له نصيبٌ معنا في هذه الخدمة، ثم اشترى بثمن الجريمة حَقلًا، فوقع على رأسه وانشقَّ من وسَطه، واندلَقت أمعاؤه كلُّها. وعرف ذلك سكان أُورُشليم كلُّهم، حتى تسمى هذا الحقل في لغتهم «حقل دَمَا» أي حقل الدَّم».(١)

قال صاحب تحفة الحيل: أن يهوذا هذا بداية توبته هذه كانت محمودة إلا أنه خامرها رجاء المغفرة والاهتمام بالمصالحة مع الآله المهان (إلى أن قال:) فشنق نفسه وأضحى معذَّبا في جهنم، سوف يلبث في العذابات القادحة مدى الأبدية.(٢)

وحكى في حق بولس الرسول الذي كان مؤسسا لِمذهبهم وعِمادًا من عُمُد دينهم ما يتهمه بالكذب ويضربه إلى القبح وهو قوله: «فإنه إن كان صدق الله قد ازداد بكذبي لِـمَجده فلماذا أدَّان أنا بعد كخاطئ».(٣)

وفي مقام آخر «غير أنه على كل وجه سواء كان بعلة أم بحق ينادي بالمسيح. وبهذا أنا أفرح بل سأفرح أيضًا».(٤)

وجاء في حق بطرس: «وأبصر تلاميذه فانتهر بطرس قائلا: اذهب عني يا شيطان! لأنك لا تَهتمُّ بِما لله، لكن بما للناس».(٥)

«وأنكر المسيح عند قتله، فقالت امرأة للذين هناك: وهذا -أي بطرس المذكور سابقاً- كان مع يسوع الناصري، فأنكر أيضًا بقسم: أني لست أعرف الرجل، وبعد قليل جاء القيام وقالوا لبطرس: حقا أنت أيضًا منهم، فإن لغتك تُظهِرك، فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف إني لا أعرف الرجل، وللوقت صاح الديك».(٦)

---

(١) أعمال الرسل ١/ ١٨-١٩.

(٢) الفارق بين المخلوق والخالق، ص٢٤٦.

(٣) رسالة بولس إلى أهل رومة ٣/ ٧ .

(٤) رسالة بولس إلى أهل فيليبس ١/ ١٩.

(٥) مرقس ٨/ ٣٣.

(٦) متى ٢٦/ ٧٢.

هذه كلماتهم سقتها إليك في أصحاب أنبيائهم، ونحن نعتقد أن الحواريين كانوا خُلَّصُ أمته عليه السلام، فنحن معشر المسلمين من الذين يصدقون المسيح في الحقيقة فنعطيه حقه، ونعطي حواريَّه حقهم، ولا نرفع المسيح عليه السلام إلى رتبة الألوهية وأوج المعبودية، ولا ننزله إلى حضيض الطعن. فما أحسنَ دينَنا وشريعتنا الشريعة الإسلامية، اللهم ثبِّت أقدامنا عليها واحشرنا في زمرة الصالحين وأدخِلنا الجنة. آمين ثم آمين.

محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسمه، ونسبه، وأحواله، وما إلى ذلك من المهمات

قد سردنا من قبلُ أحوال عيسى عليه السلام، والآن نقدم إليك أحوال محمد صلى الله عليه وسلم ليَرسخ في قلبك أن محمدًا صلى الله عليه وسلم له منزلة رفيعة عند الله تعالى، وتندفع بها نذكر مطاعن المسيحيين وشبهاتهم عن ذاته المقدسة، فنقول: اسمه محمد وأحمد، وهذان الاسمان مشهوران من أسمائه صلى الله عليه وسلم. قال الملا علي القاري في «شرح الشفا»: قال وهب بن منبه: في الزبور: يا داود! سيأتي من بعدك نبيٌّ يسمى أحمد ومحمدًا، صادقًا سيدًا، لا أغضب عليه أبدًا ولا يعصيني أبدًا، وقد غفرتُ له قبل أن يعصيني ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأمته مرحومة، وأعطيته من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء، وافترضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل حتى يأتوا يوم القيامة نورهم مثل نور الأنبياء.[1]

نسبه صلى الله عليه وسلم:

أما نسبه من أبيه فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر -الملقب بقريش- بن مالك بن نضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وأما من جهة أمه، فهو صلى الله عليه وسلم ابن آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب. ففي كلاب يجتمع نسبه من الجانبين، فهذا ملتقى البحرين. وكان نسله من إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام من هاجرة أم المسلمين، فهو كريم المَحْتِدِ طيب الأَرُوْمَة[2].

(١) شرح الشفا، للعلامة القاري ١/ ٧٣٩ . والحديث أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ١/ ٣٨٠.

(٢) أي: طيب الأصل.

وُلِد صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ١٢ من ربيع الأول/ ٢٣ إبريل سنة ٥٧١م، في عام الفيل. كان والده توفي قبل مولده بسبعة أشهر، فبعثته أمه إلى بادية بني سعد، وكانت من عادة العرب أن يعهدوا بأطفالهم للمراضع، فكان من نصيب حليمة رضي الله عنها وحسن حظها أن أخذته.

ولما كان في السادسة من عمره توفيت أمه، فبقي في تربية جده عبد المطلب، وبعد وفاته وانتقاله من دار الغرور تربَّى في رعاية عمه أبي طالب الذي عزم يومًا على السفر إلى الشام وأخذ معه ابن أخيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ابن اثنتي عشرة سنة، وهناك رآه راهب نصراني اسمه بُحيرَى، فأومأ إلى أبي طالب أن يعيده إلى مسكنه، فإن الخطب كبير والخطر عظيم، وقال له: إن ابن أخيك هذا سيكون له شأن عظيم، وسيكون نبيًّا.

ولما بلغ خمسًا وعشرين سنة من عمره سافر مرة أخرى إلى الشام في تجارة خديجة بنت خويلد، وكانت ذات شرف ومال وكرامة، فلما علمت حال النبي صلى الله عليه وسلم من صدقه وأمانته وأخلاقه وفطنته عرضت عليه أن يخرج بمال تجارتها، فقبله النبي صلى الله عليه وسلم، وربح ربحًا كثيرًا فوق المعتاد، وبعد رجوعه المسعود وقدومه الميمون إلى مكة المكرمة خطبتْه لنفسها وكان عمرها آنئذٍ أربعين سنة، وكانت كريمة النسب من قريش.

وفي الخامسة والثلاثين من سنه جاء سيل، فخَرَّبَ وشقَّقَ جدران الكعبة، فأجمعوا على هدمها، لكن اختلفوا في وضع الحجر الأسود حتى كادوا أن يقتتلوا، فرضوا أن يحكِّموا أول من دخل، فكان صلى الله عليه وسلم أول داخل، فأخذ الثوب وجعل الحجر الأسود فيه وقال: لتأخذ كل قبيلة بطرف الثوب فرفعوا، ووضعه النبي صلى الله عليه وسلم، فقبلوا حكمه ورضوا به وسلموا من الخصومة والتقاتل. ثم تَحَبَّبَ إليه الخلاء فكان يذهب إلى غار حراء ويتحنث فيه ويتعبد، وكانت عبادته التفكر في خلق السموات والأرض.

ولما بلغ أربعين سنة جاء إليه جبريل عليه السلام وقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، فضمه جبريل إليه ثم أرسله وقال: اقرأ، فرد عليه النبي ما رد أولًا. ثم ضمَّه جبريل عليه السلام، وفي المرة الثالثة سأله النبي صلي الله عليه وسلم: ماذا أقرأ؟ قال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾.

فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بيته، وأخبر سيدتنا وأمَّنا خديجة رضي الله عنها بما حدث، وقال: زملوني زملوني، ونام صلى الله عليه وسلم، وبعد ما استيقظ صَحِبَتْه خديجة إلى قريب لها اسمه ورقة بن نوفل، فلما سمع ورقة بما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم قال: إنك نبي. وآمنت به خديجة، وكانت أول من آمن به. ثم أخذ صلى الله عليه وسلم يدعو أهله وأقاربه وأحبائه وأصدقائه إلى الإسلام سرًّا، وكان المسلمون إذ ذاك يخفون إسلامهم خوفًا من الكفار حتى نزل:﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (الحجر: ٩٤) فدعى جهرًا.

ثم انتشر الإسلام، وزاد غيظ قريش وغضبهم ومقتهم؛ لأنه عليه السلام كان يدعو إلى عبادة الله وحده، ويخالف آلهتهم، ويطعن في دينهم، ويسفِّه أحلامهم، فأخذوا يعذبونهم عذابًا شديدًا، واشتد أذاهم، وآذَوه باللسان واليد، وآذوا أصحابه، فلما اشتد أذاهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى الحبشة، وكانوا اثنين وثمانين رجلًا، ولما وصلوا هناك أحسن إليهم النجاشي وآواهم وأحسن مأواهم ونجَّاهم من شر الكفار، ثم ذاع الخبر واشتهر أن قد أسلم كفار مكة، فقصد المهاجرون مكةَ، ولما وصلوا إلى حدود مكة انكشف لهم أن الخبر كان مكذوبًا مختلقًا، فدخل البعض في حماية بعض الرؤساء ورعايتهم، ثم هاجروا مرة ثانية من اضطهاد الكفرة واعتدائهم.

ولما أراد الله أن يظهر الإسلام، ويعليه، ويرفع رايته، ويرسُب لواءه، ويُحَكِّمُ بناءه أمال قلوب أهل المدينة إلى الإيمان، وأدخل الإيمان في أعماق قلوبهم، واستأثرهم الله لهذه النعمة العظمى، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخرج في موسِم الحج يدعو العرب إلى كلمة التوحيد، فدعا نفرًا من أهل المدينة، فأجابوا الدعوة ولبَّوا النداء، وكانوا ستة نفر من الخزرج. ثم حضر في السنة الثانية اثنا عشر رجلًا وبايعوه، وهذه بيعة العقبة الثانية، ثم تفضل في الثالثة سبعون رجلا وبايعوه، وهذه بيعة العقبة الثالثة. ثم أمر الله نبيَّه وصفيه بالهجرة إلى المدينة مع طلب أهل المدينة طلب إخلاص ومودَّة، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر، فلما وصلوا إلى المدينة استقبلهم أهل المدينة ورَحَّبوا بهم وفرحوا بقدومهم الميمون، وكانت الهجرة بعد بعثته بثلاث عشرة سنة.

ولما لم يُرْوِ ذلك الظلم والاعتداء غَلَّة عداوة قريش، بل كانوا يستحثون القبائل والفئام على إيذاء المسلمين وإبادتهم، أذِن الله للرسول والمسلمين في الجهاد، فغزاهم وجاهدهم.

والغزوات المشهورة المحفوظة في بطون كتب التاريخ والحديث عشر غزواتٍ: (١)غزوة بدر. (٢) غزوة أحد. (٣) غزوة بني قينقاع. (٤) غزوة الخندق. (٥) غزوة بني المصطلق. (٦) صلح الحديبية الذي جعله الله فتحًا مبينًا. (٧) غزوة خيبر. (٨) فتح مكة. (٩) غزوة حنين. (١٠) غزوة تبوك. ثم حجَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة العاشرة من هجرته وعلَّمَهم مسائل الحج وأحكامه، وألقى خطبة بليغة جامعة سَرَدَ فيها أكثر تعاليم الإسلام، ثم غربت هذه الشمس المشرقة، وأظلمت الأرجاء بغروبها، وأبكى العيون، وأيتم الأمة يوم الاثنين ١٢ أو ٨ أو ٩ من ربيع الأول وكان عمره ٦٣ سنة، ودفن في المكان الذي توفي فيه.[١]

مولاي صَلِّ وسلِّم دائما أبدًا ۞ على حبيبك خير الخلق كلهم

إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم:

اعلم أن المسيحيين ينكرون نبوة سيدنا ونبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم ويزعمون أنه لم يكن نبيًّا، ولو كان نبيًّا فنحن أحق بأن نصدقه، كأنهم ميزان الصدق ومحك الحق! فيا للعجب كأن من صدَّقوه فهو نبي، ومن كذَّبوه فهو ليس بنبي! ويل لأمثال هذه العقول. ولقد أحسن من قال، بل أحرى أن يكتب بمداد الذهب.

گر از بسیط زمین عقل منعدم گردد ۞ بخود گماں نبرد ہیچ کس کہ نادانم

معناه: لو رفع العقل مرة واحدة من الكرة الأرضية، لم يظن أحد في خاصته بأنه أحمق وسفيه.

فأنتم أيها النصارى تعتقدون ألوهية المسيح عليه السلام، فهل يكون إلها؟ وتتهمون لوطًا عليه السلام بالزنا، فهل يكون كذلك؟ لا توجد فيكم ذرة من الفهم. لقد مسخ الله عقولهم وطبع على قلوبهم، فلا تنطبع عليها كلمة الحق، وختم الله على أفئدتهم، وأعمى

(١) ملخص من كتب الحديث والسير.

بصائرهم وأبصارهم، فلا يؤمنون إلا قليلًا، وانظر نظر إنصاف واجتنب عن الاعتساف إلى كلام عبد المسيح حيث قال بعد خرافاته وإطالته التي لا طائل تحتها: إن كان نبيًّا فنحن أحق بأن نصدق، وإن لم يكن نبيا فلا ينبغي أن نقيم على غير الحق.[١]

إذا تيقنت أن عقولهم ليست ميزانًا لمعرفة صحة الشيء، فاستمع أن نبوته ثابتة بدلائل هي أرفع وأرسخ من الجبال الشم الراسيات.

الأول: أنه ولد بين أظهر قوم لا كتاب عندهم، ولا حكمة فيهم، فشا فيهم الزنا، وكثرت فيهم الفواحش، فادَّعى النبي صلى الله عليه وسلم الرسالة في مثل هذه الظروف والأحوال، وقام بدعواه مع قلة الأعوان والأنصار، ولم يقدر الأعداء مع كثرة عددهم وشدة شكيمتهم أن يُطفِؤوا نور دينه، ومع ذلك كسر النبي صلى الله عليه وسلم أصنامهم وضَلَّلَ آراءهم وسفَّه أحلامهم، ولا يكون هذا إلا بعون الله المعين وتأييد رب العالمين، ولو كان كاذباً لهلك كما في الزبور: «والغاشي يرذله الرب».[٢] وفي موضع آخر فيه: «لأن سواعد الخطاة تنكر، والرب يعضد الصديقين، ويهلك المتكلمين بالكذب، رجل الدماء والغش يكرهه الرب؛ لأن سواعد الأشرار تنكسر، وعاضد الصديقين الرب».[٣] فلما لم يهلك ولم تنقطع دعوته، بل غلب أمره، وظهر دينه، وسطع نوره، وأشرقت ذكاؤه، وارتفع ذكره في البسيطة شرقًا وغربًا، شِمالًا وجَنوبًا، وصدق قوله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الشرح: ٤)، علم أنه نبي ورسول صلى الله عليه وسلم.

و**الثاني**: أن الناس عمومًا والعرب خصوصًا كانوا إذ ذاك ضالين تائهين متحيرين في أودية الكفر والضلال، فكانت العرب قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم في جهالة وسفاهة وعادات قبيحة وتقاليد شنيعة لا أصل لها. كانوا منهمكين في عبادة أصنام، فمنهم عُبَّادُ الشمس، ومنهم عباد القمر، ومنهم الدهرية، والصائبة، والزنادقة، وعُبَّاد الملائكة، وعباد الجن، وعباد النار، وعباد الكواكب.[٤]

(١) الجواب الفسيح لردِّ ما لَفَّقَه عبد المسيح، للعلامة الآلوسي، ص٦٨ .

(٢) المزامير ٥/ ٦.

(٣) المزامير ٣٧/ ١٧.

(٤) للتفصيل راجع: الجزء الثاني من «بلوغ الأَرَب في معرفة أحوال العرب» للسيد محمود شكري الآلوسي رحمه الله.

قال ابن هشام بيانًا لضلالتهم: «وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، وأعظمها عندهم هبل، وكان فيما بلغني من عقيقٍ أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يدًا من ذهب، وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وكان يقال له: هبل خزيمة، وكان في جوف الكعبة، وكان قدامه سبعة قِداح مكتوب في أحدهما صريح، وفي الآخر ملصق، فإذا شكُّوا في مولود أهدَوا له هدية، ثم ضربوا بالقِداح، فإن خرج صريح ألحقوه، وإن خرج ملصق دفعوه، وقِدح على الميت وقدح على النكاح، وكان لهم إساف، ونائلة».[1]

وكانوا يئدون البنات. هكذا كان أمر العرب قبل طلوع الإسلام، وكانت الفُرْس على اعتقاد إلهين، ووَطْءِ الأمهات والبنات، والتُّرك على تخريب العباد، والهند على عبادة البقر والسجود للشجر والحجر، واليهود على الجحود ودين التشبيه وترويج الأكاذيب والمفتريات، والنصارى على القول بالتثليث وعبادة الصليب وصور القديسين والقدسيات، وهكذا سائر الفرق.

فكان الناس أحوجَ ما يكون إلى نبي مُصلِح يصلح حالهم ويسدد بالهم، فبعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم. ولم يتعلم مِنْ أحد من العلماء وما تخرج من كلية ولا مدرسة، وصدع بالتوحيد في الذات والصفات الذي لا امتزاج فيه للشرك ولا اختلاط للكفر، وشرح أصول الأخلاق والعادات الفاضلة، وفصل القوانين المُحَيِّرة للعقول، وأمر بكل معروف ونهى عن كل منكر، وأخبر عن المغيبات مطابقةً لما وقعت حَذْوَ القذة بالقذة، واجتمع فيه من الأوصاف الحميدة، والكمالات العلمية والعملية ما لا يمكن عدها وإحصاؤها، فهل يقتني ذلك في غير النبي؟ لا والله لا يجتمع ولن يجتمع. فمحمد صلى الله عليه وسلم نبي ورسول أرسله الله بالحق بشيرًا ونذيرًا.

وقد شهد بكونه مجمع الكمالات، وينبوع الأوصاف الحسنة، والبحر النمير للأخلاق الجميلة أعداؤه، ومخالفوه. قال مولانا رحمة الله الكيرانوي رحمه الله تعالى: نقل سيل عن «أسبان هميس المسيحي» مِن الذين هم أشد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم والطاعنين في

---

(١) إغاثة اللهفان ٢/ ٢١٥.

حقه: أنه (النبي) كان زكيًّا، وكانت طريقته مرضيةً، وكان الإحسان إلى المساكين شيمته، وكان يعامل الكل بالخلق الحسن، وكان شجاعاً على الأعداء، وكان يعظم اسم الله تعظيمًا عظيمًا، وكان يشدد على المفترين، والذين يرمون البراءَ، والزانين، والقاتلين، وأهل الفضول، والطامعين، وشهدوا الزور تشديدًا بليغًا. وكانت كثرة وعظه في الصبر، والجود، والرحم، والبر، والإحسان، وتعظيم الأبوين والكبار، وتوقيرهم، وتكريمهم، وكان عابدًا مرتاضًا في الغاية.[1]

والثالث: أن الشريعة التي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، والأمانة التي أداها إلى أمته، والجوهرة النيرة التي علقها في أعناقها متكفلةٌ بضروريات الناس وحوائجهم، دافعة للشر، محتوية على التوحيد وشكر المنعم والاعتقادات الصحيحة الموافقة للعقل والنقل، والنهي عن الكفر والشرك والفسوق والعصيان والعجب والتكبر والرياء والسمعة والشماتة والظلم والبخل، وما إلى ذلك من الأعمال الشنيعة والاعتقادات القبيحة، وهي مشتملة على العبادات التي فيها تعظيم رب الأرباب، فانظر إلى الصلاة وما فيها من الكلمات، والصوم وما فيه من المشقات، والزكاة وما فيها من التزكية والتطهير، منطوية على المعاملات العادلة من البيع والشراء والإجارة والشركة والمداينة وقسمة التركات على وجه أتم وترتيب أكمل، متضمنة للحدود والقصاص والعقوبات التي توجب حفظ النفس والمال والعِرض، وجميع ذلك يطابق العقل والحكمة، مكملة لحسن الأخلاق والآداب والعدل والإحسان والإيثار وحسن السلوك وغير ذلك.

والضرورة حاكمة بأن مثل هذه الشريعة الغراء التي لا نقص فيها ولا خلل، ولا فساد فيها ولا ملل، لا تختص بزمان ولا مكان، ولا تتعلق بقوم دون قوم، بل حاو لجميع الأدوار والأطوار من لدن عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما تَغَرَّد الحمام، وهو يوم القيام.

والرابع: معجزة القرآن الذي أعجز عن الإتيان بمثله مصاقع[2] الفصحاء، وغيَّض ببلاغته شقاشق البلغاء، فلا يستطيع أن يأتي بمثله أحد، ولا يمكن أن ينسج على منواله بشر،

---

(١) إظهار الحق ٢/ ٣٢٣.

(٢) جهوريُّ الصوت.

فالقرآن في فصاحته، وبلاغته، ونصاعة تعبيره، وبراعة تحبيره، وكمال ترصيفه، وإخباره عن المغيبات، واشتماله على الحكم واللطائف والمواعظ والأمثال، ورد الشرك والكفر، وحسن الاستدلال، وإثبات التوحيد والرسالة والمعاد والتنذير والبشارة، منفرد لا يمكن مكامعته ومعارضته. قال الله تعالى مُقْرِعًا لهم ومُوَبِّخًا: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨)، ثم قال صارخًا بهم أن يأتوا بعشر سور مثله: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (هود: ١٣)، ثم أقرعهم وطلب منهم سورة فقط فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٣)، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحَدِّيهم، ويدعوهم إلى ميدان المبارزة، ولم يأتوا بأقصر سورة من مثله، وكانوا فصحاء أرضِعوا من لبان الفصاحة، بلغاء سُقوا من نمير البلاغة، فرسان الكلام، خطباء يذلِّلون صعاب الكلام، وينشؤون القصائد والخطبات بأدنى إشارة إلى أقلامهم. ويفتخرون بهذا، ومع ذلك لم يأتوا به، ومازال النبي صلى الله عليه وسلم يتحداهم ثلاثا وعشرين سنة، ولم يستطيعوا الإتيان بمثله، ولن يأتوا به إلى يوم التناد.

وقد أقروا بإعجازه وكونه كلام الله مع كفرهم كما في حديث إسلام أبي ذر رضي الله عنه حين قال لأخيه أنيس: ما صنعت؟ بعد ما رجع عن مكة. قال: لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله. قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر. وكان أنيس أحد الشعراء. قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أَقْراءِ الشِّعر فما يلتئم على لسان أحد، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون.(١)

وعن عكرمة رضي الله عنه في قصة الوليد بن المغيرة، وكان زعيم قريش في الفصاحة أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم اقرء عليَّ، فقرء عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠) قال: أعدنا، فأعاد صلى الله عليه، فقال: والله إن له حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لَمُثمِرٌ، وإن أسفله لَـمُغدِق، وما يقول هذا بشر، ثم قال لقومه: والله ما فيكم رجلٌ أعلم بالأشعار مني،

(١) صحيح مسلم في حديث طويل، رقم: ٢٤٧٣.

ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمُثمِرٌ أعلاه، مُغدِقٌ أسفلُه، وأنه يعلو وما يُعلى، وإنه ليحُطِّم ما تحته.(١)

وجوه إعجاز القرآن الكريم:

وجوه إعجاز القرآن كثيرة. **الأول**: ما فيه من الإيجاز والبلاغة بحيث وصل كل منهما إلى الرتبة العليا والدرجة القصوى، ولم يمكن لأحد أن يعارضه.

والثاني: أنه مع كونه من جنس كلام العرب قد جاء في نظمه وأسلوبه مخالفًا لسائر فنونه من النظم، والنثر، والخطب، والشعر، ومن تحدَّى لمعارضته اعترتْه روعة كنهه عن ذلك، كما حكي عن يحي بن حكيم النزال، وكان بليغ الأندلس في زمانه أنه قد رام شيئاً من هذا، فنظر في سورة الإخلاص ليحذو على مثالها، وينسج بزعمه على منوالها، فاعترته منه خشية حملته على التوبة والإنابة. وحكى أيضًا أن ابن المقفع وكان أفصح أهل زمانه طلب ذلك ورامه ونظم كلامًا، وجعله مفصلًا وسماه سورًا، فاجتاز يومًا بصبي يقرأ في مكتب ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (هود: ٤٤)، فرجع ومحى ما عمل، وقال: أشهد أن هذا لا يعارَض أبدًا وما هو من كلام البشر.(٢)

والثالث: إخباره عن المغيبات، ودلالته على الوقائع الآتية، وإخباره عما وقع على الوجه الصحيح، ولنذكر بعض ما أخبر به من المغيبات. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، فقد وعد الله تعالى في هذه الآية حفظ القرآن عن التحريف والتغيير، وهذا الوعد صادق على مر الدهور لا يستطيع أحد أن يتصرف فيه، وخلق الله تعالى لحفظه أسبابًا، فأهل العربية يحفظون لفظه من حيث الإعراب والمادة والصورة، وأهل اللغة والأدب يحفظون معانيه، والقراء يحفظون لهجته ومنهاج تلاوته. فسبحانه أنجز وعده. بخلاف التوراة، فإنها ضاعت؛ لأن موسى عليه السلام وضعها في تابوت، ولما أخرجت في

---

(١) الاعتقاد، للبيهقي ١/ ٢٦٨.

(٢) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ٦/ ٤٤٤.

عهد سليمان عليه السلام لم يبق فيها غير اللوحين كما في التوراة: «وكتب موسى هذه التوراة وسلَّمها لكهنة بني لاوي، حاملي تابوت عهد الرب ولجميع شيوخ إسرائيل، وأمرهم موسى قائلًا في نهاية السبع السنين في ميعاد سنة الإبراء في عيد المظال».(١)

يعلم من هذا أن موسى عليه السلام وضع التوراة في صندوق وتابوت محفوظًا وأمرهم بإخراجه بعد سبع سنين. ثم قيل في باب الملوك الأول: «لما اجتمع الناس لإخراج التابوت لم يكن في التابوت إلا لوحا الحجر اللَّذان رفعهما موسى هناك في حوريب حين عاهد الرب بني إسرائيل عند خروجهم من أرض مصر».(٢)

وهذه العبارة صريحة في ضياع الألواح إلا لوحين، فهذه حال التوراة.

وانظر إلى الإنجيل، قد اتفق المسيحيون على أن الإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام واحد، فمن أين جاءت هذه الأناجيل الأربعة مع اختلاف بينها وتناقض، وقد ثبت أن الإنجيل كان واحدًا، ففي إنجيل مرقص: «وابتدأ بطرس يقول له: ها نحن قد تركنا كل شيء تبعناك. فأجاب يسوع وقال: الحق أقول لكم: ليس أحد ترك بيتا، أو إخوة، أو أخوات، أو أبا، أو أما، أو أخا، أو امرأة، أو أولادا، أو حقولا لأجلي، ولأجل الإنجيل إلا ويأخذ مئة ضعف الآن في هذا الزمان».(٣)

وإنجيل متى صنف بالعبرانية مع أن الأصل عنقاء، ولوقا لم يلاق عيسى عليه السلام، بل شيخه ومعلمه بولس كان عدوًّا لعيسى عليه السلام في حياته. ومرقص تلميذ شمعون. وبطرس كتب الإنجيل في إنطاكية باليونانية. وبين لوقا ومتى اختلاف شديد، ويوحنا تختلف عنهما جميعًا، يقال: إنه تلميذ المسيح، لكن في كتابه دخل عظيم لعقائد اليونانيين.(٤) على أن إنجيل متى لم يكتبه متى بنفسه، وهذا يترشح من إنجيله حيث قال: «وفيما يسوع مجتاز من هناك رأى إنسانًا جالسًا عند مكان الجباية اسمه متى، فقال له، اتبعني، فقام وتبعه».(٥) هذا

(١) التثنية ٣١/ ٩-١١.

(٢) الملوك الأول ٨/ ٩.

(٣) مرقس ١٠/ ٢٨-٣٠.

(٤) رحمة للعالمين، للقاضي سليمان منصور فوري ٢/ ٣١٦.

(٥) متى ٩/ ٩.

يدل على أن الإنجيل كتبه غير متى، و إلا فينبغى أن تكون العبارت هكذا «رآني وقال لي: قم معي». وهكذا حال الزبور، فإن أحوال مصنفيه عند الله عز وجل، لا يعلم قائله، فبعض المزامير تنسب إلى داود عليه السلام، والبعض لسليمان، وموسى، ومير مغني، وبني قورح، فهذا حال الكتب الموجودة في أيدي أهل الكتاب.

الرابع: الجزالة التي لا يمكن لمخلوق أن يأتي بمثلها، فوازن بين قوله عليه السلام: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». وقوله تعالى في هذا المعنى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ (الزخرف: ٧١)، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (السجدة: ١٧)، فهذا أعدل لفظًا، وأحسن تركيبًا، وأعذب كلمةً، وأجود سبكًا، وأقل حروفًا. وتأمل في قوله عليه الصلاة والسلام: «كلكم راع، ومسئول عن رعيته، والإمام راعٍ ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهل بيته ومسئول عن رعيته» الحديث.[١] وقوله تعالى في هذا المعنى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ (الحجر)، وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف: ٦)

الخامس: التشريع الكامل الذي يضطر إليه الكفار في العبادات، والمعاملات، والآداب، والعادات، فانظر اضطرار الكفرة المسيحيين إلى هذا النظام، فمن زمن قريب حرَّمت أمريكا الخمر، ولكنها فشلت ولم تنجح؛ لأنها لم توفَّق إلى الطريقة الحكيمة التي أتبعها الإسلام من تحريم الخمر، فعادت إلى إباحتها مع اعتقادها بضررها القادح، وهكذا أباحت بعض الدول الغربية وخاصة أمريكا الطلاق بعد أن كان ممنوعًا لديها بسبب تعاليم الكنيسة، ولكنها أسرفت فيه إلى درجة ضارة، ولا تزال تأخذ بتشريح الطلاق، إلى غير ذلك من الأمور الشرعية الإسلامية.[٢]

السادس: إخباره عن المغيبات، منها: إخباره عن الحرب التي وقعت بين الروم والفُرْس، وتكون الغلبة للروم بعد أن انكسروا، وذلك في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾﴾ (الروم) إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الروم: ٥)

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ٢٧٥١.

(٢) التبيان في علوم القرآن من بحث الإعجاز، للشيخ محمد علي الصابوني، ص ٨٩-١٢١.

روي أن فارسًا غزا الرومَ، فوافَوهم بأَذْرِعاتٍ وبُصرَى من أرض الشام، فغلبوا عليهم، وبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم بمكة، فشق ذلك عليهم، وفرح الكفار بمكة وشمتوا، فلقوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: إنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم. فأنزل الله تعالى هؤلاء الآيات، فأوفى الله هذا الوعد، وظهرت الروم على فارس لما دخلت السنة السابعة.[1] وتفصيل الواقعة مذكور في كتبنا كـ «شرح قصيدة البردة» ٢/ ٢٤١-٢٤٥، الفصل السادس، رقم البيت: ٩٢، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

ومنها: إعلامه بظهور الإسلام على جميع الأديان، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٣)

وقال الله عز وجل: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ (إبراهيم)

وقال في موضع آخر: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ (النور: ٥٥) ولقد أوفى الله وعده بأن أظهر دينه على سائر الأديان.

كانت دولة المسيحيين في حبشة وروما وبحرين في عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومذهب اليهود في خيبر والمدينة، وكانت المجوسية في الفرس، وقد أدخل الله الإسلام في ديار الجميع، وصاروا من أتباع الإسلام والمسلمين بعد أن كانوا أعداءهم، وتمكَّن الإسلام في قلوبهم، ونزل في جذر أذهانهم، وانتشر مع قلة الأسباب، ففي عهد حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة والمدينة وصلت نكهة الإسلام إلى البحرين وعمان ودومة الجندل، وفي عهد الخفاء الراشديين المَهديين رضي الله عنهم انتشر إلى عراق ومصر وإيران وإلى تونس، وبعد ذلك إلى جبل الطارق والهند والصين وإفريقيا وغيرها. وقد أخبر الله تعالى نبيه بغلبته على هذه الدولات والأقطار إجمالًا.

ومنها: الإخبار بهلاك أبي لهب وامرأته في قوله تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤﴾ (المسد)

(١) تفسير المراغي بحذف ٢١/ ٢٧-٢٨.

ولقد صدق هذا الإخبار بهلاك أبي لهب، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، ورهطك منهم المخلصين. خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصَّفا، فهتف يا صباحاه! فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من صفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. فقال: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». قال أبو لهب: تبًّا لك! ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ وَقَدْ تَبَّ، هكذا قرأها الأعمش يومئذٍ.(١) فهلك أبو لهب وفقًا لإعلام القرآن.

قال السيد الآلوسي: وهلك أبو لهب نفسه بالعدسة بعد وقعة بدر بسبع ليال، فاجتنبه الولد مخافة العدوى، وكانت قريش تَتَّقِيْها كالطاعون، فبقي ثلاثا حتى أَنْتَنَ، فلما خافوا العار استأجروا بعض السودان فاحتملوه ودفنوه. وفي رواية: حفروا له حفرة ودفنوه بعدوٍ حتى وقع فيها، فقذفوه بالحجارة حتى واروه. وفي أخرى: أنهم لم يحفروا له وإنما أسندوه للحائط وقذفو عليه الحجارة من خلفه حتى توارى، فكان الأمر كما أخبر به القرآن.(٢)

وامرأته كانت تأتي بأغصان الشوك في طريق رسول الله صلي الله عليه وسلم وتطرحها بالليل، وقيل: كانت تحمل حزمة الشوك والحسك والسعدان، فتنشرها بالليل في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل: كانت تمشي بالنميمة، فهلكت وكانت حزمة الحطب على رأسها وتعلق الحبل بِجيدها، كما أخبر الله تعالى.

ومنها: إخباره بالغزوات، فقال الله في غزوة بدر: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (الأنفال: ٧)، فكان كما أخبر إذ وقع الذل، والهوان، والقتل، والسبي عليهم. وصدق قوله عز وجل: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ (القمر: ٤٥)

وقال في غزوة خيبر: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ١٨) نزلت في الحديبية وصدق هذا في فتح خيبر.

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ٤٩٧١.

(٢) روح المعاني ٣٠/ ٢٦٢.

وقال تعالى في غزوة الأحزاب: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ٤٤ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾ (القمر)، فكان كما قال. هذا بعض من المغيبات التي أخبر بها القرآن، والإحاطة بالكل من شأن العليم الخبير.

ومنها: إخباره عن المغيبات الماضية الصادقة كإخباره عن الأنبياء السابقين على وجه صحيح كقصة آدم عليه السلام وسجود الملائكة له، وعصيان الشيطان، وواقعة خلافة داود وسليمان، ومصيبة أيوب ويونس، وقبول دعاء زكريا، وإرهاصات عيسى عليه السلام وقت طفوليته، ومناظرة إبراهيم لنمرود لعنه الله، وقصة ولادة موسى عليهم الصلاة والسلام، وإلقائه في البحر، وتربيته في بيت فرعون، ورَكْزه القبطيَّ، وقصة ذبح بقرة بني إسرائيل، وقصة طالوت وجالوت، وقصة أصحاب الأخدود، وغيرها. ولم أجد هذه القصص الصادقة في الكتاب المقدس مع أني تتبعت وتَفَصَّحْتُ بقدر مقدوري ووسعي، والعلم عند الله، ويحق لنا أن نقول للملة المسيحية:

اندکے با تو بگفتیم و بدل ترسیدیم ۞ کہ دل آزردہ شوی ورنہ سخن بسیار است

معناه: لم أتحدث عن هم القلب إلا قليلا، وأنا خائف في قلبي من أن يؤلم قلبك، وإلا فإن الحديث ذو شجون.

معجزاته صلى الله عليه وسلم في ضوء القرآن الكريم

ومما يشهد شهادة قوية على نبوته: معجزاتُه صلى الله عليه وسلم، وهي كثيرة، وها أنا اذكر بعض معجزاته مما ورد في القرآن الكريم.

المعجزة الأولى: المعراج:

واقعة المعراج التي وردت في القرآن والأحاديث، وأنكرها المسيحيون، فعموا وصمُّوا -خذلهم الله-. والقصة أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عُرِجَ به إلى السموات وما فوقها إلى ما شاء الله في اليَقَظَة بجسده المبارك. قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١)

دلت هذه الآية على إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى (في القدس) في جزء من الليل، وثبت عروجه إلى السموات بقوله عز وجل: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾ (النجم)

وسَرْدُ هذه القصة على وجه التفصيل في كتب الأحاديث والسيرة، ونذكرها على وجه لا يفضي إلى التطويل. قال ابن هشام: فكان ابن مسعود فيما بلغني يقول: أُتِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق، وهي الدابة التي كان تُحمَل عليها الأنبياء قبله، تضع حافِرَها في منتهى طرفها، فحمِل عليها، ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السماء والأرض حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم الخليل، وموسى، وعيسى في نفر من الأنبياء قد جُمِعوا له، فصلى بهم، ثم أتي بثلاثة آنية: إناء فيه لبن، وإناء فيه خمر، وإناء فيه ماء. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سمعت قائلًا يقول حين عُرِضَتْ عليَّ: إن أخذ الماء غرق وغرقت أمته، وإن أخذ الخمر غوى وغوَت أمته، وإن أخذ اللبن هُدِيَ وهُدِيَتْ أمته. قال: فأخذت إناء اللبن فشربت منه». فقال لي جبريل: «هُدِيتَ وهُدِيتْ أمتُك يا محمد».[1] ثم

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٩٧.

عرج به إلى السماء الدنيا والسموات الأخرى وإلى ما شاء الله، ورأى ما رأى كما هو مسطور في أوراق الأحديث والتاريخ، وتفصيل الروايات في تفسير ابن كثير في ذيل الآية الماضية فليراجع، فإنه نفيس ثمين ينبغي أن يعلق على أجياد الأذهان وأردان القلوب.

وهذه معجزة عظيمة من معجزاته صلى الله عليه وسلم، فإن إسراءه صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس، ثم إلى ما شاء الله من السموات كرامة عظيمة، و دليل بيِّن، وحجة نيِّرة على نبوته صلى الله عليه وسلم.

المعراج كان بالجسد والروح معًا:

والمعراج بالجسد والروح عند الجمهور، فإن صعود الجسم إلى السموات وإسراءه معجزة، وإليه ذهب الجمهور.

قال العلامة ابن قيم رحمه الله تعالى: «أسريَ برسول الله صلى الله عليه وسلم بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت المقدس راكبًا على البراق.[(١)]

وقال العلامة ابن كثير: «ثم اختلف الناس هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام وروحه، أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثرون من العلماء على أنه أُسريَ ببدنه وروحه يقظةً، لا منامًا. ولا ينكرون أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى قبل ذلك منامًا، ثم رآه بعده يقظةً؛ لأنه كان عليه السلام لا يري رؤيًا إلا جاءت مثل فَلَقِ الصبح.[(٢)]

فمذهب جمهور أهل السنة أنه بالجسد في اليقظة، وهو المروي عن عمر، وأبي هريرة، وجابر، وابن عباس، وأنس، ومالك بن صعصعة، وابن مسعود، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن المسيب، والزهري، والحسن، ومسروق، ومجاهد، وعكرمة، وابن جريج، وأحمد بن حنبل.[(٣)] وأقاموا عليه دلائلَ:

الأول: قوله سبحانه وتعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾(الإسراء: ١) الآية. كلمة «سبحان» للتعجب، والتعجب يكون عند الأمور العظام، والصعود بالجسد هو الأمر

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٢٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٥.

(٣) مرام الكلام، ص٤٣، لعبد العزيز الفرهاروي. وترجمان السنة ٣/ ٤٦١.

العظيم والخَطْبُ الجليل.

الثاني: قوله تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾، والعبد يطلق على الروح والجسد معًا، فالإسراء كان بهما. والإسراء مذكور في القرآن في مواقع متعددة، وأريد به الإسراء بالجسد والروح معًا كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ (الشعراء: ٥٢)، وإسراؤهم كان بالأجساد. وقال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ (هود: ٨١)، والمراد به الإسراء بالأجساد، كما لا يخفى على من ألقى السمع وهو شهيد.

الثالث: الأحاديث الكثيرة شاهدات صدق على أنه كان بالجسد، فإنه جاء فيها شرب اللبن، وركوبه على البراق، وغيره، وكل ذلك لا يكون إلا بالجسد.

الرابع: قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ (النجم)، وقال عز وجل قبل ذلك: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ (النجم: ١١)، يدل هذا على أنه واقع بالبصر والفؤاد، ويشير إلى أن البصر لم يمل عن مشاهدة الحق ولم ينقبض.

وقال البعض: كان المعراج بالروح فقط (هذا مذهب المعتزلة) ويعزى هذا القول إلى عائشة ومعاوية رضي الله عنهما. واستدلوا بقول عائشة رضي الله عنها الذي رواه ابن إسحاق قال: وحدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم كانت تقول: ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن أسريَ بروحه. قال ابن إسحاق: وحدثنا يعقوب بن عتبة بن مغيرة بن الأخنس أن معاوية بن أبي سفيان كان إذا سئل عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كانت رؤيا من الله تعالى صادقة.[(١)]

ويستدلون بقول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ (الإسراء: ٦٠) حيث أطلق عليه الرؤيا وهي تكون في المنام.

ويستدلون بالمعقول حيث يقولون: لا يمكن الخرق والالتئام في السماء، ولو أمكن بالفرض، فبيننا وبين السماء طبقة نارية لا يمكن النفوذ فيها إذ يحترق فيه الإنسان. والجسم مع ثقله كيف عرج به إلى السماء!

---

(١) سيرة ابن هشام، ص ٣٩٩-٤٠٠.

والجواب عن الأول: أن هذه الرواية منقطعة، فإن بعض آل أبي بكر مجهول في الرواية من هو وأين هو؟ على أنه قال بعض العلماء: إنه موضوع. قال ابن دحية في التنوير: «إنه حديث موضوع عليها». وقال في معراجه الصغير: قال إمام الشافعية أبو العباس بن سريج: «هذا حديث لا يصح، وإنما وضِع ردًّا للحديث الصحيح».(١) وعلى فرض صحته نقول: لم تكن عائشة حينئذ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن النبي صلى الله عليه وسلم دخل بها في المدينة بعد الهجرة، وواقعة المعراج كانت قبل الهجرة.

والجواب عن الثاني أن رواية معاوية رضي الله عنه ضعيفة منقطعة؛ فإن يعقوب لم يلق معاوية، فصارت الرواية منقطعة.(٢) على أنه رضي الله عنه لم يكن مسلمًا عند وقوع المعراج.

وعن الثالث: أن المراد من الرؤيا رؤيا العين، كما فسره ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد جاء إطلاق الرؤيا على رؤية العين، ففي«لسان العرب»: «قال ابن بَرِّي: وقد جاءت الرؤيا في اليقظة. قال الراعي (وهو من شعراء الجاهلية):

فكبَّر للرُّؤيا وهَشَّ فؤادُه ۞ وبَشَّر نفسًا كان قَبلُ يلومُها

وعليه فسر قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ (الإسراء: ٦٠)

قال: وعليه قول أبي الطيب (المتنبي):

ورؤياك أحلى في العيون من الغُمْضِ(٣)

وقيل في تفسير الآية: أن المراد بالرؤيا رؤيا عام الحديبية حين رأى أنه عليه السلام دخل مكة، فصَدَّه المشركون وافتتن بذلك ناس، وهذا هو المراد بقوله: ﴿فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾، كما هو المذكور في كتب التفاسير.(٤)

والجواب عن قولهم: «لا يمكن الخرق والالتئام» أنه ليس عندهم دليل قوي على امتناع الخرق، فالله الذي خلق السماء وما عليها، والعرشَ والكرسيَّ، أليس بقادر على

(١) التعليق الصبيح ٧/ ١٣٧.

(٢) كذا في قصص القرآن، لمولانا حفظ الرحمن السيوهاروي ٤/ ٣٤١-٣٤٢.

(٣) لسان العرب ١٤/ ٢٩٧.

(٤) التعليق الصبيح ٧/ ١٣٧.

خرقها؟ بل النصارى الذين ينكرون معراج النبي محمد صلى الله عليه وسلم قائلون بصعود بعض الأفراد إلى السماء، ففي إنجيل مرقس: «ثم إن الرب بعد ما كلمهم ارتفع إلى السماء وجلس عن يمين الله».(١) وفي الملوك الثاني: «وكان عند إصعاد الرب إيليا في العاصفة إلى السماء أن إيليا واليشع ذَهَبَا من الجلجال».(٢) قال آدم كلارك في شرح هذا المقام: «لا شك أن إيليا رُفِع إلى السماء حيًّا».(٣)

والجواب عن قولهم: «إن الجسد العنصري مع ثقله كيف رفع إلى السماء وعرج به»، إن هذا ممكن، بل هذا أقرب إلى الفهم في الزمان الذي كثرت فيه الآلات المحيرة للعقول، وترقَّى فيه العلم الطبيعي، ووصل إلى منتهاه، فنرى الطائرات جوَّالةً تحوم في الفضاء.

والجواب عن قولهم: «إن تحت السماء عناصر مختلفة كعنصر النار والطبقة الزمهريرية التي هي في غاية البرودة»، أن الله قادر على حفظ الجسم في هاتين الطبقتين، والله خلق في هاتين الطبقتين الحرارة والبرودة، وهو قادر على سلبهما، كما حفظ إبراهيم عليه السلام في النار، وجعل النار عليه بردًا وسلامًا. والحرارة ليست من لوازم ذاتها، على أن ما ذكر رأي اليونانيين فقط، وإثباته أصعب من خَرْط القَتاد، ولن يأتوا عليه ببرهان إلى يوم التناد.

وذكر مولانا رحمة الله الكيرانوي واقعة عجيبة لا تخلو عن استطراف وفائدة، قال: قال جواد بن ساباط في البرهان السادس عشر من المقالة الثانية من كتابه: أن القسيس كياروس سألني في حضور المترجمين: ماذا يعتقد المسلمون في معراج محمد صلى الله عليه وسلم؟ قلت: إنهم يعتقدون أنه من مكة إلى يروشلم، ومنه إلى السماء. قال: لايمكن صعود الجسم إلى السماء. قلت: سألت بعض المسلمين عنه، فأجاب أنه يمكن كما أمكن لجسم عيسى عليه السلام. قال القسِّيس: لِـمَ لَمْ تسئل بامتناع الخرق والإلتئام على الأفلاك؟ قلت: استدللت به، لكنه أجاب أنهما ممكنان لمحمد صلى الله عليه وسلم كما كانا ممكنين لعيسى عليه السلام. قال القسِّيس: لِـمَ لَمْ تقل: إن عيسى عليه السلام إله، له أن يتصرف ما يشاء في مخلوقاته؟ قلت: قد قلت ذلك، لكنه قال: إن ألوهية عيسى –عليه السلام– باطلة؛ لأنه يستحيل أنه

(١) مرقص ١٦/ ١٩.

(٢) الملوك الثاني ٢/ ١. والجلجال: السحاب الذي فيه الرعد.

(٣) إظهار الحق ٢/ ٢٨٥.

يطرأ على الله علامات العجز كالمضروبية والمصلوبية والموت والدفن .انتهى.[(١)]

وإذا كان بالجسد، فالظاهر أنه باليقظة، وعليه يدل ظاهر الأحاديث، وما جاء في الحديث: «فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام»[(٢)] معناه صحوت من غمرات مشاهدة اللاهوت والملكوت ورجعت إلى البشرية، أو المراد اليقظة من نوم بعد الوصول إلى البيت، أو الواقعة متعددة. والله أعلم وعلمه أحكم.

المعجزة الثانية: شق القمر:

المعجزة الثانية من معجزاته صلى الله عليه وسلم المتلوة في القرآن معجزة انشقاق القمر، فهذا دليل على نبوة النبي الأنور، المبعوث إلى الأسود والأحمر، صرح بها في سورة القمر حيث قال عز وجل: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ (القمر)، وظهرت هذه المعجزة الباهرة قبل الهجرة بخمس سنين. قال نابغة عصره وعلامة دهره الشيخ الآلوسي: فذلك على عهد رسول الله قبل الهجرة بنحو خمس سنين.[(٣)] حين طلب الكفار المعجزة من النبي صلى الله عليه وسلم في مجتمع، فأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصبعه إلى القمر، فانشق قطعتين، وهذا ثابت بالتواتر.

قال الحافظ ابن كثير: «قد كان هذا في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة...، وهذا أمر متفق عليه بين العلماء، أي انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات».[(٤)]

وأخرج البخاري قال: انشق القمر على عهده فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اشهدوا».[(٥)] وعن عبد الله رضي الله عنه قال: انشق

(١) إظهار الحق ٢/ ٢٨٧.
(٢) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ١٨٨.
(٣) روح المعاني ٢٧/ ٧٤.
(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٨٠.
(٥) صحيح البخاري، رقم: ٤٨٦٤.

القمر ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم، فصار فرقتين، فقال لنا: «اشهدوا اشهدوا».(١) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «انشق القمر في زمان النبي صلى الله عليه وسلم». وعن أنس رضي الله عنه قال: سأل أهل مكة أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر.(٢)

وتفصيله إنه انتهى أهل مكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: هل من آية نعرف بها أنك رسول الله ؟ فهبط جبريل فقال: يا محمد! قل لأهل مكة أن يجتمعوا هذه الليلة يروا آية، فأخبرهم رسول الله بمقالة جبريل، فخرجوا ليلة أربع عشرة، فانشق القمر نصفين: نصفًا على الصفا، ونصفًا على المروة، فنظروا ثم قالوا بأبصارهم فمسحوها، ثم أعادوا النظر فنظروا، ثم مسحوا أعينهم ثم نظروا فقالوا: ما هذا إلا سحر. فأنزل الله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ (القمر: ١) (٣)

فشهدت الأحاديث المذكورة على أن القمر انشق على عهده المبارك اتمامًا للحجة على الكفرة الجاحدين، ورآه الصحابة المشهود لهم بالخير، ولم يَرْوِ هذه الواقعة واحد منهم فقط، بل رواه عشرة من الصحابة.

النقد على بعض الناس حيث يقولون: الانشقاق يكون فيما يأتي عند قيام الساعة:

والانشقاق وقع فيما مضى ولا يتعلق بما يأتي، تدل عليه النصوص الآتية أولًا وثانيًا: قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾(القمر: ١) فإنه صيغة ماضٍ، و«قد» -كما في قراءة حذيفة: قَدْ انْشَقَّ الْقَمَرُ- للتحقيق في الزمان السالف. وثالثًا قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ (القمر: ٢)، فإطلاق السحر عليه يدل على وقوعه؛ لأن الكفار كانوا يسمُّون المعجزات بعد وقوعها سحرًا عِنادًا منهم وجحودًا. ورابعًا قوله: ﴿يُعۡرِضُواْ﴾ فإن الإعراض إنما يكون عما وقع وحدث، فعلم أن هذا وقع ثم أعرضوا عنه، أي: لم يؤمنوا كما وعدوا.

ويقول بعض أهل الباطل ومنهم المسيحيون: لم يتشرف جو السماء بهذه المعجزة المباركة. قال في «منحة القريب المجيب»: قال النصراني في «مفتاح الخزائن ومصباح

(١) صحيح البخاري، رقم: ٤٨٦٥.
(٢) صحيح البخاري، رقم: ٤٨٦٧.
(٣) روح المعاني ٢/ ٧٥.

الدفائن»: ومن المحال يستفظعه العقل مثل ما حكي عن انشقاق القمر.(١) لعل الاستفظاع لاستلزامه الخرق والالتئام في الأجرام السماوية، ولأنه لو وقع لأدرجه أهل السير في كتبهم، وأرصَدَه أهل الرصد، فإنهم كانوا يحفظون مثل هذه النوادر، ولأنه لو وقع لرآه من هو خارج عن مكة، وهذه الأمور لا تثبت عندهم حتى يلج الجمل في سم الخياط. ويقولون: معنى قوله عز وجل: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ سينشق، أي عند ما يقرب قيام الساعة. وجميع هذه الدلائل أضعف من نسج العنكبوت.

أما قولهم: «لاستلزامه الخرق والالتئام»، فليس هذا أول نغمة تغنَّو بها في الطنبور، فقد سبق أن ذكرنا أن هذا قول اليونانيين، لا اعتداد بهم في مثل هذا العهد الذي يرى فيه انشقاق الكواكب كل يوم. وقد قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ (الأنبياء: ٣٠)، والعجب كل العجب من إنكار المسحيين واستحالتهم ذلك، مع أن عيسى عليه السلام رفع إلى السماء بجسده، وكذا غيره، فهل كان صعودهم ونفوذهم بغير خرق في الأجرام السماوية، أم كان الخرق جائزًا لهم ممنوعًا لغيرهم؟ قال القسيس وليم إسمت في كتابه المسمى «طريق الأولياء» في بيان حال أخنوخ الرسول الذي كان قبل ميلاد المسيح بثلاث آلاف سنة وثلث مئة واثنتين وثمانين سنة: «إن الله نقله حيًّا إلى السماء لئلا يرى الموت كما هو مرقوم أنه لم يوجد؛ لأن الله نقله، فترك الدنيا من غير أن يحمل المرض والوجع والألم والموت، ودخل بجسده في ملكوت السماء». انتهى.(٢)

والجواب عن قولهم: «لو وقع لحكاه أهل السير في أسفارهم»، أن ذلك ليس بلازم، فإن كثيرا من الوقائع والنوازل مذكورة في التوراة والإنجيل، ولم يتعرض لها المؤرخون كطوفان نوح، قال في سفر التكوين: «ولما كان نوح ابن ست مئة سنة صار طوفان الماء على الأرض، فدخل نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان».(٣) قال ابن خلدون في تاريخه: اعلم أن الفُرْس والهند لايعرفون الطوفان، وبعض الفرس يقولون:

(١) منحة القريب، ص١٧٠.
(٢) إظهار الحق ٢/ ٢٨٤-٢٨٥.
(٣) التكوين ٧/ ٦-٧.

كان ببابل فقط.(١) فما كان جوابكم عن إنكار أهل الفارس والهند هذا الطوفان، فهو جوابنا.

وكذا واقعة وقوف الشمس ليوشع عليه السلام مذكورة في يشوع، قال: «حينئذ كلم يشوع الرب يوم أسلم الرب الأموريين أمام بني إسرائيل، وقال إمام عيون إسرائيل: يا شمس دومي على جبعون، ويا قمر على وادي أيلون، فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه». أليس هذا مكتوبًا في سفر ياشر: «فوقفت الشمس في كبد السماء، ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل».(٢)

وهذه الواقعة لم ترقم في كتب التاريخ، بل يستهزء به بعض المسحيين ويقولون: هذا يدل على أن الشمس متحركة، وهذا يخالف ما عليه المحققون الطبيعيون اليوم من سكون الشمس.

وكذا واقعة انشقاق الهيكل، وزلزلة الأرض، وتشقُّق الصخور مذكورة في إنجيل متى.(٣) مع أن المؤرخين صامتون عنها.

وبالجملة عدم ذكرها لا يدل على عدم وقوعها، بل ربما لم يذكروها لغفلتهم، فإن الإنشقاق كان بالليل وهو وقت الدعة والنوم. أو لِعنادهم وكفرهم وجحودهم، فإن من يتصدى لتخريب أصول الإسلام كيف يضع مثل هذه الأمانة في خزائن أوراقه، فإن في هذه الواقعة تعظيمًا واجلالاً لِمحمد صلى الله عليه وسلم. أو لعدم اهتمامهم بجمع هذه الحوادث الفلكية أشد اهتمام كما يهتم بها في هذا الزمان، على أنه لا يمكن أن يراه جميع أهل الأرض لاختلاف المطالع، فإنا لو فرضنا أن الانشقاق وقع وقت الساعة التاسعة يكون في فرنسا الساعة السادسة، وفي الصين الساعة الثالثة والدقيقة العشرون بعد الظهر، وفي الهند الساعة الثانية عشر ساعة والدقيقة الثلاثون من الليل.(٤) فلا يلزم من رؤية الانشقاق في بلد أن يرى في بلد آخر، ثم ينمق في تاريخ أهل الأرض.

---

(١) إظهار الحق ٢/ ٢٩٠.

(٢) يشوع ١٠/ ١٢-١٤.

(٣) متى ٢٧/ ٥١-٥٣.

(٤) رحمة للعالمين ٣/ ١١٥.

ثم قولهم «لم يحكها أهل السير في أسفارهم» غير صواب، فقد وجدنا له ذكرًا في كتب التاريخ القديمة. ذكروا أن ملِك مالبار في الهند رأى انشقاق القمر فأسلم، وأمر بكَتْبه وضبطه في يوميَّته (دفتر المَحفوظات).(١)

وذكر الشيخ العلامة عبد الحق الحقَّاني في تفسيره ما حاصله: اشتهر هنا خبر ملِك «بهوج» بين سُكَّان دهلي، ويغلب على ظني أن له ذكرًا في تاريخ من تواريخ الهنود الذي دُوِّن في عهد «بهوج» مشتمل على بيان أحوال مملكته. والقصة أن بهوج كان جالسًا على سقف بيته فرأى انشقاق القمر فتحيَّر منه، وسأل عنه علماءَه، فأخبروه ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم وبصدور هذه المعجزة على يديه، حسَب ما علموه من العلوم المتوارثة فيهم، فأسلم الملِك بالنبي صلى الله عليه وسلم.(٢)

وذُكِر في «تاريخ فرشته» أن انشقاق القمر صار سببًا لإسلام ملِك ماليبار «سامري». والقصة مبسوطة فيها، وإليك فذلكتها:

الرواية الأولى: بعد مرور قرنين من هجرة النبي عليه الصلاة والسلام سار جماعة من المسلمين وفيهم العرب والعجم يؤمون سرانديب، فمروا بماليبار ونزلوا به، وملِكه يومئذ «سامري» رجل ذو خلق حسن، دعاهم وسألَهم عن الإسلام والنبِيِّ الأُميِّ، فذكر له رجل من المسلمين صفات النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر من جملة معجزاته شق القمر، فلما سمع بها قال لأصحابه: لقد جرى من عادة ملكنا كَتْب كل قضية وواقعة حدثت لولي من الأولياء، فإن كان شق القمر حقًّا وجدتموه في دفاترنا. فلما بحثوا في دفاترهم وجدوا فيه مكتوبا: «حدث في تاريخ كذا وكذا أن القمر انفلق قطعتين، ثم التئم» فلما سمع به لم يلبث أن أسلم.

الرواية الثانية: قال المؤلف: لكن الرواية الصحيحة أن سامري رأى انشقاق القمر بنفسه، فبثَّ رجالًا في أنحاء العالم ليستفسروا الأمر، فلما أخبِر ببعثته صلى الله عليه وسلم وظهور هذه المعجزة منه، ركب إلى الحجاز فلقي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأسلم على

(١) راجع: تفسير عثماني، ص١٠٧ ، للشيخ العلامة المحدث المفسر شبير أحمد العثماني.

(٢) ملخصًا من تفسر حقاني ٤/ ٣٩٣.

يديه، ثم خرج عائدًا إلى وطنه فلما وصل «ظفار» في جماعة من المسلمين، مرض مرض الموت وتوفي بها، -رضي الله عنه- وقبره هناك معروف يُزار.(١) والله أعلم.

وأما قولهم: «إن الانشقاق لو وقع لرآه الناس في حوالي مكة ولم ينقل ذلك عنهم». فالجواب عنه **أولًا**: أن عدم رؤيتهم لا يدل على عدم الوقوع للاحتمالات السابقة من الغفلة وغيرها، لا سيما لو كان الزمان زمان الشتاء إذ الناس ملتفون في أَلْحِفَتهم ومضرباتهم قاطنين في بيوتهم.

وثانيًا أن الانشقاق يحتمل أن يكون وقتًا يسيرًا حتى لم يحصل العلم به لأكثر أهل البوادي.

وثالثًا يحتمل أن يكون السحاب، أو الجبال حائلة لا يرى دونها. على أنه روي رؤية الذين جاؤوا من طريق مكة كما رواه أبو داود الطيالسي بسنده عن عبد الله بن مسعود قال: «انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، قال: وقالوا: انتظروا ما تأتيكم به السُّفَّار، فإن محمدًا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، قال: فجاء السُّفار، فقالوا ذلك».(٢)

والجواب عن قولهم: «انشق، معناه: سينشق قريب الساعة». إن انشق صيغة ماضٍ وهي حقيقة في الزمان الماضي مجاز في المستقبل، ولا يجوز الحمل على المجاز مالم يتعذر الحقيقة، سيما في هذا المقام، فإنه يقتضي أن تحمل على معناه الأصلي للأحاديث الواردة في ذلك، ولقراءة حذيفة رضي الله عنه: قد انشق القمر. فدخول قَدْ لتحقيق الماضي، وعليه أجمع المفسرون.

وقد أخطأ بعض من يدعي التحقيق، فزعم أن الانشقاق لم يقع حقيقة، بل رأوه منشقًّا كأنما سُكِّرَتْ أبصارهم، فرأوا شيئًا لم يكن في الواقع، يعني أراهم القمر كأنه منشق في أبصارهم، لا في الحقيقة. ويستدلون أولًا بقول أنس رضي الله عنه: فأراهم انشقاق القمر. وثانيًا بأن المقصود اراءته إياهم فقط، ولو انشق في الواقع لعمت رؤيته، هكذا فيحمله الناس

---

(١) الموجود عندنا من تاريخ فرشته ترجمته الأردية، راجع: ٢/ ٥٩٤-٥٩٨، ط: نولكشور، لكنؤ، الهند.

(٢) مسند أبي داود الطيالسي، رقم:٢٩٣.

على أنه أمر اتفاقي طبيعي. وهذا القول بعيد عن الصواب بمراحل بوجوه:

الأول: أن الله تعالى نسب الانشقاق إلى القمر فقال: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ فتيقن أن الانشقاق والانفعال وقع في القمر، لا في أبصارهم.

والثاني: ليس من شأن الأنبياء أن يظهروا شيئًا على خلاف ما عليه في الحقيقة، بل يكون هذا شَعْوَذَةً واعتقالًا ونوعًا من السحر. والأنبياء إنما بعثوا ليبينوا لا ليَخْلطوا، وإنما هذا فعل الْمُشَعْوِذ والساحر، والأنبياء منزهون عنه، ونسبة هذا إلى الأنبياء لا يخلو عن سوء أدب. قال الله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ (النجم: ١٢)، يعني ما يراه النبي صلى الله عليه وسلم حقيقةً وواقعةً.

والثالث: لو اعتمدنا على احتمال الاعتقال، فلقائل أن يقول: إن بكاء الأسطوانة الحنانة لم يكن في الحقيقة، ونبوع الماء من أصابع النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن مطابقًا للواقع. وهكذا تصير المعجزات بتمامها موهومة.

الرابع: لو كان هذا اعتقالًا لكان المناسب أن يسمى بإسمه الخاص وهو: الاعتقال وغلط البصر، وحينئذٍ لا يتحقق مطلوبهم. وقول أنس رضي الله عنه: «فأراهم انشقاق القمر»؛ لأن في صدر هذا الحديث سألوا أن يريهم، فهل يظن عاقل أنهم سألوا انشقاقه في نظرهم لا في الحقيقة، كلا! لم يكن مطلوبهم هذا الاعتقال، بل كان مسئولهم شيئين، أحدهما: أن ينشق في الواقع، ويدل عليه لفظ الانشقاق المنسوب إلى القمر، والثاني: أن يلقوا حبال أنظارهم عليه ويتبين عندهم تبين الشمس في رابعة النهار، فإن لم ينكشف عليهم كان كالجنة والنار، فإنهما موجودان، لكنهم لم يؤمنوا بهما لعدم الرؤية، وإن أخبر بهما الصادق المصدوق عليه السلام، فالمطلوب الانشقاق والإراءة كلاهما؛ ليكون حجة، فلذا قال أنس رضي الله عنه: أراهم، وفي هذه الكلمة تلميح لطيف إلى أن فعل النبي صلى الله عليه وسلم الإراءة، وأما الانشقاق فهو بخلق الله تعالى، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعي هذا الأمر ويقول: زمام الأمور كلها بيد الله. ويقول: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ (الكهف: ١١٠)

وقولهم: «لأن المقصود إراءته إياهم». قلنا: لو كان المقصود إراءتهم فقط لما رآه المسلمون المصدقون.

وقولهم: «لو عم لوهم واهم أن هذا أمر اتفاقي». أقول: كيف يكون اتفاقيًّا وقد وقع في جواب سؤالهم، والأجوبة لا تكون اتفاقية. والله أعلم.(١)

المعجزة الثالثة: رميه كفًّا من الحصى:

والثالث من معجزاته صلى الله عليه وسلم المذكورة في القرآن: رميه بِقَبضة من التراب في وقعة بدر، ووصولها إلى أعين الكفار كلِّهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ١٧)

روى ابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن ابن عباس، والأموي عن عبد الله بن ثعلبة بن صفير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال -يعني في مناشدته ربه- : «إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبدًا»، فقال له جبرئيل: خذ قبضة من تراب، فرمى بها في وجوههم، فما بقي من المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخريه وفمه، فولوا مدبرين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «احملوا» فلم يكن إلا الهزيمة، فقتل الله من قتل من صناديد قريش، وأُسِر من أُسِر، وأنزل الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ (الأنفال: ١٧).(٢)

فرميُ قبضةٍ من تراب ووصولها إلى ألف رجل من عسكر الكفار معجزة عظيمة ظهرتْ على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن تدبر فيها وتفكر. يقول تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ (النور: ٤٠)، وقال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ (طه: ١٢٤)، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون: ٨)

محمد عربی آبروی هر دوسراست ۞ کسے کہ خاک درش نیست خاک بر سر او

معناه: محمد العربي عز للعالَمين، فمن لم يكن من تراب عتبته، فعلى رأسه التراب.

(١) مستفاد من ترجمان السنة، للشيخ بدر عالم، بزيادة ٤/ ٧٩.

(٢) التفسير المظهري ٤/ ٣٨-٣٩.

هذه نبذة من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم التي ذكرت في القرآن، وما تركنا أكثرُ مما ذكرنا، إن هو إلا غُرفة من بحر أو قطرة من بئر، وإلا فمعجزاته في القرآن كثيرة. منها ما ذكرناه في إعجاز القرآن، فإن وجوه إعجاز القرآن معجزات النبي صلى الله عليه وسلم لصدوره على يد من يدعي النبوة كوعد غلبة دينه على سائر الأديان، ووعد الاستخلاف في الأرض، ووعد غلبة الروم على فارس، ووعد دخول النبي صلى الله عليه وسلم مكة -زادها الله شرفًا وكرامة- في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾(القصص: ٨٥)، وما إلى ذلك مما لا يحصى كثرةً.

معجزاته صلى الله عليه وسلم في الأحاديث النبوية:

كما تصدى القرآن الكريم لبعض معجزاته صلى الله عليه وسلم، كذا كشفت الأحاديث المباركة الغطاء عن حُجول عرائس معجزاته، وما ثبت بالأحاديث أكثر من أن يحصى، والأحاديث النبوية أقوى سندًا من التوراة والإنجيل الموجودين في أيديهم، فإنه ليس عندهم لهما سند متصل ينتهي منهم إلى أصحاب الكتب، وأما نحن، فيوجد عندنا أسانيد لجميع الأحاديث، لاسيما الأحاديث التي ثبتت في الصحاح الستة، وعندنا محك ومقياس نعرف به الصحيح الثابت من الموضوع المختلَق، فنأخذ الصحيح وننبذ الموضوع وراء ظهورنا. وبالجملة فالمحدثون يأخذون في هذا الباب بالحزم والاحتياط، نذكر الآن بعض المعجزات المذكورة في الصحاح:

معجزة نبع الماء من تحت أصابعه صلى الله عليه وسلم:

أخرجها البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه أنه قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحانت صلاة العصر، فالتمس الناسُ الوَضوء فلم يجدوه، فأُتي رسول الله بوضوء، فوضع رسول الله في ذلك الإناء يده، فأمر الناس أن يتوضؤا، فرأيتُ الماء ينبُع من تحت أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضئوا من عند آخرهم».[1] روى هذه الواقعة أحد عشر رجلًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٦٩.

معجزة نزول المطر:

رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه، قال: أصاب أهل المدينة قحط على عهد رسول الله، فبينا هو يخطب يوم جمعة إذ قام رجل، فقال: يا رسول الله! هلكت الكُراع وهلكت الشَّاءُ، فادع الله يَسقينا. فمدَّ يديه ودعا. قال أنس: وإن السماء لَـمِثل الزُّجاجة، فهاجت ريح أنشأت سحابًا، ثم اجتمع، ثم أرسلت السماء عزالِيَها، فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا، فلم نزل نُمْطَر الجمعة إلى الجمعة الأخرى، فقام إليه ذلك الرجل أو غيره فقال: يا رسول الله! تهدمت البيوت، فادع الله يحبِسه فتبسم، ثم قال: «حوالينا ولا علينا». فنظرتُ إلى السحاب تصَدَّع حول المدينة كأنها إكليل.(١)

معجزة ردِّ البصر:

أخرجها الترمذي عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن رجلًا ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ادع الله أن يعافيني. فقال: «إن شئتَ دعوتُ وإن شئتَ صبرتَ فهو خير لك». قال: فادعه. قال: فأمره أن يتوضأ، فيحسِن وُضوءه، ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، إني توجهتُ بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفِّعه فيَّ».(٢)

معجزته صلى الله عليه وسلم في دعاء كثرة النسل والمال:

ورد فيها ما أخرج مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: جاءت بي أمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أزَّرتني بنصف خمارها ورَدَّتني بنصفه فقالت: يا رسول الله هذا أُنَيس ابني أتيتك به يَخْدُمك، فادع الله له، فقال: «اللهم أكثر مالَه وولده». قال أنس: فو الله إن مالي لكثير، وإن ولدِي وولدَ ولدِي ليتعادُّون على نحو المئة اليوم.(٣)

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ٣٥٨٢.

(٢) سنن الترمذي، رقم: ٣٥٧٨.

(٣) صحيح المسلم، رقم: ٢٤٨١.

معجزته ﷺ في سوخ فرس سراقة بن جعشم في الأرض:

رواه البخاري في حديث طويل وفيه: فركبتُ فرَسي، وعصيتُ الأزلامَ تُقَرِّبُ بي، حتى إذا سمعتُ قراءةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفتُ، وأبو بكر يُكثِر الالتفاتَ، ساخَتْ يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررتُ عنها ثم زجرتُها فنهضتْ، فلم تكَد تُخرِج يديها». إلى آخر ما ساق الحديث.[1] ذكر في هذا الحديث سوخ الفرس ثلاثَ مرات، فلم تَجْرِ حتى عاهد النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يأخذه ولا يخبر به أحدًا.

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم أنه عليه السلام أخبر عن الحسن رضي الله عنه أن ابني هذا سيد سيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين.[2] فكان هكذا أصلح الله به بين فئة معاوية رضي الله عنه، وفئة أبيه علي رضي الله عنه بأن فوض الأمر إلى معاوية رضي الله عنه، وصار خليفة مجمَعًا عليه. وقال عليه السلام لسعد رضي الله عنه: «لعلك أن تخلَّف حتى ينتفع بك أقوام، ويضر بك آخرون».[3] فكان كما أخبر. وأخبر عليه السلام بكتاب حاطب بن بلتعة إلى أهل مكة.[4] وأخبر عن مصارع أهل بدر[5]، وغير ذلك.

فهذه المعجزات اللامعات البينات دلائل واضحة على صدق نبوته. وقد ثبتت هذه الآيات بروايات صحيحة نقلت إلينا من رجال ثقات موصوفين بالصدق والعدل والحفظ والإتقان والتقوى والإخلاص، وأُدرِجت في كتب الأحاديث والآثار، ووُعِيت في خزائن الأخبار، ونظمت في قلائد الأزهار.

قال بعض المسيحين اعتراضًا على الأحاديث: إن هذه روايات لسانية لا اعتداد بها ولا اعتماد، فإن اللسان يزلق ويخطأ. فنقول: يجب عليها الاعتماد إذا نقلت عن الثقات، على أن

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ٣٩٠٦.
(٢) صحيح البخاري، رقم: ٢٥٠٥.
(٣) صحيح البخاري، رقم: ١٢١٣.
(٤) صحيح البخاري، رقم: ٣٦٨٤.
(٥) صحيح مسلم، رقم: ٥١٢٠.

الروايات اللِّسانية معتبرة عند أهل الكتابين كما قال آدم كلارك في شرح ديباجة كتاب عزرا في المجلد الثاني من تفسيره المطبوع سنة ١٧٥١م: «قانون اليهود كان منقسما على نوعين، مكتوبًا ويسمُّونه التوراة، وغير مكتوب ويسمُّونه الروايات اللِّسانية التي وصلت إليهم بواسطة المشايخ، ويدعون أن الله كان أعطى موسى كلا النوعين على جبل الطور فوصل إلينا أحدهما بواسطة الكتابة، وثانيهما بوساطة المشايخ بأن نَقَلوها جِيلًا بعد جيل، ولهذا يعتقدون أن كليهما متساويان في المرتبة، ومن جانب الله، وواجب التسليم، بل يرجحون الثاني ويقولون: إن القانون المكتوب ناقص مُغلَق في كثير من المواضع، ولا يمكن أن يكون أصل الإيمان على الوجه الكامل بدون اعتبار الروايات اللسانية».(١)

هذه هي عقيدة اليهود المسطورة في زبرهم، والنصارى أيضًا يعتقدون هذا ويعتبرون الروايات اللِّسانية؛ قال يوسى بيس -الذي تاريخه معتبر عند علماء كاتلك وبروتستنت- في الباب التاسع من الكتاب الثاني من تاريخه المطبوع ١٨٤٨م في الصفحة ٨٧ في بيان حال يعقوب الحواري: «إن كليمنس نقل هذه الحكاية عن الروايات اللِّسانية التي وصلت إليه من الآباء والأجداد».(٢)

قال وليم ميور في الباب الثالث من تاريخ كليسا المطبوع ١٨٤٨م: «القدماء المسيحية ما كان عندهم عقيدة مكتوبة من عقائد الإيمان التي اعتقدوها ضروريًّا للنجاة، وكانت تعلم للأطفال، والذين كانوا يدخلون في الملة المسيحية تعليمًا لسانيًا، وهذه العقائد كانت متحدة قربًا وبعدًا، ثم لما ضبطوها بالكتابة وقابَلوها، وجدوها مطابقة، وما وجدوا فيها غير الاختلاف القليل اللفظي، وما كان فرق في أصل المطالب.(٣)

فنخلص إلى أنهم يعتبرون رواياتهم الجارية على الألسنة مع أن رواياتهم منقطعة في البين لوقوع الآفات العظيمة بعد موسى عليه السلام على بني إسرائيل من بخت نصر، وانيتوكس، وطيطوس، وغيرهم.

---

(١) إظهار الحق ٢/ ١٦٨.

(٢) إظهار الحق ٢/ ١٧٥.

(٣) إظهار الحق ٢/ ١٩٤.

بشارات الأنبياء السابقين عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ

بنبوة سيد المرسلين من الكتاب المقدس

من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بشائر النبيين السابقين في الكتب السابقة، وقد نبه القرآن الكريم والأحاديث النبوية على أن الأنبياء بشَّروا بمحمد صلى الله عليه وسلم. قال الله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام في رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ (الصف: ٦)

وقال عز وجل: ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ (الأعراف: ١٥٧)

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ (الشعراء: ١٩٧)

ولهذا بين الله تعالى في كتابه العزيز: أنهم يعرفون أنك رسول الله لوجود العلامات التي جاءت في كتبهم في ذاتك الشريفة، ولكن لا يؤمنون عنادًا. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٤٦)

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى اتباعه، وينكرون ذلك، ثم يحتج عليهم ويقول: انظروا في كتبكم وما فيها من الشهادات على نبوتي. فلو كان هذا الإعلام كذبًا لكذَّبوه بلا تأمل، وهم أشد تفحصًا له. وكثير من علمائهم أسلموا لهذه الشهادات كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، وغيرهما من اليهود والنصارى. وقد كانوا يستفتحون به قبل بعثته، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

وسنذكر بعض بشارات الأنبياء بظهور سيدنا خاتم النبيين والمرسلين من كتبهم المحرفة، فإنهم وإن حرفوا كتبهم، ومحَوا منها اسم النبي صلى الله عليه وسلم ووصفه، لكن بقي فيها ما يرمُز إلى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ويشير إلى رسالته:

البشارة الأولى:

البشارة الأولى من التوراة: عبارتها هكذا: «قال لي الأب: قد أحسنوا فيما تكلموا، أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون: إن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه، وأما النبي الذي يطغى، فيتكلم باسمي كلامًا لم أوصه أن يتكلم به، أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي. وإن قلت في قلبك: كيف تعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب؟ فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يَحْدُث ولم يَصِر، فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبي، فلا تخف».[1]

قد ظهر من هذه البشارة أمور:

الأول: كون النبي المبشر به من إخوة بني اسرائيل.

الثاني: كونه مثل موسى عليه السلام.

الثالث: كون كلام الله في فمه.

الرابع: أن من لا يعمل بشريعته ينتصر منه وينتقم.

الخامس: أن النبي الذي لا يتكلم بالحق يقتل.

السادس: أنه يخبر عن المغيبات وتقع كما أخبر بها.

هذا ما يستنبط من هذه الآيات، فاحفظه.

ثم أهل المذاهب في هذه البشارة ثلاث فرق: اليهود يطبقونه على يشوع عليه السلام. والنصارى يطبقونه على عيسى عليه السلام. والمسلمون -كثَّرهم الله تعالى وأبعَدَهم من الرفض والضلال- يطبِّقونها على أفضل الرسل محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الحق الأليق بالقبول.

إذا علمت هذا فاعلم أنه لا ينطبق على يوشع عليه السلام لوجوه:

الأول: أنه جاء فيها «سوف أقيم» وهي للاستقبال، فعلم أن المبشَّر به يأتي في المستقبل،

---

(١) التثنية ١٨/ ١٨-٢١.

ويوشع عليه السلام كان موجودًا في زمن موسى عليه السلام وكان صاحبًا له.

الثاني: جاء فيها «أقيم لهم من وسط إخوتهم». وهذا يدل على أن المبعوث لا يكون من بني إسرائيل، بل من إخوتهم، وإخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل. ويوشع عليه السلام كان من بني إسرائيل. ولا يقال: «فلان من إخوتهم» إذا كان من قبيلتهم بل يقال: «فيهم»، أو «منهم». قال الله تعالى في حق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ (آل عمران: ١٦٤)، والظاهر أن المضاف يغائر المضاف إليه، فالإخوة غير بني إسرائيل، وجاء استعمال الإخوة لغير القبيلة كما جاء في شأن بني عيسو وبني إسحاق: «وسكنوا (بنو إسماعيل) من حويلة إلى شور التي أمام مصر حينما تجيء نحو أشور أمام جميع إخوته نزل».[(١)] أطلق لفظ الإخوة على بني إسحاق وعيسو، لا على بني إسماعيل. وإذا كان فرد من جيل آخر فقد يقال: «هو من إخوتهم»، لكن لا يقال لشعب داخل قبيلة: «هو من إخوتهم». فلا يقال: «بنو هاشم مِن بني هاشم»، فكيف يقال لبني إسرائيل: «هم من إخوة بني إسرائيل».

الثالث: أنه وقع في هذه البشارة «أجعل كلامي في فمه» إشارة إلى إنزال الكتاب والشريعة عليه، وذا لا يَصدُق على يوشع عليه السلام؛ لأنه لم يكن صاحب كتاب وشريعة.

الرابع: أنه قيل في هذه البشارة: «مثلك». ويوشع عليه السلام لم يكن مثل موسى؛ لأنه جاء في التوراة ما حاصله أنه لم يجيء في بني إسرائيل نبي واجَهَ الربَّ وعرفه مثل موسى.[(٢)] على أن يوشع عليه السلام كان تلميذ موسى عليه السلام، لا مثله.

وهكذا لا ينطبق على عيسى عليه السلام كما يقول المسيحيون؛ لأن فيها «مثلك»، وعيسى عليه السلام لم يكن مثل موسى عليه السلام؛ لأنه بزعمهم إله. وموسى عليه السلام عبد ورسول، وموسى عليه السلام صاحب قتال وجهاد ووضوء وطهارة وختان وطلاق وحدود وتعزيرات، وعيسى عليه السلام لم يكن كذالك بزعمهم الباطل الزائل. ولأنه من بني إسرائيل، لا من إخوتهم كما مر، ولأنه وقع فيه «إن لم يطع كلامه يطالبه الأب»، والظاهر أن المراد مطالبة الدنيا؛ لأن مطالبة الآخرة لا تختص به؛ بل توجد في جميع الأمم. ولم توجد

---

(١) التكوين ٢٥/ ١٨.

(٢) التثنية ٣٤/ ١٠.

المطالبة والانتقام في شريعة عيسى عليه السلام: لا من الكفار لعدم الجهاد عندهم كما سيجيئ تفصيلًا، ولا من المصدقين الذين لا يطيعونه في الأحكام لعدم وجود الحدود والتعزيرات في دينه، فعلم أنه ليس بمراد. ولأن البشارة تنبِئُ أن الذي يكون متنبِّئاً يُقتل، ويفهم من طريق المفهوم المخالف أن النبي الحق لا يقتل، لكنه قُتِلَ -بزعمهم-، فلم يكن حقًّا. وترتيب القياس الاستثنائي هكذا: كل من كان نبيًّا حقًّا من الله فهو لا يقتل، لكن من قُتِل، ينتج: فهو لا يكون نبيًّا حقًّا، فإن استثناء رفع التالي ينتج رفع المقدم كما تقرر عند المناطقة.

ولا يراد بهذه البشارة شمويل عليه السلام، كما يقول بعض اليهود؛ لما مر من الوجوه في يوشع عليه السلام وعيسى عليه السلام، ولا على المنتظر الموعود الذي ينتظره اليهود؛ لأن النبوة قد خُتِمَت على محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يدَّع أحد النبوةَ بعده إلا عارضتْه الأمم ونابذوه وأشاعوا كفره وكذبه، حتى المسيحيين بارزوا المرزا غلام أحمد القادياني المتنبئ، وصنَّفوا في رده كتبًا ورسائل.

وهذه الآيات كلها توجد في النبي صلى الله عليه وسلم على أكمل وجه وأتم طريق، فمحمد صلى الله عليه وسلم من إخوة بني إسرائيل، إذ هو من بني إسماعيل، وهم إخوة بني يعقوب، أي بني إسرائيل، وهذا أوضح من جهل النصارى، لا ينكره إلا متعصب، أو متجاهل. وهو مثل موسى عليه السلام، وإليه الإشارة في قوله تعالى:﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴾ (المزمل: ١٥)، فمحمد صلى الله عليه وسلم مثل موسى عليه السلام في الشريعة، والأحكام كالقصاص، والحدود، وقانون الجزاء، وتحريم الخمر، وإباحة الطلاق، والنكاح، والجهاد، واشتراط الطهارة للصلاة، والختان، وغيرها. فإن هذه الأمور كما هي موجودة في الشريعة الموسوية كذلك موجودة في الشريعة المصطفوية على صاحبها ألف ألف تحية. وألقى الله تعالى كلامه عليه بالوحي، وهو القرآن المجيد بواسطة جبريل عليه السلام بخلاف عيسى عليه السلام، فإنه أعطي كتابًا مكتوبًا من عند الله لا بالوحي، فهذا أتم وأكمل تطبيقًا على رسولنا صلى الله عليه وسلم. ومن لا يطيعه ولا يتبعه إن كان على سبيل الإنكار والفساد يجاهَد ويقاتَل، وإن كان مقصرًا في العمل مفرطًا فيه يُحَدُّ، أو يعزَّر بحسب اختلاف المعاصي.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يتكلم إلا بالحق كما جاء في البشارة، وإليه يشير الحديث، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم في جواب رجل: «إن هذا الفم لا يخرج منه إلا الحق».[(١)] وقد اعترف به الخصماء المخالفون حيث لقَّبوه بالصادق الأمين. وأخبر عما مضى وعما يجيء، فكل ذلك وقع كما أخبر، انظر إلى قوله عليه السلام: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى».[(٢)] وقد صدق هذا الإخبار بعد ٦٥٤ سنة إذ خرجت نار من جبل في أول يوم من جمادى الأخرى، ثم وقعت الزلزلة في اليوم الثاني، واشتدت في اليوم الثالث، وسُمِع في اليوم الرابع صوت الرعد، وفي اليوم الخامس انتشر الدخان فيما بين السماء والأرض، وارتفعت شعل النار في الفضاء وانتهت إلى جانب المدينة، وأهل المدينة باتوا في المسجد النبوي وتضرَّعوا ودعوا الله القادرَ العزيزَ الجبارَ، ثم انطفأت النار.

قال القرطبي في التذكرة: «قد خرجت نار بالحجاز بدؤها زلزلة عظيمة في ليلة الأربعاء بعد العتمة الثالث من جمادى الأخرى سنة أربع وخمسين وست مئة، واستمرت إلى ضحى النهار يوم الجمعة فسكنت، وظهرت النار بقريظة بطرف الحرة ترى في ضوئه البلد العظيم، عليها سور محيط، عليه شراريف وأبراج ومآذن، ويرى رجال يقودونها، لا تمر على جبل إلا دكته وأذابته، ويخرج من مجموع ذلك مثل النهر: أحمر وأزرق، له دوي كدوي الرعد، يأخذ الصخور بين يديه وينتهي إلى محط الركب العراقي، واجتمع من ذلك ردم صار كالجبل العظيم، فانتهت النار إلى قرب المدينة، ومع ذلك فكان يأتي المدينة نسيم بارد. وشوهد لهذه النار غليان كغليان البحر».[(٣)]

قال النووي: وقد خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وست مئة، وكانت نارًا عظيمة جدًّا خرجت من جَنبِ المدينة الشرقي وراء الحرة. تواتر العِلم بها عند جميع أهل الشام وسائر البلدان، وأخبرني من حضرها من أهل المدينة.[(٤)]

---

(١) روى معناه أبو داود ، باب في كتابة العلم، رقم: ٣٦٤٨.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٧١١٨.

(٣) فتح الباري ١٣/ ٧٩.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ٢٣٥-٢٣٦.

البشارة الثانية:

قال في استثناء: «جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس، وعن يمينه نار شريعة لهم».(١)

المراد بـ «مجيء الرب» مجيء وحيه وشريعته، و«سينا» جبل نزل فيه الوحي على موسى عليه السلام. و«سعير» جبل بقرب ناصرة مولد عيسى عليه السلام، والمراد بـ «فاران» هو مكة المكرمة -حفظها الله من الفتن والمحن-؛ لأن إسماعيل عليه السلام وأولاده سكنوا بمكة، وهذا لا ينكره إلا مجنون. وقد جاء أن مسكنهم فاران، فهو مكة.

وقال في صموئيل: «ومات صموئيل، فاجتمع جميع بني إسرائيل ودفنوه في بيته في الرامة، وقام داود ونزل إلى برية فاران».(٢) وقال داود في موضع آخر: «إني ساكن في خيام قيدار».(٣)

فتحققت منه مقدمتان، إحداهما: أن داود نزل فاران، وثانيتها: أن فاران مسكن قيدار. وههنا مقدمة ثالثة معلومة وهي أن قيدار من أبناء إسماعيل الذين هم أهل مكة، فيكون القياس مفصول النتائج هكذا: داود نزل فاران، وفاران مسكن قيدار، ينتج داود نزل مسكن قيدار، ثم انضمَّ إليها قيدار من بني إسماعيل الذين هم أهل مكة، ينتج: نزل داود إلى بني إسماعيل الذين هم أهل مكة، فصار نزول داود إلى فاران ونزوله إلى مكة واحدًا؛ لأنهما شيء واحد.

وفي سفر التكوين: «وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية، وكان ينمو رامي قوس، وسكن في برية فاران، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر».(٤)

هذا، قيل: يدل على أن مسكن إسماعيل في فاران، ومعلوم أن مسكنهم مكة، ففاران هو مكة. فالجملة الأولى أي «جاء الرب من سيناء» إشارة إلى شريعة موسى عليه السلام،

---

(١) التثنية ٣٣/ ٢.

(٢) صموئيل الأول ٢٥/ ١.

(٣) المزامير ١٢٠/ ٥.

(٤) التكوين ٢١/ ٢٠، ٢١.

ووحيه، والجملة الثانية أي «أشرق من سعير» إلى وحي عيسى عليه السلام وشريعته. والثالثة أي «تلألأ من فاران» إلى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم بلا ارتياب. وقوله: «وعن يمينه نار شريعةٍ» إشارة إلى شريعته، ودينه يشتمل على الجهاد، والحدود، وقانون الجزاء.

وفي بعض نسخ الأردية كلمة زائدة، وهي «*دس ہزار قدسیوں کے ساتھ آیا*». يعني جاء مع عشرة آلاف قديسين. وعبارته الكاملة هكذا: «*اور اس نے کہا کہ خداوند سینا کی طرف سے آیا، اور سعیر سے ان پر طلوع ہوا، فاران ہی کے پہاڑ سے وہ جلوہ گر ہوا، دس ہزار قدسیوں کے ساتھ آیا اور اس کے داہنے ہاتھ میں ایک آتشی شریعت ان کے لئے تھی*».(١)

ورواية عشرة آلاف لا توجد في النسخة الأردية الموجودة عندي، بل فيها «*اور لاکھوں قدسیوں میں سے آیا*» يعني جاء مع مليون قدسيا. ولفظة عشرة آلاف حكاه الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي، فلعل يد التحريف امتدت بعد برهة من الدهر إلى لفظة «عشرة آلاف» ليُبهِموا صدق البشارة على النبي صلى الله عليه وسلم. أرادوا ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره.

وبالجملة هذا الكلام يصدق على محمد صلى الله عليه وسلم إذ كان معه وقت دخوله عليه الصلاة والسلام مكة ١٠٠٠٠ رجلٍ، كلهم قدسيون يُقَدِّسون الله ويطيعون الله ورسوله النبي الأمي في جميع الأمور، وقد أومض القرآن إلى هذه البشارات الثلاث في هذه الآية: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ (التين)، فالتين والزيتون إشارة إلى مولد عيسى عليه السلام؛ لأنهما ينبتان كثيرًا في الأرض المقدسة، وهي مولد عيسى عليه السلام، وطور سينين هو طور سيناء محل وحي موسى على نبينا وعليه السلام، وهذا البلد الأمين هو مكة، وإنما سمي أمينًا؛ لأنه المأمون من القتال والجدال، يحرم فيه الصيد، ولا يقطع شجره، ولا يُخْتَلَى خلاه، ولا يُعضد شوكه كما ورد في الحديث، ويوضحه قوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗا﴾ (آل عمران: ٩٧)، أو سمي الأمين لحفظه محمدًا صلى الله عليه وسلم، فلما اشتدت عليها الحال، واضطربت، وخشي ضياع هذه الأمانة القيمة سَلَّمَتْه إلى موضع

---

(١) بشائر النبيين، لمولانا محمد إدريس الكاندهلوي، ص ٢٣.

آخر، وهي المدينة.

وقد ذكر في التوراة سينا أولًا، وسعير ثانيًا، وفاران ثالثًا، وأشير في القرآن إلى سعير أولًا، وسينا ثانيًا، وفاران ثالثًا؛ لنكتة دقيقة، وهي أن المقصود في التوراة الإخبار عن الوحي؛ فإن الجمل الثلاثة خبرية، فأورد الجمل الثلاث على الترتيب الوقوعي، وقد وقع وحي طور سيناء أولًا، ووحي سعير ثانيًا، ووحي فاران ثالثًا، والهدف الأصلي في القرآن إظهار شأن هذه البلاد وكرامتها، ويلوح ذلك من الإقسام. ووحي المسيح عيسى عليه السلام عال معظم، ثم وحي موسى عليه السلام أعظم منه وأعلى، ووحي محمد صلى الله عليه وسلم أعلى كعبًا منهما وأجل وبالغ إلى الغاية القصوى.

نبَّه على هذه النكتة الحافظ ابن القيم قال: «ولما كان ما في التوراة خبرًا عن ذلك أخبر به على الترتيب الزماني، فتقدم الأسبق ثم الذي يليه. وأما القرآن فإنه أقسم بها تعظيمًا لشأنها وإظهارًا لقدرته وآياته وكتبه ورسله، فأقسم بها على وجه التدريج درجةً بعد درجة، فبدأ بالعالي، ثم انتقل إلى أعلى منه، ثم أعلى منهما، فإن أشرف الكتبِ القرآنُ، ثم التوراةُ، ثم الإنجيلُ، وكذلك الأنبياء.[(١)]

وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى مرتبة الأديان وقدر انتشارها، فمجيء الرب من سيناء ظهور الوحي، وإشراقُه ظهورُه ظهورًا بينًا كطلوع الشمس، وتلألؤُه واستعلاؤُه غلبته على الكل وظهوره ظهورًا كاملًا، وصرح به العلامة ابن القيم رحمه الله، حيث قال: في الأول جاء وظهر، وفي الثاني أشرق، وفي الثالث استعلن. فكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر، ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس، ونزول القرآن بمنزلة ظهور الشمس فى السماء.[(٢)] ولا شك أن دين محمد صلى الله عليه وسلم قد ظهر ظهور الشمس في نصف النهار، ويؤيده قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ (الأحزاب)

البشارة الثالثة:

في سفر التكوين: «حين دعى يعقوب بنيه وقال لهم: «اسمعوا كلامي واصغوا إلى

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ص٦٨.

(٢) هداية الحيارى، بحث البشارات، ص ٦٧.

إسرائيل لا يزول قضيب من يهوذا ومشتَرع من بين رجليه، حتى يأتي شيلون، وله يكون خضوع شعوب رابطًا بالكرمة جحشه، وبالجفنة ابن أتانه غسل بالخمر لباسه، وبدم العنب ثوبه، سود العينين من الخمر، ومبيَضّ الأسنان من اللبن».[١]

معاني الألفاظ: القضيب: العصا، والمراد منه عصا السلطنة، وهي السلطنة القاهرة. ومشترع الحاكم: الحكومة التي لا تكون جابرة. وخضوع شعوب: اتباع القبائل والأقوام. والكرمة: شجرة العنب. والجحشة: الحمارة (الأتان). والجفنة: نوع نجيب من العنب. يعني: لا تزال السلطنة والغلبة والسلاطين في بني يهوذا حتى يأتي شيلون، ثم ينقطع ذلك منهم، وينتقل إلى شيلون. ثم أومى إلى أوصاف شيلون، وما أدراك ما شيلون؟ هو يربط أتانه بالكرمة، ويتبعه الأقوام، ويغسل بالخمر لباسه. ثم بيَّن حُلْيَتَه بسواد العين وبياض الأسنان من اللبن. وهذه الآيات والعلامات والصفات والمحامد توجد في محمد صلى الله عليه وسلم، لا في عيسى عليه السلام كما زعم المسيحيون، ولا في الموعود المنتظر كما تقول اليهود.

أما عدم وجوده في عيسى عليه السلام؛ فلأن البشارة تدل على أن السلطنة تنتقل من بني يهوذا إلى شيلون، فيظهر منه أن شيلون لا يكون من بني يهوذا، وكان عيسى عليه السلام منهم، ولأن المراد من القضيب: السلطنة القاهرة والشريعة الجابرة، وهي شريعة موسى عليه السلام. والمُشْتَرَعُ: الشريعة التي فيها سهولة، وهي شريعة عيسى عليه السلام. فالمعنى: أن شيلون يأتي بعد الشريعة القاهرة والراخصة، ولا شك أن بعد موسى وعيسى عليهما السلام جاء محمد صلى الله عليه وسلم، فلا يراد عيسى عليه السلام.

وليس المراد به الموعود؛ لأن البشارة تنبئ أن شيلون يكون حاكما، والسلطنة الدنيوية زالت من آل يهوذا قبل ظهور عيسى عليه السلام بمقدار ست مئة سنة من عهد بخت نصر.[٢] فالمراد من شيلون المُبَشَّر به: محمد صلى الله عليه وسلم. والأوصاف كلها توجد فيه صلى الله عليه وسلم.

فالعلامة الأولى: وهي انقطاع الحكومة إليه، موجودة فيه؛ لأن السلطنة أَعْطِيَتْ في يده

---

(١) التكوين ٤٩/ ١٠-١٣.

(٢) إظهار الحق ٢/ ٣٨٢. انظر التفصيل فيه، وهذه غرفة من بحره الكبير.

صلى الله عليه وسلم، وصارت خيبر والروم تحت يده، وظهرت دولته على الدول، كما ظهر دينه على الأديان، ولله الحمد والمنة.

أما العلامة الثانية: وهي إطاعة الأقوام كلها، فأظهر من الذَّكاء وقت الضحى؛ فإن الأقوام من العرب، والعجم، والروم، والفرس، والهند، والترك، والأسود، والأحمر، والأبيض، والأصفر، كلهم خاضعون لأحكامه، طائعون لدينه، اشتهر صيت جلاله من المشرق إلى المغرب، لا ينكره إلا المُتعامى المتجاهل، أو الضال المضل، فصار من الأراذل، الذي ختم الله على قلبه فلا يبصر نور النبوة، كالخفاش ينكر الشمس. ويدوم دين محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة، لا ينسخه ناسخ، ولا يحرِّفه محرِّف، يستوي فيه من تقدَّم ومن تأخَّر، ومن سلف ومن خلف، فالناس كلهم في نظره سواء كالحَلَقَة المُفْرَغَةِ كما قال الله تعالى شانه: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨)، وقال عزَّ وجل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ: ٢٨)، وقال عَزَّ مِن كل قائل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، بخلاف أنبياء بني إسرائيل؛ فإنهم بعثوا إلى أقوامهم خاصة، كما قال تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (آل عمران: ٤٩)

والعلامة الثالثة: أن يربط حماره بالكرمة، وقد وقع هذا؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم حين فتح خيبر رأى حمارًا أسود فكلَّمه وسأل عن اسمه، فقال: اسمي يزيد بن شهاب، وقد خلق الله من نسل جدتي ستين حمارًا كل واحد منهم مركوب نبي، وأنا أرجو أن تركب عليَّ، إذ لم يبق من نسل جدتي إلا أنا ومن نسل الأنبياء إلا أنت، فركب عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وسقط ذلك الحمار بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم في بئر ومات.[1]

والعلامة الرابعة: أن يغسل لباسه بالخمر وماء العنب، فالباء إما بمعنى «مِن» يعني

---

(١) الخصائص الكبرى، ذكر معجزاته في ضروب الحيوانات ٢/ ١٠٠. وأورده ابن حبان في «الضعفاء والمجروحين» (٣/ ٣٠٨) وقال: «هذا حديث لا أصل له، وإسناده ليس بشيء». وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٩٤) ، وقال: «هذا حديث موضوع، فلعن الله واضعه؛ فإنه لم يقصد إلا القدح في الإسلام والاستهزاء به». ووافقهما الذهبي في «تلخيص كتاب الموضوعات» (ص٨٨)، وفي «ميزان الاعتدال» (٤/ ٣٤)، والحافظ ابن حجر في «لسان الميزان» (٧/ ٤٩٩)، وفي «فتح الباري» (٦/ ٥٩، باب من احتبس فرسًا في سبيل الله)، والسيوطي في «اللآلي المصنوعة» (١/ ٢٥٣)، وابن عراق في «تنزيه الشريعة المرفوعة» (١/ ٣٢٦).

يغسل لباسه من الخمر ويجتنبها، أو المراد من الخمر المَحَبَّة الإلهية والفناء فيها على سبيل التشبيه، ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مستغرقًا في حب الله، فانيا فيه، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». هذا وإن كانت إرادة المَحبة الإلهية من الخمر تخيل الشعراء ليس له حظ من الحقيقة، كما فصله العلامة الآلوسي في موضع من تفسيره(١) إلا أن يكون تمثيلًا و تشبيهًا، وهذا التشبيه معروف بين الشعراء.

والآية الخامسة: سودُ العينين من الخمر، يعني في عينيه الحمرة مُشْرَبَةٌ بالبياض، وهذه الآية وجدت في ذاته الشريفة كما روى الترمذى بسنده عن جابر بن سمرة رضي الله عنه: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ضليع الفم، أشكل العينين، منهوسَ العَقِب».(٢) «أشكل العينين» معناه: أن في بَياضهما شيئًا من الحمرة.(٣) ورُوِي عن شعبة أن معنى «أشكل العينين» طويل شَق العين.(٤) ولا منافاة بينهما. ورُوِي أيضًا في وصف عيني رسول الله صلى الله عليه وسلم «أدعج العينين» يعني في عينيه سواد. فعينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كانتا أسود الإنسان مشوبٌ في بياضه الحمرة، وهذا أحب وأحسن.

حسنِ یوسف دمِ عیسی یدِ بیضا داری ❁ آنچه خوباں ہمہ دارند تو تنہا داری

معناه: أنت تجمع جمال يوسف، ورقية عيسى، واليد البيضاء لموسى عليهم السلام، فأنت جامع لجميع البدائع الحسان، وكمالاتهم.

والعلامة السادسة: مُبَيَّضُ الأسنان، وهذه أيضًا وجدت في ذاته الشريفة، كما روى الترمذي بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلج الثَّنِيَّتَيْن، إذا تكلم رُئِيَ كالنور يخرج مِن بين ثناياه».(٥)

---

(١) راجع: روح المعاني ٢١/ ٧٣.

(٢) سنن الترمذي، رقم: ٣٦٤٦.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ٩٣.

(٤) صحيح مسلم، رقم: ٢٣٣٩.

(٥) الشمائل المحمدية، للترمذي، رقم:١٤.

البشارة الرابعة:

من زبور سيدنا داود عليه الصلاة والسلام: «فاض قلبي بكلام صالح، متكلم أنا بإنشائي للمَلِك، لساني قلم كاتب ماهر: أنت أبرع جمالًا من بني البشر، انسكبت النعمة على شفتيك لذلك، باركك الله إلى الأبد، تقلدْ سيفَك على فخذك أيها الجبار جلالك وبهاءك، وبجلالك اقتحم، اركب من أجل الحق والدَّعة والبر، فتريك يمينك مخاوف، نُبُلُك المسنونة في قلب أعداء الملك، شعوب تحتك يسقطون، كرسيك يا الله إلى دهر الدهور، قضيب استقامة قضيب ملكك، أحببت البر وأبغضت الإثم، من أجل ذلك مسحك اللهُ إلهُك بدهن الابتهاج أكثر من رفقائك، كل ثيابك مر وعود وسليخة من قصور العاج، سرَّتك الأوتار، بنات ملوك بين حظياتك، جعلت الملائكة عن يمينك بذهب أوفير، اسمعي يا بنت وانظري وأميلي أذنك وانسي شعبك وبيت أبيك، فيشتهي الملك حسنك لأنه هو سيدك فاسجدي له، وبنتُ صور أغني الشعوب تترضَّى وجهك بهدية، كلها مجد ابنة الملك في خدرها، منسوجة بذهب ملابسُها، بملابس مُطرزة تحضَر إلى الملك، في إثرها عذارى صاحباتها مقدمات إليك، يحضرن بفَرَح وابتهاج، يدخلن إلى قصر الملك، عوضا عن آبائك يكون بنوك تقيمهم رؤساء في كل الأرض، أذكر اسمك في كل دَور فدَور، من أجل ذلك تحمدك الشعوب إلى الدهر والأبد».(١)

قد أجمع اليهود والنصارى والمسلمون على أن هذا المزمور إشارة إلى نبي يأتي بعد داود عليه الصلاة والسلام بعد اختلافهم في من يَصْدُقُ عليه هذه الصفات، فالمسيحيون يقولون: هذا رمز إلى المسيح عليه السلام، كما هو دَيْدَنُهم أنهم يطبقون كل بشارة على المسيح عليه السلام. وإننا لا ننكر ذلك لو كانت هذه الصفات موجودة في عيسى عليه السلام، فنحن نؤمن بنبوة عيسى عليه السلام كما نؤمن بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ونقول: آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رُسُله، ونسمع ونطيع الكل، لكن هذه الصفات ليست بموجودة في عيسى عليه السلام كما سيتضح لك كالشمس في رابعة النهار. واليهود يطبقون هذه البشارة على المنتظر الموعود الذي هو كالعنقاء ليس بموجود.

---

(١) المزامير، المزمور الخامس والأربعون كله.

والمسلمون يقولون: الموصوف بهذه الصفات الكاملة، والمنعوت بهذه النعوت الفاضلة، سيدُ الأولين والآخرين، أفضلُ المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم.

فقوله: «فاض قلبي بكلام صالح» يوجد في جميع الأنبياء، فإن قلوب جيمع الأنبياء تفيض بكلام صالح نافع من جانب الله.

وقوله: «متكلم أنا بإنشائي للملك لساني قلم كاتب» صفات محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن المراد بـ «لساني قلم كاتب» الفصاحة والبلاغة، وهما يوجدان في القرآن، إذ خضعت دون سُرادِقاته عقولُ الفحول، وأذعنت لحسن بيانه نفوسُ البلغاء، فلا يوجد مثله كتاب. فقد أقر بإعجازه الموافق والمخالف، وأثَّرت بلاغته في نفس عمر رضي الله عنه، فأذعن وأسلم.

تو می دانی که سوزِ قراءتِ تو ❁ دِگرگوں کرد تقدیرِ عمر را

معناه: أنت تعلم أن تأثير قراءة القرآن غيَّر تقدير عمر وحوَّله من الكفر إلى الإيمان.

وقول داود عليه السلام مخاطِبًا للنبي عليه الصلاة والسلام الآتي لفرط المحبة: «أنت أبرع جمالًا من بني البشر» يوجد في محمد صلى الله عليه وسلم لحسنه وجماله الظاهري مع الجمال الباطني، فظاهره جميل كباطنه، وصورته جميلة كسيرته، ووجهه يشرق كالبدر نورًا، كما روى الترمذي عن البراء رضي الله عنه قال: «ما رأيت من ذي لِـمَّةٍ في حُلَّة حمراء أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، له شعر يضرب منكبيه، بعيد ما بين المنكبين، لم يكن بالقصير ولا بالطويل، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم».(١)

فإن قيل: يجوز أن ينطبق على المسيح عليه السلام، ويوجد فيه الحسن الظاهري مع الحسن الباطني.

قلنا: ليس كذلك عندهم، فإن عيسى عليه السلام على زعمهم لم يكن جميلا، ووجه الكلام إليهم، ففي سفر أشعيا ناعتًا له: «كفَرْخٍ وكعِرْق من أرض يابسة لا صورة له ولا جمال، فننظر إليه ولا منظر فنشتهيه، محتَقَر ومخذول من الناس، رجلُ أوجاعٍ ومُختَبر

(١) الشمائل المحمدية، للترمذي، رقم: ٥.

الحزن».[١] ولو سلمنا وجود هذا الجزء فيه، فلا توجد فيه الأجزاء الآتية، كما سيتضح لك الحال.

فالحاصل أن هذه الصفة موجودة على أكمل طريق في محمد صلى الله عليه وسلم، فهو أحسن الناس وأجمل الخلق على الإطلاق صلى الله عليه وسلم.

وأحسنَ منك لم تر قط عيني ۞ وأجملَ منك لم تلد النساء
خُلِقْتَ مبرَّءًا من كل عيب ۞ كأنك قد خلقت كما تشاء[٢]

وقوله عليه السلام: «انسكبت النعمة على شفتيك» مختص بالنبي الأمي صلى الله عليه وسلم، فإنه نطق بكتاب انتفع به جميع العالم، يأخذ بمجامع القلب، ينطبع على قلب كل أحد، ويتدبر في آياته كل عاقل، وكان صلى الله عليه وسلم مصدر كل خير، أتى بكتاب فيه شرائع، وعبادات، ومعاملات، وغير ذلك.

وقوله: «تقلد سيفك على فخذك أيها الجبار» الخ. هذه الصفة أيضًا مختصة به صلى الله عليه وسلم، ولعل المَسيحيين يستنكفون عن انطباق هذه الصفة على المسيح عليه السلام؛ لأنهم يزعمون الحرب من أقبح الصفات، كما سيجيء مفصلًا. وأما رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، فحياته المباركة متحلية بحلية الجهاد والمُكافحة في سبيل الله، جاهد الكفار والمنافقين واليهود والمسيحيين الكافرين، وكان صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من غزوة تهيَّأ للأخرى.

وقوله: «بجلالك أقتحم اركب من أجل الحق والدعة والبر، فتريك يمينك مخاوفَ» أي اقتحم واركب لأجل الحق، لا للشهوة والملك والجاه والمال، ومحمد صلى الله عليه وسلم جاهَدَ وبلَّغ لإظهار الحق وإبلاغه، لا للمال والمنصب، يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم: «لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، ما تنازلت عن هذا الأمر حتى يظهره الله».[٣] قال ابن جرير الطبري في حديث طويل: حين دعاهم أن يتكلموا بكلمة تَدِيْن لهم بها

(١) أشعيا، الإصحاح: ٥٣.
(٢) البيتان لحسان بن ثابت. انظر: ديوانه من ص١١، ط: دار صادر، بيروت.
(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٢٦٦.

العرب، ويملكون بها العجم، قال: فقال أبو جهل من بين القوم: ماهي وأبيك لنُعْطِيَنَّكَهَا وعشْر أمثالها. قال: «تقولون لا إله إلا الله». قال: فنفروا وتفرقوا وقالوا: سلنا غير هذا. فقال: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها».(١)

قوله: «ونُبُلك المسنونة في قلب أعداء الملك، شعوب تحتك يسقطون» ينطبق على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله تعالى أظهره ونصَرَه على أعدائه، فاضمحلُّوا وامتحوا عن البسيطة، وآمنوا به، واتبعوه، وانْمحت أوثانهم، واندرست معابدهم، وجاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا. وخضعت الشعوب والقبائل والرؤساء والسادات لِحُكمه، فأبو سفيان -رضي الله عنه- صار من أنصاره بعد أن كان حربًا عليه، وخالد بن الوليد -رضي الله عنه- قائدُ عسكر الكَفَرة في أُحد كان يفتدي بنفسه في سبيل الله تعالى عز وجل. وهذا عمر -رضي الله عنه- يخرج من بيته ويريد أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد ساعة يستريح في ظل الإسلام وذيله.(٢) وهذا أبو بكر رضي الله عنه سيد القوم أولُ من أسلم. روى الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما حين سئل من أول الناس إسلامًا؟ فقال: أما سمعت قول حسان رضي الله عنه:

إذا تذكرتَ شَجْوًا من أخي ثقة ۞ فاذكُرْ أخاك أبا بكر بما فعلا
خيْرُ البرية أتقاها وأعدلها ۞ بعد النبي وأوفاها بما حملا
الثانيَ التاليَ المحمود مشهَدُه ۞ وأولَ الناس منهم صدَّق

كان رضي الله عنه يلقي نفسه في المخاوف والمهالك، ويصاحب النبي صلى الله عليه وسلم في الأسفار، ويبيت معه في المفاوز والصحارى، ويصدقه حق تصديق. وهذا حسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ينافح عنه، وينادي في الظلمات.

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٥٥٣.

(٢) ذكر هذه القصة ابن اسحاق في «سيرته» (ص١٨١) بدون إسناد، وعنه الإمام أحمد بن حنبل في فضائل الصحابة، رقم: ٥٧١. وأخرج ابن سعد في «الطبقات الكبرى» نحوه (٣/ ٢٦٧) عن القاسم بن عثمان البصري، عن أنس بن مالك، والقاسم ضعيف. قال الذهبي في ترجمة القاسم بن عثمان: «حدث عنه إسحاق الأزرق بمتن محفوظ، وبقصة إسلام عمر، وهي منكرة جدا». (ميزان الاعتدال ٣/ ٣٧٥)

(٣) تفسير القرطبي ٨/ ٢٣٦، وتاريخ الطبري ١/ ٥٣٩.

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه ۞ وعند الله في ذاك الجزاء[١]

وهذا حمزة والعباس عمَّا رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاركان معه في الغزوات. وانهزام كسرى وفارس ينادي بأعلى نداء أن الشعوب تحته يسقطون.

مولاي صل وسلم دائما أبدًا ۞ على حبيك خير الخلق كلهم

ثم بعد ذلك انظر إلى قوله: «كرسيك يا الله إلى دهر الدهور» ينادي من في قلبه مثقال ذرة من العقل، أن دينه يبقى إلى أبد الآبدين ومر الدهور، لا ينسَخَه ناسخ، ولا يمحوه ماح، ولا يأتي بعده شريعة ولا دين، فهو كوثر. أنهاره تجري في جميع الأنحاء، وريحانة تبقى نكهتها ونفحتها إلى قيام الساعة، ولا يختص بدينه أحد دون أحد، بل هو لجميع الشعوب والفئام. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ (سبأ: ٢٨).

یک چراغ است دریں خانه که از پرتو آں ۞ هر کجا می نگری انجمنے ساخته اند

معناه: يوجد السراجُ المنير الواحد في هذا البيت تنوَّرت المجامع والمجالس بنوره وضيائه.

وقد استدل البادري فندر في «ميزان الحق»[٢] بهذا القول يعنى «كرسيك يا الله إلى دهر الدهور» على أن المراد منه المسيح عليه السلام؛ لأنه المخاطب بـ «يا الله» و«الإله» إنما هو المسيح لا غيره من الأنبياء». وهذا من سخافة عقله، وفساد فهمه؛ لأن المراد بـ «الكرسي» دين الله وشريعته، يعني شريعتك يا الله باقية، وليس المراد أن كرسيك باق يا الله خِطابًا للمسيح عليه السلام لعدم بقاء دينه إلى الأبد، وإن أريد الملك والسلطنة من الكرسي، فلا يوجد هذا الكرسي للمسيح عليه السلام إلا في كرسي ذهن فندر.

وقوله: «قضيب استقامة قضيب ملكك» وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعني شريعتك مستقيمة تنطبق على جميع الأزمنة، بخلاف شريعة عيسى عليه السلام المذكورة في الإنجيل، فإنه ليس فيها إلا الأحكام المخصوصة.

وقوله: «أحببت البر وأبغضت الإثم، من أجل ذلك مسحك الله بدهن الإبتهاج أكثر

(١) صحيح مسلم، رقم: ٤٥٤٥.

(٢) ميزان الحق، ص٣١١.

من رفقائك» موجود في محمد صلى الله عليه وسلم على أوفر طريق وأكمله؛ إذ أحب البر وأبغض الإثم، واحتمل في سبيلهما البلايا والرَّزايا والمِحَن الشديدة التي تشهد بها أوراق التاريخ، وإن شئت فتذكر إلقاء سَلا جَزور على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة، وطرح الأشواك في سبيله صلى الله عليه وسلم. روى البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير، قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بفناء الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولوى ثوبه في عنقه فخنقه به خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ (غافر: ٢٨).[١]

ولهذا أظهره الله على جميع الأديان، حتى أن أعداء دينه صاروا محامين له، ومسحه الله بدين الابتهاج، وأكمل دينه، وأتم أمره وفضله على سائر الأنبياء.

قوله: «كل ثيابك مُر وعُوْدٌ وسليخة» إشارة إلى حب النبي كلَّ رائحة طيبة زكية، ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من التطيب، فعن أنس رضي الله عنه: «كان لرسول الله مسكة يتطيب منها». وعن عبد الله قال: كان أنس بن مالك لا يرد الطيب.[٢] بل تنبعث الرائحة الطيبة الذكية من جسد النبي صلى الله عليه وسلم، بل قال الشيخ الولي الكامل الشبلي رحمة الله عليه: أجد الرائحة الطيبة منبعثة من تربة المدينة، كما نقله الشيخ عبد الحق الدهلوي رحمه الله تعالى: «شبلی که یکے از علمائے وجد است، می گوید که: تربتِ مدینه را نفحه خاص است که در ہیچ مشک و عنبر نیست، و گفته که ایں معنی آں عجیب عجائب است، و در حقیقت ہیچ عجب نیست.

دراں زمین که نسیمے وزد ز طره دوست ۞ چه جائے دم زدن نافهائے تا تاریست[٣]

قال الشبلي- وهو أحد علماء الوجد والحب-: لتربة المدينة نفحة خاصة، ليست في

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ٤٨١٥.

(٢) الشمائل المحمديه، للترمذي، رقم: ٢٠٨.

(٣) مدارج النبوة، ص١٥. والعبارة في النسخة الأردية المترجمة من اللغة الفارسية هكذا: «اور شبلی جو که علمائے صاحب وجدان میں سے ہیں فرماتے ہیں که مدینه طیبه کی مٹی میں خاص قسم کی خوشبو ہے جو کسی مشک و عنبر میں نہیں ہے، اس پر کسی نے کہا: یه بات تو تیری عجیب و غریب اور نادر ہے، حالانکه در حقیقت یه کوئی عجیب بات نہیں ہے۔ (مدارج النبوت، جلد اول، قسط چہارم، ص١٠٩، ط: مکتبه دانش دیوبند، یوپی)۔

شيء من المسك والعنبر. وقال: وهذا المعنى من أعجب العجائب، وفي الواقع لا عجب.

ومعنى البيت: كل نسيم الصبا إذا هبَّت من ناصية الحبيب في الأرض فلا يمكن لِمسك التتار أن يغالبه أو يقابله.

وقال السمهودي: قال ابن بطال: من سكنها يجد من تربتها وحيطانها رائحة حسنة. وقال الإشبيلي: لِتربة المدينة نفحة ليس طيبها كما عهد من الطيب، بل هو عجب من الأعاجيب. وقال ياقوت: من خصائصها طيب ريحها، وللمطر فيها رائحة لا توجد في غيرها، وما أحسن قول أبي عبد الله العطار:

بِطيبِ رسولِ الله طاب نسيمُها ۞ فما المِسْكُ ما الكافورُ ما المَندَلُ الرَّطْبُ[(١)]

وقوله: «من قصور العاج سرتك الأوتار» يعني تحت يدك قصور عظيمة، لكن لا تسُرُّ بها، بل تفرح بأوتار القوس في الجهات؛ فإنه كان لا يحب المال، بل يوزعه بين الناس. وهذا ظاهر من حياته الطيبة، فإنه صلى الله عليه وسلم ما شبع من خبز قط ولحم إلا على ضفف. قال مالك: سألت رجلًا من أهل البادية: ما الضَّفَف؟ قال: أن يتناول مع الناس.[(٢)] هذا كان شأن النبي صلى الله عليه وسلم، مع أنه كانت في يده قصور أهل خيبر، وأموال بني النضير، وهو سيد الأولين والآخرين. وعن أبي طلحة رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم بطنه عن حجرين.[(٣)]

وقوله: «بنات ملوك بين حظياتك» أي: بين جارياتك الحبيبات. يعني بنات الملوك تكون في زوجاتك، وهذا صادق على النبي صلى الله عليه وسلم بلا شك، فإن السيدة صفية بنت حي بن أخطب كانت زوجة النبي صلى الله عليه وسلم وكانت بنت ملك بني النضير، وجويرة رضي الله عنها كانت من أمهات المؤمنين، وكانت بنت ملك بني المصطلق.

وقوله: «جعلت الملائكة عن يمينك» إشارة إلى فتوحات عظيمة، ومغانم كثيرة يأخذونها، وفيها الذهب والفضة، وما إلى ذلك من الأموال. قال النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ١/ ١٧.

(٢) الشمائل المحمدية، للترمذي، رقم: ٣٥٠.

(٣) الشمائل المحمدية، للترمذي، رقم: ٣٥٣.

لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبست سواري كسرى». ولما فتح الله إيران دعا عمر رضي الله عنه سراقة، وألبسه السواري.(١)

وأما قوله: «اسمعي يا بنت وانظري وأميلي أذنك وانسي شعبك وبيت أبيك فيشتهي المَلِكُ حسنك؛ لأنه هو سيدك» إشارة إلى خضوع الشعوب للنبي صلى الله عليه وسلم واتِّبَاعِها له، ونسيان الأزواج المطهرات أقوامهن وأديانهن وقبائلهن. فلما جاء الإسلام انمحى الكفر، وعفت آثاره، وانكشفت دياجيره من القلوب والأذهان، وهكذا كانت حال الأزواج المطهرات حتى إنهن كن يتعيرن بأديانهن السابقة، كما روي أن حفصة رضي الله عنها قالت مرة لصفية رضي الله عنها: «يا بنت يهودي أو يا يهودية». فشكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.(٢)

وقوله: «بنت صور أغنى الشعوب تترضى وجهك بهدية» إشارة إلى أن الملوك تترضى وجهك ويطلبون رضاك وينفقون الأموال لرضاك. وهكذا كانت حال النبي صلى الله عليه وسلم يهدي إليه الملوك الهدايا والتحائف ويُرضونه، فهذا ملك الإسكندرية مُقَوقس أهدى إليه صلى الله عليه وسلم أربعَ جوارٍ كما في تاريخ ابن جرير: «وبعث حاطبَ بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحبِ الإسكندرية، فأدى إليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأهدى المقوقسُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع جوارٍ، منهن مارية أم إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم».(٣) وهذا النجاشي مَلِك حبشة زَوَّجَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أمَّ حبيبةَ رضي الله عنها، وأعطى أربع مئة دينار في صداقها. قال العلامة الطبري في تاريخه: «ثم دعا النجاشي بأربع مئة دينار صَداقها، فدفعها إلى خالد بن سعيد، فلما جاءت أمَّ حبيبة تلك الدنانير، قال: جاءت بها أبرهةُ، فأعطتها خمسين مثقالًا، وقالت: كنت أعطيتك ذلك وليس بيدي شيء، وقد جاء الله عزَّ وجل بهذا. فقالت أبرهة: قد أمرني الملك أن لا آخذ منك شيئًا».(٤)

---

(١) السنن الكبرى، للبيهقي ٦/ ٣٥٧. ورحمة للعالمين ٣/ ١٩٦.

(٢) سنن الترمذي، رقم: ٣٨٢٩.

(٣) تاريخ الطبري ٢/ ٦٤٥.

(٤) تاريخ الطبري ٢/ ٦٥٤.

وقوله: «كلها مجد ابنة الملك في خدرها، منسوجة بذهب ملابسها، بملابس مطرزة تحضر إلى الملك، في إثرها عذارى صاحباتها مقدَّمات إليك» كل ذلك إشارة إلى فتوح البلدان وإتيان القبيله لديه وإتيانهم بالأمتعة والغنائم. قال ابن الأثير: وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا كثيرة، فقسمها بين المسلمين، وفيهم جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس، أو لابن عم له، فكاتبته عن نفسها، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعانته في كتابتها، فقال لها: «هل لك في خير من ذلك»؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أقضي كتابتك وأتزوجك». فقالت: نعم يا رسول الله! ففعل.[1]

وقوله: «عوضًا عن آبائك يكون بنوك تُقيمهم رؤساء في كل الأرض» إشارة إلى أن أبنائه يسودون الأمر ويملكون العرب. وقد تحقق ذلك، فإن حسنًا رضي الله عنه ادَّعى الخلافة ثم تركها، وبعد ذلك أبناؤه في الحجاز واليمن ومصر والشام وغير ذلك، والمهديُّ المنتظَر يكون من أولاد النبي صلى الله عليه وسلم. وأما ولاية الأبناء الروحانيين، فأظهر من الشمس في رابعة النهار.

وقوله: «اذكر اسمك في كل دور فدور» موجود في النبي صلى الله عليه وسلم، فإن ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ريحانة كل مجلس، وطُمأنينة كل حفلة ونادٍ. قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الشرح: ٤)، وكلما ذُكِر الله يذكر معه اسم محمد صلى الله عليه وسلم، حتى في الصلاة، والأذان، والخطبة، والإقامة، والجمع، والأعياد.

هذا تفصيل هذه البشارة بلا تطويل، والكلام يطلب الإطالة، لكن لا يتعلق بحث البشارات بموضوعنا، فلذا لا نخوض في أعماق بحارها، بل نَسْبَحُ على سطح أنهارها.

والآن نذكر أن هذه البشارة لايصدق على عيسى عليه السلام على وجه الإيجاز.

فأقول «فاض قلبي بكلام صالح، أنا بإنشائي للملك» يعني أنا أبين أمورًا أنشاتها في حق الملك وهذا صريح في أن المبشَّربه يكون مَلِكا، وأنتم تعلمون أن عيسى عليه السلام لم يكن ملكا، بل كان مغلوبًا مقهورًا كما هو المتيقن عندهم. ومحمد صلى الله عليه وسلم كان

---

(١) تاريخ الكامل، لابن الأثير الجزري ٢/ ١٩٢.

ملِكا ينفِّذ الأحكام ويجاهد الكفار ويدافع عن المسلمين، وكان نبيًّا يبلغ ويدعو إلى الله تعالى ويبين أحكام الله.

ثم قيل: «أنت أبرع جمالًا». وقد علمت أنهم لا يصفون عيسى عليه السلام بالجمال.

وقيل في هذا المزمور: «تقلَّدْ سيفك على فخذك». تلميح إلى الجهاد والقتال. وعيسى عليه السلام لم يغز، بل المنصِّرون يزعمونه سَبَّة في الإسلام، ويقولون: كان عيسى عليه السلام أهدى إلينا باقة الصلح والأمان.

وقوله: «نبلك المسنونة في قلب أعداء الملك شعوب، تحتك يسقطون» لا ينطبق على عيسى عليه السلام؛ لأن نبله لم تكن مسلولة على الأعداء، ولم تسقط الشعوب تحت حكمه، بل غلبوا عليه وقتلوه وصلبوه كما زعموا. يقول المنصِّرون تطبيقًا لهذه العبارة على عيسى عليه السلام: أن المراد بالنبل المسلولة سَلُّ النبل على العدو وهو الشيطان. وهذا باطل؛ لأن النبل المَسلولة لما وقعت على الشيطان وجب أن يهلك أو ينتقص أثره، ولم يهلك ولم ينتقص أثره، بل وساوسه ودسائسه باقية، ولا يزال يضل الناس، وألقى اليهود والنصارى في جُبِّ الهلاك.

وقوله: «وكرسيك يا الله إلى دهر الدهور» لا يصدق على عيسى عليه السلام؛ لأن دينه لم يبق إلى يوم القيامة، بل نسخ، فلا يكون عملهم بشريعة عيسى عليه السلام حجة، وما يعتقدونه ويعملون به ليس دين عيسى عليه السلام؛ فإن عيسى عليه السلام لم يقل: إني إله أو ثالث ثلاثة، ولم يأمر بالاصطباغ والكفارة وغيرهما.

وقوله: «بنات الملوك بين حظيِّاتك» لا ينطبق على عيسى عليه السلام؛ لأنه لم يتزوج طول عمره، ولم تأت بنات الملوك في حظيرته.

وقوله: «أذكر اسمك في كل دَور فدَور، من أجل ذلك تحمدك الشعوب إلى الدهر والأبد» لا يصدق على عيسى عليه السلام؛ لأن ذكره خامد، وهو محتقر عندهم والعياذ بالله، ففي صحيفة يشعيا عليه السلام في حق عيسى عليه السلام: «مضروبًا من الله ومذلولًا، وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا، تأديب سلامنا عليه، وبِحُبُرِه شُفِينا».[1] أي:

(١) أشعيا، الإصحاح: ٥٣.

حصل لنا الشفاء بجراحاته. وهذا باتفاقهم بشارة عيسى عليه الصلاة والسلام، فعلم أنه مخذول محتقر لا يلقون له بالًا. ولما كان مخذولا كيف يحمدونه حمدًا من صميم القلب. وأنت تراهم يذكرونه بالألوهية، وهو عبد الله ورسوله، ثم يصفونه بأنه مقتول مخذول ومصلوب، فيا للعجب من هذه العقول!!!

البشارة الخامسة:

البشارة الخامسة من إنجيل متى، وعبارته هكذا: «قال لهم يسوع: أما قرأتم قط في الكتب، الحجر الذي رفضه البناؤون، هو قد صار رأس الزاوية، من قِبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا، لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله ينزَع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره، ومن سقط على هذا الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه يَسْحَقُه».(١)

وهذه البشارة تنطبق على النبي صلى الله عليه وسلم بلا ارتياب، فإن المراد بالبنائين بنو إسرائيل، ورفضهم الحجر: تركهم النبي صلى الله عليه وسلم، وإعراضهم عن تعاليمه، فقال المسيح عليه السلام: هو يكون كحجر رأس الزاوية يتم به البناء، أي الموضع الذي كان خاليًا في رأس الزاوية. وهذا شأن خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم. وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك المعنى في حديث رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا، فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون ويعجَبون له ويقولون: هلا وُضعِت هذه اللبنة، فأنا اللبِنة، وأنا خاتم النبيين».(٢) فهذه عبارة الإنجيل تطابق الحديث تطابُقَ النعل بالنعل. فعبارة إنجيل تنبئ عن نبيٍّ يأتي ويختم به النبيون. وهذا يصدق على محمد صلى الله عليه وسلم خاصةً، دون سائر الأنبياء من إخوانه، فإن عيسى عليه السلام لم يدَّعِ ختم النبوة، ولا المسيحيون يعتقدون في حقه أنه خاتم النبيين، إنما هو خصوصية محمد صلى الله عليه وسلم، فهو سيد المرسلين وخاتم النبيين.

وقوله: «أقول لكم: إن ملكوت الله ينزَع منكم ويعطى لأمة» إشارة إلى أن الخلافة

(١) متى ٢١/ ٤٢-٤٤.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٣٢٧١.

والنبوة تُنزعان من بني إسرائيل، وقد وقع ذلك بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

ولا يصدق قوله: «الحجر الذي رفضه البناؤون» على عيسى عليه السلام؛ لأن بني إسرائيل لم يرفضوه كما يقولون، بل يذكرونه كل حين ويدَّعون أنه إلهنا ويحمدونه في الظاهر، بل ينطبق علي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن اليهود والنصارى كانوا يُبغِضونه، وقد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، والقرآن الحكيم مملوء من مكرهم وحيلهم وفتنهم، والأحاديث أصدق شاهد على هذا. وهذه البشارة تنبؤ أن من سقط عليه (أي المبشَّر به) يُترفَّضُ ويهلك، ومن سقط هو عليه يسحقه، وهذا شأنه صلى الله عليه وسلم، فإن من خرج لِـمُكافحته هلك هلاكًا فيه عبرةٌ لأولي الأبصار، كما في الخندق وغيره من الغزوات، ومن وقَع هو عليه سحقه، كما في وقعة بدر وفتح مكة، ولا يوجد هذا الوصف في عيسى عليه السلام؛ فإنه هلك بأيدي الفريسيين اليهود كما يقولون. وأما نحن فلا نقول به، فعندنا أنه رفع إلى السماء. وقالوا: صاح: إيلي ايلي لما شبقتني. يعني يا الله لِـمَ تركتني؟ وبالجملة أن هذه البشارة صريحة في محمد صلى الله عليه وسلم.

البشارة السادسة:

قال: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم مُعَزِّيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله؛ لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه؛ لأنه ماكث معكم ويكون فيكم».[1]

وفي الآية السادس والعشرين من ذلك الأصحاح: «وأما الْمُعَزِّيُ الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي، فهو يعلِّمكم كلَّ شيءٍ ويُذَكِّرُكُم بكل ما قلته لكم». وفي آية ٢٩: «وقلت لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان: تؤمنون». وفي الأصحاح السادس عشر: «لكني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق؛ لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم الْمُعَزِّي، ولكني إن ذهبت أُرسِلُه إليكم، ومتى جاء ذلك يُبَكِّتُ العالَمَ على خطيئة وعلى بِرٍّ وعلى دَيْنُونَة. أما على خطيئة فلأنهم لا يؤمنون بي، وأما على بِرٍّ فلأني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضًا، وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين، إن لي أمورًا كثيرةً أيضًا لأقول لكم، ولكن لا

---

(١) يوحنا ١٤/ ١٥-١٧.

تستطيعون أن تحتملو الآن. وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه لا يتكلم مِن نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية».(١)

لا بد ههنا من ذكر أمور قبل بيان المقصود:

الأمر الأول: أن المترجمين يترجمون الأسماء حسب ما يفهمونها، فالمترجمون لـمَّا ترجموا الإنجيل إلى اليونانية استعملوا لفظ باراكلي طوس أوبيركلوطوس للمبشَّر به، ثم عَرَّبوه إلى فارقليط، ثم لـمَّا ترجموه بالعربية استعملوا مكانه المُعَزِّي، كما في النسخة التي عندنا المطبوعة ١٨٦٩م. وقال البعض: معناه، الوكيل، أو المعين، أو الحماد. قال بعض القسِّيسين في رسالة لتحقيق لفظ الفارقليط: إن هذا اللفظ اليوناني الأصل بيركلوطس، فيكون بمعنى المعزى، والمعين، والوكيل. وإن قلنا: إن هذا اللفظ الأصل بيركلوطوس يكون قريبا من معنى محمد وأحمد، فمن استدلَّ من علماء الإسلام بهذه البشارة فهم أن اللفظ الأصلي: بيركلوطوس، ومعناه قريب من محمد وأحمد، فأدعى أن عيسى عليه السلام أخبَرَ بِمُحمَّد أو أحمد، لكن الصحيح أنه باراكلي طوس. انتهى.(٢)

ونحن سنذكر إن شاء الله تعالى أن هذا اللفظ: بيركلي طوس كان، أو باراكلي طوس إشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

والأمر الثاني: أن النصارى ينتظرون نبيًّا من الأنبياء، يشهد به التاريخ والأحاديث، قال هرقل -وكان على ديانة النصارى- لأبي سفيان: «وقد كنتُ أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أن أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه».(٣)

وقد قال مُقَوْقِس عظيم القبط مجيبًا لكتاب النبي صلى الله عليه وسلم: «لِمُحمَّد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط. سلام عليك، أما بعد: فقد قرأتُ كتابك وفهمتُ ما ذكرتَ فيه وما تدعو إليه، وقد علمتُ أن نبيًّا بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمتُ رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها».(٤)

---

(١) يوحنا ١٦/ ٧-١٤.

(٢) إظهار الحق ٢/ ٤٢٠-٤٢١.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ٤٥٥٣.

(٤) عيون الأثر ١/ ٨٤٦.

وذكر وليم ميور في حق منتنس المسيحي الذي كان في القرن الثاني من الميلاد، وادعى أنه الفارقليط الموعود به. وقال: «إن البعض قالوا: إنه ادعى أني فارقليط، يعني المُعَزِّي روح القدس، وهو كان أتقى ومرتاضا، ولأجل ذلك قبله الناس قبولًا زائدًا.[1] فظهر من هذا أن بني إسرائيل كانوا ينتظرون نبيا آتيا ليتم الوعد المسيحي.

الأمر الثالث: أن المسيحين يطبقون هذه البشارة على روح القدس، ويقولون: إن الفارقليط هو روح القدس، نزل بعد قتل عيسى عليه السلام ورفعه على الحواريين، كما هو مذكور في الأصحاح الثاني من أعمال الرسل: «ولما حضر يوم الخمسين كان الجميع معًا بنفس واحدة، وصار بغتة من السماء صوتٌ كما من هبوب ريح عاصفة، وملأ كلَّ البيت حيث كانوا جالسين، وظهرت لهم أَلْسِنَة منقسمة كأنها من نار، واستقرت على كل واحد منهم، وامتلأ الجميع من الروح القدس، وابتدأوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا».[2]

ثم ذكر في هذه البشارة علامات للمبشَّر به: ١- يأتي من بعدي. يدل عليه قوله: «إن لم أنطلق لا يأتكم المُعَزِّي». ٢- يكون معزِّيًا أو وكيلًا أو حمادًا، على اختلاف المعاني. ٣- يكون إلى الأبد. ٤- يبكت العالَمَ ويوبِّخُه على الخطيئة. ٥-يبلِّغ العالَمَ وينصَحهم. ٦- يخبر بالأخبار الآتية. ٧-لا يتكلم عن نفسه.

وهاتيكم الأمور موجودة في محمد صلى عليه وسلم، فإن أردنا من الفارقليط الحماد أو أحمد، فهو ظاهر؛ لأن اسم النبي صلى الله عليه وسلم أحمد، وحينئذ يطابق لفظًا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ (الصف: ٦)

وكان اسمه أحمد في التوراة كما ذكرنا. وأحمد إن كان مَبْنِيًّا للفاعل، فمعناه الذي يحمد؛ ورسولنا صلى الله عليه وسلم كان يحمد الله ربَّه ويعبده، ويذكر الله في كل حال، وإن كان مبنيا للمفعول، فلا شك أنه محمود يحمَده الكلُّ إلى يوم القيامة. قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ

(١) إظهار الحق ٢/ ٤٢١-٤٢٢.

(٢) أعمال الرسل ٢/ ١-٤.

ذِكۡرَكَ﴾ (الشرح: ٤)، وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أغرُّ عليه للنبوة خاتَم ۞ من الله مشهود يلوح ويُشهد
وضم الإلهُ اسمَ النبي إلى اسمه ۞ إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشقَّ له من اسمه لِيُجِلَّه ۞ فذو العرش محمود وهذا محمد[1]

وإن أريد به المُعين أو الوكيل أو الشفيع، فهذه الأوصاف موجودة في محمد صلى الله عليه وسلم على أكمل وجه؛ فإنه صلى الله عليه وسلم كان معينًا للفقراء والمساكين، وكان معينًا على التقوى والخير. قالت خديجة رضي الله عنها حينما نزل الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم: إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتَقْرِي الضيف، وتعين على نوائب الحق.[2] وهو الوكيل، وهو من يُفوَّض إليه أمر وعمل، ولهذا يقال لِـمَن تصرف نيابة عن الشخص في البيعِ أو الشراءِ: الوكيلُ. وهو صلى الله عليه وسلم وكيل من جانب أمته؛ لأنه يدافع عن أمته أمام الله تعالى، فمحمد صلى الله عليه وسلم يشفَع عند الله في أمر أمته، كما روي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني على الحوض حتى أنظر من يَرِد عليَّ منكم، وسيؤخذ أناس دوني، فأقول: يا رب! مني ومن أمتي. فيقال: أما شَعَرتَ ما عمِلوا بعدك، والله ما برِحوا بعدك يرجعون على أعقابهم».[3] ومحمد صلى الله عليه وسلم يشهد على عدالتهم، ويزكِّيهم في المحشر: إذا ادعى الرسلُ التبليغَ وأنكرت الأمم، ثم جيء بالشهداء لأنبيائهم، وهم أتباع محمد صلى الله، فإذا طعنوا أنهم لم يكونوا حاضرين فكيف يشهدون؟ يأتي النبي صلى الله عليه وسلم ويزكيهم، ويقول: أخبرتهم بذلك.

ويستدل المنصِّرون في نفي الوكالة عن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى:﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ (الإسراء: ٥٤)، وهذا لا يصح؛ لأن المراد في الآية نفي الوكالة الخاصة، وهي الوكالة على إيمانهم، فالنبي صلى الله عليه وسلم ليس وكيلًا عليهم في الإيمان وعدمه

(١) ديوان حسان بن ثابت، ص٤٢.
(٢) صحيح البخاري، رقم: ٣.
(٣) صحيح البخاري، رقم: ٦٥٩٣.

بأن يُسأل عنه لِـمَ لم تؤمن أمتك. وتشهد عليه بقية الآية، وتمامها: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ (الإسراء: ٥٤)، يعني ما فَوَّضْتُ إليك أمر إيْمانِهِم وكفرهم، حتى تُسأَل عنه ولا ينافي ذلك أن يفوَّض إليه نيابةً عنهم بعض أمورهم في الآخرة، فيكون جوابه جوابهم، وكلامه كلامهم؛ فالنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم، ومحمد صلى الله عليه وسلم شفيع الأمم يوم القيامة وأمته خاصةً، لا يشك فيه من قرأ كتب الأحاديث، وإليك نص الحديثين:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي ولا يشرك بالله شيئا».(١)

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا سيد وُلْدِ آدم ولا فخر، وأنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفَّع ولا فخر، ولِواء الحمد بيدي يوم القيامة ولا فخر».(٢)

ومحمد صلى الله عليه وسلم هو المُعَزِّى يعني (تسلى دہندہ Comforter) وكان صلى الله عليه وسلم يعزِّي مصابًا ويسلِّي، ويقول: من عزَّى مُصابًا فله أجر مثله.(٣)

وقوله: «إن لم أنطلق لا يأتكم المُعَزِّي» يصدق على محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه صلى الله عليه وسلم جاء بعد عيسى عليه السلام، ولم يمكن أن يجتمع بعيسى عليه السلام؛ لأنهما صاحبا شريعة مستقلة، ولا يجتمع صاحبا شريعة مستقلة في زمان واحد، نعم يجوز أن يجتمع بِنَبِيٍّ صاحبِ شريعةٍ نبيٌّ لا يكون كذلك كهارون مع موسى عليهما السلام.

وقوله: «ويكون ليمكث إلى الأبد» وهذا أيضًا صحيح في حق النبي صلى الله عليه وسلم، فإن شريعته ودينه باقٍ ونافذ إلى أبد الآباد، وهو مبعوث إلى الناس كافة من عهده المبارك إلى يوم القيامة.

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٩٩.

(٢) سنن ابن ماجه، رقم: ٤٣٠٨.

(٣) سنن الترمذي، رقم: ١٠٩٤.

قوله: «يبكِّت العالَم على خطيئة وعلى برٍّ...» هذا هو منصب محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه جاء داعيًا إلى الخير، مانعًا من الشر، ما من عمل صالح إلا دعا إليه، وما من عمل طالح إلا نهى عنه، فأمر بالصلاة والزكاة والحياء والرفق والعدل والإحسان، ونهى عن الكبر والفخر والعداوة والزنا والحسد والنميمة وغيرها، وأمر بما هو الصحيح المعقول، فأمر أهل الكتاب بعبادة الله وحده قال الله تعالى لنبيه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٦٤)، ونهى عن التثليث وعقيدة قتل المسيح عليه السلام، حيث قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ (النساء)

وقوله: «يرشدكم إلى الحق؛ لأنه لا يتكلم عن نفسه»، فهذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم، إذ أرشدهم إلى عبادة الله عزَّ وجل، وصَرَفَهم عن عبادة الأصنام إلى عبادة ذي الإنعام، وعن التثليث إلى التوحيد، وعن استخفاف المسيح وأمه إلى تكريمهما وتنزيههما. وكان صلى الله عليه وسلم لا يتكلم عن نفسه، بل يتكلم بما يوحى إليه، كما أخبر عنه الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ (النجم)

وأما قوله: «يخبركم عن الأمور الآتية»، فهذا متحقق في حقه، فإنه عليه السلام كان يخبر عن الغيب وينبؤ عنه وإن لم يكن عالِـمَ الغيب، فإن هذا الوصف مما يختص بالله تعالى، وقد ذكرنا بعض ذلك، فتذكر، فما في العهد من قدم.

فالحاصل أن هذه البشارة من أولها إلى آخرها تنطبق على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ويُمثِّل صورةَ حياته الطيبة، لا ينكره إلا متعصب. وما يقوله المنصِّرون: إن هذه البشارة بشارة روح القدس المُنَزَّل على الحواريين (الرسل بلسانهم)، فباطل لا ينطبق عليه، بل هو إعراض عن جادة الحقيقة، فاستمع ذلك والله يتولىَّ هداك.

يقولون: «إن المراد بالمُعَزِّي روح القدس». وهو جوهر مجرد أو نقول أقنوم ثالث. وهذا لا يصح؛ لأن روح القدس لو أريد منها، فلا يصح أن يقال في حقه: «أنه مرسل إلى اليهود». كما هو الظاهر من هذه الآيات؛ لأنه لما كان مجردًا كيف أرسِل إلى اليهود، وتكلم معهم وأمر ونهى، ولا يمكث روح القدس معهم أبدًا كما هو المذكور في هذه الآيات، بل

روح القدس نزل عليهم ساعة قليلة معيَّنة ثم ارتفع. فالمراد محمد صلى الله عليه وسلم، كما هو باق ببقاء شريعته. وأيضًا لو كان المراد روح القدس، فهو متَّحِدٌ عندهم بالمسيح؛ لأن الإله والمسيح وروح القدس متحد عندهم، فلا معنى لإرساله ووكالته وشفاعته وتعليمه، بل هذه الأمور موجودة في محمد صلى الله عليه وسلم.

قوله: «المُعَزِّي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء ويذكِّركم بكل ما قلته لكم» لا تنطبق على الروح المنـزَّل على الحواريين كما يقولون؛ لأن الروح المنزل ما علم كل شيء. وهل أنتم تقولون: إن الحواريين نسوا تعاليم المسيح، فذكَّرهم الروح المنزَّل يوم الدار؟ لا، ليس كذلك!

وقوله: «قلت لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان تؤمنون»، يدل دلالة صريحة على أن الروح المنزل على الحواريين ليس بمراد؛ لأنَّ المُبشَّر به يلقنهم ويوصيهم بالإيمان، والحواريون لم يكونوا كافرين حتى يؤمنوا، ولا شاكين حتى يتيقنوا.

وقال بعد ذلك: «لأنه إن لم أنطلق لا ياتيكم المعزِّي» يعني عدم وجودي شرط لنزوله، ولا شك أن روح القدس كان ينزل في عهد المسيح عليه السلام، بل كان موجودًا مع المسيح كلَّ حين ومتحدًا معه.

وقال بعد ذلك: «ومتى جاء ذلك يبكِّت العالَـمَ على خطيئة وعلى بِرٍّ»، فهل يقول المسحييون المنصِّرون: إن روح القدس أمر الناس بالمعروف، ونهاهم عن المنكر، وبكَّتهم على فعل القبيح؟ لعلهم يقولون: نعم، فإنهم في غاية الوقاحة والجهالة، فأقوالهم يتنفر منها المَجانين، ويتبين سخفها للصبيان، لا عقول لهم، بل مسخ الله عقولهم. نعم! هذا منصب محمد صلى الله عليه وسلم.

وقال بعد ذلك: «فهو يرشدكم إلى جميع الحق»، فهل بيَّن الروح القدس جميع الحق للحواريين، وهل كانوا محتاجين إلى الرشد غيرَ ناسكين به فأرشدهم؟

ثم قوله بعد ذلك: «لأنه لا يتكلم عن نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية» دليل على أنهم يكذبونه، فقال المسيح عليه السلام: إنه لا يتكلم عن نفسه، بل يتكلم بالوحي، ولم ينكروا روح القدس. فالحاصل أن هذه البشارة تنطبق على محمد صلى الله عليه وسلم.

شبهات المنصِّرين في هذه البشارة:

وللمنصِّرين شبهات في تطبيق هذه البشارة على محمد صلى الله عليه وسلم.

الشبهة الأولى: إن في هذه البشارة «لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه» وقد كانوا يعرفون النبي صلى اله عليه وسلم ويرونه، فلا يصدق عليه.

والجواب عنها: أن المراد لا يستطيع العالَم أن يعرفه معرفة حقيقية، ولا يمكن معرفته صلى الله عليه وسلم حقيقة معرفة، فإنه لا يمكن الوصول إلى ذُروة مراتبه وكمالاته، وأيضًا لو كان المراد الروح القدس كما تقولون، فأنتم تعرفونه والعالم كله يعرفه نفس المعرفة، فكيف قيل: «العالم لا يراه ولا يعرفه»؟

وبالجملة لو أريدت المعرفة الظاهرية، فهي حاصلة لروح القدس ومحمد صلى الله عليه وسلم كليهما، ولو أريدت المعرفة الحقيقية، فهي لِكلَيهما مشكلة، وقد جاء استعمال المعرفة في الحقيقة في كتابهم المقدس، كما قال يوحنا: «بل الذي أرسلني هو حق الذي أنتم لستم تعرفونه»[1] (أي: الله).

وفي موضع آخر «لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضًا، ومن الآن تعرفونه، وقد رأيتموه. قال له فيلبس: يا سيد أرِنا الأب وكفانا. قال له يسوع: أنا معكم زمانا هذه مدته، ولم تعرفني يا فيلبس! الذي رآني فقد رأى الأب، فكيف تقول أنت: أرِنا الأب؟».[2]

وفي موضع آخر قال: «أيها الأب البَّارُ! إن العالم لم يعرفك، أما أنا فعرفتك، وهؤلاء عرفوا أنك أرسلتني».[3]

فالمعنى في الكل المعرفة الحقيقية والمُثبتةُ المعرفةَ الظاهريةَ.

وفي إنجيل متى «فقد تمت فيهم نبوة أشعيا القائلة: تسمعون سمعا ولا تفهمون، ومُبْصِرين تبصرون ولا تنظرون».[4] أي لا تبصرون حقيقة وإن كنتم تعرفون ظاهرا، فالمراد

(١) يوحنا ٧/ ٢٩.

(٢) يوحنا ١٤/ ٧-١١.

(٣) يوحنا ١٧/ ٢٥.

(٤) متى ١٣/ ١٤.

بالمعرفة في هذه الأقوال كلها المعرفة الحقيقية الكاملة، فتأمل في ذاك. والله يتولى هداك.

الشبهة الثانية: أن المُعَزِّي فُسِّرَ في الإنجيل بروح القدس، فكيف تطبقونه على محمد صلى الله عليه وسلم؟

والجواب أن لروح القدس مَعَانِيَ مختلفة:

١- قد يراد منه الأقنوم الثالث، كما في عبارة أعمال الرسل التي نقلناه من قبل.

٢- وقد يكون معناه: النفس الناطقة الإنسانية، كما في كتاب حزقائيل، قال: «فتعلمون أني أنا الرب عند فتحي قبوركم وإحيائي إياكم من قبوركم يا شعبي، وأجعل روحي فيكم فتَحيُون، وأجعلكم في أرضكم فتعلمون أني أنا الرب تكلمتُ».(١) فالمراد منه ههنا: الروح الذي ينفتح في الأجساد بعد بعثها من القبور.

٣- وقد يكون بمعنى النبي الواعظ الناصح كما في الباب الرابع من أعمال الرسل: «أيها الأحباء لا تصدِّقوا كل روح، بل امتحنوا الأرواح هل هي من الله؛ لأن أنبياءَ كَذَبَةً كثيرين قد خرجوا إلى العالم، بهذا تعرفون روحَ الله: كل روح يعترف بِيَسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله، وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله».(٢)

يتَّضح من هذه الآيات أن المراد بالروح: النبيُ الواعظُ، إذ لو أريد الأقنوم الثالث، فما معنى لا تصدِّقوا كلَّ روح؟ أي صَدِّقوا بعضَ الأقانيم ولا تصدقوا الجميع!

وقوله: «لأن أنبياء كذبة كثيرين». يدل على أن المراد بالروح: النبي، فيردَعُهم عن المُتنبِّئِين الكاذبين، وهم الذين لا يعترفون بأن المسيح جاء في الجسد، ومن يعترف بذلك فهو الصادق، وقد اعترف به محمد صلى الله عليه وسلم. قال الله تعالى:

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (المائدة: ٧٥)، فاعترف وأقر أنه أرسل في الجسد، وما كان أقنوما ثالثًا كما يقولون. والمراد ههنا أيضًا من الروحِ القدسِ: النبيُ الواعظُ، ومحمد صلى الله عليه

(١) حزقيال ٣٧/ ١٣-١٤.

(٢) رسالة يوحنا الرسول الأولى ٤/ ١-٣.

وسلم كان نبيًّا واعظًا.

فإن قلت: قد جاء في هذه الآيات لفظ الروح المنسوبُ إلى الله تعالى: روح الحق، كما جاء في رسالة يوحنا، فكيف تريد منه روح القدس؟ قلنا: قد صرح صاحب «ميزان الحق» في «حل الإشكال في جواب كشف الأستار»: من له شعور بالتوراة والإنجيل فهو يعرف أن ألفاظ روح القدس، وروح الحق، وروح فم الله، وغيرها بمعنى روح الله. فذلك ما رأيت إثباته ضروريًّا. انتهى. فعلى هذا روحي، وروح الحق الذي هو المراد من الروح المطلق في رسالة يوحنا.(١)

الشبهة الثالثة: إن المبشَّر به عُبِّرَ عنه بالْمُعَزِّي، أي الذي يعزي ويُسَلِّي ويَرْحَمُ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يكن مُعَزِّيًا، بل صاحبَ سيفٍ وسِلاح وقتالٍ وجهادٍ.(٢)

والجواب عنه أن كونه مُعَزِّيًا لا ينافي كونه مجاهدًا، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان رحيمًا عادلًا، لكن إذا سعت الأنفس الشريرة والأناس الْمُخربون في فساد النظام وتفكيكه، وبَغَوا على دين الله، فقتالهم وجهادهم يطابِق روح الإسلام. أليس أن الأصبع إذا فسد دمها، ولم يبق لعلاجها سبيل يُقطَع ليبقى سائر الجسد محفوظًا من آثارها، فهذا لا ينافي الرحم والرقة، بل غاية الرحمة على أهل الإسلام أن يدفع عنهم الأعداء الكفرة الفجرة، وسيجيء تفصيله في بحث الجهاد إن شاء الله تعالى، فانتظر ولا تَعجَلْ.

الشبهة الرابعة: وهي الناشئة من قوله: «ولكن إن ذهبتُ أُرسِلُه إليكم» فإن المسيح عليه السلام لم يرسِلْ محمدًا صلى الله عليه وسلم.

والجواب عنها أولًا: أن هذا إلزام عليهم، أنه لو كان المراد روح القدس كما تزعمون، فكيف أرسل المسيح وهو (الروح) إله كامل، فهل أرسل الإلهَ الكامل؟ فما كان جوابكم فهو جوابنا.

وثانيا: وهذا تحقيقي، أن هذا مجاز يعني: ادعو من الله أن يُرسِلَه إليكم، والمرسِل في الحقيقة هو الله، والقرينة عليه الآية قبل ذلك «أنا أطلب من الأب فيعطيكم مُعَزِّيًا آخر» أي

(١) إظهار الحق بزيادة وحذف.

(٢) أورد هذه الشبهة صاحب ميزان الحق المسيحي.

المعطي هو الله وإنما أنا طالب فقط، فهذا نسبة إلى السَّبَبِ الداعي (من الدعاء) في إرسال الله إياه، أو معنى «أرسله إليكم»: مجيئه من بعده يقينًا، كأنه أرسله بعد ما ذهب؛ إذ لو لم ينطلق لم يجيء محمد صلى الله عليه وسلم؛ إذ لا يجتمعان كما مر. هذا ما سنح لي في هذا المقام، والله أعلم بحقيقة المرام.

تنشأ هذه شبهات من عبارة الإنجيل بدون نظر غائر، وههنا شبهات أُخَرُ لا تعلُّق لها بعبارته. من شاء الإطلاع على تفاصيلها فليرجع إلى المُطوَّلات، وليست ههنا فُسْحة لسردها، فأرجو المعذرة من القراء. وقد ذُكِرت في العهدين البشارات الأخرى تركناها مخافةَ الإطالة، والعاقل تكفيه الإشارة، والجاهل لا تُغْنيه الأسفار المبسوطة الطويلة.

وقد صَرَّح كثير من علماء بني إسرائيل بأوصاف محمد صلى الله عليه وسلم ومحامده ونبوته، وعلينا أن ننقل بعضَها تفريحًا لطبع الناظرين وتوكيدًا لما مضى منا من عبارة العَهْدَين، فأخرج الدارمي وابن عساكر عن كعب قال في السطر الأول من التوراة: «محمد رسول الله عبدي المختار، لا فَظٌّ ولا غليظٌ ولا سخابٌ في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئةَ، ولكن يعفو ويغفر، مولده بمكة، وهجرته بِطَيبة، وملكه بالشام».[1]

وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، فإني لأخطب يومًا على الناس، وحبر من أحبار اليهود واقف في يده سفر ينظر فيه، فناداني فقال: صف لنا أبا القاسم صلى الله عليه وسلم. فقال علي رضي الله عنه: ليس بالقصير ولا بالطويل البائن، وليس بالجَعْدِ القَطَطِ، ولا بالسَّبْطِ، هو رَجِلُ الشعر أسود، ضخم الرأس، مُشْرَبٌ لونه بحمرة، عَظْمُ الكراديس، شَثْنُ الكفين والقدمين، طويل المَسْرُبَة، أهْدَبُ الأشفار، مقرون الحاجبين، صَلْتُ الجبين، بعيد ما بين المنكبين، إذا مشى يتكفأ كأنما ينزل من صبب، لم أر قبله مثله ولم أر بعده مثله. قال علي: ثم سكتُّ. فقال لي الحبر: وماذا؟ قال علي: هذا ما يحضرني. قال الحبر: في عينيه حمرة، حَسَنُ اللحية، حَسَن الفم، تام الأذنين، يقبل جميعا، ويدبر جميعا. فقال علي: هذه والله صفته. قال الحبر: وشيء آخر؟ فقال عليٌّ: وما هو؟ قال الحبر: فيه جنأ.[2] قال علي: هو الذي قلتُ لك. قال الحبر: فإني أجد

---

(١) سنن الدارمي ١/ ١٧. والفضائل المحمدية، ص١٢١، ليوسف إسماعيل النبهاني.

(٢) هو بمعنى انحناء قليل، كما ورد: يتكفأ.

هذه الصفة في سفر آبائي، ونجده يبعَث من حرم الله، ونجد أنصاره الذين هاجر إليهم قومًا من ولد عمرو بن عامر أهل نخل، أهل الأرض قبلهم يهود. قال علي رضي الله عنه: هو هو. قال الحبر: فإني أشهد أنه نبي وأنه رسول الله إلى الناس، فعلى ذلك أحيى وأموت، وعليه أبعَث إن شاء الله تعالى.(١)

فالنبي الذي شهدت بنبوته الأحجار والأشجار كيف لا يعرف نبوته بنو إسرائيل، بل يعرفونه حق معرفته، بيد أن حجاب الحسد والتعصب والتعامي حال بينهم وبين الحق، فلا يؤمنون، فيا بني إسرائيل اتقوا الله، واعملوا بما أمركم نبيكم، وآمنوا بالنبي الأمي الذي تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل، فإن آمنتم تهتدوا، وإن توليتم فإن عذاب الله شديد، وما علينا إلا البلاغ المبين.

فضيلة النبي محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء فضيلة كلية:

لا ريب أن الله فضَّل بعض الأشياء على بعض، ففضَّل الإنسانَ على الحيوان، والحيوان على الجماد، والعالم على الجاهل، والذكيَّ الفَطِنَ على الغبي، والنبيَّ على الولي. وهذا ظاهر لمن تدبَّر وتفكَّر. وهكذا فضل بعض الأنبياء على بعض. قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، المراد ببعضهم ههنا هو النبي صلى الله عليه وسلم.(٢)

فمحمد صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء، فإن كان آدم تَعَلَّمَ جميع الأسماء، فمحمد صلى الله عليه وسلم تعلم وعلم الكتاب والحكمة، وجرت من شفتيه ينابيع العرفان. وإن كان آدم عليه السلام نسي العهد، كما نبَّه عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ (طه: ١١٥)، فمحمد صلى الله عليه وسلم لم ينس القرآن، قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ (الأعلى: ٦)، وإن خلق الله آدم عليه السلام بيده، فقد شرح صدر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بنفسه؛ قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الشرح: ١)، وإن رفع إدريس وعيسى عليهما

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد ١/ ٤١١-٤١٢، وتاريخ دمشق ٣/ ٢٤٩-٢٥٠، والفضائل المحمدية، ص١١٠، ليوسف إسماعيل النبهاني.

(٢) روح المعاني ٣/ ٢.

السلام إلى الرتبة العليا، فقد رفع نبيَّنا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج إلى السموات وما فوقها إلى ما شاء الله. وإن كان موسى عليه السلام شقَّ الحجر الذي من شأنه أن يخرج منه الماء فنَبَعَ منه الماء، فقد نَبَعَ من أصابعه صلى الله عليه وسلم الماء وارتوىَ منه الناسُ.

فالحاصل أنه ما من كمال أعطي الأنبياء إلا أعطي محمد صلى الله عليه وسلم أبلغ منه. قال الملا علي القاري: وإنه لم يُؤتَ نبيٌّ معجزةً إلا وعند نبينا مثلها أي شبيهها، أو نظيرها، أو ما هو أبلغ منها، أي دلالة كانشقاق القمر، والإسراء، ونحوهما.

وقد تحققت الفضيلة لنبينا صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء نقلًا وعقلًا:

أما نقلًا فتدل عليها الأحاديث النبوية، منها: حديث الشفاعة الكبرى في فصل القضاء، فإن الشفاعة العظمى أعطيت النبيَّ صلى الله عليه وسلم، ولم تعط من الأنبياء أحدًا. وتفصيل ذلك في كتب الحديث، وجاء ذكره مختصرًا في حديث روي عن آدم بن علي قال: سمعت ابن عمر رضي الله عنه يقول: «إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثًا كل أمة تَتْبَعُ نَبِيَّها يقولون: يا فلان اشفع لنا، يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فذلك يومُ يبعثه الله المقام المحمود».[1]

ومنها: أحاديث الكوثر، قال الله تعال:﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ (الكوثر: ١). إن كان المراد منه الحوض كما هو المشهور، ففضل النبي صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء بكثرة عدد الواردين، كما أخرج الترمذي عن سمرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لكل نبي حوضًا، وإنَّهم يتسابقون أيهم أكثر واردة، وإني لأرجو أن أكون أكثرَهم واردة».[2]

ومنها: قوله عليه الصلاة والسلام: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع».[3]

ومنها: قوله عليه الصلاة والسلام: «أنا أول الناس خروجًا إذا بُعِثوا، وأنا خطيبهم إذا

---

(١) شرح شفا ١/ ٤٥٨، للعلامة علي القاري. والحديث رواه البخاري في التفسير، رقم:٤٣٤٩.

(٢) سنن الترمذي، رقم: ٢٤٤٣.

(٣) صحيح مسلم، رقم: ٢٢٧٨.

وفدوا، وأنا مبشرهم إذا يئسوا، لواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر». [١]

وأما عقلًا: فلأن نبوته شاملة عامة أبدية دون سائر الأنبياء، فنبوة سائر الأنبياء إلى زمن معين، ونبوته صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة. تدل عليه الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية. وقد ذُكِر بعض ذلك. وآثار نبوته من شيوع دينه وكثرة أتباعه ظاهرة تكاد لا توجد لأحد من الأنبياء، ومن ثمه يكون صلى الله عليه وسلم أكثر الأنبياء تابعًا كما ينطق به الحديث النبوي. فإن قيل: المسيحيون كثيرون في هذا الزمان عددًا، فكيف توجد كثرة أتباعه؟ قلنا: إن دينه منسوخ، فلا اعتبار بكثرتهم، أو نقول: ليسوا في الحقيقة أتباع عيسى عليه السلام، فإن المسيح اليسوع عليه السلام لم يكن قائلا بالتثليث والكفارة ولا بغير ذلك من العقائد الباطلة، على أنا لا نسلم كثرتهم، فإن من يتَّسِم بسِمة الإسلام كثير ممن يتسم بسمة المسيحية كما هو المشهور.

فضيلته ﷺ على سائر الأنبياء عليهم السلام من حيث المعجزاة الباهرات:

فضَّل الله تعالى نبيَّنا صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء بالمعجزات والآيات البينات، فبعض المعجزات مما خصه الله تعالى بها لا توجد في غيره من الأنبياء. منها: معجزة القرآن، فهذه معجزة باقية إلى يوم القيامة بخلاف معجزات سائر الأنبياء، فإنها كانت باقية إلى حياتهم، فعصا موسى عليه السلام لم تبق بعد وفاته، وناقة شعيب عليه السلام لا يوجد لها أثر، والقرآن البيِّن برهانُه، الواضحة آياته، المعجزة نظمه الباهرُ معجزة باقية إلى أبد الآباد. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثلُه آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُ وحيًا أوحى الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة». [٢]

فمعجزاته صلى الله عليه وسلم لا تبلغها معجزات سائر الأنبياء عددًا وكثرةً وقوةً وبقاءً وتأثيرًا ونفعًا، والآن نذكر بعض معجزات موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام

---

(١) سنن الترمذي، رقم: ٣٦١٠.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٦٧٣٢.

بإزاء بعض معجزاته صلى الله عليه وسلم لتظهر مزِيَّته وفضيلته، وإنما أُخُصُّهما لما نحن بصدد الرد على المسيحيين المقرين بجلالة شأنهما وقوة برهانهما، ولا أريد الطعن في شأن الأنبياء – معاذ الله– فإنه كفر بوَّاح، بل هما من أولى العزم من الرسل، وإنما الطعن والوقاحة من المسيحيين حيث لا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم، مع أن الدلائل التي تدل على نبوتهما متوفرةٌ في النبي صلى الله عليه وسلم. فموسى عليه السلام آتاه الله العصا فانقلبت حيةً، كما قال الله تعالى:﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ (طه: ٢٠)، وذلك حينما برز لِـمُبارزة السحرة، فغلبهم وأعجزهم، وابتلعت عصاه جميع حيات السحرة. ومحمد صلى الله عليه وسلم آتاه الله تعالى معجزةَ حنين جذع النخلة، إذ بكت لفراق محمد صلى الله عليه وسلم، فانقلاب العصا حيةً وإن كان عجيبًا، لكن حنين الجزع أعجب منه؛ لأن العصا صارت إلى شكل حيواني، والأكل من شكل حيواني ليس بمستبعد، بخلاف حنين الجذع؛ لأنه كانت على شكل شجرة يابسة، ثم تألَّمَتْ ألَمَ الإنسان وبكت بكاءه، ولم تكن فيه حياة ولا شعور، بل كانت يابسة، ثم الحنينُ على فراقه صلى الله عليه وسلم ومحبته قلما يرزق كثيرا من الناس، فضلًا عن الشجرة اليابسة.

وانظر كذلك إلى معجزة عيسى عليه السلام، فإنه أحيى الموتى كما قال الله تعالى:﴿ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٤٩)، لكن إحياء الشجرة أعجب منه، فإن الموتى كانوا أحياء فيما مضىَ، وسيكونون أحياء يوم القيامة، والحياة البرزخية أيضًا ثابتة على قدر المراتب، بخلاف الشجرة التي ليست فيها حياة.

وموسى عليه السلام أعطيَ معجزةَ انفجار الماء من الحجر، قال الله عز وجل:﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ (البقرة: ٦٠)، ومحمد صلى الله عليه وسلم انفجر الماء من أصابعه المباركة. وهذا أبلغ منها؛ لأن الماء يخرج من الأحجار والأرض، ونبع الماء من اللحم والجلد والعظم أعجب منه، وكان ذلك كمال ذات النبي صلى الله عليه وسلم.

وانظر إلى معجزة عيسى عليه السلام، فإنه كان يكثر له الطعام، ولكن لم تظهر هذه المعجزة من يده وأعضائه، بخلاف تكثير الطعام للنبي صلى الله عليه وسلم، فإنه ظهر من يده بحيث وضع يده عليه، كما ثبت في الأحاديث. وإن كان عيسى عليه السلام يَشْفى

المرضى، فالنبي صلى الله عليه وسلم مس الرِجل منكسرة فعادت كما كانت وصحت بعد ما انكسرت.(١) كما روى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث عبد الله بن عتيك لقتل أبي رافع، فبعد قتله سقط وانكسر رجله، فلما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال له النبي صلى الله عليه وسلم ابسط رجلك فبسط رجله، فمسحها، فكأنما لم يشتك قط.(٢)

كما ثيرون شبهةً أخرى، وهي: أنكم تقولون: إن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء والرسل. ورسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك كما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في اليهودي الذي قال: والذي اصطفى موسى على البشر، فلطمه رجل من الأنصار وقال: تقول والنبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا، فبلغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: «لا تفضلوا بين أنبياء الله».(٣) وقال صلى الله عليه وسلم: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى».(٤)

والجواب عنه من وجوه، الأول: أن النهي كان قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم. الثاني: أنه قاله تواضعًا ونفيًا للتكبر والعجب. والثالث: أنه لا يفضَّل تفضيلًا يودي إلى تنقيص بعض الأنبياء. الرابع: منع التفضيل في نفس النبوة والرسالة، فإن النبوة على حد واحد، إذ هي شيء واحد لا يتفاضل، وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والمعجزات والألطاف الربانية. هذا ما لخصته من شرح الشفا للقاري رحمه الله.(٥)

وخلاصة الكلام أن محمدًا صلى الله عليه وسلم نبي ورسول، ثبتت نبوته عقلًا ونقلًا. تدل البشارات على نبوته بالرغم من التحريف الكبير في كتبهم، وهو أفضل النبيين، وشفيع المذنبين، وسيد الأولين والآخرين. اللهم ابعثنا في أمته وتحت لوائه يوم يقوم الناس لرب العالمين. ولنعم ما قال الشيخ رحمة الله الكيرانوي في إزالة الشكوك.

وہ ہے مرکزِ عالمِ کن فکاں ۞ وہ ہے باعثِ صحتِ جسم و جاں

---

(١) ملتقط من «حجة الإسلام» للعلامة محمد قاسم النانوتوي رحمه الله، ص ١٢٢-١٢٣. كتاب جيد باللغة الأردية.
(٢) صحيح البخاري، رقم: ٤٠٣٩.
(٣) صحيح البخاري، رقم:٣١٦٢.
(٤) صحيح البخاري، رقم: ٣٤١٦.
(٥) شرح الشفا ٢/ ٦٠٨-٦١٠.

چلے حکم کے ساتھ جس کے درخت ۞ ہوئے نقشِ پا بر سرِ سنگ سخت
کیا جس نے ماہ دو ہفتہ کے دو ۞ بلائے نہ کیوں عمر رفتہ کو وہ

معناه: هو مركز العالم لـ«كن فكان»(١). هو سبب صحة الجسم والروح. من يمشي الشجر بأمره، من انتقشت آثار قدمه على الحجر الأملس.(٢) من شق القمر شقين، كيف لا يدعو من أضاع عمره في المعاصي.

منگا ایک برتن میں پانی قلیل ۞ رکھا ہاتھ اس میں باذنِ جلیل
ہر اک انگلی سے چشمہ جاری ہوا ۞ جسے جتنا منظور تھا پی لیا
حجر اور شجر نے بھی کی یہ ندا ۞ سلام علیک اے رسولِ خدا
وہ لاریب محبوب معبود ہے ۞ وہی خلقِ آدم سے مقصود ہے
مراتب ہوں اس کے بیاں مجھ سے کیا ۞ کہ امتی اس کے ہیں کالانبیاء

معناه: طلب ماءً قليلًا في إداوة، ووضع يده فيه بإذن الخالق الجليل، فانفجرت العين

(١) أي: : لو وُجِد الأنبياء في عهده لكُلِّفوا بأن يؤمنوا به، ففي الحديث الشريف: «والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسِعه إلا أن يتبعني». (مسند أحمد، رقم: ١٥١٥٦، وإسناده ضعيف لضعف مجالد بن سعيد).

(٢) سئل الإمام السيوطي فيما هو جار على ألسنة العامة، وفي المدائح النبوية: أن النبي صلى الله عليه وسلم لان له الصَّخْر، وأثَّرَت قدمُه فيه، وأنه كان إذا مشى على التراب لا تُؤَثِّر قدمُه فيه، هل له أصل في كتب الحديث أو لا؟ وهل إذا ورد فيه شيء من خرَّجه؟ وصحيح هو أو ضعيف؟ فقال السيوطي: «لم أقف له على أصل ولا سند، ولا رأيتُ من خرجه في شيء من كتب الحديث».(الحاوي للفتاوي ٢/ ١٢٩، ط: دار الفكر، بيروت).

وقال الحلبي في «السيرة الحلبية» بعد ما نقل كلام السيوطي: «ومن العجب أن الجلال السيوطي مع قوله المذكور قال في «الخصائص الصغرى»: «ولا وطئ على صخر إلا وأثر فيه» هذا كلامه، ولعله ظهر له صحة ذلك بعد إنكاره. ودعوى أنه صلى الله عليه وسلم ما وطئ على صخر إلا وأثر فيه قد يتوقف فيه». (السيرة الحلبية ١/ ١٦٠، ط: دار الكتب العلمية، بيروت).

قلت: قوله: «ولا وطئ على صخر إلا وأثر فيه» ليس هذا كلام السيوطي، إنما نقله عن رزين، وإليكم نصه: «ومما أورده رزين في خصائصه: أن شيئًا من شعره وقع في النار فلم يحترق،... ولا وطئ على صخر إلا وأثر فيه».(أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب، المعروف بـ الخصائص الصغرى، للسيوطي، ص٩٩).

وقال الشيخ محمد درويش الحوت في «أسنى المطالب» (ص ٣٧٧): «ما اشتهر أن صخرة بيت المقدس صعدت معه صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء حين عرج به وأن قدمه الشريف أثَّر فيها، لا أصل لذلك، وهو من كلام الناس، ولم يذكره أحد من أهل العلم لا مسندًا ولا معلقًا».

من الأنامل كلها، فشَرب منه من شرِب ما قدر له. نادى الشجر والحجر: سلام عليك يا رسول الله. لاشك أنه حبيب الله تعالى، وهو المقصود بخلق آدم.[1] لا يدرك وصفي بيان مراتبه، فإن أمته مثل الأنبياء.[2]

---

(١) كما هو المشهور عند أهل المعرفة والتصوف.

(٢) إشارة إلى الحديث المشهور: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل». لكن قال الإمام الزرقاني في «مختصر المقاصد الحسنة»: «لا أصل له».(ص١٥٧). وقال القاري في «المصنوع» (ص١٢٣): «لا أصل له، كما قال الدميري، والزركشي، والعسقلاني».

عقيدة الكَفَّارة في دين المسيحيين

يدَّعي النصارى أنه لما خلق الله آدم عليه السلام وأسكنه الجنة، أوصاه أن لا تأكل من شجرة اسمها في التوراة شجرةُ معرفةِ الخيرِ والشر؛ لأنك يومَ تأكل منها تموت موتًا. فأكل منها لأجل حواء امرأته، فقال الله عز وجل لآدم: لأنك أكلت منها جعلت الأرض بسببك ملعونة، وهذا الإثم كان كبيرًا وشديدًا كيفًا وكمًّا.

أما شدته كيفًا فلأن آدم عليه السلام كان في الجنة، وفيها من الأشجار والثمرات والمآكل والملابس ما لا تحصى، بل فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فالأكل من الشجرة المعيَّنة إثم كبير لوجود هذه التوسعة الكاملة، والنعم الوافرة.

وأما شدته كمًّا فإنه يشتمل على آثام مختلفة، فيه: التكبر والتولي عن حكم الله، وقلة الاعتناء والاكتراث بشأن الرب عز وجل، وفقد الإخلاص بوسوسة الحية. وفيه: السرقة؛ لأنه أخذ مال الله وتصرف فيه بلا إجازة. ولما كان الإثم شديدًا كبيرًا كان جزاؤه على قدره؛ إذ الجزاء يكون بقدر المعصية، وهو الموت الدائمي، وسلب القوة الخيرية التي أودعت في الإنسان، وصار هذا الاثم داخلًا في جِبِلَّته وفطرته، ثم انتقل هذا الإثم من صلبه إلى أولاده كالمرض المتعدي ينتقل من واحد إلى آخر، فجميع أولاده أثموا وحرموا، وصار هذا الإثم سببًا للآثام الكبيرة كالقتل والزنا والسرقة وغيرها؛ لأن هذا أصل يتشعب منه الفروع.

والله تعالى رحيم يرحم عباده، فلا يتصور في جنب رحمته الكاملة أن يَدَع جميع أولاد آدم في هذه الورطة الظلماء والليلة الليلاء، فرحِمَهم وفَدَاهم، وانتخب لفدائه واختار ابنَه الوحيد وحبيبه الفريد ونَجِله المجيد، فقُتِل على الصليب، وكان كفارةً لجميع الذنوب، وهكذا تحررت رقبة كل إنسان عن هذا الحمل الثقيل.[1] وصار ملعونًا لأجلنا، كما قال المفسر الحوري في الصحيفة ٣٥٥: قد افتدى المسيح الذين يؤمنون به من اللعنة حتى صار

(١) خلاصة ما كتبه الشيخ محمد تقي العثماني في كتابه «عيسائيت كيا ہے؟» ما هي العيسائية والمسيحية؟ والفاضل رشيد رضا المصري في تفسير المنار.

لعنةً من أجلهم بتعليقه على الصليب؛ لأن كل من علق على خشبة ملعونٌ، فالمسيح بتعلقه بخشبة الصليب جلب على نفسه هذه اللعنة أي صار ملعونًا، وذلك ليُنْجِيَ الذين يؤمنون به من اليهود من لعنة الناموس، فالواجب إذن ترك الناموس (أي الشريعة) واتباع المسيح والإقامة على إيمانه، ولكن المسيح لم يُنْجِ اليهود فقط، بل قد أنجى جميع الناس من لعنة الخطيئة.[1]

تأسيس بولس الرسول لهذه العقيدة:

وما ذكر من التفصيل لا يوجد في أقوال رسولهم، إلا أن بولس محرِّف الدين المسيحي نفث في قلوبهم دردبيس محبة هذه العقيدة، وأسرى فيهم حميا مودتها، فذكر هذا التفصيل في رسالته إلى أهل رومية. قال: «ولكن الله بين محبته لنا؛ لأنه ونحن بعد خُطاة، مات المسيح لأجلنا».[2]

وفصلها بعد ذلك فقال: «من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطيَّة إلى العالم وبالخطيَّة الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذا أخطأ الجميع؛ فإنه حتى الناموس كانت الخطية في العالم على أن الخطيَّة لا تحسَب إن لم يكن ناموس، لكن قد ملك الموت من آدم إلى موسى، وذلك على الذين لم يخطئوا على شبه تعدي آدم الذي هو مثال الآتي، ولكن ليس كالخطية.

هكذا أيضًا الهبة، لأنه إن كان بخطية واحد مات الكثيرون فبالأولى كثيرًا نعمة الله والعطية بالنعمة التي بالإنسان الواحد يسوع المسيح قد ازدادت للكثيرين، وليس كما بواحد قد أخطأ، هكذا العطية، لأن الحكم من واحد للدينونة. وأما الهبة فمن جري خطايا كثيرة للتبرير؛ لأنه إن كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد فبالأولى كثيرًا الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح، فإذا كما بخطية واحد صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة، هكذا ببرٍّ واحدٍ صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة، لأنه كما بمعصية الإنسان الواحد جُعِل الكثيرون خُطاةً هكذا أيضًا بإطاعة الواحد

---

(١) الجواب الفسيح، ص١٨٥.

(٢) رسالة بولس إلى أهل رومة ٥/ ٨.

سيجعل الكثيرون أبرارًا».[١]

ومن أعجب العجاب أنهم لا يكتفون بموته على الصليب، بل يجعلونه جَهَنَّميًّا لأجل ذلك. نقل جواد ابن سابا هذه العقيدة من كتاب الصلاة المطبوع سنة ١٥٠٦م هكذا: «كما أن المسيح مات لأجلنا ودفن، هكذا لا بد أن نعتقد أنه دخل جهنم» وقال بعد سطور: فكتب الراهب المسطور في كتابه المذكور هكذا: «الذي تألم لخَلاصنا وهبط إلى الجحيم، ثم في اليوم الثالث قام من بين الأموات».[٢]

دلائلهم على هذه العقيدة من الأناجيل:

قد ذكرنا لك أن هذه العقيدة من مبتدَعاتهم، ليس عندهم دليل على ذلك من الأناجيل الصَّحيحة في زعمهم، وما يستدلون به من كلماتها ليست صريحة في هذه العقيدة السخيفة. ولنذكرها لك ليتبين الحال ويلوح المآل، فاستمع ما يلقى عليك من المقال، والله هو الكبير المتعال.

فمن مستدلاتهم على ذلك قول المسيح اليسوع: «لأن ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب ويخلص ما قد هلك».[٣] «لأن ابن الإنسان أيضًا لم يأت ليُخْدَمَ، بل ليَخْدِم وليبذُل نفسه فِدية عن كثيرين».[٤] «لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد يُسْفَك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا».[٥]

هذا جريهم وعدوهم في مضمار الكفارة، ولو تفكرت في هاتيك الأقوال بنظر غائر لم تفهم منها إلا أن المسيح اليسوع كان مُنْجِيًا للعَوالِمِ ومخرجًا لهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

وقوله : «دمي يسفك لأجل كثيرين». يعني لو احتيج إلى سفك الدماء يسفك لدين

(١) رسالة بولس إلى أهل رومة ٥/ ١٢-١٩.

(٢) إظهار الحق ٢/ ٣٢.

(٣) لوقا ١٩/ ١٠.

(٤) مرقص ١٠/ ٤٥.

(٥) متى ٢٦/ ٢٨.

الله. فالمراد من النجاة إخراجهم من الظلمات الكفرية بوحي أتاه من الله تعالى، وقد بين الله ذلك بقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٤٦)

وأما ما فهموه من انتقال الإثم الأصلي من آدم إلى آخر ما فصَّلوه، فأين ذكرُه على هذا المِنوال على أنها عقيدة عليها مدار النجاة عندهم، فيجب أن يبيَّن بيانًا كاشفًا، ويفصَّل تفصيلًا تامًّا، كما أن العقائد الإسلامية من التوحيد والرسالة والقيامة وغيرها مما يتوقف عليه النجاةُ مُبَيَّنَةً في القرآن بالبيان التام الحسن الانسجام. ولعل بولس رئيسهم أخذ هذه العقيدة من الوَثَنِيِّيْن، أو اخترعها إرضاءً لهم، لأنها موجودة في دين الوثنية. واستشهد على ذلك صاحبُ المنار، وإليك بعضها: قال هوك في صحيفة ٣٢٦ من المجلد الأول من رحلته: «ويعتقد الهنود الوثنيون بتجسد أحد الآلهة، وتقديم نفسه ذبيحةً فداء للناس من الخطيئة».(١)

وقال دوَّان في كتابه «خرافات التوراة وما يقابلها من الديانات الأخرى» ص١٨١-١٨٢ ما تلخيصه: أن تصور الخلاص بواسطة تقديم أحد الآلهة ذبيحةً فداء عن الخطيئة قديم العهد جدًّا عند الهنود الوثنين وغيرهم.(٢)

هذه هي عقيدتهم الباطلة التي لا يعتقد بها المسلمون، بل يخالفونها أشد مخالفة، ولا يسلمون أن عيسى عليه السلام قتل، بل رفع إلى السماء. وما بيَّنوا من القصة الطويلةِ فهي من نسيج خيالهم، لا من شريعتهم.

ونبين فيما يلي قبائحها وفضائحها، فنقول **أوَّلًا**: هذه العقيدة باطلة يضحك منها الصبيان والسفهاء، فإنه لما عصى آدم كما تقولون بأكل شجرة وتاب، إذ مِن المستبعد أن لا يتوب، وحياة الأنبياء منبع الاستغفار والتوبة، فإن قُبِلَتْ فلا حاجة إلى الفدية واللعنة والعذاب الدائم، وإن لم تُقْبَل فهذا بعيد عن شأنه تعالى وعن رحمته، إذ هو بعباده رؤوف رحيم. فقد قيل في حزقيال: «فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها، وحفظ كل فرائضي وفعل حقا وعدلًا، فحياة يحيي لايموت، كل معاصيه التي فعلها لا تُذكر عليه في بِره

(١) تفسر المنار ٦/ ٣٢.

(٢) تفسر المنار ٦/ ٣٢.

الذي عمل يحيى».[(١)]

وثانيًا: ذُكِر في التوراة جزاءُ هذهِ المعصيةِ (أكلِ الشجرةِ) المِحَنُ الشاقةُ لتحصيل الرزق والكفاف، كما في سفر التكوين: «تأكل منها كلَّ أيام حياتك، وشوكًا وحسكًا تنبت لك، وتأكل عشب الحقل، بعَرق وجهك تأكل خبزًا حتى تعود إلى الأرض التي أخذتَ منها».[(٢)]

وثالثًا: لوسلمنا أن القتل جزاء المعصية، فهل يصح أن يعصيَ واحد ويتحمل عقابه آخر؟ هذا يخالف ما في كتاب حزقيال عليه السلام: «النفس التي تخطئ هي تموت، الابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن، بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون».[(٣)] والمعقول أن من تولى عن حكم ربه يجب أن يعاقَبَ هو، لا أن يعصي واحد ويعذَّب آخر. وهذا الحكم موجود في القرآن أيضًا حيث قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤)

ورابعًا: لو سلمنا أن جزاء رجل يلقى على آخر، فالأنسب أن يلقى على ابنه المولود المخلوق من صلبه وهو من جنسه، لا على اليسوع ابن الله الذي هو من جوهر أبيه، أي الله. وإن قلت: إنه ابن الله وهو الصالح لهذا. قلنا: أليس عندكم في التوراة أن إسرائيل بكر الله فهو أولى في الجميع.

وخامسًا: ما تقولون فيمن مات قبل المسيح؟ هل ماتوا بغير توبة، أم آمنوا وتابوا؟ فلو ماتوا بغير توبة يخالف الكتابَ المقدس، لما في كتاب حزقيال: «إذا رجع الشرير عن شرارته فيغفر». واجتماع الجميع على عدم الإنابة والتوبة مُحال، وإن ماتوا تائبين فقد اعترفتم بأنه لا حاجة إلى قتل المسيح عليه السلام وصلبه.

وسادسًا: لو قلنا: إن في دم المسيح الخلاص. نسأل هل يكفِّر دمُه بغير توبة أو معها؟ فإن كفَّر بدون توبة خلتْ عن الفائدة، بل يلزم أن ينجُوَ فرعون ونمرود، وإن كانت معها، إذًا لا يكون كافيًا ما لم يُضَمُّ إليه التوبة، فينتقص عن مقابلة آدم عليه السلام إذ لم تذكر توبتُه

---

(١) حزقيال ١٨/ ٢٠-٢١.

(٢) التكوين ٣/ ١٧-١٨.

(٣) حزقيال ١٨/ ٢٠.

في التوراة، وفيه العَجز عن خلاصه لو لا التوبة، ومن عجز عن خلاص عبد واحد، فإنه عن خلاص سائر العباد أعجز.[1]

وسابعًا: لو سلمنا أن المسيح كفارة للكل فما معنى الآية المذكورة في كتاب الأمثال: «الشرير فدية الصديق ومكان المستَقِيمين الغادر».[2] يعلم من هذه الآية أن الشرير يفدى بالمتقي، فهل يكون المسيح عندكم شريرًا، بل فداء الشرير بالطاهر قريب إلى الفهم؛ لأن الشرير لشرارته يعقل أن يلقى عليه العذاب، لكن ما بال الطاهر المطهر أن يعذَّب ويعاقب! والمسيح طاهر، بل هو عندكم إله لا يتصور أن يصدر منه الإثم.

الجھاہے پاؤں یار کے زلف دراز میں ۞ لو آپ اپنے دام میں صیاد آ گیا

معناه: أرجل الحبيب معقد في جمته، فافهم أن الصياد اشتبك في حبالته.

وثامنًا: هذه الكفارة لمن آمن به أو لمن آمن وكَفَر جميعا؟ فإن كان لمن آمن فقط لم يحصل المقصود؛ إذ المقصود قلع الخطيئة الأصلية وكفارتها، ولم يقطع، بل وجدت في أكثر الأفراد؛ إذ من كَفَرَ به أكثر ممن آمن، وإن كان للجميع دخلت فيه اليهود التي صَلَبَتْه وقتلته، فما بالكم تذمونهم وهم لا يستحقون المَلامَ.

وتاسعًا: أن المصلوب إله، فقد قال البادري فندر في «ميزان الحق»: «الذي مات على الصليب بناسوته كان إلهًا تامًّا كما كان إنسانًا تامًّا». فكونه مصلوبًا ينافي كونه إلهًا.

وعاشرًا: إن هذه العقيدة استهزاء وسخرية وسبيل إلى الإباحة المطلقة، وباب إلى اتباع الشهوات ليرتكبوا المعاصي ويقولوا: صار المسيح كفارة عنا. فالله يكفينا عنهم، والذي أظن، بل أتيقن أن بولس اخترع هذه المسئلة ليُخلِص نفسه وإياهم عن العبادات، ويتبع الشهوات، وينغمس في القاذورات. فهاتيك المسئلة أظهرت خبثَهم الباطنَ وتركهم السنة السَّنية النبوية المسيحية. تلك عشرة كاملة. ولنعم ما قيل:

بر چاکہائے پیر ہنم ناصحا مخند ۞ ایں چاک سینہ بود کہ تا پیرہن رسید

معناه: أيها الناصح! لا تضحك على القطع الممزَّقة من قميصي، فهذه قطع قلبي

(١) الجواب الفسيح ملخصًا، ص١٨٧.

(٢) أدلة اليقين، ص٢٣٥.

وصلت إلى القميص.

وأحسن الله جزاء من قال:

هذا لعمركم الهوان فبئسما ۞ نقل العداة بزعمهم في ربها
جَعلوه يفدي عبده بمهانةٍ ۞ يا عجبَ ذاتٍ نفعها في ضرها
لعن الإلهُ الزاعمين بأنهم ۞ قتلوه من فئة اليهود وحزبها
وكذاك من فئة الضلال وكلهم ۞ سفها تساوَوا فى المقالة كلها
سوقًا لهم ضلوا السبيل وزينت ۞ آراؤهم ما زيَّنت تعسا لها

عقيدة الصليب:

يعتقدون كما ذُكِر في أناجيلهم أن المسيح صُلِب على أيدي اليهود، وتَوَّجُوه تاجَ الشوك وأهانوه. وبيَّنوا وجهَه أن آدم لما عصى بالأكل من الشجرة المَنهية صار هو وجميع أفراد ذريته خطَّائين يستحقون العقاب، والله تعالى متصف بالعدل والرحمة، فإن معاقَبة الجميعَ تنافي الرحمة، ولو نجاة الجميع تنافي العدل، ففكَّر الإله في حل هذه العُقدة بأن حَلَّ في بطن مريم واتحد معها وتولَّد منها، فيكون إلهًا كاملًا، وإنسانًا كاملًا، معصومًا من جميع الخطيئات. والله تعالى متصف بالعدل والرحمة فأنصَفَ بأن عاقب ابنه وقَتَلَه وصلَبه، وصار فدية لذرية آدم، وترحَّم بأن جمع جميع عِقابات بني آدم في ذات واحدة.

هذا قولهم الباطل، ومذهبهم الزائل، وهذه عقيدة ضرورية من ضروريات دينهم لا يقبَلها العقل والنقل، ويرد عليها ردود:

الأوّل: إن الله تعالى عادل ورحيم، ولا يتوقف عدله ولا رحمته على صلب المسيح، بل يكتفي لذلك إخراج آدم من الجنة، كما هو المسلَّم عند الفريقين، فإن العدل يتحقق بإخرج آدم من الجنة، والإخراج من الجنة لِنَبِيٍّ ذي شأن عدل في حقه، ورَحِم بأن قبل توبته، كما حكى الله عنه في القرآن الكريم بقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٣٧)، بل نقول: إن تعذيب عيسى عليه السلام ليس بعدل؛ لأن المعصية صدرتْ عن آدم، ويعاقب عيسى، كما أمر السيد غلامًا بأمر وعصى، فعاقب غلامًا آخر، هل يكون هذا عدلًا؟ لا، بل ينكَر عليه، وينسَب إلى الظلم والجهل، بل الحمق والسَّفَه، نعوذ بالله أن ننسِبَ الجهل والحمق إلى

عالم الغيب والشهادة، بل إنَّ من يتفوَّه به جاهل أو متجاهل، بل عارٍ عن جوهر العقل. ولا عجب فيه، فإن الوقاحة مسلكهم، والسبَّ والشتم مذهبهم.

والثاني: إن هذه العقيدة تشتمل على حلول الرب في بطن مريم، وهذا باطل يَرفُضُه العقل السليم؛ فإن حلوله في بطن امرأة وكونه بشرًا يأكل ويشرب، ثم يأخذه الأعداء ويهينونه ويُذِلُّونه وَقاحة تتنفر منه الطباع السليمة.

الثالث: يلزم منه عَجز المولى؛ لأنه عَجَزَ عن مقاومة الأعداء وصاح: إيلي إيلي لما شبقتني، فهلا يهلكهم ويستأصلهم ويقلع عِرقهم.

الرابع: تفضي هذه العقيدة إلى الإباحة المطلقة، فإن الخلق لما نَجَوا من الآثام بهذه العقيدة تجاسروا على المعاصي، فيفعلون ما يشاؤون بلا خوف ولا خطر، ويكون غير الصَّلِيْبِيِّ كالصَّلِيْبِيِّ، والزاني كغيره، فلا يبقى فرق بين الطاهر وغيره، فاسألوا أهل العلم إن كنتم لا تعلمون.

الاستدلال من الكتاب المقدس على أن المسيح لم يُقتَلْ:

ورَد العديد من الأدلة في الكتاب المقدس على أن المسيح لم يُصلَب ولم يُقتَل على الصليب، ليكون حجةً عليهم. ومن يضلل الله فما له من هاد. قال متى: «كان يصلِّي قائلًا: يا أبتاه! إن أمكن فَلتَعْبُرْ عني هذا الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا، بل كما تريد أنت».(١)

وفي مرقس: «ثم تقدم قليلًا وخر على الأرض، فكان يصلي لكي تعبر عنه الساعة إن أمكن وقال: يا أبا الأب كل شيء مستطاع لك، فأجز عني هذا الكأس».(٢)

يعلم من تلك الآيتين أن المسيح عليه السلام دعا ربه بتضرع وسجد في حضرته بأن يعصمه من المنية ويحفظه من البلية، وقد استجاب الله دعاءه وعَصَمَه عن أيدي الأعداء ورَفَعه عنده إلى السماء. فقد قال بولس في رسالته إلى العبرانيين: «إذ قدم بصُراخ شديد ودموعٍ طِلْباتٍ وتضرُّعاتٍ للقادر أن يُخَلِّصَه من الموت، وسمع له لأجل تقواه».(٣)

---

(١) متى ٢٦/ ٣٩.

(٢) مرقس ١٤/ ٣٦.

(٣) رسالة بولس إلى عبرانيين ٥/ ٧.

فبعد دعائه وإجابته لا يمكن لعاقل أن يشك في أنه نجا من القتل، ولطف الله به كما لطف بإبراهيم بأن قدم كبشا إليه بدل الولد، كما هو المذكور في سفر التكوين. ومما يدل على أنه نجا من الموت قول يوحنا: «فقال لهم يسوع: أنا معكم زمانا يسيرًا بعدُ، ثم أمضي إلى الذي أرسلني، ستطلبوني ولا تجدوني وحيث أكون لا تقدرون أنتم أن تأتوا».(١)

سجَّل المسيح عليه السلام بأنهم يطلبونه إلا أنهم لا يجدونه ولا يصلون إلى مرامهم. فيفهم من هذا القول من له أدنى حظ من العقل أن الله تعالى حفظه من مكرهم. وقال يوحنا في موضع آخر: «قال لهم يسوع أيضًا: أنا أمضي وستطلبونني وتموتون في خطيَّتكم حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا، فقال اليهود: لعله يقتل نفسه حتى يقول: «حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا». فقال لهم: أنتم من أسفل أمَّا أنا فَمِنْ فوق».(٢)

وهذه الكلمات نص في نجاته، وجواب شاف لشبهتهم، فإن قتل الإنسان يتصور إما من الغير ونفاه بقوله: «لا تقدرون». وإما بيده ورده بأني لا أقتل نفسي بل أذهب إلى السماء. وهذا ظاهر، يفهمه الصبيان والمجانين فضلًا عن المسيحيين الذين يدعون التحقيق في كل الميادين.

إشارات الكتاب المقدس على أن المقتول هو الشبه لا المسيح:

الإنجيل مشحون بإشارات تدل على أنه ليس بمصلوب، وهذه الإشارات تستنبط من أمور فاحفظها:

الأول: أنه لا شك أن الملك والسلطة كان للروميين على بني إسرائيل، والذين كانوا أجانب مختلفين عن اليهود، مستنكرين لهم، لا يعرفون أطوارهم وأشكالهم. قال متى: «فأوثقوه ومضَوا به ودفعوه وأتوا به إلى بيلاطس النبطي الوالي». ولهذا سألوا عن شخصه من حوارييه، وأخذوا يهوذا وأعطَوه ثلاثين درهما، وإلا فما الحاجة إلى هذه الحيلة وإعطاء الدراهم بلا فائدة وعائدة!

الثاني: الجنود الذين دخلوا الدار كانوا لا يعرفونه، بل كانوا أجانب.

---

(١) يوحنا ٧/ ٣٣.

(٢) يوحنا ٨ / ٢١-٢٤.

الثالث: أن المسيح كانت له ملكة تبديل الهيئة، كما سيجيئ.

الرابع: المسيح السيوع لم يحمل صليبه، بل حملوا صليبَه على رجل آخر اسمه سمعان. قال متى: «وفيما هم خارجون وجدوا إنسانًا قيروانيًّا اسمه سمعان، فسخَّروه ليحمل صليبَه».(١)

فيحصل من هذه الأمور أن المسيح بدَّل هيئته وغيَّر صورته، كما هي معجزته، أو كان على هيئته، لكن لم يعرفه الأجانب ووقع عليهم الاشتباه، أو ظنوا أن حامل الصليب هو المسيح حسبَ القانون السابق ذكرُه، وفي الحقيقة كان رجلًا آخر غير المسيح، فأخذوا هذا الرجل وصلبوه وقتلوه. وحفظه الله من مكر الأعداء.

وههنا سؤال ظاهر، وهو أنه لما أصعِدَ وحمِلَ على الصليب، فالظاهر أنه صاح وقال: إني لست المَحكومَ عليه بالقتل وارتفع الصليب.

والجواب أولًا: أنهم لم يفهموا كلامه لتغاير الألسنة واللغات. وثانيا: اجتمع أناس كثيرون، وكثرت الصِّياح بحيث لا يسمع فيها أحدٌ كلام الآخر، كان الأمر هكذا في الطريق، وأما في الدار فلم يكن إلا أشخاص قليلون، وإن قيل: هذا الآخر كان معصومًا، وقتل المعصوم ظلمًا. قلنا: لعله كان خاطئًا عاصيًا، فقتل موافقًا لما في كتاب الأمثال: «إن مكان التقي الغادرُ». أو أسلم نفسه فداءً عن المسيح طلبًا للأجر الجزيل وجنة النعيم، أو كان منافقًا فجوزي في الدنيا، أو كان طاهرًا لكن فديته عن المسيح كفدية المسيح عن المخلوق عندهم، وكان طاهرًا مطهِّرًا إلهًا بزعمكم.(٢)

شبهاتهم في مسئلة الصليب:

الشبهة الأولى: لو قلنا: صُلِب الشِّبْهُ مكان المسيح لارتفع الأمان عن الحس، وهذا بعيد وشنيع؛ لأنه يمكن أن يرى الرجل زوجته ولا تكون زوجته أو ابنه ولايكون ابنه، بل هذا مقدمة لكثير من المفاسد والشرور.

---

(١) متى ٢٧/ ٣٢.

(٢) أكثره مستفاد من التفسير الماجدي، للشيخ عبد الماجد الدريا آباي ١/ ٨٢٥-٨٣٠.

والجواب عنه أن يعد هذا من معجزاته عليه الصلاة والسلام، وله معجزات كثيرة كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لم تحصل لغيره، فهو من هذا القبيل. وقد مَنَحَه الله تعالى القدرة على تغير الهيئة. قال متى: «وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه، وصعد بهم إلى جبل عال منفردين، وتغيرت هيئتُه قُدَّامهم، وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور».(١) وفي لوقا: «وفيما هو يصلي صارت هيئة وجهه متغيرة ولباسه بيضاء لامعًا».(٢) وفي مُرقُص: «وتغيرت هيئتُه قدامهم، وصارت ثيابه تلمع بيضاء جدًّا كالثلج، لا يقدر قصار على الأرض أن يُبَيِّض مثل ذلك».(٣)

وقولهم: «هذا التغير بعيد» ليس بسديد؛ لأن انقلاب عصا موسى عليه السلام حيوانًا أبعد من ذلك، فإن تغير هيئة إنسان وتشكُّله بشكل إنسان آخر أقرب، وليس بأغرب من تغير الخشبة اليابسة بلا روح إلى حيوان يضطرب. قال في الجواب الفسيح : «وإذا صح عند النصارى انقلاب الخبز إلى جسد المسيح، والخمر إلى دمه في العَشاء السِّري، لِـمَ لا يمكن أن يوقَعَ شِبْهُه على أحد».(٤)

الشبهة الثانية: أن واقعة القتل نقله عدد كثير لا يجوز العقل تواطئهم على الكذب، فهو متواتر وإنكار المتواتر مكابرة.

والجواب عنها أن المُتواتر له شروط لا توجد في هذا الموضع قط، وهي على ما بيِّن في أصول الحديث أربعة: كثرة عدد الرواة بحيث تحيل العادة اجتماعهم على الكذب، واستواء الطرفين والوسط، وانتهاؤه إلى الحس. قال السيد السند في مختصر الجرجاني: «الخبر المتواتر: ما بلغت رواته مبلغًا أحالت العادة تواطئهم على الكذب، ويدوم هذا فيكون أوله كآخره ووسطه كطرفيه». وقال الشيخ اللكنوي في شرحه: «اعتبروا في كون الخبر متواترًا شروطًا أربعة: أولها: كون عدد الرواة غير محصور أي لا يشترط فيه حصر العدد، لا أنه يشترط فيه عدم الحصر. وثانيها: كون عدد رواته بحيث تحيل العادة تواطئهم على الكذب. وثالثها:

---

(١) متى ١٧/ ١-٢.

(٢) لوقا ٩/ ٢٩.

(٣) مرقس ٩/ ٣.

(٤) الجواب الفسيح، ص١٨٠.

رواية مثل هذا العدد عن مثلهم من الابتداء إلى الانتهاء. ورابعها: أن يكون الخبر مستنداً في الانتهاء إلى الحس من مشاهدة أو سماع».[(١)] وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «فإذا جَمَعَ هذه الشروطَ الأربعةَ وهي: ١- عدد كثير أحالت العادة تواطئهم على الكذب. ٢- رووا ذلك عن مثلهم من الابتداء إلى الانتهاء. ٣- وكان مستند انتهائهم الحس. ٤- وانضاف إلى ذلك أن يَصْحَبَ خبرهم إفادةَ العلم لسامعه، فهذا هو المتواتر».[(٢)]

وهذه الشروط كلها لا توجد ههنا، لأنا لا نسلم أن العدد الداخل عليه في الدار كان غير محصور، فإن الذين دخلوا على عيسى عليه السلام وزعموا قتله كانوا سبعة أوستة.[(٣)]

ولو سلمنا كثرة اليهود، فلا يوجد شرط ثان -وهو أنه لا يحيل العقل تواطئهم على الكذب-، فإن اليهود كانوا يخالفون المسيح أشد مخالفة، ومع الاختلاف الشديد وإرادة القتل ووضع الشوك واللطم وحمل الصليب يحكم العقل بأنهم كذبوا وقالوا: إنا قتلنا المسيح. وما قتلوه يقينًا، بل رفعه الله إليه. قال الآلوسي رحمه الله: فلا يبعد أن تكون هذه العِصابة من اليهود صلبوا شخصًا من أصحاب يسوع وأوهموا الناس فيه المسيح لتتم لهم أغراضهم.[(٤)]

ولو سلمنا هذا، فلا يوجد الشرط الثالث -وهو أن يكون الطرفان والوسط سواء، أي كما أن المخبرين في أول الوهلة كانوا كثيرين لا يمكن توافقهم على الكذب، كذلك توجد في الوسط كثرة لا يظن عليها الكذب، وهذا كالعنقاء ههنا-، فإن الوسط خال عن التواتر؛ لأن بخت نصر قَتَلَ اليهود واستأصلهم بحيث لم يبق لهم نسل كما يشهد به التاريخ. قال الشيخ عبد الحي: ثم أن بُخْتَ نَصر قتل اليهود، وكسر أصنامهم، وحرق كنائسهم فانقطع عِرق اليهود ولم يبق منهم إلا شرذمة لا يحصل العلم الضروري بخبرهم، فلا يكون خبر اليهود متواترًا.[(٥)]

---

(١) ظفر الأماني بشرح مختصر الجرجاني، بتحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، ص٣٤-٣٧، ملخصًا.

(٢) نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر، ص٨ .

(٣) ظفر الأماني، ص٣٨.

(٤) روح المعاني ٣/ ١٨١.

(٥) ظفر الأماني، ص ٣٨-٣٩.

وقال العلامة الآلوسي: على أن الأخباريين ذكروا أن بُخْتَ نَصر قتل علماء اليهود في مشارق الأرض ومغاربها؛ لأنهم حَرَّفوا التوراة وزادوا فيها ونقصوا، حتى لم يبق منهم إلا شِرذمة.[١] ولا يوجد يهودي ولا نصراني على وجه الأرض يروي التوراة والإنجيل عدلًا عن عدل إلى موسى أو عيسى عليهما السلام، وإذا تعذرت عليهم رواية العدل عن العدل فأولى أن يتعذر التواتر.

ولو سلمنا الشرط الثالث، فلا يوجد الشرط الرابع -وهو انتهاءه إلى الحس- بأنه عيسى عليه السلام، فإن الحسَّ إنما يتعلق بأن شخصا مصلوب ولا ننكره، بل نقول به أيضًا، وأما أنه عيسى عليه السلام أو غيره، فلا يتعلق بالحس؛ لأن الله تعالى حفظه من كيدهم، وأخبَرَنا به في القرآن، وألقى شِبهه على رجل آخر، وهو اللائق بشأنه الكريم ولطفه العميم على أنبيائه وأصفيائه وخاصَّةِ عباده.

الشبهة الثالثة: استدلالاتهم بالقرآن الحكيم كقوله تعالى شانه:﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (آل عمران: ٥٥)

قالوا: يعلم فيه أنه توفي على الصليب، ثم رفع إلى السماء. وقبل أن نرد على هذا ونجيب عن استدلالهم نمهِّد تمهيدًا ونقدِّم مقدمة، ليشبع الكلام في هذا المرام؛ فإن كثيرًا من العقلاء قد ضلوا وزلوا في هذا المقام، فلا تُمِلْ من التطويل، فإن المقام يطلب التفصيل، وهو: إن الناس كانوا في عيسى عليه السلام فرقتين: فاليهود وجمهور المسيحيين يقولون: إن المسيح اليسوع قتل على الصليب ثم دُفِن ورُفِع بعد ثلاثة أيام. وإنما قلنا: جمهور المسيحيين، لمخالفة بعض النصارى كما قال السيد رشيد رضا رحمه الله: «فقد أنكر الصلب منهم فرقة السيرنثين، والتاتيانوسيِّين أتباع تاتيانوس تلميذ يوستيونس الشهيد».[٢]

والمسلمون يعتقدون أنه لم يقتل ولم يصلب، ولكن رفعه الله تعالى وحفظه من الصلب والقتل، ثم ينزل قبل قيام الساعة، كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه: «كيف أنتم إذا نزل

---

(١) روح المعاني ٣/ ١٨١.

(٢) تفسير المنار ٦/ ٣٤.

فيكم ابن مريم من السماء وإمامكم منكم».(١) ويعيش أربعين سنة، أو خمسا وأربعين سنة، كما روي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ينزل عيسى بن مريم إلى الأرض، فيتزوج ويولد له، ويمكث خمسًا وأربعين سنة، ثم يموت فيدفن معي في قبري، فأقوم أنا وعيسى بن مريم في قبر واحد بين أبي بكر وعمر».(٢) وينزل عند المَنارة الشرقية من دِمشق، كما روي عن نواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فيبعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء الشرقيَّ دِمشقَ بين مَهرودتَين واضعًا كفيه على أجنحة مَلَكين».(٣) كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده ليُهِلَّنَّ ابن مريم بِفَجِّ الرَوْحاء حاجًّا أو معتمرًا أو لَيُثْنِيَنَّهُمَا».(٤) ويجاهد في سبيل الله، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابنُ مريم حكَمًا عدلًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويَفيضُ المالُ حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها، ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦ﴾ (النساء: ١٥٩).(٥)

هذه هي عقيدة المسلمين. وقد ظهرت فرقة تسمى بالقاديانية، على يد غلام أحمد القادياني يزعم أنه المسيح الموعود، ويعتقد أن المسيح لم يقتل على الصليب، بل نَجَّاه الله من القتل، ثم توفي أي مات حتفَ أنفه، وقبره في كشمير. وإليك خلاصة بعض كتبه في هذا الباب:

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ٢٢٢.

(٢) أورده ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/ ٩١٥) بإسناده عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا، وقال: «هذا حديث لا يصح، والإفريقي ضعيف بمرة». وأورده أيضًا في كتابه «الوفاء في حقوق المصطفى» (٢/ ٨٢٤). وقال الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٢/ ٥٦٣): «قال ابن القطان: من الناس من يوثق عبد الرحمن الإفريقي ويربأ به عن حضيض رد الرواية، ولكن الحق فيه أنه ضعيف. وكان البخاري يقوى أمره، ولم يذكره في كتاب الضعفاء».وقال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في تعليقاته على «التصريح بما تواتر في نزول المسيح» (ص٢٤٠): «هذه رواية ضعيفة».

(٣) صحيح مسلم، رقم: ٢٩٣٧.

(٤) صحيح مسلم، رقم: ١٢٥٢.

(٥) صحيح البخاري، رقم: ٣١٩٢.

أصدر علماء اليهود فتوى قتل المسيح، وكانت معه جماعة قليلة تؤيده، وهم حواريُّه فكفروه ليبغِضه العوامُّ ولا يؤمنوا بمعجزاته، فقالوا: اصلبوه ليكون ملعونًا، فأعطوا لأحد حوارييه اسمه يهوذا روبيات ليسلمه، فخاف المسيح من اليهود وغلب عليه ضعف البشرية وقال: إيلي إيلي لِما شَبَقْتَنِي، يعني يا الله لم تركتني، فاستجاب الله دعاءه ونَجَّاه من القتل، فأصعدوه على الصليب مع السارقَين الآخرين. واتفق أنه جاءت ريح عاصفة شديدة وأظلم الفِضاء، فخافوا من أن يتَّهموا بالقتل، فأنزلوه مع السارقين من الصليب، ثم ضربوهما، وبعد ضربهما ضربوه ضربًا شديدا، فقال شرطي: لقد مات فلا تكسروا عظامه، فبقي حيا ولم يمت، ولما نَجَى من الصليب جاء إلى نصيبين وأفغانستان، ومنه إلى جبل نعمان، وبعد مدة جاء إلى فنجاب، وآخرًا رَحَل إلى كشمير ومات فيه، ودفن في بلدة «سري نكر» في حيِّ «خانيار» حين كان عمره مئة وعشرين سنة.[1] وقال في كتابه «**چشمه معرفت**»: «قبره قريب من مكة».[2] وقال في كتابه «إزالة الأوهام»: «توفي في وطنه الجليل».[3] وقال في كتابه «إتمام الحجة»: «قبره في بلدة القدس، وهو موجود إلى الآن».[4]

قال اللعين: ولما كان المذكور في التوراة: أن من صلب لا يُرفَع رفعًا روحانيًّا، كذَّبهم الله بأن صلب عيسى ورفعه إليه رفعًا روحانيًّا. فالمراد من الرفع عنده الرفع الروحاني، لا الجسماني، هذا قوله الباطل، وزعمه الزائل المُضْمَحِلُّ.

وإذا تمهد هذا فنقول ردًّا على الفريقين، وقدحًا على المسلكين: الجواب عن إستدلالهم بقوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية. (آل عمران: ٥٥): إن الاستدلال لا يصح بلفظ التوفي، وإنما يقعون في الفتنة العمياء ويخبِطون خَبْطَ عَشْواءَ[5] بلفظ «التوفي»، فنقول: هذا من الوفاء، والوفاء معناه الحقيقي: أخذ الشيءِ وافيًا كاملًا. وتراد

---

(١) توضيح الكلام في حيات عيسى عليه السلام. وانظر: روحاني خزائن ١٩/ ١٦، كشتي نوح.

(٢) روحاني خزائن ٢٣/ ٢٦١، چشمه معرفت.

(٣) روحاني خزائن ٣/ ٣٥٣، إزالة الأوهام، الجزء الثاني.

(٤) روحاني خزائن ٨/ ٢٩٩، إتمام الحجة.

(٥) يَخْبِط خَبْطَ عَشْواء: يضرب للذي يعرض عن الأمر كأنه لم يشعر به، ولمن يدخل في أمر بغير بصيرة. راجع: مجمع الأمثال ٢/ ٤١٤.

المعاني الأُخر بالقرائن. قال السيد محمد مرتضى الزَّبيدي: فاستوفاه وتوفاه: أي لم يدع منه شيئًا، فهما مطاوعان لأوفاه. ومن المجاز أدركته الوفاةُ، أي المَنِيَّةُ والموت.(١)

علم من هذا أمران، أحدهما: أن معنى التوفي أخذ الشي وافيًا. والثاني: أن الموت معنى مجازي يراد عند القرينة، كما في قوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ (الزمر: ٤٢)، فالمراد ههنا في الموضع الثاني أخذ الروح التميزي بالنوم. ويراد منه الموت في قوله تعالى:﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾ (السجدة: ١١)بقرينة ملك الموت. والمراد منه الأخذ وافيًا في قوله تعالى:﴿ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ ﴾ (النساء: ١٥)،إذ لو أريد الموت يكون المعنى: حتى يميتهن الموت، وهذا ليس من البلاغة في شيء.

والحاصل أن التوفي معناه: أخذ الشيء وافيًا، ويستعمل للموت والنوم بقرائن وشواهد، والمراد منه الأخذ وافيا في الآية المذكورة بقرينة﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ (آل عمران: ٥٥)، فإن الرفع معناه «برداشتن»، ونسب إلى ضميرٍ وهو «ك» وهو الجسم والروح، فالمراد رفع الروح مع الجسم، وهو الأنسب للمقام، فإن النصارى كانوا يقولون برفع روحه، فرد الله عليهم بأنا رفعنا جسده مع روحه إعزازًا له، والرفع إذا أضيف إلى الأجسام يراد به إعلاؤه لا رفع الروح فقط، كما قال الراغب: الرفع تارة يقال في الأجسام الموضوعة إذا أعليتَها عن مَقَرِّها، نحو﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ (البقرة: ٩٣)، وقوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ (الرعد:٢). وتارة في البناء إذا طوَّلتَها، نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾ (البقرة: ١٢٧). وتارة في الذكر إذا نَوَّهْتَه، نحو قوله تعالى:﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الشرح:٤). وتارة في المنزلة إذا شرَّفتَها، نحو قوله تعالى:﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ (الزخرف: ٣٢). وقال تعالى:﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ (الأنعام: ٨٣). وقال تعالى:﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ﴾ (غافر: ١٥)

وأراد مجدِّدُهم الكبير (أي: مجدد القاديانيين(٢)) العلامةُ ابن كثير رحمه الله تعالى من الرفع الرفعَ الجسمانيَّ، فقال في حديث طويل: فألقي عليه شِبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء، وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه، فكفر

(١) تاج العروس ٤٠/ ٢٢٠، مادَّة: وفي.

(٢) عدَّ القاديانيون الحافظ ابن كثير في المجددين.

به بعضهم.[1] فإرادة الرفع الروحاني مخالفة للنصوص القطعية، والأحاديث المتواترة، والآثار المرفوعة.

وقد أجاب عن استدلالهم بهذه الآية العلامة الآلوسي بأجوبة مختلفة كلها حسنة، فاقرءها وضعها في خزينة ذهنك، فقال في ذيل قوله تعالى:﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ (آل عمران: ٥٥) قال:

أوَّلها: هذا من المقدم والمؤخر، أي رافعك إليَّ ومتوفيك.

وثانيها: إني مستوفي أجلك ومميتك حتف أنفك، لا أسلط عليك من يقتلك، فالكلام كناية عن عصمته من الأعداء.

وثالثها: أن المراد: قابضك، ومستوفي شخصك من الأرض، مِن توفى المال بمعنى استوفأه.

ورابعها: أن المراد بالوفاة هنا: النوم؛ لأنهما أخوان، ويطلق كل منهما على الآخر. وقد روي عن الربيع أن الله تعالى رفع عيسى عليه السلام إلى السماء وهو نائم رفقًا به، وحكي هذا القول والذي قبله أيضًا عن الحسن.

وخامسها: أن المراد: أجعلك كالمتوفي، لأنه بالرفع يشبهه.

وسادسها: أن المراد: آخذك وافيًا بروحك وبدنك، فيكون ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ كالمفسر لما قبله.

وسابعها: أن المراد بالوفاة: موت القُوى الشهوانية العائقة عن إيصاله بالمَلكوت.

وثامنها: أن المراد: متقبل عملك.[2]

وهذه المعاني كلها يمكن أن توخذ، وإن كان في البعض بعد، وقد انقطع بها عرق شبهتهم، والراجح كما قال القرطبي: إن الله رفعه من غير وفاة ولا نوم، وهو اختيار الطبري، والرواية الصحيحة عن ابن عباس.[3]

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٨٨.

(٢) روح المعاني ٣/ ١٧٩.

(٣) روح المعاني ٣/ ١٧٩.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ (آل عمران: ٥٥) تطهيره ورفعه إلى السماء، ونجاته من أيديهم النجسة، كما قال العلامة الآلوسي رحمه الله تعالى: يحتمل أن يكون تطهيره على تبعيده منهم بالرفع، ويحتمل أن يكون بنجاته مما قصدوا فعله به من القتل.[١] وإنما سماه تطهيرًا؛ لأنهم نجس، أو فعلهم نجس، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ (التوبة: ٢٨)، لا كما قال المرزا القادياني: إن التطهير من التهمة؛ فإن هذا حصل قبل ذلك في المهد، إذ كلم في المهد صبيا. والله أعلم.

الاستشهاد من القرآن الكريم على أن المسيح لم يقتل:

والآن نَقْرَعُ سمعك ونُسمِعك تفصيل هذه المسئلة، أي مسئلة حياة المسيح عليه السلام، ونوردها بدلائلها؛ لأن هذه المسئلة تنازع فيها المسلمون والقاديانيون وتجاذبوا وتباحثوا وتدافعوا، والحق إن الإسلام يعلو ولا يُعْلى، فنذكر بعض الآيات القرآنية التي تدل على رفعه وعدم صلبه ولا موته على الصليب. والموضوع ينقسم على قسمين:

الأول: الاستشهاد على أنه لم يصلب، وقد اعتقد القاديانيون ومتبوعوهم فيها المسيحيون أنه صلب.

والثاني: الاستشهاد على أنه لم يقتل على الصليب، وهذا مختلف فيه بين المسيحين والمسلمين فقط؛ فإن القاديانيين فيها مع المسلمين، ويعترفون أنه لم يقتل على الصليب، بل مات على السرير.

أما الموضوع الأول، فنستشهد فيه **أوَّلًا** بقول الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ (آل عمران: ٥٤). قال الرازي: المكر عبارة عن التدبير المحكم الكامل، ثم اختص في العرف بالتدبير في إيصال الشر إلى الغير.[٢] فمعناه حينئذ: دبَّروا إيصال الشر إلى عيسى عليه السلام وسعَوا فيه، لكن خذلهم الله وجازى مكرهم بأن رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، وصُلب رجل آخر مكانَه، فغلب مكرُه مكرَهم، كما هو عادة الله تعالى أن يُدَمِّر من

---

(١) روح المعاني ٣/ ١٨٣.

(٢) التفسير الكبير ٤/ ٢٢٥.

يمكر في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ (فاطر: ١٠)، وفي مقام آخر: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٠)، وفي موضع آخر: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النحل: ٢٦)

يقول هذا المردود القادياني: إن مكر الله بإزاء مكرهم هو رفع عيسى عليه السلام بالروح، وهذا باطل؛ لأن مكرهم وخديعتهم تصليب الجسد وقتله، فلو فازوا في ذلك، كيف يقال: إنه غلب مكرُه مكرَهم؟ ولأن المكر: التدبير الخفي، فلو رفع روحه مع بقاء الجسد على الصليب لم يكن تدبيرًا خفيًّا، بل هو أن يُرفع بجسمه، ويُصلب شخص آخر مكانه. والله أعلم.

الاستشهاد الثاني بقوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ (النساء)، يعني لم يقتل ولم يصلب، فنفي الصلب مع نفي القتل، والصلب معناه: «بردار كردن».(١) وفي الغياث: «صلب بمعنى بردار كرده شده، وجهش آنكه چوں عيسى عليه السلام رابر آسمان بروند طرطوس نام شخصے راكه همشكل عيسى عليه السلام بود بردار كشيدند، وبعد ازايں واقعه ترسايان آنرا عيسى پنداشته شكل دار باعيسى ازچوب تراشيده درگلو آويختند وتعظيمش كردند».(٢)

وانقسمت اليهود في ذلك إلى فرقتين: فرقة تزعم: أنا قتلناه ثم صلبناه تشهيرًا، وفرقة تقول: أولًا صلبناه في أوتاد أربعة، ثم قتلناه. والمسيحيون جمهورهم قائلون بأن اليهود قتلوه ثم رفع بعد القتل، فرد الله ما زعم الفريقان من اليهود بأنه لم يقتل ولم يصلب، وردَّ جزءًا واحدًا من دعوى النصارى: وهو القتل لا الرفع الجسماني، فلو كانت عقيدة الرفع الجسماني باطلة ردَّها الله كما رد العقائد الزائغة الأخرى، فعلم أنه رفع بجسمه بدون القتل، وهو المدعَّى.

قال الشقي مرزا غلام أحمد القادياني: صلبوه، ولكن لم يمت على الصليب، بل كان

---

(١) صراح، ص٣٩.

(٢) غياث اللغات، ص ٣٠٩.

مشبَّها بالميت، ومعنى صلبوه: ما مات على الصليب، بل مات بدون الصليب بعد ذلك في كشمير. وهذه الدعوى تُناقِض هذه الآية، فإن الآية كما نفت القتل نفت الصلب كذلك، والصلب ليس معناه: الموت على الصليب، كما يزعم هذا الغَوِيُّ، بل معناه كما سمعتَ من اللغوي «بردار كردن»[١]، ولم نجد لما ذكره أثرا في أي كتاب من كتب اللغة، ولو كان معناه: الموت على الصليب، فأي لفظ للصلب المُجَرَّد.[٢] ولو علقوه على الصليب كما يزعمون وآذَوْه، لكان الواجب أن يذكره الله عزَّ وجل كما ذكر الجرائمَ الأخرى بقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ الآية. (النساء: ١٥٥). فمقتضى المقام أن يقال: «وصَلْبِهِم المسيحَ»، فعلم أنه لم يُقتَل ولم يُصلَب. وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ «لكن» يجيئ للاستدراك، وهو دفع التوهم الناشئ مما قبل، والتوهم: أنهم لما رأوا المسيح اليسوع مقتولًا مصلوبًا، فكيف يقول الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾، فاستدرك بقوله عز وجل: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ يعني: الذي رأوه على الصليب معلَّقًا مقتولًا لم يكن عيسى عليه السلام، بل كان شخصًا آخر يُشْبِه به، وضمير «شُبِّهَ» عائد إلى المقتول المذكور في ضمن «قتلنا» أو «لهم» ينوب مناب الفاعل، أي وقع لهم التشبيه بين عيسى عليه السلام ورجل آخر.

ذكر صاحب الكشاف هذين التاويلين، فقال: فإن قلت: «شُبِّهَ» مسند إلى ماذا؟ إن جعلته مسندا إلى المسيح، فالمسيح مشبَّه به وليس بمشبَّه، وإن أسندته إلى المقتول، فالمقتول لم يَجْرِ له ذكر، قلت: هو مسند إلى الجار والمجرور، وهو «لَهُم» كقولك: خُيِّل إليه، كأنه قيل: ولكن وقع لهم التشبيه. ويجوز أن يسند إلى ضمير المقتول، لأن قوله: «إنا قتلنا» يدل عليه، كأنه قيل: ولكن شُبِّه لهم مَن قتلوه.[٣] أو معنى «شُبِّهَ لهم» أي اشتبه الأمر عليهم، كما قال البيضاوي، أو «شُبِّه لهم في الأمر» على قول من قال: لم يقتل أحد، ولكن أرجف بقتله فشاع بين الناس. قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾، يعني كلهم في ضلال وشك وحَيْرَةٍ واختلاف، ولهذا قال عزَّ وجل: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾، أي

---

(١) صلب: علَّقه على الصليب، وليس معناه: مات على الصليب.

(٢) من شهادة القرآن، لمحمد إبراهيم السيالكوتي ١/ ٧٠.

(٣) تفسير الكشاف ١/ ٥٨٠.

متيقنين، وحيرتهم بأنهم قالوا: إن كان المسيح مقتولًا فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين المسيح؟ وقد نقل من يؤمن بالتاريخ من تاريخ رينان في ذكر المسيح: إن المجرم الذي كان أخِذ آنئذٍ اتفق أن اسمه أيضًا كان يسوع وباربان لقبه، فهذا أيضًا وجه اشتباه.(١)

وإن قيل: إن المناسب «شُبِّه عليهم» فإن المعروف في «شُبِّه» على، دون اللام، فالجواب أن فيه نكتةً دقيقةً، وهي: أنه قدَّر ودبَّر وصنَع لهم لصيانة المسيح عليه السلام، لا أنه وقع اتفاقًا.(٢)

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ قال هذا الزنديق: المراد رفع روحه على وجهِ التكريم لا الرفع الجسماني، فإن اليهود كانوا ينكرون الرفع الروحاني ويقولون: مَن صلِب صار ملعونًا لا يرفع رفعًا روحانيًّا، كما في التوراة، فقال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾. وهذا خداع منه، وباطل من وجوه:

أما أولًا: فإن التوراة ليس فيها: أن كل من قتِل وصلِب يكون ملعونًا. بل فيها أن من قتِل وصُلِب بالمعصية يكون كذلك وإليك نصها: «وإذا كان على إنسان خطيئة حقها الموت، فقُتِل وعلقتَه على خشبة، فلا تُبَيِّتْ جُثَّتَه على الخشبة، بل تدفنه في ذلك اليوم؛ لأن المعلق ملعون من الله».(٣)

وأما ثانيًا: فالغرض من الآية رد قولهم، ولا يتم هذا فيما إذا أريد الرفع الروحاني؛ فإنهم يدَّعون القتل والصلب، ولم يُرَدَّا حينما أريد الرفع الروحاني، والضمائر كلها تعود في هذه الآية إلى جسد عيسى عليه السلام وجسمه، كما في ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ الخ. فالعائد في ﴿رَّفَعَهُ﴾ أيضًا يعود إلى الجسم، وعوده إلى الروح فقط تشتيت الضمائر وتفكيكه، ولا يليق بالمقام، ولا بالكلام الفصيح والقرآن الرفيع.

وأما ثالثًا: فاعلم أن ما بعد «بَلْ» يخالف ما قبله، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٦)، فإن بين الألوهية والعبودية تنافيًا. ولو كان

(١) عقيدة الإسلام في حياة عيسى عليه السلام.

(٢) عقيدة الإسلام في حياة عيسى عليه السلام، ص١٢١.

(٣) التثنية ٢١/ ٢٢.

المراد كما قال، لم يتحقق التخالف، فإن الرفع الروحاني، والقتل والصَّلب بغير حق لا يتخالفان، بل القتل والصلب بغير حق معراج لرفع الدرجات، وهو الرفع الروحاني كما في الشهداء. والرفع الجسماني يخالف القتل والصلب. وهذا ظاهر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وأما رابعًا: فرفع الدرجات حاصل لعيسى عليه السلام قبل ذلك بالإيمان والنبوة والرسالة، وهذا لا يختص بهذا الوقت.

وأما خامسًا: فقوله ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ يصادم قولهم، فإن مقتضاه -لو سلمنا قولهم- تحقق الرفع الروحاني بعد القتل والصلب بلا تعقيب، فإرادتهم القتل في وقت، ورفعه الروحاني بعد ثلاث وثمانين سنة باطل، لا معنى له، ولا قرينة عليه.

الاستشهاد الثالث بقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ (المائدة: ١١٠) تدل هذه الآية على أن الله تعالى كفهم عن إيذائه وحفظه من شرهم، لا كما قالت اليهود والنصارى، ومن حَذا حَذْوَهم وهو متنبي الفنجاب: إنهم ضربوه حتى كادوا أن يكسروا عظامه. الخ.

هذه الآية في موضع الامتنان من الله، فلو وصلوا إليه بمكروه كيف يصح هذا الامتنان، مع هذه الاستهانة والاستخفاف، ويدل لفظ الكف على أنهم لم يصلوا إليه بمكروه، كما في حديث مسلم. قال الراوي: ثم جئتُ بهم أَسوقُهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: وجاء عَمِّي عامرٌ برجل من العَبْلات يقال له: مِكْرَز، يقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على فرس مُجَفَّفٍ في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «دعوهم يكن لهم بدء الفُجور وثِناه»، فعفا عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ الآية. (الفتح:٢٤). فأطلق الكفَّ على احتفاظ كل من الآخر، وقس عليه هذا.

الاستشهاد الرابع بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾ (النساء: ١٥٩)، يعني ليس أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام في المستقبل قبل موت عيسى عليه السلام، فالعائد في ﴿مَوۡتِهِۦ﴾ إما أن يكون عائدًا إلى

الله، أو إلى الرسول، أو القتل، أو إلى عيسى عليه السلام، ولا يمكن أن تراد الاحتمالات الثلاثة السابقة؛ لأن لفظ الجلالة مذكور قبل ذلك بصيغة جمع المتكلم كعَفَوْنَا وقلنا، والرسول مذكور بصيغة الخطاب، والقتل محسوس لا معنى للإيمان به؛ فإن الإيمان يكون بالمغيبات غير المَحسوسات، فتعين وتيقن أن يكون عائدًا إلى عيسى عليه السلام، وتدل عليه الأحاديث الكثيرة النبوية.

قال العلامة السيوطي في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾: أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، والحاكم وصححه عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال: خروج عيسى بن مريم عليه السلام. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم رحمهما الله من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال: قبل موت عيسى عليه السلام.(١)

وأخرج ابن جرير عن الحسن ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال: قبل موت عيسى -عليه السلام- والله إنه الآن حيٌّ عند الله، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون.(٢)

يقول هذا المتنبي الكذاب: إن ضمير ﴿مَوْتِهِۦ﴾ يعود إلى أهل الكتاب، فالمعنى: إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام، أو محمد صلى الله عليه وسلم قبل موت أهل الكتاب، يعني يؤمنون به قبل الموت، فلا تعلق لها بموته وحياته عليه السلام، وهذا لا يصح بوجوه:

الأول: إن هذا يصادم تفاسير الجماهير المنقولة عن أكابر الصحابة. قال الشيخ محمد أنور شاه الكشميري رحمه الله عليه: إرجاع الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ إلى عيسى عليه السلام هو الصحيح عن ترجمان القرآن حبر الأمة وبحرها ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره لم يصح عنه كما ذكره الحافظ في الفتح.(٣)

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٠٦.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١١٠.

(٣) عقيدة الإسلام، ص١٣٩، ط: ديوبند. وص٢٥٤ من طبع إدارة القرآن، كراتشي، مطبوعة في ضمن رسائل العلامة الكشميري. وراجع: فتح الباري ٦/ ٤٩٢.

الثاني: الإيمان إما أن يكون عند الموت أي الغرغرة، وهذا الإيمان لا يقبل في الشريعة الغراء ولا يعرف هذا في القرآن؛ فإن الإيمان المذكور في القرآن يراد به ما يترتب عليه الجزاء من الجنة. والمناسب لو أريد: هذا حين موته، أو عند موته لا قبل موته. وإن كان المراد الإيمان في الصحة قبل النزع، فهذا خلاف الواقع؛ فإنهم لم يؤمنوا كلهم بنبيهم في حياتهم الفانية. فإن قيل: قد جاء عن أبي بن كعب رضي الله عنه «قبل موتهم»، وهذا يؤيدهم. قلنا: هذا شاذ يخالف المتواتر، وفي إسناده ضعف.[1] ولو سلمنا فنقول: يجب حمله على المتواتر. فالمعنى أن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موت كلٍّ واحد منهم، بعضهم يؤمنون عند موته قبل نزوله، والبعض عند نزوله قبل القيامة، وهذا الإيمان معتبر، والأول غير معتبر. قال الشيخ الأنور رحمه الله عليه نقلا عن الدر المنثور: ففي الدر المنثور عن محمد بن الحنفية وأم سلمة: إن الذين هلكوا قبل نزوله عليه السلام يؤمنون به قبل موتهم، والأحياء عند نزوله عليه السلام يؤمنون به قبل موته عليه السلام، فصَدَقَت الكلية بلا تقيد، فلتكن قراءة أُبَيٍّ على هذا في الهالكين قبل نزوله عليه السلام، والقراءة المتواترة على الباقين عند نزوله، كما في الأحاديث المتواترة في نزوله عليه السلام وصيرورة الدين كله لله. انتهى.[2] وهذا وجه التوفيق بين الروايتين بحيث لا تخالف الأحاديث الكثيرة.

واعلم أن اللام والنون المُثقلة تخصان المضارع بالاستقبال، وهاتان داخلتان على «يُؤْمِنُ»، فيختص بالاستقبال. ولو أريد ماقاله القادياني لا يكون للاستقبال كما هو الظاهر، فإن موت أهل الكتاب لا يختص بالاستقبال، بل قد ماتوا ويموتون.

الاستشهاد الخامس بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (الزخرف: ٦١)، يعني أن خروج عيسى عليه السلام ونزوله عند الساعة آية من آيات

(١) قال الطبري: حدثني إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد قال: ثنا عتاب بن بشير، عن خصيف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾، قال: هي في قراءة أُبَيّ (قبل موتهم)... (تفسير الطبري ٧/ ٦٦٨، النساء: ١٥٩)

والجواب عنه أنها قراءة ضعيفة. في إسنادها عتاب بن بشير، وخصيف، مجهولان. قال العلامة الكوثري رحمه الله: «وقراءة أبيّ هذه في سندها عُتّاب بن بشير وخصيف، وكلاهما ضعيف، والقراءة الشاذة ما لم يصح سندها لا يحتج بها في باب التفسير عند أهل العلم». (نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول عيسى عليه السلام قبل الآخرة، ص١٠٢)

(٢) عقيدة المسلمين، ص٢٥٩، ط: إدارة القرآن.

الساعة وأشراطها فلا تشكُّوا في الساعة. يظهر من هذه الآية ظهورَ الشمس في منتصف النهار أن عيسى عليه السلام ينزل قبيل الساعة وتويِّده الآثار. قال جار الله الزمخشري: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أن عيسى عليه السلام، ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي شرط من أشراطها تعلم به، فسمى الشرط علمًا لحصول العلم به.(١)

وقال الحافظ بن كثير: قال مجاهد: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي آية للساعة خروج عيسى بن مريم قبل يوم القيامة. وهكذا روي عن أبي هريرة، وابن عباس، وأبي العالية، وأبي مالك، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغيرهم. وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إمامًا عادلًا وحكمًا مقسطًا.(٢)

يقول مفتري القاديان: الضمير في ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ يعود إلى القرآن، أو إلى محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا ليس صحيحًا لمخالفته سياق الآيات؛ لأنه لم يجر للقرآن ذكر، ولا لمحمد صلى الله عليه وسلم، وصَدْر الآية هكذا: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾ (الزخرف). ثم تأمل في ما بعد هذه الآيات، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم﴾ الآية. (الزخرف: ٦٣)، فاتصال أول الآيات وآخرها بقصة المسيح والوسط بمحمد صلى الله عليه وسلم ينجر إلى سقوط القرآن عن رتبة البلاغة، ويفضي إلى ركاكة، والقرآن لا يتحملها، وهذا التأويل مخالف للأحاديث المتواترة، فلا تلتفت إليه.

الاستشهاد السادس بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ (آل عمران: ٤٥) ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية وصفين لعيسى عليه السلام:

وجاهته في الدنيا والآخرة، وقربه عند رب الأرباب. والوجاهة في الدنيا إنما يمكن

---

(١) تفسير الكشاف ٣/ ٤٩٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٤٣.

على مذهب أهل الإسلام، لا على مذهب بني إسرائيل والقاديانيين؛ لأنهم يقولون بصلبه، والصلب والضرب والشتم ليس وجاهة في الدنيا، بل إذلال واستخفاف. وإن قالوا: المراد الوجاهة بعد ذهابه إلى كشمير، فهذا أمر لا دليل عليه، فإن الأناجيل التي بأيدينا تبين أحواله عليه السلام ومكانته. وأما ذهابه إلى كشمير ووجاهته فيها، فليس له أثر ولا خبر فيها، وكيف يكون وهذا كِذب بَحْت، وقول مفترى! وأما على مذهب أهل الإسلام، فوجاهته في الدنيا قبل رفعه بحفظه عن الصليب، وبعد نزوله بكونه حاكمًا عادلًا، يكسر الصليب، ويفيض المال، ويقتل الدجال، وغير ذلك. وأما كونه من المقربين، فبرفعه إلى السماء، فإن المراد من القرب القرب رتبةً وجسمًا، وهو بالرفع إلى السماء. قال العلامة الزمخشري: وكونه من المقربين رفعه إلى السماء وصحبته للملائكة.(١)

الاستشهاد السابع بقوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة: ١١٧) يجب أن تلاحظ ههنا أمورًا:

الأول: إن معنى ﴿تَوَفَّيْتَنِي﴾ رفعتني إلى السماء كما مر في قوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ﴾ وغيره. قال الإمام الرازي رحمه الله: فلما توفيتني، والمراد منه وفاة الرفع إلى السماء من قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ (آل عمران: ٥٥).(٢)

الثاني: إن هذا السؤال يكون يوم القيامة، قال ابن كثير رحمه الله: هذا أيضًا مما يخاطب به عبده ورسوله عيسى عليه السلام قائلًا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (المائدة: ١١٦).(٣)

وقد روي في ذلك حديث مرفوع عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا كان يوم القيامة دُعِي بالأنبياء وأُممهم، ثم يُدعى بعيسى عليه السلام، فيُذكِّره الله نعمتَه عليه، فيُقر بها، فيقول: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ الآية. (المائدة: ١١٠)، ثم يقول: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

(١) تفسير الكشاف ١/ ٤٣٠.

(٢) التفسير الكبير ٦/ ١٤٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ١٢٤.

فيُنكِر أن يكون قال ذلك، فيوتَى بالنصارى فيُسئلون، فيقولون: نعم! هو أمرنا بذلك. قال: فيُطَوَّل شعرُ عيسى عليه السلام فيأخذ كلُّ ملك من الملائكة بشعرةٍ من رأسه وجسده فيُجاثِيهم بين يدي الله عز وجل مقدارَ ألف عام حتى تُرفَع عليهم الحجةُ ويُرفعَ لهم الصليبُ ويُنطَلق بهم إلى النار».[1] وقد جاء قبل ذلك ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ﴾ (المائدة: ١٠٩)، وبعده ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ﴾ (المائدة: ١١٩)، وكلاهما يدل على أن هذا التساؤل يكون يوم القيامة.

الثالث: أن عيسى عليه السلام يعلم فساد عقائدهم، وإلا فلا فائدة للسؤال؛ إذا السؤال بقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ﴾ الآية. (المائدة: ١١٦) إنما يكون عن شخص يعلم، ولو لم يعلم لكان المناسب في الجواب أن يقول: إني لا أعلم فساد عقائدهم واتخاذهم إياي وأمي إلهين من دون الله، فظهر أنه كان عالـمًا به. فقد لاح من هذه الأمور أن عيسى عليه السلام بعد رفعه إلى السماء يجيء قبل يوم القيامة، وفي ذلك الوقت يعلم شؤون أمته من العثى والفساد والإنكار والعناد، ثم يسأله الله يوم القيامة ويجيب بإظهار العجز وتفويض الأمر إلى الله. هذا هو الحق الصريح، والقول الصحيح.

ويقول القادياني المتنبي: المراد من ﴿تَوَفَّيۡتَنِي﴾ التوفي بالموت، ولا يخفى فساده لمخالفته التفاسير المعتبرة التى جرى ذكرها. ولو أريد التوفى بالموت كما قال هذا الشقي الغوي الذي سيلقى غيًّا، لكان اللائق أن يقول: ما دمتُ فيهم حيًّا، ليقابل التوفي بالموت، لكن قال عيسى عليه السلام: ما دمت فيهم أي حين وجودي فيهم. هذا، وفيه تفصيل لا يليق بهذا المقام.

هذه نبذة من الدلائل على حياة المسيح عليه السلام، والدلائل وإن كانت كثيرةً، لكن هذا ليس موضوعنا، والتفصيل مذكور في الكتب المصنفة في هذا الموضوع، وهذا قدر يسير منها لعله يكفي للمتبصر. وقد ذُكِرت عقيدة رفع المسيح عليه السلام وصلب شِبهه في

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٠/ ٦٧)، وأورده ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٢٤). وقال: «هذا حديث غريب عزيز». الظاهر أن ابن كثير لم يرد بالغريب هنا المعنى الاصطلاحي الشائع عند المتأخرين، أي: ما ينفرد بروايته راوٍ واحدٌ. إنما أراد الإشارة إلى ضعف الحديث ونكارته، فقد جاء في «لسان المحدثين» لمحمد خلف سلامة، في هامش المجلد الرابع: «ولكن بعض العلماء من المتأخرين يستعملون أحيانًا كلمة «غريب» للتعبير عن المنكر، منهم ابن كثير في تفسير القرآن العظيم».

إنجيل برنابا، وهو ما يطابق ما يعتقده أهل الإسلام تطابق النعل بالنعل، ونورد عبارة إنجيل برنابا بين يدي القراء، والموجود عندي منه الترجمة الأردية التي تُرْجِمت تحت إشراف محمد إنشاء الله مدير جريدة «الوطن»، وأضع بين يديك عبارته بالأردية مع الترجمة العربية من العبد الضعيف، وهي:

پس اس کو اٹھالے گئے اور اسے تیسرے آسمان پر فرشتوں کی صحبت میں رکھدیا جو کہ ابد تک اللہ کی تسبیح کرتے رہیں گے، تب عجیب اللہ نے ایک عجیب کام کیا، پس یہودا بولا اور چہرے میں بدل کر یسوع مسیح کے مشابہ ہو گیا، یہاں تک کہ ہم لوگوں نے اعتماد کیا بلکہ تمام شاگردوں نے بھی مع اس لکھنے والے کے یہی اعتماد کیا؛ بلکہ اس سے بھی بڑھ کر یہ کہ یسوع کی بیچاری ماں کنواری نے اور اس کے قریبی رشتہ داروں نے اور دوستوں نے یہی اعتماد کیا اور انھوں نے اس کے ساتھ ہی دو چوروں پر صلیب لگائے جانے کا حکم دیا، پس سپاہیوں نے یہوذا کو پکڑ لیا اور اس کو اس سے مذاق کرتے ہوئے باندھ لیا اور یہوذا نے کچھ نہیں کیا سوا اس چیخ کے کہ اے اللہ تو نے مجھے کیوں چھوڑ دیا اس لئے کہ مجرم تو بچ گیا اور میں ظلم سے مر رہا ہوں۔(١)

فرُفع إلى السماء الثالثة ووُضع بجانب الملائكة الذين يسبحون الله وينَزِّهونه أبدًا أبدًا، وقد أبدل الله لغة المسيح وشكله بلغة يهوذا وشكله. وهذا صنع الله العجيب إلى أن اعتقدنا، بل جميع التلاميذ مع الراقم أنه المسيح، بل زعمت أمه وذوو قرابته وأصدقائه هذا الأمر، أي أنه اليسوع المسيح، وقضَوا على صَلبه مع اللصين. فأخذت العساكر يهوذا وشدُّوه بحبل، ولم يدفع يهودا عن نفسه شيئا، بيد أنه صاح: لماذا تركتني يا الله؛ لأن المجرم قد انفَلَت، وأنا أموت ظلمًا.

هذه عبارات إنجيل برنابا التي لا ينحط رتبته عن الأناجيل الأخر بحال، ولا وجه لعدم الاعتداد به بجنب الأناجيل الأربعة، إذ الكل سواء في عدم الاستناد وعدم الاعتماد. والله أعلم، وعلمه أحكم.

التوحيد والتثليث:

لا شك أن جميع الأنبياء من لَدُن عهد آدم عليه السلام إلى محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم دعوا أقوامهم إلى التوحيد، وقرعوا أسماعهم بذلك، كما أخبر الله تعالى عنهم في

---

(١) إنجيل برنابا، ص٢١٥، الآية: ٦.

القرآن، قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦)، وكل نبي أعلن وأخبر بقوله: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف: ٥٩)، فالتوحيد مركز يدور عليه رحى جميع الأديان، وهذا هو الفرق بين المسلم والكافر. ومن يدعي أنه يتبع الرسل ويقتدي بهم يقول من أعماق القلب مخلصًا: لا إله إلا الله، لكن الأمة المسيحية ضلت وأضلت وادَّعت التثليث، أو التوحيد في التثليث، وهذا قول مُخْتَرَع مبتَدَع، ما عليه من سلطان ولا برهان، وقول باطل زائل.

كشف القناع عن سبب قولهم بالتثليث:

نعتقد أن عيسى عليه السلام أرسله الله تعالى إلى بني إسرائيل يدعوهم إلى التوحيد والأحكام الشرعية المُنَزلة عليه حتى ظهر أمر الله، ثم لما راموا قتله حفظه الله منهم، وعصمه، ورفعه إلى السماء. وبعد رفعه بمدة قام أتباعه بعد ما حَرَّفوا الدين بهذا الحمل يَدْعون إلى دينه الشعبَ المختلفة، وتلطفوا لإدخال الناس واحتالوا أنواع الحيل. ولما دعوا الفلاسفة خلطوا الفلسفة في دينهم تلطفًا بهم ليدخلوا فيه، ومَزَّجوا دينًا مخلوطًا من الفلسفة والمسيحية، فقالوا باتحاد الأب والابن وروح القدس، كما يقولون باتحاد العقل والعاقل والمعقول. قال العلامة ابن القيم رحمه الله: ثم أخذ دين المسيح في التبديل والتغيير حتى تناسخ واضمحلَّ، ولم يبق بأيدي النصارى منه شيء، بل ركَّبوا دينًا بين دين المسيح ودينِ الفلاسفةِ عُبَّادِ الأصنامِ، وراموا بذلك أن يتلطفوا للأمم حتى يُدخلوهم في النصرانية، فنقلوهم من عبادة الأصنام المُجسدة إلى عبادة الصور التي لا ظل لها، ونقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق، ونقلوهم من القول باتحاد العاقل والمعقول والعقل إلى القول باتحاد الأب والابن وروح القدس.[١]

نبذة من تفصيل هذه العقيدة:

تفصيل هذه العقيدة وفق ما صرَّح به علماؤهم أن الإله مركب من أقانيم ثلاثة، كل أقنوم إله على حِدةٍ، متميز عن الآخر بأوصاف، فأحدها أقنوم الأب، وهذا أصل الأقانيم،

(١) إغاثة اللهفان ٢/ ٢٧٠.

ثم فكَّر ودبَّر فصدر منه الأقنومُ الثاني، ثم صدر عنهما الأقنوم الثالث بفعل الإرادة والمَحبَّة، ويسمَّى الأول أبًا لكونه مصدرًا للثاني، والثاني ابنًا لصدوره من الأول، والثالث روح القُدس لتعلقه بهما، فسُمِّيَ باسم عام، وكل واحد منهم إله كما أن المجموع إله. ثم يزعمون أن أقنوم الابن اتحد مع دم مريم فتجسَّد وصار إنسانًا، فمن حيث كونه أقنومًا يسمى لاهوتًا، ومن حيث حلوله في دم مريم ناسوتًا، وتستوي أقدام هؤلاء الآلهة في حقيقة الألوهية، فالمجموع إله كما أن الكل إله. والأقنوم معناه: الشخص. قيل: رومية، وقيل: سريانية. وذكر الآلوسي رحمه الله فيه تسعة أقوال: أحدها: أنها أشخاص. وثانيها: أنها خواص. وثالثها: بأنها صفات. ورابعها: بأنها صفات إيجابية. وخامسها: بأنها صفات إيجابية جوهرية. وسادسها: بأنها صفات لا بِمُفردها، بل يكون كل واحد منها مع الذات أقنومًا. وسابعها: بأنها أوصاف لا بمفردها، بل بكل واحد منها مع الذات يكون أقنومًا. وثامنها: أنها هي العقل والعاقل والمعقول. وتاسعها: أنها جهات ذهنية واعتبارات عقلية.[1]

ثم اختلفوا في حلول أقنوم الابن في دم مريم عليها السلام، كما ذكر الشيخ عبد العزيز نقلًا عن شيخ الإسلام، فقالت طائفة منهم: إن الكلمة حَلَّت في مريم حلولَ الممازجة كما يحل الماءُ في اللبن فيمازجه ويخالطه، وقالت طائفة منهم: إنما حلت في مريم من غير ممازجة كما أن شخص الإنسان يحل في المرآة وفي الأجسام العقلية من غير ممازجة، وزعمت طائفة: أن اللاهوت مع الناسوت كمثل الخاتم مع الشمع يؤثِّر فيه بالنقش.[2]

وهكذا اختلفوا في صفة الاتحاد بين أقنوم الابن وجسد المسيح، كما صرح به الفاضل الكيرانوي حيث قال: ثم اختلفوا في صفة الاتحاد، فزعم بعضهم أنه وقع بين جوهر لاهوتيٍّ وجوهر ناسوتي اتحادٌ، ولم يخرج الاتحادُ كلَّ واحدٍ منهما عن جوهريته وعُنصره. وزعم قوم أن المسيح بعد الاتحاد جوهران: أحدهما لاهوتي، والآخر ناسوتي. وأن القتل والصَّلب وقعا به من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته، وأن مريم حملت بالمسيح وولدتْه من جهة ناسوته، ثم يقولون: إن المسيح بكماله إله معبود، وإنه ابن الله -تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا-. وزعم

(١) الجواب الفسيح في رد عبد المسيح ١/ ٦٧.

(٢) منحة القريب، ١٢٦-١٢٧.

قوم أن الاتحاد وقع بين جوهرين لاهوتي وناسوتي، فالجوهر اللاهوتي بسيط غير منقسم ولا متجزئ. وزعم قوم أن الاتحاد على جهة حلول الابن في الجسد ومخالطته إياه. ومنهم من زعم أن الاتحاد على جهة الظهور كظهور كتابة الخاتم والنَّقش إذا وقع على طين أو شَمع، أو كظهور صورة الإنسان في المرآة، إلى غير ذلك من الهفوات.[1]

وقد حكى الله عن اختراعاتهم ثلاث كلمات. **الأولى**: أن المسيح ابن الله، قال الله عزَّ وجل: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٠)

الثانية: إن المسيح هو الله. قال الله عزَّ وجل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (المائدة: ٧٢)

الثالثة: إن الله ثالث ثلاثة، كما قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ (المائدة: ٧٣)

قال البعض: إن هذه الآيات إشارة إلى فرقهم الثلاث وهم اليعقوبية، والملكانية، والنسطورية. فذهب بعض الملكانية إلى أن الأقانيم غير الجوهر القديم، وكل واحد منهم إله، وإليه الإشارة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ (المائدة: ٧٣)، وقالت النسطورية: إن الله واحد والأقانيم ليست عينَه ولا غيره، وزعموا أن الابن لم يزل يتولد من الأب، وإليهم التلميح بقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٠)، وقال اليعقوبية: إن الكلمة انقلبت لحما ودمًا فصار الإله هو المسيح، وإليه الإيماء بقوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ (المائدة: ٧٢)

والحق أن كل آية ليست إشارة إلى فرقة مخصوصة، إذ قال الله تعالى بعد قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ (النساء: ١٧١)، فعلم منه أن من قال بالتثليث يقول بالابنية. وقال عزَّ وجل بعد: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فخاطب جميع بني إسرائيل، فعلم أن هذا قول الجميع، فالأحسن أن يقال:

(١) إظهار الحق ١/ ٥٧٦-٥٧٧.

إن الله لم يرد بكل آية فرقة مخصوصة، بل تعم كلُّ آية كل فرقة وتشتملها، والله تعالى ذكر في كل آية كفرَهم المشتَرَك، وهو المسيح ابن الله، المسيح هو الله، المسيح ثالث ثلاثة.

وبالجملة أن النصارى قاطبةً اتفقوا على أن الله جوهر واحد قديم، لا يتصور عليه الحدوث، ولا يطرأ عليه العدم، مركب من الأقانيم الثلاثة. والأقانيم الثلاثة: الوجود ويسمونه الأب، والعِلم ويسمُّونه الكلمة، والحياة ويسمونه روح القدس.(١)

اتفاقهم على الأمانة:

إن آريوس وغيره اعتقد أن عيسى عليه السلام ليس بإله، والله تعالى خالق كل شيءٍ، واحدٌ، أزليٌّ، ليس له شريك، فطلبه مَلِك ذلك الزمان قسطنطين بعد نشر مقالته وبَثِّ كلامه بين الناس، فشرح عقيدته، فتناظروا وقام على مُدَّعاه، فرد عليه الأكصيدرس بِطْريق الإسكندرية، وبعد طول كلامهم تعجب الملك من كثرة الاختلاف، فأقام المجلس، واتفق رأيهم على ذلك الأمانة، وهي: نؤمن بالله تعالى الواحد الأب صانع كل شيء، مالك كل شيء، صانع ما يُرى وما لا يُرى، وبالابن الواحد المسيح ابن الله تعالى الواحد، بِكْرُ الخلائق كلها، الذي ولد من أبيه قبل العوالم كلها، وليس بمصنوع، إلهٌ حقٌّ من إله حق، من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم وخلق كل شيء، الذي من أجلنا معشرَ الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس ومريم وصار إنسانًا، وحبل به وولد من مريم البتول، وَأوجِع وصُلب أيام فيلاطس ودفن، وقام في اليوم الثالث كما هو مكتوب، وصعد إلى السماء وجلس على يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء. ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذي يخرج من أبيه، وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا، وبجماعة واحدة قدسية قالطولثكية، وبالحياة الدائمة إلى أبد الآبدين. انتهى.(٢) فهذا العقد مما أجمع عليه الملكانية والنسطورية واليعقوبية.(٣)

---

(١) أظن أن هذا التقرير مأخوذ من منحة القريب.

(٢) الجواب الفسيح، ص١٦-١٧. وإغاثة اللهفان ٢/ ٢٧٣.

(٣) إغاثة اللهفان ٢/ ٢٧٣.

دلائلهم على التثليث:

تَمسَّك المسيحيون على التثليث في التوحيد ببعض آيات الكتاب المقدس، مع أنه لم يجئ في الكتاب المقدس شيء يدل عليه إلا أنهم شَمَّروا أذيالهم لذلك، وعزموا على أن هذه المسئلة المُنَفِّرة للعقول ثابتة، والعجب أن المسيح اليسوع عليه السلام لم يبين هذه العقيدة: عقيدة الثالوث التي بها نجاة العبد، وكان الواجب عليه أن يبين هذه المسئلة ببيان واضح شاف، فمن آمن بها نجى، ومن كفر بها هلك. وأمثال هاتيك المسائل تُبيَّن بكشف تام، ويكشَف عن وجوهها القناع. فإن تَقَوَّلُوا: لم يبينها خوفًا من اليهود، فقد تحقق أنه لم يُبَلِّغْ ما كان واجبًا عليه، وهذا نقص وخيانة عظيمة بمكانة الرسالة، وإن قالوا: لم يعرفها، فهذا قول لا يكاد يتفق معه إنسان؛ لأنه لما لم يعرف هذه المسئلة المُهمَّة التي عليها مدار النجاة كيف يعرف المسائل الأخَرَ، وكيف آمن بها الناسُ بعدَه.

والحق أن المسيح بريءٌ منها، بل هذا بهتانٌ وافتراء عليه وتخيلات فاسدة وعقائد كاسدة، لا تقبلها المْجانين فضلا عن العقلاء، ومع ذلك يستدل المسيحيون الذين هم خلاصة المُضلين ببعض آيات الكتاب المقدس، ويقولون: إن التثليث يستنبط منها. وإليك بعض نصوصها التي يتمسكون بها، ففي سفر التثنية: «اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد، فتُحِبُّ الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك».[١]

وفي إنجيل متى: «عَمِّدُوهم باسم الأب والابن وروح القدس»، فتدل الآية الأولى على التوحيد، والثانية على التثليث، فالتوفيق بينهما أن يراد التثليث في التوحيد، وهذا هو المرام. وبأن التوراة والقرآن يطلق صيغة الجمع على الله كما في التكوين: «وقال الله: نعمل الإنسانَ على صورتنا كَشَبَهِنا».[٢] «وقال الرب: الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارف الخير والشر».[٣] وفي القرآن﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩) ، فصيغة جمع المتكلم تدل على أن الإله فيه معنى الجمعية، وأقلها التثليث، هذه عمدة دلائلهم على

---

(١) التثنية ٦/ ٤.

(٢) التكوين ١/ ٢٦.

(٣) التكوين ٣/ ٢٢.

التثليث، وقد بذلوا جهدهم وبلغوا إلى أقصى ما يمكن في إثبات هذه المسئلة، بيد أنهم لم يأتوا بما يَشفي العليل ويُروي الغليل، وليس عندهم في هذا الموضوع كثير ولا قليل.

الجواب عن مستدلاتهم:

أما الدليل الأول فلا يخطر بالبال أن يفهم منه أن هذا دليل الثالوث، بل آية التوراة يظهر فيها كالشمس في الظهيرة التوحيدُ لا التثليث، والعجب أنهم كيف يثبتون التثليث من قوله: «إلهنا رب واحد» وأما قول متى: «باسم الأب والابن وروح القدس». فالمراد من الأب هو الله، وذلك كثير في كتبهم، ومن الابن رسوله، فإن إطلاق الابن على العبد الصالح المقرَّب شائع ذائع في كتبهم، وعلينا أن ننقل بعض عبارات الكتاب المقدس، ففي كتاب أشعيا «فإنك أنت أبونا وإن لم يعرفنا إبراهيم وإن لم يدرنا إسرائيل، أنت يا رب أبونا وُلِّينا منذ الأبد اسمك».[١] فأطلق لفظ الأب على الله.

وقال متى: «طوبى لصانعي السلام؛ لأنهم أبناء الله يدعون».[٢] فيه إطلاق الابن على صانعي السلام.

وقال يوحنا: «أنتم تعملون أعمال أبيكم فقالوا له: إننا لم نولد من زنا، لنا أب واحد وهو الله».[٣] فأطلق الأب على الله، وهذا الاستعمال لا يمكن أن يكون على سبيل الحقيقة إذ الأب حقيقة الوالد، والابن ما يتولد من نطفة الأب، وهذا المعنى يستحيل في حق الله تعالى، فالمراد القرب والمحبة، وهذا مراد قول متى: «باركوا لاعِنِيْكم، أحسنوا إلى مبغضيكم...لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات».[٤] يعني يحصل القرب والقبول عند الله تعالى.

فبان من ذلك أن إطلاق الأب والابن ليس حقيقة، بل مجاز كما قال الله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ (المائدة: ١٨)

وقوله: «باسم الأب والابن وروح القدس». لو فرضنا دلالته على التثليث، تكون

---

(١) أشعيا ٦٣/ ١٦.

(٢) متى ٥/ ٩.

(٣) يوحنا ٨/ ٤٢.

(٤) متى ٥/ ٤٠.

ثلاثة حقيقةً لا يكون فيها اشتراك ماهية كما يقولون، فإنك إذا قلت: جاءني زيد وحيوان، يشتركان في المجيء فقط لا في الحقيقة، فالأب والابن وروح القدس لا تشترك في الحقيقة ولا يكون بينهم اتحاد، فمن أين استنبطوا الاتحاد.

والجواب عن الثاني أن لفظ الجمع موضوع لغة للمعظَّم، كنحن، وقمنا، إذا كان المتكلم واحدًا، فإن القرآن كلام الملك العزيز، والملك إذا ألقى علينا خطابا ملكيا يكون هكذا. أو نقول: هذا بحسب الصفات، فإن له صفات كثيرة يجوز بحسبها إطلاق الجمع عليه تعالى. أو نقول: له صفات الجلال والجمال وبحسبها يُطلق عليه الجمع. والله أعلم.

ولو سلمنا أن المراد التعدد، فيكون حقيقيا، لا الاتحاد كما تقولون، فقولكم يناقض العقل من كل الوجوه.

إثبات التوحيد من الكتاب المقدس:

إذا علمت هذا فاعلم أن الكتب السابقة في الحالة الراهنة تدل على التوحيد، ولا يوجَد أي كتاب من الكتب السماوية يدل على التثليث، بل التوحيدُ نقطة يدور عليها رَحَى جميع الأديان، ويتضح لك أن عيسى عليه السلام نادى بالتوحيد، وكيف لا ينادي وبعثة النبي إنما تكون لنشر التوحيد. قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (الزمر: ٦٥). وفي سفر التثنية: «إنك قد أريتَ لتعلم أن الرب هو الإله، ليس آخر سواه».[(١)] وقال في موضع آخر: «فاعلموا الآن وردِّدوا في قلوبكم أن الرب هو الإله في السماء من فوق وفي الأرض من أسفل، ولا إله سواه».[(٢)] وقال في موضع آخر: «اسمعوا يا بني إسرائيل! الرب إلهنا ربٌّ واحدٌ».[(٣)] وفي الزبور المقدس: «لأنك عظيم أنت، وصانع عجائب، أنت الله وحدك».[(٤)] وفي إشعيا: «أنا الربُّ ولا آخرَ، وسِواي لا يُوجد إلهٌ،... ليَعلم البشرُ من مشرق الشمس إلى مغربها أن لا إلهَ غيري. أنا

(١) التثنية ٤/ ٣٥.
(٢) التثنية ٤/ ٣٩.
(٣) التثنية ٦/ ٤.
(٤) المزامير ٨٦/ ٩.

الربُّ ولا آخرُ».[(١)] وقال في موضع آخر: «أنا الربُّ ولا آخرُ، لا إلهَ غيري، ولا إلهٌ عادِلٌ مخلِّصٌ سوايَ».[(٢)] وقال في موضع آخر: «أنا الله وليس إلهٌ آخرُ، أنا الله ولا إلهَ مثلي».[(٣)] وفي صموئيل الثاني: «فما أعظمَك أيها الربُّ الإلهُ، أنت لا مثيلَ لك ولا إلهَ سواك».[(٤)] وفي يوحنا: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك: أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلتَه».[(٥)] انظر إلى هذه الآيات البينات، فإنها تصرِّح بوحدانية الله ورسالة المسيح، فكيف يكون إلهًا، بل هو رسول الله، وهذه هي عقيدة المسلمين. وفي إنجيل مُرقُس «فأجابه يسوع: أن أوَّل كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل! الرب إلهنا رب واحد».[(٦)] وفي إنجيل متى: «فقال له: لماذا تدعوني صالحا؟ ليس أحد صالحًا إلا واحد وهو الله، ولكن إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا».[(٧)] وفي لوقا: «فأجابه يسوع وقال: اذهب يا شيطان! إنه مكتوب للرب، إلهَك تسجد وإياه وحده تعبد».[(٨)]

فهذه نبذة من الكتاب المقدس تدل على التوحيد المَحْضِ الخالص الناصع من الشرك هل تجد فيه -زادني الله وإياك علمًا- رائحة من التثليث؟ لا والله ليس فيه شمة منه، وقد ردَّ القرآن الحكيم -وهو الكتاب الحق من الله تعالى- دعواهم الباطلة في غير ما موضعٍ، فقال الله تعالى بعد ذكر تثليثهم: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ (المائدة)، يعني من تَوَلَّد من بطن امرأة وهي مريمُ، وأكل الطعام، ودعا إلى التوحيد، كيف يكون إلهًا ثالثَ ثلاثة! والقرآن الكريم مشحونٌ بردِّ النصارى القائلين بقول تمُجُّه العقول وتدفعه الفحول.

(١) أشعيا ٤٥/ ٥-٦.
(٢) أشعيا ٤٥/ ٢١.
(٣) أشعيا ٤٦/ ٩.
(٤) صموئيل الثاني ٧/ ٢٢.
(٥) يوحنا ١٧/ ٣.
(٦) مرقس ١٧/ ٢٩.
(٧) مرقس ١٧/ ٢٩.
(٨) لوقا ٤/ ٩.

إثبات عبودية عيسى عليه السلام وكونه رسول الله:

في أعمال الرسل: «يا بني إسرائيل اسمعوا هذا الكلامَ: كان يسوع الناصريُّ رجلًا أيده الله بينكم بما أجرَى على يده من العجائب والمعجزات والآيات كما أنتم تعرِفون».[١] وفي إنجيل يوحنا: «والحياةُ الأبدِيةُ هي أن يعرِفوك أنتَ الإلهَ الحقَّ وحدكَ، ويعرِفوا يسوعَ المسيحَ الذي أرسلتَه».[٢] وفي موضع آخر: «ومن لا يحبُّني لا يسمَع كلامي. وما كلامي من عندي، بل من عند الأب الذي أرسلَني».[٣] وفي موضع آخر: «ولكنَّكم الآنَ تُريدون قتلي، أنا الذي كلَّمكم بالحق كما سمعتُه من الله».[٤] وفي إنجيل برنابا: «إني رجل فانٍ كسائر الناس، على أني وأن أقامني الله نبيًّا على بيت إسرائيل لأجل صحة الضعفاء، وإصلاح الخطاة، خادمُ الله».[٥]

الأدلة العقلية على إبطال التثليث:

يحكم العقل بأن كون الثلاثة واحدًا باطلٌ، وبطلانه أظهر من الشمس، فويل للمسيحيين الذين لم يفهموا أسهل مسائل الحساب – فوا أسفا عليهم– فجعلوا الواحد عينَ الثلاثة، وكيف يكونان شيئا واحدًا؛ والتثليث مشتمل على الكثرة الحقيقية، والتوحيد يقتصر على الوحدة الحقيقية، وبينهما تناف. وأيضًا لما كانا واحدًا يلزم أن يكون الجزء عينَ الكل والكل عين الجزء؛ لأن الواحد ثالث الكل وجزؤه، ولما كان عين الثلاث يلزم أن يكون الكل، وهذا بما يضحك منه الصبيان والمَجانين ولا يلتفت إليه الجهلاء فضلًا عن الأساطين.

وإذا ثبت الامتياز بين الأقانيم الثلاثة لا بد مما به الامتياز، فهو إما أن يكون من صفات الكمال أو لا يكون، فعلى الأول يلزم أن لا يوجد جميع صفات الكمال في كل واحد، وهذا نقص في الواجب، وعلى الثاني يلزم أن لا يوصف بصفات الكمال، وعدم الاتصاف به اتصاف بصفات النقصان.

---

(١) أعمال الرسل ٢/ ٢٢.

(٢) يوحنا ١٧/ ٣.

(٣) يوحنا ١٤/ ٢٤.

(٤) يوحنا ٢/ ٢٢.

(٥) إنجيل برنابا، الفصل الثاني والخمسون. ترجمة الدكتور خليل سعادة.

فإن قيل: نحن نقول: إن هذه الأقانيم صفات الواجب اتحدت به. قلنا: لو كان كذلك لا يكون وجودها مستقلًّا، بل تبعًا للغير، وما يكون تبعًا للغير كيف يكون إلهًا خالقًا، مع أنهم يزعمون لكل واحد وجودًا مستقلًّا، فإنهم يقولون: قُتل عيسى ورفع وجلس يمينَ الواجب تعالى، فكانا مستقلَّين في الوجود. وقالت اليعقوبية: إن الكلمة انقلبت لحمًا ودمًا فصار الإله هو المسيح، وقالوا: إن الله هو المسيح عيسى بن مريم. ونقلوا عن يوحنا أنه قال في صدر إنجيله: الكلمة صارت جسدًا وحلت فينا. وهذا باطل؛ لأنه يستلزم انقلاب القديم بالحادث والمُجرد بالماديِّ، ولو جاز، لجاز انقلاب العَرَض جوهرًا، والجوهر عَرَضًا، والواجب ممكنًا. وما ورد في صدر إنجيله: «أن الكلمة صارت جسدًا»، فالمراد من الكلمة يعني إن ذهبت كلمة (المسيح) فكلامه وأقواله وتعاليمه موجودة عندنا وحال فينا. هذا نهاية ما يقال في تأويل المقام.[1]

يقول بعض المسحيين: إن التثليث لا ينافي التوحيد إذ الأقانيم صفات، ونسبة أقنوم العلم والحياة إلى الله كنسبة الحرارة إلى الشمس. وهذا باطل من وجوه؛ أحدها: أنا نشاهد أن ذات المسيح منفردة، وأمه موجودة بالاستقلال، والله أيضًا موجود بوجود عيني، فجَعْلُها صفاتًا خلاف المعقول وخطأ صريح. وثانيها: إن صفات الباري عزَّ وجل غير محدودة، فتحديده بالتثليث كلام حديث. وثالثها: إن أقنوم الابن لما خُلِق من الأب فكيف يكون صفة؛ لأن الصفة لا تولد من الموصوف.

دلائلهم على ألوهية المسيح:

الدليل الأول: قد جاء إطلاق الابن على المسيح، فيعلم منه أنه إله من إله، إذ الابن ماهيته ماهية الأب. وقد مر الجواب عنه، وهو أن الابن يطلق على المقرَّب والمَحبوب. ولو كان الابن آية الألوهية لكان آدم إلهًا إذ جاء إطلاق الابن عليه؛ قال لوقا: «إن المسيح ابن يوسف، وآدم ابن الله».[2] فجعل آدم ابن الله، والمسيح ابن يوسف، مع أنه ليس بإله. وقد جاء إطلاق الابن في إسرائيل كما جاء في الخروج: «فتقول لفرعون: هكذا يقول الرب:

(١) ملتقط من إظهار الحق.

(٢) لوقا، الإصحاح: ٣.

إسرائيل ابني البِكْرُ، فقلت لك: أطْلِق ابني ليعبدوني فأبيتَ أن تُطلقه، ها أنا أقتل ابنك البِكر».[١] وقال لوقا: «آدم ابن الله».[٢] وفي غلاطية: «فأنتم كلهم أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع».[٣] وفي التكوين: «ولما بدأ الناسُ يكثُرون على وجه الأرض ووُلِد لهم بنات، رأى بنو الله أن بنات الناس حسانٌ، فتزوجوا منهن كل من اختاروا».[٤] وفي إنجيل متى: «أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم، وصلُّوا لأجل الذين يضطهِدُّونكم، فتكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات».[٥] وفي إنجيل لوقا: «ولكن أحِبُّوا أعداءكم، أحسِنوا وأقرِضوا غير راجِين شيئًا، فيكون أجركم عظيما، وتكونوا أبناء الله العليِّ».[٦] وفي إنجيل يوحنا: «أما الذي قبِلوه، المؤمنون باسمه، فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أبناء الله».[٧] وفي أخبار الأيام الأول قال في سليمان عليه السلام: «وهو الذي يبني هيكلًا لاسمي، ويكون لي ابنًا وأكون له أبًا».[٨] وفي أخبار الأيام في موضع آخر: «وقال لي: سليمانُ ابنُك، هو الذي سيبني هيكلي، وأروقَتَه لأني اخترتُه لي ابنًا وأنا أكون له أبًا».[٩] وقال في التثنية عن جميع بني إسرا ئيل: «أنتم أبناءُ الربِّ إلهِكم».[١٠]

جاء في الكتاب المقدس إطلاق لفظ الابن على كثير من الناس من الأنبياء والمؤمنين الصالحين من بني إسرائيل. وليس معناه أن هؤلاء كلهم أبناء الله حقيقةً.

ولفظ الابن كما يطلق على ابن الصلب فقد يطلق أيضًا لكل ما يحصل من جهته شيءٌ أو قيامه بأمره: هو ابنه. قال ابن منظور: «وللأب والابن والبنت أسماء كثيرة تضاف إليها». (لسان العرب ١٤/ ٩١).

---

(١) الخروج ٣/ ٢٢-٢٣.

(٢) لوقا ٣/ ٣٨.

(٣) غلاطية ٣/ ٢٦.

(٤) التكوين ٦/ ١-٢.

(٥) متى ٥/ ٤٤-٤٥.

(٦) لوقا ٦/ ٣٥.

(٧) يوحنا ١/ ١٢.

(٨) أخبار الأيام الأول ٢٢/ ١٠.

(٩) أخبار الأيام الأول ٢٨/ ٦.

(١٠) التثنية ١٤/ ١.

وقال الراغب: «ويقال لكل ما يحصل من جهته شيءٌ أو من تربيته، أو تثقيفه، أو كثرة خدمته له وقيامه بأمره: هو ابنه، نحو فلان ابن حرب، وابن السبيل للمسافر، وكذلك ابن الليل وابن العلم، ويقال فلان ابن فرجه إذا كان همه مصروفا إليهما، وابن يومه إذا لم يتفكر في غده».[١] وقال العلامة الزبيدي: «وللأب والابن والبنت أسماء كثيرة تضاف إليها، وعدد الأزهري منها أشياء كثيرة».[٢]

وقال الإمام الرازي: «لفظ الابن كما يطلق على ابن الصلب فقد يطلق أيضًا على من يتخذ ابنًا، واتخاذه ابنًا بمعنى تخصيصه بمزيد الشفقة والمحبة».[٣] وفي هذا المعنى قالت النصارى: نحن أبناء الله وأحباؤه. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ (المائدة: ١٨) قال أبو حيان: «البُنوة هنا بُنُوة الحَنان والرَّأفة».[٤]

أول من جاء بعقيدة ألوهية عيسى عليه السلام هو بولس اليهودي المتعصب، واسمه ساؤل. قال بولس عن نفسه: «أنا يهودي ومواطنٌ رومانيٌّ مِن طَرسوسَ في كِيليكِيَّةَ، وهي مدينة معروفة جيدًا».[٥] وكان بولس من أكبر أعداء المسيحية، وقد صرح به نفسه في كتاب الأعمال في كثير من المواضع. منها قوله: «واضطهَدتُ مذهب يسوع حتى الموت، فاعتقَلتُ الرجال والنساءَ، وألقيتُهم في السُّجون، وبهذا يشهد لي رئيس الكهنة وشيوخ الشعب كلُّهم، فمنهم أخذتُ رسائلَ إلى إخوتنا اليهود في دِمشقَ، فذهبتُ إليها لاعتقالِ من كان فيها مؤمنا بهذا المذهب، فأسوقُه إلى أُورُشليم لمعاقبته».[٦] ومع هذا له أربعة عشر رسالة في الكتاب المقدس.

كتب بولس في رسالته إلى كنيسة فيلبي: «المسيح هو في صورة الله، ما اعتبر مساواتَه لله غنيمةً له، بل أخلى ذاتَه واتخذ صورة العبد صار شبيهًا بالبشر، وظهر في صورة الإنسان،

(١) تاج العروس ٣٧/ ٢٣٣.
(٢) تاج العروس ٣٧/ ٢٣٠.
(٣) تفسير الرازي ١١/ ٣٢٨.
(٤) البحر المحيط ٤/ ٢١١.
(٥) أعمال الرسل ٢١/ ٣٩.
(٦) أعمال الرسل ٢٢/ ٤.

تواضعَ، أطاع حتى الموت، الموت على الصليب...، ويشهد كلُّ لسانٍ أن يسوعَ المسيح هو الرب تمجيدا لله الأب».[1] وقال بولس في رسالته إلى كنيسة كولوسي عن عيسى عليه السلام: «هو صورة الله الذي لا يرى».[2]

هل يجوز إطلاق «ابن الله» على عيسى عليه السلام أو غيره بمعناه المجازي؟:

كان يطلق لفظ «ابن الله» في بني إسرائيل بمعنى الصالح في زمن عيسى عليه السلام وقبله، فلذا أطلق لفظُ «ابن الله» في الكتاب المقدس على كثير من الناس من الأنبياء والمؤمنين الصالحين، ففي إنجيل متى ذكر عن عيسى عليه السلام: «بالحقيقة كان هذا الرجل ابن الله». وفي إنجيل لوقا ذكر نفس هذه القصة بلفظ: «بالحقيقة كان هذا الإنسان بارًّا». فعُلِم أن الحوار الإسرائيلي القديم يساوي بين «ابن الله» وبين البارِّ والصالح؛ لكن جعلت المسيحية الكاثوليكية في القرنين الثاني والثالث تنسب الطبيعة الألوهية إلى سيدنا عيسى عليه السلام، وإنما فعلوا هذا ليثبتوا اسم «الإله» لسيدنا عيسى عليه السلام، فكانت نتيجة فعلهم وكيدهم هذا هي أن الاصطلاح الذي كان غير عاديا في القرن الأول والثاني أصبح عاديًا متداولًا بين المسيحيين فيما بعد القرنين الأول والثاني. وأصبح عيسى بعد كيدهم هذا «الإله»، أو «إلهًا»، ولكنه ليس الإله الحقيقي الوحيد.[3] وأصبح إطلاق لفظ «ابن الله» بمعنى ولد الله، وقد قال الله تعالى بعد ذكر اليهود والنصارى والمشركين: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ (البقرة: ١١٦)

منع العلماء إطلاق ابن الله بمعناه المجازي على عيسى عليه السلام وعلى غيره، وعدُّوه من الكفر لهجران الحوار الإسرائيلي القديم، وإيهام الشرك فيه. قال ابن عطية: «ويقال إن بعضهم يعتقدها بُنوة حُنُوٍّ ورحمة. وهذا المعنى أيضًا لا يحل أن تطلق البنوة عليه، وهو كفر». (تفسير القرطبي 8/ 117، وانظر: المحرر الوجيز، لابن عطية الأندلسي 3/ 24).

والدليل الثاني على ألوهية المسيح: قال في الخروج: «أنا والأب واحد».[4] والجواب

---

(١) فيليبي ٢/ ٥-١١.

(٢) كولوسي ١/ ١٥.

(٣) انظر: Novatian, trinity, chapter: 31، وانظر أيضًا: Justin First, chapter: 13 .

(٤) يوحنا ١٠/ ٣٠.

عنه أولًا أنه لما كان واحدًا فكيف يكون إنسانًا كاملًا. وثانيا أن مثل هذه الألفاظ وردت في الحواريين ففي يوحنا: «ليكون الجميع واحدًا كما أنك أنت أيها الأب فِيَّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضًا واحدا فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتني».[1] فالمراد من الاتحاد لو صحَّ إطاعة أحكامه، وجميع الأنام فيه متساوي الأقدام. وانظر تفصيل هذا المبحث في إظهار الحق.[2]

والدليل الثالث: خَلْقه بأبدع طريق بدون أب، وإحياؤه الموتى وإبراء الأكمه وغير ذلك، فهذه الأفعال لا يمكن صدورها إلا من الله. وفيه نظر؛ لأن الخلق من دون الأب لو كان أمارة الألوهية لكان آدم أحرى به؛ لأنه أقدم وليس له أب ولا أم، بخلاف عيسى عليه السلام، فإن له أمًّا، والحشرات تولد بلا أب ولا أم عند نزول المطر. وإحياء الموتى لو كان علامة الألوهية لكان حزقيال عليه السلام أيضًا إلهاً؛ إذ أحيى كثيرا من الناس كما ذكر في كتابه: «فقال لي: يا ابن آدم! أَتُحْيَى هذه العظام؟ فقلت: يا سيد الرب! أنت تعلم، فقال لي: تنبأ على هذه العظام، وقل لها: أيتها العظامُ اليابسةُ اسمعي كلمةَ الرب، هكذا قال السيدُ الربُّ لهذه العظام: ها أنا ذا أُدخِل فيكم روحًا فتَحْيَوْن، وأصنع عليكم عُصَبًا، وأُكسيكم لحمًا، وأبسط عليكم جلدًا، وأجعل فيكم رُوحًا فتحيون وتعلمون أني أنا الرب».[3]

وقد أزاح الله هذه الشبهة بقوله عزَّ وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ (آل عمران: ٦)، يعني التصوير في الأرحام، وخلق الأنام من صُنع ذي الجلال والإكرام، يخلق بطريق معتاد مرة ومنهاج غريب أخرى، فإن شاء صوَّر الإنسان بأبٍ وأمٍ، أو بأب بدون أم، أوبالعكس، فهو على كل شي قدير، وبيده التقدير.

الدليل الرابع: بعض كلمات القرآن يدل على أنه كلمة منه، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء: ١٧١) يدل على أنه كلمة من الله، ومِنْ للتبعيض، والجزء يوافق الكل في الحقيقة.

والجواب عنه أن الله صرَّح في مواضع مختلفة على عبديته، قال الله عز وجل: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ (الزخرف: ٥٩)، وقال الله تعالى حاكياً عنه: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى

---

(١) يوحنا ٧/ ٣١.

(٢) إظهار الحق ٢/ ٤٩.

(٣) حزقيال ٣٧/ ٣-٦.

نَبِيًّا﴾ (مريم: ٣٠)، وكيف لا يكون عبدًا وقد خُلِق من بطن مريم عليها السلام، وأَكَل كما يأكلون، وشرب كما يشربون، وسار كما يسيرون، وتَأَلَّمَ كما يتألمون.

والمراد من الكلمة: الكلمة التي نَفخَها جبريل، إذ خُلِقَ عليه السلام بدون الأب، بل بكلمة «كُنْ» بخلاف سائر أفراد بني آدم. قال العلامة الآلوسي: فهو كقولك لمن غلب عليه الجود مثلاً: محضُ الجود، وعلى ذلك أكثر المفسرون، وأيَّدوا ذلك بقوله تعالى:﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران: ٥٩)

وقيل: أطلق عليه ذلك؛ لأن الله تعالى بشر به في الكتب السابقة، وقيل: لأن الله يهدي به كما يهدي بكلمته.

وأما تسميته بالروح؛ فإن الناس يُحْيَونَ به، وقيل: الروح بمعنى الرحمة، وقيل: إذا أريد وصف الشيء بغاية الطهارة قالوا: إنه روح، وقيل: المراد من الروح: السِّرُّ كما يقال: روح هذه المسئلة كذا، أي أنه عليه السلام سرٌّ من أسرار الله، وقيل: المراد ذو روح، والإضافة إلى الله للتشريف، ونظير ذلك في التوارة أن موسى عليه السلام رجل الله،[(١)] وعصاه قضيب الله،[(٢)] وأورشليم بيت الله[(٣)] [(٤)].

وليس «مِنْ» في قوله تعالى:﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ للتبعيض، بل لابتداء الغاية، كما في قوله تعالى:﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣)، أي من عنده وجانبه.

وبالجملة: قد تَنَقَّصُوا الله ورسوله، ورمَوْهما بالعظائم والكبائر التي هما عنها بريئان. أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله تعالى: كذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشَتَمنِي ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله: لي ولد، فسبحاني أن اتخذ صاحبة أو ولدًا».[(٥)]

---

(١) أطلق هذا اللفظ على موسى عليه السلام في أكثر من ثلاثين مرة من التوراة، راجع مثلا: التثنية ٣٣/ ١.

(٢) أرميا ٤٨/ ١٧.

(٣) أخبار الأيام الأول ٦/ ٣٢.

(٤) ملخص من الجواب الفصيح ١/ ١٥.

(٥) صحيح البخاري ٢/ ٦٤٤.

الصلاة في الإسلام والمسيحية

الصلاة في الدين المسيحي:

الصلاة عبادة مشروعة موجودة في الدين المسيحي يؤدونها انفرادًا، وفي كنائسهم. وهي عندهم على ثلاثة أقسام كما في «أدلة اليقين»: انفرادية، وعائلية، وجمهورية. فالانفرادية هي أن يرتِّلَ الله في قلبه كل حين. والعائلية هي أن يجمع الرجلُ زوجه وأولاده حوله ويقرأ لهم شيئًا من الكتاب المقدس ويطلب لهم المغفرة والبَرَكة من الله. والجمهورية أن يجتمع الواحد مع الناس في داره أو كنيسة ويستمع الوعظ والدعاء، ويسبح تحت ملاحظة خدمة الدين. وهناك طوائف تصلي صلاة أخرى يسمونها: ارتجالية وغير ذلك.[(١)]

طريق الصلاة في ديانتهم:

طريق صلاتهم مع اختلاف بين الكاثلوكية والبروتستانست كما ذكره الأستاذ أبو الحسن علي الندوي نقلًا عن دائرة معارف الأديان والأخلاق في كتابه «الأركان الأربعة»: أن يدخل الإمام فى الكنيسة فيقوم له الحاضرون حوله، ويقول ناويًا للصلاة: باسم الأب والابن وروح القدس أُصلِّي إلى مذبح الكنيسة، وهنا يدور الحِوار بين الإمام والجماعة في تقديس الله والثناء عليه، ثم يتقدم الإمام باعترافه بالذنوب والخطايا ويقول: إنني أُشهد الله القدير، وأُشهد مريم المباركةَ العذراء دائمًا، والمَلَك الكريم ميكائيل، ويوحنَّا المعمد، ورسل الله المباركين بطرس وبولس، وجميع القدسيين، وجميع الأولياء المسيحيين، وأُشهدكم أيها الإخوان، وأعترف بأنني اقترفت ذنوبًا فكريةً ولسانيةً وعمليةً لا تُعد ولا تُحصى، أنا صاحبها وأنا المسؤول عنها وحدي، لذلك أسئل مريم العذراء المباركةَ، وميكائيلَ المبارك المَلَكَ الكريم، ويوحنا المعمد المبارك، ورسل الله المباركين بطرس وبولس، وجميع القدسين

(١) أدلة اليقين، ص٣١.

والأولياء، وأسألكم أيها الإخوان أن تدعوا الله مالِكَ الملك لي، وتدعو الجماعة له ويقولوا: آمين. ثم يدور حوار بين الإمام والجماعة في الدعاء وطلب الرحمة والأمن والمغفرة للجميع، ثم يرتقي الإمام المَذبَحة ويدعو دعاء لاتينيًّا يسئل الله فيه أن يمحو الخطايا ويغفر الذنوب، ويتوسل بالسيد المسيح وبالقدسيين والأولياء الذين تضم الكنيسة آثارهم، ثم يقول الإمام: يا الله ارحمنا. ويقول الإمام: يا عيسى المسيح ارحمنا. وتقول الجماعة: يا عيسى المسيحُ ارحمنا. يقال ذلك مرتين، ويعود الإمام فيسئل الله الرحمة، وتعود الجماعة فتسئل الله الرحمة.[1]

هذه صلاة الكاثلوكية. والصلاة عند البروتسانت تشارك صلاتهم في توثيق العقائد والحمد والإنشاء وغير ذلك. وتتميز بأشياء من أنها لا تستعمل اللغة اللاتينية مطلقًا، وإنها صاغت الأدعية كلها في أناشيد وترنيمات تُغنِّي بألحان مرسومة مقررة، وتتميز بصَمْتٍ عند ذكر الله، وتمتاز بحذف بعض العبارات، ويجثون على ركبهم في الصلاة كذا في عامة كتبهم، وإن شئت أن تسمع تفصيل قرائتهم في الصلاة، فإليك نص ما قال الشيخ أحمد بن إدريس المالكي حيث قال:

«يقرؤون في الصلاة الأولى التي يسمونها صلاة السَّحْر وصلاةَ الفجر: تعالَوْا نسجد ونتضرع إلهنا، أيها الرب خَروف[2] الله.

وفي الصلاة الساعة الأولى: المسيح الإله، الصالح الطويل، الروح، الكثير الرحمة، الداعي للكل إلى الخلاص.

وفي صلاة الساعة الثانية: والدةَ الإله السماوي! أنت هي المكرمة الحقانية الحاملة ثمرةَ الحياة، إليك نتضرع لترحمي نفوسنا، يا والدةَ الإله السماوي افتحي لنا أبواب رحمتك.

وفي صلاة الساعة السادسة: يا من سُمِرَتْ يداه على الصليب من أجل الخطيئة التي تَجَرَّأ عليها آدم خَرِّقْ العهدَة المكتوب فيها خطايانا وخَلِّصْنا. يا من سُمِرَ على الصليب، وبقي حتى لصق الخشبة بدمه، قد أحببنا الموتَ لموتك، أسألك بالمسامير التي سُمِرَتْ نجني بالله.

---

(١) الأركان الأربعة، ص ٨٧-٨٨.

(٢) الخَروف: الذكر من الضَّأن. والخُروفة: ثمر النخل.

وفي صلاة الساعة التاسعة: يا من ذاق الموت لأجلنا، إليك إبتهالنا، يا من سلَّم نفسه إلى الأب على الصليب لا تغفُل عنا، يا من مِن أجلنا وُلد من العذراء واحتمل الموت، لا تُخَيِّبْ من خلقت بيدك، واقبل من والدتك الشفاعة فينا، ولا تنقض عهدك الذي عاهدت عليه إبراهيم وإسحاق ويعقوب. ويقرؤون في هذه الصلاة: لما رأت الوالدة الحمل والداعي ومُخَلِّصَ العالم على الصليب قالت وهي باكية: أما العالم فقد فرح بقبوله الخلاص، وأما أحشائي فتلتهب عند ما أنظر إلى صلبوتك بعَيْنَيَّ.

ويقرؤون في صلاة المغرب: يا والدةَ الولد العذراءَ! اسعي في خلاصنا وافرحي يا والدة الإله المباركة، لا تغفلي عن وسائلنا ونَجِّنا من المعاطب.

وفي صلاة النوم: الملائكة يَمْدَحونك بتهليلات ثلاثة؛ لأنك قبل الكل لم تزل أيها الأب، وابنك نظيرك في الابتداء، وروح القدس مُساوِيك في الكرامة، ثالوث واحد.

وفي صلاة نصف الليل وهي الثامنة من صلواتهم لا تاسع لها: تبارك الرب إله آبائنا وفوق المتعالي إلى الدهر تبارك بعدك القدوس فوق المسيح وفوق المعالي إلى الدهر، مبارك أنت فوق المسيح وفوق المتعالي. ويكررون هذه الجملة.[1]

فهذه حال صلاتهم المختَرَعة التي لا أصل لها في شريعتهم، بل هي نسيج أفكارهم، وأفتت بها قلوبهم، مالهم بذلك من دليل ولا برهان. وخلاصة صلاتهم أمور: الإقرار بألوهية المسيح وأنه نَجَّى من عذاب الآخرة، واعتقاد ألوهية مريم العذراء، والقول بصَلب عيسى عليه السلام مع الإقرار بعَجزه وذوقه مَرارةَ الموت من الأعداء، فصلاتهم مشتملة على الكفر، والبهتان، والفجور، وسوء الأدب، والتثليث، وغير ذلك.

لا يشترط للصلاة شيء من الطهارة والنظافة عندهم:

ليس عندهم للصلاة شرائط من الطهارة والوقت واستقبال القبلة، بل يصلون متضمخين بالعَذِرات والقاذورات، فيطلبون النجاة ويقعون في ورطة الهلكة، ويفرون من المطر ويقومون تحت الميزاب. قال البادري بركة الله: ثم في شأن الأوقات: الإنجيل يهدينا أن

(١) الأجوبة الفاخرة على هامش الفارق بين المخلوق والخالق، ص١٩٧-٢٠٢.

نصلي وندعو في كل وقت، على أي طريق، إلى أي جهة.(١) وقال في موضع آخر طعنًا في الإسلام -والحال أن الإسلام متعال عن أفق المطاعن-: «الإسلام يفرض الطهارة التي لا تعلق لها بالطهارة الباطنية».(٢) ومن ذلك أنهم يصلون بلا وضوء ولا طهارة الثياب ولا المكان.(٣)

قال عبد المسيح ابن إسحاق الكندي النصراني: وأما قولك: «وأن نستعمل الوضوء ونغتسل من الجنابة ونَخْتَتِنَ لنقيم سنة أبينا إبراهيم». فجوابك قول المسيح الرب لليهود، قالوا له: لم لا يغتسل تلاميذك؟ فأجابهم الروح المُحْيِي مُخَلِّصُ العالَمَ: ومن الذي يُغني عن البيت المُظلم أن يكون في ظاهره مِصباح يَتَّقِدُ وباطنه مُظلِم، وإنما يجب أن تغتسل النيات والقلوب من دنس الفكر وغلِّ الخطايا الدَّنِسة الرِّجْسة. فأما ظاهر الأبدان فما معنى العناية في تنظيفها، فيا أيها المراؤون الآخذون بوجوه الذين يَشْبَهُون القبور المُزَخْرَفَة من خارج، وفي داخلها الجِيَفُ المُنْتِنَةُ. إلى آخر ما هذى.(٤)

وقال مصنف إنجيل مرقس: «ثم دعا كلَّ الجمع وقال لهم: اسمعوا مني كُلكم وافهموا! ليس شيء من خارج الإنسان إذا دخل فيه يقدر أن يُنَجِّسَه لكن الأشياء التي تخرج منه هي التي تنجس الإنسان».(٥)

ولما سأله التلاميذ عن تفسير هذا فقال لهم: «أفأنتم أيضًا هكذا غير فاهمين! أما تفهمون أن كل ما يدخل الإنسان من خارج لا يقدر أن ينجسه؛ لأنه لا يدخل إلى قلبه، بل إلى الجوف، ثم يخرج إلى الخلاء وذلك يُطهر كل الأطعمة. ثم قال: إن الذي يخرج من الإنسان ذلك يُنَجِّسُ الإنسان؛ لأنه من الداخل من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة: زنا وفسق وقتل».(٦)

---

(١) توضيح البيان، ص٤٨.

(٢) توضيح البيان، ص٥١.

(٣) الجواب الفسيح، للعلامة الآلوسي.

(٤) الجواب الفصيح، للعلامة الآلوسي.

(٥) إنجيل مرقص ٧/ ١٤-١٥.

(٦) مرقص ٧/ ١٨-٢٢.

وهذا القول يدل على أن الصلاة تؤدى وإن كان المصلِّي متلطخًا بالعَذِرات، فلا يشترط عندهم للصلاة استقبال القبلة ولا الطهارة ولا لغة مخصوصة كالعربي واللاتيني. قال البادري بركة الله طاعنًا في الإسلام والقرآن: هذا الكتاب أي القرآن بلغة عربية لا يفهمها عامة الناس، وإن أردت أن تطبع ترجمته وجب عليك أن يكون مع متن القرآن، ويتضمن الوضوء بالماء، أوالتيمم بالصعيد، والصلاة إلى القبلة في أوقات مخصوصة، على أن يكون بلسان مخصوص.(١)

ويَطعنون في الإسلام وأركانه بأنه مقيد بالأزمنة والأمكنة، مخصوص بالطهارات الظاهرية، ودين المسيحية طهارة باطنية، وإذ هي الأصل.

صلاتهم الأسبوعية:

ولهم صلاة أخرى أسبوعية يوم الأحد، وهو يوم معظم عندهم، يقولون: ارتفع عيسى عليه السلام في هذا اليوم من القبر. يتقدم بها الإمام في موضع تقتضيه الحال، ويصِفون المسيح بأنه ابن الله الوحيد، وأنه رب الأرباب، إلى غير ذلك من الخرافات، وهنالك يَخِرُّ الحاضرون على ركبهم ويجثون.(٢) فهذا حال صلاتهم في كنائسهم موجَزًا، وإلى الله المشتكى من صنيعهم هذا، فإنهم أحبوا أن يكون ظاهرهم نجسًا كما رضوا أن يكون باطنهم نجسًا.

الصلاة عند المسلمين -كثرهم الله وقوَّاهم:

الصلاة لغة: الدعاء. واصطلاحًا: أركان مخصوصة في أوقات مخصوصة بشروط مخصوصة. وهي أحد أركان الإسلام، وهي في اليوم والليلة سبع عشرة ركعة مفروضاتٍ، ولها شرائط كما أن لها أركانًا. فشرائطها: تطهير المكان، والبدن، والثوب، وستر العورة، واستقبال القبلة، والنية. فالشرط لصلاة المسلمين أن يتطهروا من الأدناس والأنجاس، ويُطَهِّروا أبدانهم وثيابهم، وإلا فلا تقبل صلاتهم، بل صارت هباء منثورًا لا يترتب عليه

---

(١) توضيح البيان، ص٥١.

(٢) الأركان الأربعة، ص ٨٨.

الثواب، بل تكون سببًا للعقاب. فانظر إلى صلاة المسيحيين يودونها متلطخين بالعذِرات بلا وضوء ولا طهارة الثياب ولا المكان، مع أنهم يطعنون في الطهارة وصلاة المسلمين التي يؤدونها بطهارة كاملة، فيستنجون بالأحجار أولًا وبالماء ثانيًا، ثم يغسلون وجوههم وأيديهم وأرجلهم ويمسحون رؤوسهم للصلوات الخمس ليلًا ونهارًا شِتاءً وصيفًا. ولنقدِّم لك تمثيلًا يوضح لك حال الصلاة: ألم يعلموا أن الإنسان إذا ذهب إلى لقاء الملك حاكم الوقت سلطان الزمان يلبس أحسن ثيابه، وينقي ثوبه وبدنه من الأدناس والأنجاس، ويجب أن يكون على أحسن حال، أفليس من المعقول أن يلبس وقت لقاء ملك الملوك سلطان السلاطين أحكم الحاكمين، وقيامه في جنابه ثيابًا طاهرةً، ويكون بدنه طاهرًا، هذا ظلم عظيم ولنعم ما قيل:

اے تعصب خیر را شر می کنی ۞ چشم کور و گوش را کر می کنی
از تعصب سینہ پاره می شود ۞ شیشۂ دل سنگ خارا می شود

معناه: أيتها العصبية! إنك تحولين كل خير شرًّا، تعمين البصر وتصمين الآذان. ينشق الصدر من جراء العصبية، ويتحول مرآة القلب حجرًا صلدًا.

بل لا نعتقد في عيسى عليه السلام أنه قام في الصلاة وجسمه متلطخ بالنجاسات – معاذ الله– ومن ادعى فعليه البيان، بل نقول: إنه كان طاهرًا متطهرًا متجنبًا من النجاسات. وهذه اختراعاتهم، اخترعها لهم بولس وألقاهم في أودية جهنم، وقال لهم: لا شريعة ولا أحكام، بل ادَّعى أن اليسوع المسيح خَلَّصهم عن لعنة الشريعة. قال بولس: «المسيح أنقذنا من لعنة الناموس، إذ صار لعنة لأجلنا؛ لأنه مكتوب: ملعون كل من عُلِّقَ على خشبة».(١) بل بل كان مُرشِدهم لوتهر يعلمهم الاجتراء على الذنوب، وارتكاب المُحرمات، وقتل النفوس، وكان يقول: الإيمان كاف لنجاتهم كما كان للمسيح.(٢)

إثبات الطهارة من كتابهم المقدس:

قد دعت التوراة إلى التزين بثياب طاهرة ولباس فاخر قشيب، وكان المسيح عليه

(١) رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٣/ ١٣.

(٢) مقدمة تفسير حقاني، ص١١٠ نقلًا عن «مرأة الصدق» للبادري بيديل.

السلام تابعًا لدين موسى عليه السلام، وهو التوراة، ففي سفر اللاوين: «يلبس هارون قميص كتان عند دخول القدس مقدسًا، وتكون سراويل كتان على جسده، ويَتَنَطَّقُ بِمِنطَقة كتان، ويتعمم بعمامة كتان، إنها ثياب مقدسة، فيرحض جسده بالماء ويلبسها».(١)

فالطبيعة والشريعة تقتضيان الطهارةَ عند الصلاة والوضوءَ عند رب الأرباب، خصوصًا إذا كانت الطهارة موجودة في الشريعة الموسوية التي قال فيها المسيح: إني جئت لأكمِّلها لا لأُبدِّلَها. وأما قول المسيح لليهود: «ليس شيء من خارج إذا دخل فيه يقدر أن ينجسه لكن الأشياء التي تخرج منه...». فمغزاه -لو صح- أنه لما عرف خبث بواطنهم أراد أن ينصَحهم وأن يُعَرِّفَهم أن غسل الأبدان من النجاسة والجنابة لا يفيد شيئًا لو وجد الخبث في الباطن، وليس المراد أنه يجوز للإنسان أن يصلي وهو متنجس متضمخ بالنجاسة. والله أعلم، وعلمه أحكم.

المصالح في تولية الوجوه إلى القبلة:

والمسلمون يصلون متوجهين إلى الكعبة الشريفة التي بناها إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام الذي هو إمامنا وإمامكم، ففي الكتاب المقدس في حقه: «وتم الكتاب القائل: فآمن إبراهيم بالله فحسب له بَرًّا ودُعِيَ خليل الله».(٢)

فالتوجه إلى الكعبة يشتمل على مصالح كثيرة: منها: التنبيه على اتباع إبراهيم عليه السلام، والإشعار بتوحيد الله تعالى كتوحيد إبراهيم عليه السلام بكسر الأصنام، وإخلاصِه لذوي الإنعام. ومنها: اجتماع الأفكار إذ كلهم يتوجهون إلى ذلك المقام المقدس، فتجتمع أفكارهم على نقطة واحدة. ومنها: تعظيم شعائر الله.

قال الشاه ولي الله الدهلوي: وأما الكعبة فكان الناس في زمن إبراهيم عليه السلام توغلوا في بناء المعابد والكنائس باسم روحانية الشمسِ وغيرها من الكواكب، وصار عندهم التوجه إلى المجرد غير المحسوس بدون هيكل يبنى باسمه يكون الحلول فيه والتلبس به تقربًا منه أمرًا محالًا، تدفعه عقولهم باديَ الرأي، فاستوجب أهل ذلك الزمان أن تظهر

---

(١) اللاوين ١٦/ ٤.

(٢) رسالة يعقوب ٢/ ٢٣.

رحمة الله بهم في صورة بيت يطوفون به، ويتقربون به إلى الله، فدَعَوا إلى البيت وتعظيمه.(١)

كيد الشيطان بهم في توجيههم إلى الشمس:

المسيحيون يصلون متوجهين إلى جهة مشرق الشمس، وهي غير القبلة التي كان يصلي إليها المسيح؛ لأن قبلته بيت المقدس. ثم إن بولس اليهودي الذي ألقاهم في جب الويل حوَّلَها من تلقاء النفس.(٢)

وقال ابن القيم: وكان المسيح يصلي إلى بيت المقدس، فصلَّوا إلى المشرق.(٣) وبيَّن – رحمه الله– أن سبب تبديل القبلة هو التلطف بالفلاسفة وعُبَّادِ الأصنام ليدخلوا في دينهم. قال: ثم أخذ دين المسيح في التبديل والتغيير حتى تناسخ واضحمل، ولم يبق بأيدي النصارى شيء، بل ركَّبوا دينًا بين دين المسيح ودين الفلاسفة عُبَّادِ الأصنام، وراموا بذلك أن يتلطفوا للأمم حتى يُدخلوهم في النصرانية، فنقلوهم من عِبادة الأصنام المُجسدة إلى عِبادة الصور التي لا ظل لها، ونقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق.(٤)

هذا هو لعب الشيطان بهم، وصدهم عن سبيل الله، بل زاد البادري بركة الله نغمة في الطنبور فقال: «ليست لنا جهة مخصوصة نتوجه إليها»، فخالف الأخلاف الأسلاف، وينطبق عليهم إذن قوله عزَّ وجل: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ (مريم: ٥٩)، ولنعم ما قيل: إذا فاتك الحياء فافعل ما شئت.

المصلحة في تعين الأوقات في دين الإسلام:

كان الناس في عهد إبراهيم عليه السلام يعبدون الشمس والكواكب، كما يشهد به القرآن المَجيد، ويسجدون لها حين تنوُّرِها وطلوعها وغلبة نورها وظهورها، فالمِلَّةُ الإبراهيمية خالفتهم في طريق العبادة وفي تعيين الأوقات، فالأوقات من زوال الشمس إلى غروبها كلها أوقات انحطاط الشمس، فتناسب عبادة المسلمين مخالَفةً عنهم. ولانحطاطها

---

(١) حجة الله البالغة ١/ ٧٠، ط: مصر.

(٢) الجواب الفسيح، ص٣٠٨.

(٣) إغاثة اللهفان ٢/ ٢٧٠.

(٤) إغاثة اللهفان ٢/ ٢٧٠.

ثلاث مراتب: الأولى: أن تنحط من سمت الرأس، وهذا وقت الظهر الذي تجب فيه صلاة الظهر. الثانية: أن تنحط من محاذاة النظر إذا قام الرجل متوجها إلى مغربها، وهذا وقت العصر نصلي فيه العصر. الثالثة: أن تنحط عن أفقها، وهذا وقت المغرب المفروض فيه صلاة المغرب. وفُرِضت صلاة العشاء إذا ذهبت بقية آثارها وغاب الشفق. ولما كانوا يعبدون النجوم والكواكب فرضت الصلاة الأخرى صلاة الفجر حينما تغيب النجوم وأسفَر النهار. وفي تعيين الأوقات على هذا المنهاج تلميح لطيف إلى أن الشمس والنجوم ذاهبة فانية لا تستحق للعبادة؛ لقبولها الانحطاط والزوال والنقصان والاضمحلال. والمعبود يجب أن يكون متصفًا بالكمال والجلال.(١)

وأما طعنه -أي البادري- أن الدين المسحي يجيز العبادة والصلاة في جميع الأوقات، ليس فيه تعيين الأوقات كما في الإسلام، فباطل وداحض، فلو كان مراده أنه ليس للعبادة وقت معين محدد في المسيحية، فلم ذكروا في كتبهم صلاة الفجر والمغرب المخصوصَيْن بالفجر والمغرب، وإن كان المراد أن العبادات غير الصلاة لا تتعين بالأوقات، فعند المسلمين أيضًا لا تتعين، ولذا قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (آل عمران: ١٩١)؛ بل يستحب ذكر الله في كل وقت، وقد وردت الأذكار المختلفة والصلوات المتنوعة عن سيد الثقلين ليلًا ونهارًا، صباحًا ومساءً، عند النوم واليقظة، كما لا يخفى على من له أدنى إلمام بالأحاديث والآثار، وإنما كرهت الصلاة في أوقات ثلاثة لفِقهٍ ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في موضعه.

قراءة المسلمين في الصلوات والمقارنة بين القراءتين:

ثم أهل الإسلام يصلون مستفتحين بالكلمات الخارجة من مشكاة النبوة، وهي: «الله أكبر» تعظيم للرب الكبير فوق كل كبير، وخشوع، وخضوع، وإقرار بتعالي ذاته وصفاته، ثم يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله وغيرك». كلها إخلاص، وتوحيد، وتقديس، وتمجيد. ثم انظر إلى سورة الفاتحة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦

---

(١) مستفاد من السيرة النبوية، للسيد سليمان الندوي، وهي بالأردية.

صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ (الفاتحة) حمدٌ وثناءٌ وشكرٌ للمعبود الحقيقي، واعترافٌ بربوبيته لجميع الخلق، ورحمته على الخواص والعوام، ثم اعترافٌ بيوم الدين والجزاء والعقاب، ثم تخصيص الله بالعبادة والاستعانة، ثم يدعوه للهداية إلى الصراط المستقيم صراط المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، واستعاذة عن طريق أهل الزيغ والضلال. وقراءة شيء من القرآن الذي كله نورٌ وهدايةٌ ورشدٌ لأهل الغواية من التوحيد والرسالة والتخويف والبشارة. فهل يستوي هذا وما يتفوَّه به المسيحيون من التثليث والضلالة والبنوة والغواية؟ كلا! هل يستوي الأعمى والبصير! أم هل تستوي الظلمات والنور!

سوختم از دستِ صرافانِ ناگوهر شناس ۞ قیمتِ خرمهره با گوهر برابر می کنند

معناه: قد هلكت على أيدي الصرافين الذين لا يتفطنون للجوهر، فإنهم يسوون بين ثمن الخَرَزَة وثمن الجوهر.

وقال الشاعر:

چراغِ مرده کجا، نورِ آفتاب کجا ۞ ببیں تفاوت راه از کجا است تا بکجا

معناه: أين المصباح الذابل المنطفئ من نور الشمس، ألا ترى ما بينهما من الفرق الشاسع والبون البعيد.

فانظر إلى قولهم ناوِينَ للصلاة باسم الأب والابن وروح القدس، ساجدين لله والمسيح ومريم عليهما السلام، ففي صحفة٢٢٦ من كتاب أمجاد مريم «الله يوحي للشيطان: من يصلي إلى مريم لا تؤديه إلى جهنم».(١)

وانظر إلى قول المسلمين مستفتحين بـ «الله أكبر» يؤدون الصلاة خالصًا لله تعالى، لا والله! والبون بينهما كالبون بين الثَّرَى والثُّريَّا، فالمسلمون يجتنبون شائبة عبادة الأصنام، حتى يُكره في الإسلام أن يقوم المُصلي بحذاء أسطوانة لئلا يتشبه بعبدة الأصنام.

ثم تأمل قراءَتهم في صلاة الفجر قالوا: «نسجد ونتضرع للمسيح إلهنا، أيها الرب خَروف الله». وصلاة الساعة الأولى: «المسيح الإله الصالح الطويل». فجمعوا بين كونه إلها

(١) الجواب الفسيح، ص ٣٠٨ .

وبين كونه طويل الروح، وهو الصبر على الآلام، وهذا ينافي الألوهية. وما يقولونه في صلاة الساعة الثانية: «والدة الإله السماوي أنت هي الكريمة». يثبتون لله الوالدة، فهل اعتقد أحد من الأنبياء الوالدة لله تعالى؟ هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، فإن لم يقدروا ولم يوجَد في كتب الأنبياء السابقين والدة لله تعالى، فاختراع هذه العقيدة كفر وضلالة، وهذا يقتضي عبادة مريم، فلا فرق بينهم وبين المشركين عَبَدَةِ الأصنام الكثيرة، إذ لا فرق بين عدد وعدد، فالثلاثة والألف سواء. بل لهم صلاة يسمونها صلاة مريم، ففي الكتاب «ثلاث عشرة رسالة» المطبوعة في بيروت سنة ١٨٤٩م في الكتب الرومانية «هذه الصلاة لمريم العذراء». ونصها: «يا خطيبة مختارة من الله! يا أيتها المستحقة للإكرام فوق الجميع والمستحقة للمحبة قبل الجميع! يا باب السماء! يا من هي الخلاص والسعادة الحقيقية! يا تعزية المحزونين! يا مَلَكة السماء التي جميع الملائكة يسجدون لها وكل شيء يُسَبِّحها ويكرمها، صلِّي لأجلنا، خلِّصينا يا أيتها الملكة من كل شر من كل تجربة من غضب الله وسخطه من قطع الرجا، خلِّصينا من الكبر والبخل والغضب والحسد، خلصينا في ساعة الموت وفي يوم الدين من عذابات جهنم الشديدة، نتضرع إليك أن تسري وترتضي بأن تحفظي الكنيسة المقدسة وجميع الشعب المسيحي، فاستمعينا يا أم الله! يا ابنة الله! يا خطيبة الله! يا سيدتنا! ارحمينا وأعطينا السلام الدائم، يا أم النعمة! يا سرور البائسين الأشقياء بأبواب الكنيسة! لكِ نسجد، لكِ نرتل تسابيح من صميم قلوبنا، أنتِ خلاصنا وفرجنا في وقت الضيق».[1] انتهى بحروفه.

وتدبَّر في قراءتِهم في الصلاة السادسة «يا من سُمِرت يداه على الصليب...». فيعظمونه وينادونه لتخليصهم، ثم يصفونه بالضعف والصلب والنقصان والصياح لأجل الصليب، هذا حال حبهم وغرامهم بإلههم، يُعِزّونَ تارة ويُذِلّون أخرى، وهكذا يفعل السفهاء والحمقاء، ولنعم ما قيل:

صبح دم مرغِ سحر باگلِ نوخواسته گفت ۞ نازکم کن که دریں باغ بسے چوں تو شگفت
گل بخندید که از راست نه رنجیم ولے ۞ هیچ عاشق سخن تلخ بمعشوق نه گفت

معناه: قال ديك السحر للنور: أقلِّ الفخر، فما أكثر ما يتفتح الأزهار في هذه الحديقة

---

(١) الجواب الفسيح، ص ٦٤.

من أمثالك. فضحك النور قائلا: لا أحزن على الصدق، ولكن ليس أحد من العاشقين من يغلظ القول ويقول قولًا مرًّا للمحبوب.

ثم انظر فيما يتلون في الصلاة للساعة التاسعة: «يا من ذاق الموت من أجلنا! عليك إبتهالنا». تفكر في تضرعهم إلى من قُتِل على الصليب، ولا أدري أي شيء يُحْوِجُهم -بعد أن تخلصوا- إلى شفاعة أمه، وكيف يسيئون الظن بالإله ويسألونه أن لا ينقض العهد.

وتأمل في ما يتفوهون به في صلاة المغرب: «يا والدة الإله العذراء» الخ. ففيه التجاء إلى أم عيسى عليه السلام وتضرع في جنابها، وقول بألوهية يوحنا، فلا ندري كم إلها لهم، ولعلهم لم يسمعوا قول رجل صائب من أهل الفترة، ولم يلتفتوا إلى شعره حيث قال:

أربًّا واحدًا أم ألفَ رب ۞ أَدِيْنُ إذا تقسمت الأمور

تركتُ اللات والعزى جميعًا ۞ كذلك يفعل الرجل البصير(١)

وتدبَّر فيما يتلونه في صلاة النوم «الملائكة يمدحونك بتهليلات» الخ. وما يتلونه في صلاة نصف الليل «تبارك الرب إله آبائنا» ففي الصلاة الأولى أقروا بمماثلة الابن للأب وقالوا: «ابنك نظيرك» وفي الصلاة التالية أقروا بأن الله فوق المتعالي، وهذا تناف صريح، وتناقض ظاهر.

محاسن أركان صلاة المسلمين من الركوع والسجود وغيرهما:

ثم أيها القارئ -زادك الله وإياي فهمًا- تفكر في طريق عبادة المسلمين، فإنها مشتملة على الركوع والسجود والقعدة والتسليم، كلها مُشْعِرة بالتوحيد والتعظيم والإخلاص والتفخيم، فإن الإنسان إذا قام في الصلاة ووضع اليدين تحت السرة أو على الصدر فكأنه يشير إلى أن قدرته (الإنسان) مأخوذة ومستعارة من قدرة الله عز وجل، ويومِض إلى أنه خادم وحقير يخدُم الرب تعالى، كما أن الخادم يقوم واضعًا لليد على الصدر أو تحت السرة، هكذا يفعل المصلي، ثم إذا تلا كلمات التعظيم وآيات القرآن الحكيم، ويوقن أنه ضعيف في جنب عَظَمة الله تعالى يطرأ عليه حالة التواضع، والذي يقوم مقامه في عالم الأجسام هو

(١) البيتان لزيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه. راجع: تاريخ مدينة دمشق ١٩/ ٥١٣.

الركوع فيركع، ثم إذا رسخ في قلبه ذلك الاعتقاد ويستحقر نفسَه حتى من الذباب والبعوض تنشأ في قلبه كيفية تدل على كمال التعظيم، والذي يقوم مقامه السجود، ثم يكرر السجدة ترغيمًا للشيطان؛ لأنه أبي وأنكر وتكبر عن السجود الذي فيه كمال التعظيم، ويصير به الإنسان أقرب ما يكون من ربه، وفيه نهاية الخَفض والعَجز؛ لأنه تنكيس البدن، وأشرف أحوال العبد عند لقاء الرب أن يلقاه أخفض ما يكون، وفيه إلصاق الجبهة بالأرض، وذلك يُذَكِّر الإنسان أصلَه وحقيقته وما تركَّب منه وهو التراب، ويوجِّهه إلى التواضع لخالقه، والاعتراف بفضل كرمه، وفيه سكون الأعضاء وحبسه عن التعامل مع العالم المادي.(١) ثم إذا أحسَّ تعبًا يقول الله تعالى له: اقعد يا عبدي لقراءة الثناء كما في القعدة الأولى، أو لطلب الدعاء كما في الأخيرة.

قال في محاسن الإسلام: فكأنه يقول الرب: عبدي إذا فرغت من الخدمة فاقعد لسؤال الحاجة، ومن بدائع لطفه مع عبده في ضعفه أن في صلاة واحدة يأمره بالقعود مرتين، فكأنه يقول: اُقعُد عبدي! فقد تعبت في خدمتي، فيا ويل من يخدم الخلق يقوم بين يديه يومًا ولا يقول له: اقعد! ويقوم أمامَ خالقه ساعة فيقول له: اقعد، في حالتين، فبالقعدة الأولى يقول له: أخلص ثناءك، وبالقاعدة الثانية يقول له: اطلُب رجاءك وادعُ دعاءك، لا تمنع عطاءك.(٢)

فالحاصل أن الصلاة في الإسلام دعاء، وإلى الرب نداء، وحمد وثناء، وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وتكبير، وتسليم، وطلب رحمة، وتعظيم. ولو اجتهدنا في جمع مزايا الصلاة، وأفعالها، وأركانها، وقراءتها، ومشمولاتها لكانت كتابًا ضخمًا، إلا أن القليل نموذج الكثير، والغُرفَة تُنبئ عن البحر الكبير.

النظر في طريق عبادة المسيحيين:

ثم تأمل في طريق عبادة المسيحين، فإن غاية تعظيمهم أن يخروا على ركبهم ويجثون. وأظن أن ذلك الطريق أوجدها أذهانُهم، فإن مريم عليها السلام أمرت بالسجود. قال الله تعالى: ﴿ يَـٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (آل عمران: ٤٣)، كانت مريم عليها

(١) لخصت هذه الوجوه من العبادات في الإسلام، لمحمد إسماعيل.

(٢) محاسن الإسلام، ص ١٤.

السلام على دين عيسى عليه السلام، وقد أمِرت بالركوع والسجود، فطريق عبادتنا أتم، وأبلغ، وأكمل، وأخشع، وأطبق على العقل وأخضع.

يا تنگ نہ کر مجھ کو اے ناصح نادان ۞ یا چل کر دکھادے کمر ایسی دہن ایسا

معناه: لا تضايقني أيها الناصح الأحمق! أو تعال أرني مثل هذه الخاصرة، ومثل هذا الفم.

الحكمة في كون الصلاة بالعربية:

اعلم أن المسلمين يتبعون رسولهم، ويقرؤون ما أُنزل عليه، فما يتلى في الصلاة إما القرآن، أو الأدعية المأثورة من النبي صلى الله عليه وسلم، وكلاهما بالعربية الفُصحى لا مثل لهما في البلاغة والفصاحة. أما القرآن فله تأثير بليغ، وإعجاز متناه، فقد أعجز مصاقعَ الفُصحاء، وأخرس شقاشق البلغاء عن معارضته، فقد قال الله تعالى وصدق: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨) وقال عزَّ وجل: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٢). فالقرآن: الباهرة آياته، القاهرة معجزاته، له شأن عظيم، والكلماتُ الأخرى بإزاءها لا تبلغ شأوها، ولا تمس صفحة سمائها، فهو الحقيق بالقراءة، وله المثل الأعلى. وأما الأدعية المأثورة الخارجة عن مشكاة النبوة، فلا مثل لها في كلام البشر، فكلِماته جوامعُ الكلم، فهو أفصح البشر وأبلغ العرب والعجم، أُروِيَ من حياض البلاغة، وسُقي من منابع الفصاحة، ورضع من ثدي البراعة، فترْكُ مثل هذا الكلام والاشتغالُ بكلام لا يعلم صحيحُه من فاسده مما لا ينبغي.

قال الشافعي رحمه الله تعالى: فإذا كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض، فلا بد أن يكون بعضهم تبعًا لبعض، وأن يكون الفضل في اللسان المتَّبَع على التابع، وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي صلى الله عليه وسلم.[١] فعند اختلاف الألسنة الرجوع إلى لسان المتبوع أوفق بالعقل.

---

(١) رسالة الشافعي رحمه الله تعالى برواية الربيع بن سليمان، بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، ص٤٦، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

ولم تُجْزْ بلسان آخر؛ لتكون لغة الصلاة لغة عالمية تجمع أهل الإسلام حول مركز واحد، ويعرف المسلمون أن صعيد اجتماعنا واحد، وهكذا يعلمون الوحدة في زمان ومكان، ويصيرون مصاديق قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وتعاظُمَها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بَرٌّ تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله تعالى، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب، قال الله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)

اللغة تؤثر في المعاشرة والبيئة:

ومن المعلوم المتقرر أن اللغة تفعل في أحوال الإنسان وشؤونه ما تفعل نار الحداد في الحديد، فاللسان الرائج في أي بلد يرغِّب قلوبهم، ويميل أذهانهم، ويسيرهم على منهاج أهل هذه اللغة، ويَصْرِفهم عما هم عليه من الطِّراز الأول إلا من شاء الله تعالى، وليس هذا خرص وتخمين، بل تَجرِبة ومشاهدة، وإن أردت أن تحصل العلم بهذا وتزيد يقينًا فانظر إلى حال أهل الهند قبل مئة سنة، كانت لهم معاشر وأسلوب خاص في كل شيء، وبعد ما تسيطر الإنكليزيون، وأنشبوا أظفارهم، ورَوَّجُوا لغتَهم الإنجيليزية في كل شيء، حتى كتبوا على الخطاب، وعلبة الكبريت، ولوح الدفاتر هذه اللغة، تبدلت المعاشرة الهندية، وتغيرت شاكلتهم وطريقتهم، فالآن تراهم منصبغين في حبهم، منغمسين في حياضهم المُتَرعَةِ من الأنجاس، وهذا أثر هذه اللغة، فإلى الله المشتكى، وإليه ندعو أن يخلِّصنا من حب هذه اللغة إلا بقدر الضرورة -فإن الضرورات تبيح المحظورات، فالضرورة غير المحبة- ويصبَغَنا بصِبغ دينه الحق، ويجنبنا عن المعاصي، ويُشَيِّبَنا في لغة نبينا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ويُمِيتَنا عليه، فإنها أحب الألسنة، وأشملها، وأعمها، وأكثرها فائدة وعائدة، وأوفر ألفاظًا ومعانٍ، وأوسعها مادة، بل أكثر اللغات مأخوذة عنها حتى قيل: إن نحوًا من خمس مئة لفظ من الإنجليزية مأخوذة من العربية. والله أعلم.

الصوم في المسيحية والإسلام

الصوم في الديانة المسيحية:

قد ثبت أن الصوم عبادة في جميع الأديان، ويرشدنا إلى هذا قولُ الله تعالى في القرآن الحكيم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٣). ولسنا بصدد التعرض إلى الصوم في الأديان الأخرَ غير المسيحية، فإن موضوعنا يتعلق بذلك، فالإنجيل الجليل يصرِّح عن صوم المسيح عليه السلام ويقول: إنه صام أربعين يومًا، ففي إنجيل متى: «ثم أصعد يسوع إلى البرية من الروح ليُجَرَّب من إبليس، فبعد ما صام أربعين نهارًا وأربعين ليلة جاع أخيرًا».(١)

يترشح من الإنجيل أنه صام ذلك بعد النبوة.(٢) وأمر به أمته ونهى عن الرياء فيه. قال: قال: «ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمُرائين، فإنهم يغيرون وجوههم لكي يَظهروا للناس صائمين، الحق أقول لكم: إنهم قد استوفوا أجرهم. وأما أنت فمتى صمتَ فادَّهن رأسك واغسل وجهك، لكي لا تظهر للناس صائمًا، بل لأبيك الذي في الخفاء، فأبوك الذي يراك في الخفاء يُجازيك علانية».(٣)

وفي كتاب يوئيل من العهد القديم (الذي هو حجة عندهم وجزء من الكتاب المقدس): «ولكن الآن يقول الرب: ارجعوا إلي بكل قلوبكم وبالصوم والبكاء والنَّوح».(٤)

فانكشف مما ذكرنا وحكينا أن الصوم موجود في الأديان القديمة خصوصًا في دين

---

(١) إنجيل متى ٤/ ١-٢.

(٢) إذ في الأصحاح قبله: «فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء، وإذا السماوات قد انفتحت له، فرأى روح الله نازلًا مثل حَمامة آتيًا عليه وصوت من السماء قائلًا: هو ابني الحبيب الذي سُرِرْتُ به». متى ٣/ ١٦-١٧.

(٣) متى ٦/ ١٦-١٨.

(٤) يوئيل ٢/ ١٢.

النصارى. ثم كم عدد صيامهم وطريقها ومبتدأها ومنتهاها وموسمها ووقتها، فاختلفوا فيه اختلافًا شديدًا. قال الشيخ أبوالحسن علي الندوي: فالمسيحيون الأوَّلون يصومون يوم الكفارة، ولكن المسيحين الذين ينتمون إلى أصول أخرى لم يَلُمُّوا على ذلك، وبعد انتهاء القرن الأول المسيحي ونصف قرن صار الأمر مُوْكولا إلى تقوى الصائم، فبعض الرهبان يقترحون صيامًا ليقاوم به المسيحيون الإغراءات (المادية والجنسية).

ويتحدث القديس (ايرنيس) عن أنواع من الصيام: منها: ما يستغرق اليوم، ومنها: ما يستغرق يومين أو بضعة أيام، ومنها: ما كان يستغرق أربعين ساعةً متوالية، وكان صوم «جمعة الآلام والصلبوت» صومًا شعبيًّا عامًّا، وكان صوم يوم الأربعاء ويوم الجمعة شائعًا في بعض الأقطار في القرن الثاني المسيحي، وكان الذين ينتظرون الاصطباغ يصومون يومًا أو يومين ويشترك فيه مُتَوَلُّوا الاصطباغ، وقد نال الصوم قسطًا كبيرًا من التنظيم والتقنين في فترة بين القرن الثاني والقرن الخامس المسيحي، وقد اتسم الصوم بصلابة وشدة في القرن الرابع، وقد حُدِّد اليومان اللذان يسبقان «عيد الفصح» بالصوم في هذا العصر. وكان الصوم في هذين اليومين ينتهي في نصف الليل، والمَرضى الذين لا يستطيعون أن يصوموا في هذين اليومين كان يسمح أن يصوموا «يوم السبت»، وقد سُجِّلت في تاريخ المسيحية والمسيحيين في القرن الثالث أيام الصوم. وكأنه هنالك اختلاف في نهاية الصوم فكان بعضهم يُنهي ويفطر عند صوت الديك، وبعضهم إذا أرخى الليل سُدوله. أما صوم أربعين يومًا فلا يوجد له أثر إلى القرن الرابع الميلادي.

وكانت اختلافات في صيامهم، فصيام أهل روما يختلف عن صيام أهل لامان والإسكندرية، وبعضهم يمسك عن تناول الحيوانات خلافًا لغيره، وبعضهم يكتفي بالسمك والطيور، وبعضهم يضرب عن البيض والفواكه، وبعضهم يجتزء على الخبز اليابس، وبعضهم يكف عن كل ذلك. وقد شُرِعت أيام أخرى للصوم في القرون المتأخرة تِذكارًا لحوادثَ وأيامٍ تتصل بحياة المسيح وبتاريخ المسيحية يطول عدها. منها: ما كان يستغرق ثلاث ساعاتٍ وأربعًا يُمسك فيها الصائم عن الأكل والشرب.

وقد حُدِّدت أيام مختلفة في القرون الوسطى للصوم في العالم المسيحي تختلف باختلاف

الأقاليم والبلاد، وبعد الإصلاح حدَّدت الكنيسةُ الإنجليزية أيام الصوم، ولم تُقَنِّن قوانين وحدودًا للصائمين تاركة لضمير الفرد، ولكن قوانين البرطان الإنكليزي في عهد ايدرود السَّادس، وجيمس الأول، ومرسوم الزبته فَرَضَ الإمساك عن اللحوم في أيام الصوم.(١)

قال غلام مسيح: «ولم يأمر عيسى عليه السلام أتباعه بصوم يوم معين، بل أي يوم شاءوا صاموا، إلا أن المسيح أمر أن المطلوب الأصلي في الصوم هو رضى الله تعالى لا الرياء».(٢)

لقد تبين من هذا وتقرر أن عيسى عليه السلام وإن صام أربعين يومًا ويومَ الكفارة لكن المسيحين لا يعملون بذلك، بل حرَّفوا ذلك وابتدعوا من أنفسهم صيامًا وطرقا مختلفة. منها: ما يستغرق يومًا، ومنها: ما يستغرق يومين أو بضعة أيام. وكذلك يختلفون في وقت انتهاء الصوم. وبعضهم يمسك عن تناول الحيوانات. وهذا صومهم إلى غير ذلك مما تَلَوْتَ ووَعَيتَ. قال العلامة الآلوسي: «وكذا الصيام الذي هو عندهم عبارة عن ترك بعض أنواع الأطعمة، لا عبارة عن ترك الأكل والشرب كما هو صيام المسلمين».(٣)

الصوم في شريعة المسلمين:

الصَّوْمُ بالفتح وسكون الواو في اللغة: الإمساك عن الفعل مَطْعَمًا كان أو كلامًا أو مشيًا، كما في المفردات(٤)، أو ترك الإنسان الأكل كما في المغرب(٥). وعند الفقهاء: ترك الأكل الأكل والشرب والوطي من زمان الصبح إلى المغرب مع النية.(٦)

وهو فرض على المسلمين البالغين شهرًا واحدًا، هو شهر رمضان. قال الله تعالى:

﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ (البقرة: ١٨٥)، والمراد من الشهر شهر رمضان

---

(١) الأركان الأربعة بحذف بعض العبارات نقلًا عن دائرة معارف الأديان والأخلاق.

(٢) عيسائيت مىں ايمان وعمل.

(٣) الجواب الفسيح، ص٣٠٨.

(٤) مفردات غريب القرآن، ص٢٩١.

(٥) المغرب في ترتيب المعرب ١/ ٤٨٧.

(٦) كشاف اصطلاحات الفنون، ص٨٥٧.

المعهود فيما قبلُ من الآيات. وقد فُرِض في السنة الثانية من هجرة سيد المهاجرين. والآية التي هي مناط الصوم ومداره قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١٨٤ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝١٨٥﴾ (البقرة)

ذكَر الله تعالى في هذه الآيات أمورًا:

الأوَّل: إن الصوم ليس أمرا مبتكرا، بل لكم فيه أسوة حسنة بالأمم السابقة.

والثاني: إن الصوم يورِث التقوى، ويردع عن الهوى، ويزيد في الروحانية، ويوصل المسلم إلى سُرادقات اللاهوت. قال حجة الله في الأرض ولي الله الدِّهلوي رحمه الله تعالى: لَـمَّا كانت البهيمية الشديدة مانعةً عن ظهور أحكام الملكية وجب الاعتناء بقهرها، ولَـمَّا كان سبب شِدَّتها وتراكُمِ طبقاتها وغَزارَتِها هو الأكل والشرب والانهماكُ في اللذات الشهوية، فإنه (أي: الانهماك) يفعل ما لا يفعله الأكل الرَّغَدُ، وجب أن يكون طريقُ القهر تقليلَ هذه الأسباب.[1]

والثالث: إن الصوم ليس زمانه كثيرًا يَمَلُّ به الإنسان ويختل به فكره، بل أيامًا معدودات.

والرابع: إن هذا ليس حكمًا عامًّا لجميع أفراد الإنسان في هذا الوقت المعين، بل ليس على المريض والمسافر ضيق وإجبار، فإنهم يفطرون ويقضُون بعد الصحة والإقامة، وذلك لأن الله تعالى يريد بكم اليُسْرَ ولا يريد بكم العسر.

والخامس: إن هذا الشهر المفروض فيه الصيامُ شهر رمضان الذي أنزِل فيه القرآن الذي هو مِنَّة عظيمة من منن المَنَّان.

---

(١) حجة الله البالغة ٢/ ١٤٢. والأركان الأربعة.

فوائد الصيام:

لما اجتمع في الإنسان قوتان: قوة روحانية، وقوة شهوانية، وبينهما تجاذب ومجادلة، فالقوة الروحانية تجذب الإنسان إلى الروحانية الصِّرفة، وتنشأ منه الرهبانية، والثانية يغرق الإنسان في الحيوانية، فلا يتفكر إلا في المآكل والمشارب، وأنت تعلم أن أكثر الناس يميلون إلى الشهوات الفانية طبعًا، فالصوم علاج وحيد للمادة الطاغية وقَدُوْمٌ لِـمُغْريات الشهوة ومفاسد التخمة، وإليه الإشارة في قوله عليه السلام: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء».[1] وفيه تَخَلُّقٌ بأخلاق الله -يقول أهل التصوف: تخلقوا بأخلاق الله تعالى-، وتشبه بالملائكة، ورياضة شديدة ومقاومة للنفس.

قال الغزالي رحمه الله تعالى: «فأما علماء الآخرة فيعنُون بالصحة القبولَ، وبالقبول الوصولَ إلى المقصود، ويهتمون أن المقصود من الصوم التخلُّق بِخُلُقٍ من أخلاق الله تعالى وهو الصمدية. والاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بحسب الإمكان، فإنهم منزَّهون عن الشهوات».[2]

وفيه اكتساب محاسن الأخلاق؛ فإن قلة الأكل من محاسن الأخلاق. وفيه إحساس الفقر والمؤاساة مع الفقراء؛ فإنه يعلم الجوع ويحس أثره، ثم ينتهض فيه داعية إطعام الفقراء والمساكين بسبب أَلَمٍ يخمشه. وفيه تمرين الصبر، والله مع الصابرين، وقد جاء أن الصبر نصف الدين، والصائم يصبر ويترك أحبَّ الأشياء خوفًا من رب العالمين. وفيه هجر المعاصي. وفيه كثير من الفوائد الطِّبيعية ذكرها عبد الفتاح رحمه الله تعالى. منها: أنه علاج لاضطراب الأمعاء المُزْمِنة والمصحوبة بتخمير في المواد الزُّلالية النشوية، وعلاج زيادة الوزن الناشئ من كثرة الغذاء وقلة الحركة، وزيادة الضَّغط الذاتيِّ، والبول السكري، وهو منتشر انتشار الضغط، والتهاب الكلى الحاد والزَّمن المصحوب بارتشاح وتورُّم، وأمراض القلب

(١) صحيح البخاري، رقم: ٥٠٦٦.

(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٢٧٩.

المصحوبة بتورم، والتهاب المفاصل المزمنة خصوصًا إذا كانت مصحوبة بسمن.[١]

وفي «محاسن الإسلام»: ومن جملة المحاسن: أنه مهما خلا البطن عن اللُّقَم امتلأ من الحكم. قال عليه الصلاة والسلام: «ما مُلِئَ وِعاءٌ شرًّا من بطن»[٢] إذ ليس في العالم وعاء يصلح للحِكم إلا البطن، وليس من الحكمة أن يُملأ من اللقم ويمنع من الحكم، فالمؤمن إذا خلا بطنه صفا سره، وأشرق نوره وبرُّه.[٣]

الحكمة في توالي أيام الصوم:

وإنما شرع متواليا لا منفصلا، ليحصل به ما هو المقصود من الصوم، وهو ضعف القوة الشهوانية وتقدم القوة الروحانية وازدهارها، فإن تخلل الفترات الطويلة يُعدِم مقاصد الصوم، ولا يُضعِف القوة البهيمية، ولا يؤثر في نفس الإنسان وأخلاقه وعاداته، فكان من الحكمة أن تتوالى. واستُثنِيَ منه الليل لِما في ذلك من المشقة والحرج، وما جعل الله في الدين من حرج.

قال العلامة ولي الله الدِّهلوي رحمه الله مبيِّنًا لتعين مقداره: «ثم وجب تعيين مقداره لئلا يُفَرِّطَ أحد فيستعمل منه ما لا ينفعه وينجع فيه، أو يُفْرِط مفرط فيستعمل منه ما يُوهِن أركانه ويذهب نشاطَه...، وجعلت المدة المتخللة بين الأكلات زائدة على القدر المعتاد؛ لأنه يُخفِّفُ ويُنَقِّه ويذيق بالفعل مذاقَ الجوع والعطش، ويُلحق البهيمية حيرةً ودهشة ... ويُضبَط اليوم بطلوع الفجر إلى غروب الشمس؛ لأنه هو حساب العرب ومقدار يومهم، والشهر برؤية الهلال؛ لأنه شهر العرب وفيه سهولة...، وأيضًا فإن اجتماع طوائف عظيمة من المسلمين على شيء واحد في زمان واحد يرى بعضهم بعضًا: معونةٌ لهم على الفعل، وسبب لنزول البركات».[٤]

---

(١) روح الدين الإسلامي، لعفيف عبد الفتاح طبَّاره، ٤١٨-٤١٩.

(٢) روى معناه الترمذي عن مقدام بن معدي كرب، باب ما جاء في كراهية الأكل، رقم:٢٣٠٢.

(٣) محاسن الإسلام، ص٢١.

(٤) حجة الله البالغة، كتاب الصوم ٢/ ١٤٣-١٤٥.

المقارنة بين الصومين: صومهم وصوم المسلمين:

ثم أيها القارئ -رحمني الله وإياك- تفكَّر في صيامهم وصيام المسلمين، فإن صيامهم ليست بِمُستَندَة ولا هو فعل رسولهم، فإن عيسى عليه السلام صام أربعين يومًا ويومَ الكفارة الذي أمر به اليهودَ، ففي سفر اللاوين: «وكلم الرب موسى قائلًا: أما العاشر من هذا الشهر السابع فهو يوم الكفارة محفِلًا مقدسًا يكون لكم، تذلِّلون نفوسَكم وتقربون وقودًا للرب، عملًا ما لم تعملوا في هذا اليوم عينه، لأنه يوم الكفارة للتكفير عنكم أمام الرب إلهكم».[١]

وكان المسيح عليه السلام متبعًا لشريعة موسى عليه السلام. قال صاحب إنجيل متى: «لا تظنوا أني جئتُ لأنقض الناموسَ أو الأنبياء، ما جئتُ لأنقض بل لأُكمِّل، فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل».[٢]

والمراد من الناموس التوراة، كما في إنجيل الأردية: «*نہ سمجھ کہ میں توریت یا نبیوں کی کتابوں کو منسوخ کرنے آیا ہوں*».

لا يوجد لهذه الصيام أثر عند أكثرهم، بل وكَّلوا ذلك إلى تقوى الصائم، واقترحوا صيامًا من أنفسهم صيامًا لمقارنة الإغراءات، وصيامًا آخر: يومَ الجمعة وقبل الاصطباغ وغير ذلك، وهذا ابتداع وتشريع منهم، ليس له أثر في ديانتهم، يحرِّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظًّا مما ذكروا به، ولم يعملوا بأحكام المسيح عليه السلام. وفي الإنجيل: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي».[٣] قال له يسوع: «أنا هو الطريق، والحق، والحياة، ليس أحد يأتي إلى الأب إلاَّ بي».[٤] فنبَذُوا هذا الطريق وراءَ ظهورهم كأنهم لا يعلمون. فذرْهم في

---

(١) اللاوين ٢٣/ ٢٧-٢٩.

(٢) متى ٥/ ١٨-١٩.

(٣) يوحنا ١٤/ ١٥.

(٤) يوحنا ١٤/ ٦.

خوضهم يلعبون. قال الشاعر:

عارف هم از اسلام خراب است وهم از كفر ۞ پروانه چراغ حرم و دير نداند

معناه: العارف، أي: من يدعي المعرفة هالك من الإسلام ومن الكفر أيضًا، الفَراشةُ لا تعرف مصباح الحرم ولا بيت الأصنام.

ثم انظر إلى صيام بعضهم ما يستغرق يومين، أوبِضعة أيام، أو أربعين ساعة. وتأخير الفطر إلى إرخاء الليل سُدُوله، ولا يخفى ما فيه من التشديد والغلُوِّ وتطويل مدة الصوم، وإضرار البدن أشدَّ الضرر حيث لا يبقى في الجسم بعد ذلك نَشاط، ولا قوة مقاومة الأعمال واكتسابها، والخوض في أشغال الدنيا والآخرة.

والإسلام سَدَّ جميع تلك الطرق، بل قَدَّرَ مدة يمكن أن يتحمل الإنسان مشقتَه، ولذلك رغَّب النبي صلى الله عليه وسلم في السحور وتعجيل الفطر. وانظر إلى صيام بعضهم والتفريط في أمرها، منها: ما يستغرق ثلاث ساعات أو أربعًا، ولا يحصل منه الغرض المطلوب، ثم تأمل في إمساك بعضهم عن تناول الحيوانات واللُّحوم ليس له أثر في دينهم، وهذا غلُوٌّ وتشديد على أنفسهم وتحريم للطيبات بلا وجه. فالحمد لله الذي شرَّفنا بالإسلام خير الأديان، وجعل أمةَ محمد صلى الله عليه وسلم خير أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وجعلها أمة وسطًا، كما قال الله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ (البقرة: ١٤٣)

وعيَّن اللهُ تعالى لصومنا ابتداءً من الصبح الصادق إلى غروب الشمس، وهذان الوقتان ضَبْطُهما أسهل، ومن رؤية الهلال إلى رؤية هلال آخر. قال النبي صلى الله عليه وسلم فداه أبي وأمي: «لا تصوموا حتى تروا الهلالَ، ولا تُفطِروا حتى تروه، فإن غُمَّ عليكم فاقدُروا له».[(١)]

والمسيحيون يفتخرون بصيامهم ويقولون: ليس المقصود من الصوم ترك الأكل والشرب والجماع، بل الله يحكم بالتلاقي بينهم والصِّدق وترك الرياء في الصوم.

أقول: الإسلام يؤكد هذه الأحكام ويقول: ليس الصوم فقط تَرْكُ هذه الأمور، بل

---

(١) صحيح البخاري، رقم:١٩٠٦.

الصوم الحقيقي ترك هذه الأمور مع ضبط اللسان والنظر والجوارح كلِّها عن المعاصي، والإخلاص لله تعالى وترك الرياء على أكمل وجه. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من لم يدع قول الزور والعَمَلَ به فليس لله حاجة في أن يَدَعَ طعامه وشرابه».[1] وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «كلُّ عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنَّة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفُثْ ولا يَصْخَبْ، فإن سابَّه أحد أو قاتله، فليقل: إني امرؤ صائم، والذي نفس محمد بيده لَخُلُوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. للصائم فرحتان: إذا أفطر فَرِح، وإذا لقي ربَّه فرِحَ».[2] وذم اللهُ المُرائين، وجعل الرياء سِمَةَ المنافقين، ونهى عنها في الصوم كانت، أو في الصلاة، أو في غيرهما. قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ (الماعون)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد: مَن كان أشرك في عَمَلٍ عَمِلَه لله فليطلُبْ ثوابَه من عند غير الله؛ فإن الله أغنى الشُّركاء عن الشرك».[3] وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من يُسَمِّعْ يُسَمِّعُ اللهُ به، ومن يُرائي يُرائي اللهُ به».[4]

وما نُسِبَ إلى عيسى عليه السلام أن لا يتغير وجوهُكم، فالاجتناب عنه عسير جدًّا، فإن بالصوم يتغير الوجه، وتَجُفُّ الشفتان، وتتغير حال الإنسان. فالأصل أن الصومَ الكامل عبارة عن ترك المُفطرات الثلاثة، والغيبة، والنميمة، والفسوق، والجدال، مع العبادة، والتوجه إلى الله، والذكر، والتسبيح، والتلاوة، والتراويح، مع أن الرياء لا يتحقق في صوم المسلمين المفروض عليهم؛ لأن جميع الناس صائمين فكيف يتحقق الرياء، فتشريعُ الصوم الإسلامي على الوجه المذكور نهي عن الرياء، فشريعة الإسلام جامعة لجميع أطراف المحاسن، مُحِيطة بجميع نواحي الكمالات، رادعة من جميع القبائح والسيئات. وصومُ

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٧٧٠.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ١٩٠٤.

(٣) سنن الترمذي، رقم: ٣٠٧٩.

(٤) صحيح مسلم، رقم: ٢٩٨٧.

المسلمين سنة من سنة سيد المُرسلين، كله تقوى وأدب وخير وعبادة وإخلاص لله تعالى، لا تذكارٌ للحوادث والأيام، كما في الدين المسيحي. فالشكر لله الذي أكرمنا بالدخول في الإسلام، وفرض علينا الصلاةَ والصيامَ.

این سعادت بزور بازو نیست ۞ تا نه بخشد خدائے بخشنده

معناه: هذه السعادة ليست بقوة الساعد، بيد أنها عطية من الله تعالى، يَمْنَحُها من يشاء، وبيده الأمر كله.

الحج في الإسلام والمسيحية

الحج في الديانة المسيحية:

الحج وإن لم يكن مفروضًا في الديانة المسيحية، لكن لا تُنكر فضيلته لشيوعه في جميع فرق المسيحية؛ فإنهم يحجون ويزورون مواضع مخصوصة لهم في «روما». فالحج عندهم زيارة أمكنة مخصوصة وهي قبور أوليائهم ورسلهم في أوقات متعينة. وتفصيل حجهم ذكره السيد أبو الحسن علي الندوي حاكيًا عن دائرة معارف الأديان والأخلاق: الحج اسم للرحلة التي يقوم بها الإنسان لزيارة المَشاهد المقدسة، مثل مشاهد الحياة الدنيوية لسيدنا عيسى عليه السلام في فلسطين، أو مراكز زعماء الدين المقدسة في «روما»، أو الأمكنة المقدسة التي تنسب إلى المقبولين من الزهاد والشهداء، وإن الجيل المسيحيَّ الأول لم يشعر زيارة مشاهد المسيح والتبرك بها بالنسبة إلى المتأخرين الذين عُنُوا بذلك أكثر، ولكن انتشرت هذه الزيارة من القرن الثالث المسيحي، وقد شغف عدد كبير من المسيحين بالبحث عن مشاهد المسيح وآثاره وزيارتها، وعُنُوا بذلك أكثر مما عُنُوا بتعاليمه ووصاياه.

وقد شاعت زيارة مشاهد روما من القرن الثالث عشر على حساب زيارة الأرض المقدسة وإن لم تنقطع زيارة الأرض المقدسة بَتاتا، وكانت روما المدينة التي تلى بيتَ المقدس في الأَهَمِّيَّة يؤمها الناس للزيارة في عدد كبير وجم غفير. وإن الأسباب التي بلغت بها البابوية قِمَّتَها جعلت روما مركزاً للزيارة، ولا سيما فإن ضَريحي القديس بطرس والقديس بولس قد أضافتا عليه من العظمة والجلال ما جعلها مَثابة للمسيحيين الكاثوليك في العالَم كله، وازدحموا فيها ازدحامًا كبيرًا. وقد كان إقبال الزوَّار عظيمًا على سراديب الأحوات (Cote Combs) التي تقدَّس لأجل عظماء الشهداء. وإن الزوار لم يتوقفوا عن زيارة روما في أي فترة من فَتَرات التاريخ، وقد جعلتها كثرة الكنائس والآثار التاريخية المقدسة مَحَطَّ أنظار الناس في كل زمان.[1]

---

(١) الأركان الأربعة، ص٢٦٣.

إنكارهم فرضيَّة الحج، وطعنهم في جمع المسلمين:

قال البادري بركة الله: فريضة الحج في الإسلام تصدِّق دعوانا أن الرسول العربي بعث لقوم العرب خاصةً؛ لأن الحج كان سهلا في زمان النبي صلى الله عليه وسلم، وكان ممكنا في زمنه أن يجتمع العرب في بقعة واحدة، لكن أداء هذه الفريضة لجميع أهل الأرض ليس بممكن، وينبغي للمذهب العالمي أن تكون أصوله وأحكامه لكل قوم ولكل مكان وزمان ليمكن عليها العمل على السواء، ولا يمكن ذلك في الإسلام، ولهذا لم تأمر المسيحية بالحج، ولا بالعمرة، ولا بوقوف عرفة.[١] هذا مُعَرَّبُه.

وقال آخر: لم يأمر المسيح بزيارة المشاهد المقدسة؛ لأن الله حاضر في كل موضع، ويستحق أن يعبَد في كل مشهد، لكن بعض المسيحيين من فلسطين يزورون الموضع الذي نزل فيه المسيح، لكن زيارتهم ذلك ليس بفرض، ولا يمكن أن يزار قبر المسيح؛ لأنه خال.[٢]

يستبين من هذه العبارات أن الحج ليس بفرض، ومع ذلك فإنه شائع ذائع فيما بينهم يؤديه صغيرهم وكبيرهم، ويشدون رحالهم إلى قبور قِدِّيْسيهم.

وقال عبد المسيح -عليه ما عليه- ردًّا على الحج المبارك: وأنت وأصحابك عالمون أن العرب كانت تنسُك هذه المناسك وتؤدي هذه الأفعال في سالف الزمان عند بناء هذا البيت، فلما جاء صاحبك بالإسلام لم نره زاد في هذه الأفعال ولا نَقَصَ منها شيئًا، غير أنه لبعد المشقة وطول المسافة وتخفيف المؤنة جعله حجة واحدة في السنة وأسقط من التلبية ما كان فيه شناعة. والقصة هي تلك القصة بعينها التي تفعلها الشمسية والبراهمة ببلاد الهند إلى هذه العناية، وتَنْسُك فيها لأصنامها. إلى آخر ما هَذَى.[٣]

الحج في دين الإسلام:

الحج لغة: القصد. واصطلاحًا: قصد أمكنة مخصوصة في زمان مخصوص لله تعالى.

(١) توضيح البيان، ص٥٣.

(٢) *عيسائيت ميں ايمان وعمل*، ص ٦٧.

(٣) الجواب الفسيح لردِّ ما لفَّقه عبد المسيح.

وهو فرض على كل مسلم، حر، بالغ، عاقل، يستطيع الزاد والراحلة، مرةً واحدةً في العمر. وفرائضه ثلاثة: الإحرام (أن يلبس لباسًا غيرَ مخيط من ميقات معيَّن ويلبي)، والوقوف بعرفة (هو جبل بقرب مكة)، وطواف الزيارة (هو طواف يوم النحر). وواجباتُه أربعة: القيام بمزدلفة في الليلة العاشرة من ذي الحجة، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، وطواف الصدر (أي الرجوع). وغيرُها من الأفعال سنن ومستحبات.

الحج في الأديان الأخرى:

لا شك أن لجميع الأديان مواضع مخصوصة يعبدون فيها ويتقربون بها إلى الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ۚ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الحج: ٦٧)، كبيت المقدس لليهود، والأمكنة المقدسة للهنود، وأكثر هذه المشاهد والأمكنة المقدسة على ساحل نهر الكنج (Ganges) المقدس يجتمع فيها أهل البلاد في عدد هائل.[1]

تخصيص الكعبة بالحج:

إن الله تعالى جعل بعض الأمكنة مختصَّة بعبادات مخصوصة، وفضَّلها على سائر الأماكن لِـمَزِيَّةٍ توجد فيه وفضيلةٍ تكون فيه، وكونه من شعائر الله بحيث إذا رُؤي ذُكِرَ الله تعالى. ولما كانت الكعبة من شعائر الله حيث بناها إبراهيم عليه السلام، الذي هو جَد اليهود والنصارى من بني إسرائيل والعرب، وقامِع الشرك ومُطهِّر بيت الله، ورافع بنائه. قال الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٧)، ونادى إبراهيم وأذَّن في الناس بالحج. قال الله عز وجل: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (الحج: ٢٧)، وَجَبَ أن يرتحل إلى هذا البيت العتيق تذكارًا لسيدنا إبراهيم عليه السلام، وأتباعه من النبيين والصالحين، واقتداءً بهم في قطع أوداج الشرك، فلا شك أن الكعبة مركَز للهداية والإرشاد، ومنبَثَق للنور، وهي بيت الله المعظم، ومكان حنين للمسلم، فالحضور فيها والعبادة عندها من أفضل القربات وأم

(١) الأركان الأربعة، ص٢٦٦.

العبادات. وإليها أشير في الزبور: «طوبى للساكنين في بيتك أبدًا يسبِّحونك، طوبى لأناس عِزُّهم بك، طُرُقُ بيتك في قلوبهم، عابرين في وادي البكاء يُصَيِّرونه يَنبوعًا، أيضًا ببركاتٍ يُغَطُّون مُورَة (يريد مروة)».[١]

وهذا تمثيل صحيح للحجاج السائرين بمكة الزائرين لبيت الله العظيم. قال باسورَتْه اِسمِتْه: «سلسلة بناء الكعبة تصل إلى إبراهيم وإسماعيل، بل إلى شيث وآدم، واسمه بيت أيل، الذي يدل على أنها بِناء رجل كبير».[٢]

فوائد الحج ومصالحه:

في الحج فوائد ومصالح وحِكم، يضيق نطاق القلم عن تبيانها وكشفها. منها: توطين القلب على فراق الأهل، والولد، والوطن، وأهل البلاد خالصًا لله تعالى، طالبًا للعقبى، راحلًا عن الدنيا. ومنها: نزع مادة الشح والبخل عن صَدْره وقلبه، والتوكل على الله تعالى والاعتماد عليه. ومنها: تحمل الأذى في سبيل الله تعالى، والدخول في أغمار الجهود والمشقة. ومنها: ذكر الله تعالى، فإن المقصود هو ذكر الله. ويذكر الله عند رؤيته بيته، فالواصل إلى البيت واصل إلى رب البيت، والشاهد لِـمَشاهد الأنبياء شاهد لآيات الله.

حاجی بره کعبه ومن طالبِ دیدار ❁ او خانه همی جوید ومن صاحبِ خانه

معناه: الحاج في طريقه إلى الكعبة، وأنا أطلب رؤية صاحب البيت. هو يبحث عن البيت وأنا أطلب صاحب البيت.

وقال آخر:

أمر على الدِّيار ديار ليلى ❁ أُقَبِّل ذا الجدارَ وذا الجدارَا
وما حبُّ الديار شَغَفن قلبي ❁ ولكن حبُّ مَن سَكَن الديار

وقال آخر:

مقصود ما بدیر وحرم جز حبیب نیست ❁ هر جا کنیم سجده بداں آستاں رود

(١) المزامير ٨٤/ ٤-٦.

(٢) تفسير الماجدي ١/ ٢٤٦.

معناه: لا نقصد من الحرم والدير إلا الحبيب، حيث نسجد؛ فإنه يصل إلى تلك العتبة. (حيث جُعلت لنا جميع الأرض مسجدًا).

ومنها: وحدة كلمة المسلمين واجتماع شعثهم، فإن اجتماع المسلمين ببقعة واحدة وسيلة لاتحادهم، بل مشعر على اتفاقهم، وينبئ على أن ظاهرهم كبواطنهم في الإيمان والاتحاد في سبيل الله تعالى. ومنها: التجارة وتحصيل منافع الدنيا، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾(الحج: ٢٨). ومنها: زيارة الآثارِ القديمة آثار الأنبياء عليهم السلام. والعلم بمختلف طبقات الأرض. والعلم بالألسنة المختلفة وتاريخ الأقوام المتعددة. وغير ذلك من النكات واللطائف ذكرها العلماء العارفون رحمهم الله تعالى.

داماں نگہ تنگ وگلِ حسن تو بسیار ❁ گل چیں بہارِ تو زداماں گلہ دارد

معناه: نطاق النظر ضيق، ومحاسن أزهارك كثيرة، إن الذي يجني الأزهار في ربيعك يشكو ضيقة الذيل.

تأملٌ في محاسن الحج في الإسلام:

ثم تأمل في أفعال الحج وأركانه! تجدها الأكمل في تهذيب الإنسان من الأخلاق الدَّنيئة من الكبر والخيلاء وتنقيحه من الرَّذائل. فانظر إلى الإحرام ينزع الإنسان المخيط ويلبس لباس الموتى ويُظهر صورة قول القائل: «موتوا قبل أن تموتوا». ولا يقطع أظفاره ولا يتطيب بطيب ولا يصيد. قال الله تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ (المائدة: ٩٥)

قال الشيخ ولي الله الدهلوي: «وإنما شُرع أن يجتنب المحرم هذه الأشياء تحقيقًا للتذلل وترك الزينة والتشعُّث، وتنويهًا لاستشعار خوف الله وتعظيمه، ومؤاخذة نفسه أن لا تسترسل في هواها».(١)

وتفكر في التلبية! أي: «لبيكَ اللهم لبيك، لبيكَ لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمةَ لك والملكَ، لا شريك لك»، فإنه إجابة لدعوة الله تعالى وإقرار بألوهيته ووحدانيته.

---

(١) حجة الله البالغة ٢/ ١٦٥ .

وانظر إلى الطواف! ففيه تعظيم للبيت، وإشارة إلى أنا نطوف حول نقطة الإيمان جميعًا ونجتمع في ذلك. والرَّمل، فإن فيه إخافة قلوب المشركين وإظهار صولة المسلمين وشوكتهم. والسِّر في السعي بين الصفا والمروة -على ما ورد في الحديث- أن هاجر أم إسماعيل لما اشتد بها الحال سَعَتْ بين الصفا والمروة سعي الإنسان المجهود، فكشف الله عنها الجهد بإبداء زمزم، وإلهام الرغبة في الناس أن يعمروا تلك البقعة، فوجب شكر تلك النعمة على أولاده، ومن تبعهم.(١)

وإني حججت مرةً من باكستان مع أمي وزوجتي، وكان معي بعض رفقائي من المثقفين، فسألني واحد منهم قائلًا: لا نفهم حكمة الطواف بالبيت والسعي في الحج، فليس فيهما إلا إحصاء العَدد والمشي؟ فألقى الله في روعي فقلت لهم: هذه الأفعال منقولة من سيد الأولين والآخرين، نؤمن بحسنها. ثم قلت لهم: إن الطواف في المحل المدور حول البيت يدل ويشير إلى أن نطوف لتبليغ الدين في جميع الأرض المدورة كالكرة، فينبغي للمسلم أن ينوي طواف الأرض كلها لتبليغ الدين ونشره، وأما السعي فهو من مذكرات هاجَر رضي الله عنها ساعيةً طالبةً لرزق ابنه إسماعيل، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، ومحل السعي ليس بمستدير، بل مطول، فهذا يشير إلى أنه ينبغي للمسلم أن يسعى للرزق بقدر الضرورة من مدينة إلى أخرى ومن دولة إلى أخرى، لا كالطواف في جيمع الأرض. فاطمأنوا بما بينتُ لهم.

الجواب عن مطاعنهم وفضائحهم:

ثم قولهم: «إن زيارة الأمكنة المخصوصة مُنافٍ لشمول الدين وعمومه» قول باطل؛ لأن تخصيص بعض الأمكنة بالعبادة لا يضر بشمول الدين، فإن تخصيص بعض الأمكنة موجود في دينهم، أليس عندهم صلاة الصبح والمغرب، وهذا تخصيص زماني، وتخصيص جبل طور سيناء لمناجاة موسى عليه السلام. قال في التوراة: «وأما موسى فصعد إلى الله فناداه الرب من الجبل (طورسيناء) قائلًا: هكذا تقول لبيت يعقوب وتخبر بني إسرائيل».(٢)

(١) حجة الله البالغة ٢/ ١٦٩.

(٢) الخروج ١٩/ ٣.

وقال: «لأنه في اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء».[١] وجبلُ زيتون للتجلي على عيسى عليه السلام، ففي إنجيل متى: «وبعد ما صَرَفَ الجموع صعد إلى الجبل منفردا ليصلي».[٢] وتخصيص الهيكل بعبادة الله تعالى، قال متى: «ودخل يسوع إلى هيكل الله، وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل، وقلب موائد الصيارفة وكراسيَ باعة الحمام، وقال لهم: مكتوب: بيتي بيت الصلاة يُدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لُصوص».[٣]

فإن اختصاص مكة وعرفات ومزدلفة بأفعال وعبادات خالصة لله تعالى، فأي اعتراض يرد عليه، وأي قبح يوجد فيه! على أنهم أيضًا يحجون للمقامات المقدسة ويستحبونه، فلو كان تخصيص بعض المقامات بالعبادة منافيًا لشمول الدين وعمومه فلا محالة يكون منافيًا لعموم دينهم، إذ الفرق فرق نفل وفرض، وهم قائلون بعموم دينهم. والعجب منهم أنهم يعترضون على الحج الذي هو العجُّ والثجُّ والعبادة والهداية والخشوع والخضوع والاجتماع والذُّلُّ على نقطة واحدة، وينسَون أنهم يسجدون للصليب ومريم، كما مر.

چه دلاوراست دُزدے که بکف چراغ دارد

معناه: التعجب من السارق الباسِل الذي يأخذ المصباح عند السرقة.

ويختلج في قلبي قول عيسى عليه السلام حيث قال: «و لماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك، وأما الخشبة في عينك فلا تَفْطُن لها، أم كيف تقول لأخيك: دعني أخرج القذَى من عينك».[٤] مع أنه والحمد لله ليس القذى في أعيننا، بل الخشبة في عيون أعدائنا. قاتلهم الله أنى يؤفكون.

هنر بچشم عداوت بزرگ تر عیب است ۞ گل است سعدی ودر چشم دشمناں خار است

معناه: الصناعة والفن أعظم عيب في عين العدو. سعدي وردة، ولكنه شوكة في عيون الأعداء.

---

(١) الخروج ١٩/ ١١.

(٢) متى ١٤/ ٢٣.

(٣) متى ٢١/ ١٢-١٣.

(٤) متى ٧/ ٣-٤.

وما قال البادري بركة الله: «دين محمد صلى الله عليه وسلم محدود بالعرب؛ لأنه أمر بالجمع في مقام مخصوص في وقت مخصوص لا يمكن فيه اجتماع جميع الناس» لا قيمة له؛ لأن دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم عامة لا مرية فيها، وإن شئت فاقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١) ، وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٨)

وتخصيص موضع بالعبادة لا ينافي عموم الدين، فإن الله تعالى جعل البركة في بعض المواضع أكثر من بعض، وأمر جميع العباد أن يعبدوا بعض العبادات في هذه المواضع لِتَقْوَى رابطتكم الإسلامية، ولتدعوا الله تعالى بصوت واحد ليكون أرجى بالقبول، ولتكتسبوا العلوم بعضكم من بعض، ويوف البعض حاجات البعض، فهذه عبادة ذات فوائد.

وقوله: «لا يمكن اجتماع جميع الناس فيه» إغماض وعصبية، ألا ينظر هذا المتعصب صاحب الصليب أن ألوف ألوف المسلمين يجتمعون كل عام خصوصًا في هذا الزمان الذي كثرت فيه وسائل السفر من الطيارات والسيارات والمراكب البحرية، على أن الحج لا يفرض على كل أحد، بل على من يستطيع الزاد والراحلة قلما يتفقان أن يجتمعا في رجل، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا﴾ (آل عمران: ٩٧)

وما قال عبد المسيح: «إن الحج اتِّباع لمشركين العرب الجهال» جهل فوق جهل؛ لأنه ليس فيه اتباع العرب، بل هذا اتباع للملة الحنفية، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ (الأنعام: ١٦١)، بيد أن العرب كانت على بقية من دين إبراهيم، ولكن حرفوا فيه وبدلوا واشركوا بالله، ولم يبدلوا العقائد فقط، بل مدوا أيديَهم إلى اغتيال الأعمال الفرعية والأفعال التبعية. منها: أفعال الحج، وكان الحج لهم سوقًا يَتَّجِرُون فيه، ويتفاخرون بالأنساب في موسم الحج في منى، كما يفعلون ذلك في مواطن أخرى ذي المَجازِ وعُكاظ ومَجَنَّة، وفي ذلك قال قائلهم:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ۞ إذا جمعتْنا يا جرير المجامع

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم، فيقول رجل

منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحَمالاتِ ويحمل الديات، ليس لهم ذكر غير فِعَال آبائهم، فأنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ (البقرة: ٢٠٠).[١] ويذبحون الهدايا لآلهتهم، ويطوفون بالبيت عُراةً، وغير ذلك من الأفعال القبيحة والأقوال السخيفة، فأرسل الله تعالى محمدًا صلى الله عليه وسلم ليُبقي الحج على ما كان عليه في زمن إبراهيم عليه السلام، وينفي عنه البدع وأفعال الشرك، وينهى عن التفاخر بالأنساب، ويمنع الطواف بالبيت عريانًا.

وإذا تأملت في حج المسلمين المتشوقين إلى بيت الله، الذي فيه آيات بينات مقام إبراهيم، ليس فيه من آثار الشرك، وهو المطهر عن الذنوب والآثام، وزيارة النصارى لقبور أنبيائهم وقِدِّيسِهم وغلوهم في تقديسهم وتعظيمهم وجدت الفرق بينهما كالفرق بين النهار والليل، فإن حج المسلمين توحيد محض واتباع كامل للأنبياء، وتذكير آيات الله وتذلل وتواضع، بخلاف زيارتهم، فإن فيه شوب الشرك. والحج في الإسلام يخالف كل الخلاف من الحج في سائر الأديان؛ لأن الحج عندهم عبارة عن التبرك بقبور القديسين، وما أبقوه من آثار ومبان، وهذا ما نهى عنه الإسلام، وكان أفضل الحج عندهم (الأديان الأخرى) ما احتمل الإنسان المشقات النهائية فوق الطاقة في سبيله. أما الإسلام فإنه كره أن يرهق أحد نفسه، فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلًا يتهادَى بين ولدين له يريد الحج فسأل عن شأنه، فقيل: يا رسول الله! إنه نذر أن يزور البيت ماشيًا فقال: «كلا! إن الله تعالى غني عن تعذيب هذا نفسه احملوه على بعير».[٢]

وحجهم الذي هو تعظيم مَحْض للقديسين ليس بسديد، فرب تعظيم يوصل إلى العبادة. وليس فيه اتباع للأنبياء؛ فإنه لم ينقل عن عيسى عليه السلام ولا غيره من الأنبياء أنهم حجوا إلى قبور إخوانهم من النبيين، أو أمروا أممهم بهذا الفعل بأن يحجوا ضرائح الأنبياء وقبورهم. وما ثبت من الترغيب في زيارة القبور في دين الإسلام كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها»، فإنه للتذكير والدعاء أو

---

(١) الأحاديث المختارة ١٠/ ١١، رقم: ١٠٨.

(٢) روح الدين الإسلامي، ص٢٣٦ . والحديث المذكور رواه الترمذي، باب ماجاء فيمن يحلف بالمشي، رقم: ١٤٥٧. ووراه البخاري مختصرًا في باب النذر فيما لا يملك، رقم: ٦٢٠٧.

لإيصال الثواب، لا لأنه عبادة مستقلة يجتمع لها الناس. ولخوف النبي صلى الله عليه وسلم على أمته المرحومة أنكر النبي صلى الله عليه وسلم أشد نكير على اتِّخاذ قبره الشريف مَعبدًا، فروى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها وابن عباس رضي الله عنهما قالا: لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يَطرح خميصةً له على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى! اتخذوا قبور أنبيائهم مساجدَ» يُحَذِّرُ ما صنعوا.[1]

فهذا تفصيل حج المسلمين المُوَحِّدين. رزقنيه الله تعالى مرة بعد أخرى وجميع المسلمين.

(١) صحيح البخاري، رقم:٤٣٥. صحيح مسلم، رقم:٥٣١.

النكاح في الإسلام والمسيحية

النكاح في الديانة المسيحية:

النكاح لغة: الضم، وشرعًا: عقد يفيد حل استمتاع كل واحد من العاقدين للآخر، وسيجيء بعض تفصيله.

اعلم أن ههنا بحثين:

البحث الأول في جواز النكاح وعدمه، فاختار المسيحيون أن المفيد النافع لذات الإنسان أن لا يشتغل بالنكاح؛ لأنه خدمة النفس، وتوجه إلى الدُّنيا الدَّنِيَّة، وميل عن الدرجات الرفيعة الروحانية. والترهُّب والسكنى في المغارات والكهوف أفضل منه. فالنكاح تطور للحيوانية، وصرف الوجه عن المحبة الإلهية، وبه صرح رئيسهم بولس. قال بولس -رسول الحق رسول المسيح مُخَلِّص العالَم عندهم-: «إن الذي له زوجة إنما غايته أن يصرف عنايته إلى رضى زوجته، والذي لا امرأة له فعنايته مصروفة إلى رضى ربه، وقد صدق وقوله الحق؛ لأنه يحتاج إلى أن يتشاغل بما يُرضى امرأته، وكما قال الرب المسيح: لا يقدر العبد أن يخدم ربَّين في وقت واحد، فلا بد له من أن يلازم الواحد ويحتقر الآخر».[١]

وقال عبد العزيز الشاويش - ما تعريبه-: انظر في أوائل النصرانية، كيف كان تصور النكاح قبيحًا، وكانت الرهبانية أفضل. وقال بعد سطور: ثم اليوم أيضًا الرهبان يسلكون هذا المذهب، والناكحون المتزوجون في نظرهم مقبوحون؛ لأنهم ألقوا نفوسهم في جب الشهوات.[٢]

وكلامهم هذا يفيد أنهم لا يرغَبون في النكاح الذي هو جُنَّة من الزنا، بل يحبون الرَّهبانية التي فيها انقطاع عن الخلق ولم يكتبها الله عليهم، فقال الله تعالى:﴿ وَرَهْبَانِيَّةً

---

(١) الجواب الفسيح عمّا لفَّقه عبد المسيح.

(٢) الإسلام والفطرة، نقلته من ترجمته في الأردية المسماة بـ "*اسلام اور فطرت*"، لافتخار أحمد، ص١٩٦.

ﱡٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاﱠ (الحديد: ٢٧). والمراد من الرهبانية إقامتهم في الجبال فارِّين من الفتنة في الدين، مُخْلصين أنفسهم للعبادة، متحملين مصائب زائدة على العبادات التي كانت واجبة عليهم من الخلوة، واللباس الْخَشِن كالكرباس، والاعتزال عن النسوة التي هن كاللباس، والتعبد في الغِيران، والالتجاء إلى الجبال والكهوف. وقوله تعالى:ﱡإِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِﱠ متعلق بـﱡٱبۡتَدَعُوهَاﱠ يعني أنهم قصدوا بذلك رضوان الله، قاله سعيد بن جبير وقتادة.(١)

البحث الثاني: إنهم تمذهبوا أن الرجل إنما يجوز له أن ينكحَ زوجة واحدة لما في الزائدة من اتباع الشهوات زائدًا على الضرورة والظلم على الزوجة، فإنه لا يكاد يؤدي حقوقهن. قال المراغي: ويسير عليه -أي وحدة النكاح- في العصر الحاضر جميع الأوروبيين وسلالاتهم بأمريكا وآستراليا وغيرهما، وقد جعلتها المسحية المثل الأعلى للزواج، وإن لم يوجد في الإنجيل نص صريح يدل على تحريم تعدد الزوجات. ثم قال: فلم تكن وحدة الزوجة لديها نظامًا طارئا جاء به الدين الجديد دخلت فيه، وإنما كان نظامًا قديمًا جرى عليه العمل قبل ذلك، غير أن الأوضاع الكنيسية المسيحية قد استقرت الآن على تحريم هذا التعدد، واعتبرت هذا التحريم من تعاليم الدين.(٢)

قال البادري بركة الله -ما ترجمته-: قد حققنا في كتابنا «دين الفطرة الإسلامُ أم المسيحية» في الفصل الثالث والرابع ... منها: أن تهذيب الأقوام وتقويمها ورُقِيَّهم في قانون وحدة الزوجة واستحكام هذه الرابطة الزوجية وبقائها، لكن الأقوام التي فيها قانون كثرة الزواج وإزالة هذه الرابطة ليست لها بقاء ودوام.(٣)

فالحاصل أنهم يحسبون التعدد مَعَرَّة ومضرة في الدين والدنيا، والتوحيدَ فيه مَصْلحة، ويزعمون فيه الفوائد التي هي في الحقيقة كسَراب يحسبه الظمآن ماءً.

ثم الآن أذكر مطاعنهم واعتراضاتهم على هذا النظام الذي هو كنظام الدُّرر الفريدة اليتيمة، نظام الإسلام وقانونه، ونرد مطاعنهم إن شاء الله في نحورهم وتراقيهم، لتكون

---

(١) التفسير الكبير ١٥/ ٢٤٦.

(٢) الزواج والنكاح في جميع الأديان، ص١٦٦.

(٣) توضيح البيان في أصول القرآن، ص٤٤.

حسرة عليهم بتوفيق الله تعالى وحسن توقيفه.

قالوا: في هذا النظام مفاسد:

الأولى: إن هذا اتباع النفس وتَخَطٍّ بخطوته، وتحريض للشهوات في حق الرجال، وهدر لحقوقهن، فإن المرأة إذا تزوج الرجلُ عليها الأخرى فمن الظاهر أن الأولى تتضرر وتنتقص حقوقها ويعتدي عليها، وتذهب أصول المساواة التي عليها بناء الإسلام، فبعد النكاح الثاني تصير الأولى كالأجنبية لا تحس أنها صاحبة البيت، ويقع شقاق بينهما، وتحتال كل واحدة للأخرى، كما هو المشاهَد المعلوم.

الثانية: إن هذا أساس الخصام الدائم الحميم، والنزاع القائم كالليل البهيم، فالمرأة تخاصم دائمًا ضَرَّتَها وزوجها، وأولاد إحداهما الأخرى، ويتنغص العيش الهنيء، ويذهب الفَرَح والسرور، ويشكل الأمر، وتتخالف نفوسهن وأرواحهن كما تتباين أجسامهن، وتَنبُت شجرة الحسد والبغض في ضلوعهن وفي أعماق القلوب، ويكونون غَرَض غضب الله وعقابه. نعوذ بالله من ذلك.

الثالثة: إنه مبدأ ظلم وتعد وشقاق بين الإخوة، فلا يخفى من العداوة بين أولاد العلات، وهم الذين أبوهم واحد مع اختلاف أمهاتهم، فأحدهم لا يرضى أن ينظر إلى وجه أخيه ولا يسرَّه رؤيته.

والرابعة: إن هذا سبب كثرة النسل، فإن الرجل إذا كانت له أكثر من زوجة تكون أولاده أكثر ممن له زوجة واحدة، وهذا يفضي كثيرًا إلى الفقر والفاقة ويؤدي إلى مسكنة العائلة والأسرة، وكاد الفقر أن يكون كفرًا.

وهذه هي شبهاتهم التي يفتخرون بها في كل ناد، ويُدَنْدِنُون بها في كل واد.

الكلام على تعدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم:

ثم النصارى يتكلمون على تعدد أزواج النبي الهاشمي صلى الله عليه وسلم، ويقولون: لا يليق بشأنه الرفيع وقَدْره المنيف أن يتزوج الأزواج المتعددة، وقد تواتر أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج إلى أن جمع بين تسع نساء في زمانٍ واحدٍ، وأنه تزوج امرأة زيد بن حارثة مُتَبَنّاه، وذلك إباحة الشهوات إلى أبعد مدى ونهاية الحد. ونلخص مطاعنهم في عبارة الحبر

النحرير الشيخ مولانا رحمة الله الكيرانوي قال في كتابه النفيس «إظهار الحق»:

الأول: إن المسلمين لا يجوز لهم الزيادة على أربع زوجات، ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يكتف بها، بل أخذ تسعًا لنفسه، وأظهر حكم الله في حقه أن الله تعالى أجازني أن أتزوج بأزيد من أربع. وقال بعد سطر: والثالث أنه دخل بيت زيد بن حارثة رضي الله عنه، فلما رفع الستر وقع نظره على زينب بنت جحش زوجة زيد، فوقعت في نفسه، وقال -سبحان الله-: فلما اطلع زيد على هذا الأمر طلقها، فتزوج بها وأظهر أن الله أجازني للتزويج.[١] وانتظر جواب هذا الطعن إن شاء الله تعالى.

النكاح في الإسلام- رفع الله لواءه إلى يوم القيامة :

النكاح لغة: الضم. قال في المنجد: (تناكحوا): تزوج بعضهم ببعض، تناكحت الأشجار: انضم بعضها إلى بعض.[٢] وفي المختار: النكاح: الوطء، وقد يكون العقد، بابه ضرب.[٣] وساداتنا الأحناف يقولون: إن المعنى الحقيقي للنكاح هو الوطء، ويطلق مجازًا على العقد. وفي الشريعة الغراء: «عقد يفيد حل استمتاع كل من العاقدين على الوجه المشروع». وثبوته بالكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس.

أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ (النساء: ٣)، وقال تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ (النور: ٣٢)، وقال -عزت كلمته- مُبَيِّناً للرسول صلى الله عليه وسلم سنة الأنبياء السابقين: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلًا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ (الرعد: ٣٨)، وغير ذلك من الآيات اللامعات.

وأما السنة: فما ورد «فإني مكاثر بكم الأمم».[٤] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(١) إظهار الحق ٢/ ٥٥٠.

(٢) منجد، ص٩١٣.

(٣) مختار الصحاح، ص١٢.

(٤) سنن أبي داود، رقم: ١٧٥٤.

«إذا تزوج العبد فقد استكمل نصفَ الدين، فليتق الله في النصف الباقي».[١] وغير ذلك من الأحاديث، وهي كثيرة في هذا الباب، يضيق عنها نطاق الكتاب، فلنكتف بهذا.

وأما الإجماع: فقد اتفقوا على أن نكاح الحر البالغ العاقل العفيف الصحيح غير المحجور أربع حرائر مسلمات صحائح غير زوان فأقل حلال، واتفقوا على أن نكاح أكثر من أربع زوجات لا يحل لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.[٢]

وأما العقل: -بشرط أن يكون سليمًا- فقد فطر العقل على أن جميع أنواع الحيوانات مدفوعة إلى التلقيح بدافع الشهوة البهيمية فيها، فهي مضطرة إلى ذلك حريصة على بقاء النسل وإحياء الأصل، فالإنسان أولى بهذا من سائر الحيوانات إذ هو أشرف المخلوقات وأكرم الموجودات بما أوتي من العقل، فله أن يعمل بمقتضى فطرته وطبعه بأن ينضم إلى شريكة له في حياته، وهذه سنة الله. وقد خلق الله للإنسان المخلوقات كلها لينتفع بها، ويَهْنأ عيشه، ويكمل فرحه، ويستقيم على أفضل منهاج، وأحكم سبيل، وأعظم سعادة، فالشريعة تجوز النكاح بهذه الدلائل، وفيما يلي نثبت إن شاء الله أن النكاح أفضل من التبتل الذي هو شعار النصارى مذهبًا لا عملًا. وهذا مذهبنا معشر الحنفية، فعن معدن الجود والخيرات عليه أفضل الصلاة والتسليمات أنه ردَّ على عثمان بن مظعون التبتل.[٣]

مراتب النكاح وفوائده، ومفاسد التبتل والانقطاع عن النساء:

للنكاح مراتب ومدارج، ففي بعض الصور حرام ممنوع، كما أنه في بعضها واجب، فإن غلبت عليه الشهوة البهيمية فواجب، بحيث يغلب على ظنه أنه يقع في الزنا، وإن لم يغلب عليه الشهوة، بل تكون على الاعتدال ولم يخف الجَوْرَ فسنة، وإن خاف الجور فمكروه، وإن تيقن الجور فحرام، وإن خاف العَجز عن واجبه خوفًا غير راجح، أو أراد مجرد قضاء الشهوة فمباح. وهذا مذهب معاشر الأحناف.

وعند الشافعية يستحب لمن يحتاج إليه بتَوقانه إن وجد أُهْبة، ويجوز له تركه وكسر

(١) شعب الإيمان، للبيهقي، رقم: ٥٤٨٦.

(٢) مراتب الإجماع، ص٢٢، للإمام ابن حزم الظاهري.

(٣) ملخص من كتب الفقه: رد المحتار، وغيره.

شهوته بالصوم، وإن لم يحتج إليه ولم يكن عنده أهبة يكره له، وإن وجد الأهبة ولم يكن مريضًا لم يكره، لكن الاشتغال بالعبادة أفضل من النكاح، فيستحب لمن يحتاج إليه بتوقانه للوطئ ويجد أهبة. ومن احتاج إلى النكاح من الرجال ووجد أهبة، ندب له تركه، وكسر شهوته بالصوم، وإن لم يحتج إلى النكاح وفقد الأُهبة كره له، وإن وجدها ولا مانع به من هرم ومرض دائم لم يكره، لكن الاشتغال بالعبادة أفضل من النكاح.(١)

وقال المالكية: إن الأصل في النكاح الندب. والحنابلة يرون أنه ليس بواجب إلا أنه مستحب عند أمن الشهوة وعدم الخوف من الوقوع في المَحظور. وهذا بعد الاتفاق بين علماء المذاهب في أن النكاح فرض عند التوقان، فمن تاقت نفسه إلى النساء بحيث لا يمكنه الصبر عنهن وتيقن الوقوع في الزنا وهو قادر على المهر والنفقة وما يطلبه الزواج، ثم لم يتزوج، فهو آثم.(٢)

فالمذاهب قاطبة متفقة على ندب النكاح، أو وجوبه على اختلاف المراتب، حتى الشافعية؛ فإنه يعلم من قولهم أن النكاح مستحب حالة التوقان، كما أنه واجب عندنا معشر الأحناف، بخلاف النصارى، فإنه مانع عندهم عن التوجه إلى الرب تعالى، فالذي له امرأة لا يمكن له التوجه إلى الرب تعالى، كما نقلنا قول بولس الرسول سابقًا من أن الذي له زوجة إنما غايته أن يصرف عنايته إلى مَرْضِيِّ زوجته، والذي لا امرأة له فعنايته مصروفة إلى رِضى ربِّه. فالفرق واضح بين مذهب الشوافع والمسيحين. والله أعلم وعلمه أحكم.

وأما الأحناف فيقولون: الاشتغال بالنكاح (مع عبادة الرب) أفضل من التخلي للعبادة والترهب والتجنب إلى الجبال والكهوف. ونسوق فيما يلي فوائد النكاح، ومفاسد الترهب الذي اختاروه مذهبًا لا عملًا.

فوائد النكاح:

من فوائده: تكثير النسل الإنساني الذي هو المقصود من نزول آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض، فإن الله تعالى خلق آدم وجعل منها زوجها حواء من ضلعه ليسكن إليها

---

(١) فيض الإله المالك ٢/ ١٥٢.

(٢) الزواج والطلاق في جميع الأديان، ص١٧٥.

ويكثر التوالد والتناسل، وإلى هذه الفائدة أشير في التوراة، ففي الأصحاح الأول من سفر التكوين: «فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكرًا وأنثى خلقهم، وباركهم اللهُ وقال لهم: أثمروا واكثُروا واملأوا الأرض وأخضِعوها وتسلَّطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يَدِب على الأرض».[(١)] فلو رجحنا التبتل لاخترنا خلاف ما أراده الله من خلق البشر ولانْقطع النسل.

ومنها: أن فيه إحياء سنة الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، وعباد الله منهم المخلصين، فإن الأنبياء عليهم السلام تزوَّجوا، وهذا مذكور في التوراة، كنكاح إبراهيم ويعقوب وموسى ويوسف وغيرهم عليهم الصلاة والسلام، كما سيجيء في بحث تعدد الزوجات إن شاء الله، ولو لم يكن فيه فائدة غير إحياء سنة الأنبياء لكفى و وفى، بل امتنَّ الله على إبراهيم بأنه سيجعل نسله كالتراب، ويبارك في إسحاق وإسماعيل، ويكثر الناس. ولله دَرُّ العلامة الآلوسي حيث قال: لو كان عدم التزوج أولى وأحسن من التزوج، لأمر الله تعالى سبحانه عباده بذلك وجَعَله دينًا وشريعةً عامةً، أو حكمًا خاصًّا بأنبيائه وأصفيائه، مع أنا رأينا الأمر بخلاف ما زعمت النصارى.[(٢)]

ومنها: تحصين النفس من السِّفاح، فإن الإنسان إذا لم يتزوج قد يقع في حفرة الهلاك وهوية الدمار وإن كان معتدل المزاج، فإن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، فإن لم يتزوج سوف يعامِل الأخدان والفتيات معاملة الحلائل والزوجات، لاسيما في هذا الزمان الذي غلب شره على خيره، إذا خرجتَ ترى النساء مختلطات مع الرجال في لباس بَرَّاق شَفَّاف، متحركات في الأسواق والدكاكين والشوارع والمدارس والكليات، ولقد أعجبني قول السعدي الشيرازي وأطربني رحمه الله تعالى:

بزرگے دیدم اندر کوہسارے ۞ قناعت کردہ از دنیا بغارے
بدو گفتم بشہر اندر نیائی ۞ کہ بارے بند از دل برکشائی
بگفت آنجا پری رویاں نغزند ۞ چوں گل بسیار شد پیلان بلفزند

معناه: رأيتُ شيخًا في قمة الجبل، قد أغناه غارٌ عن الدنيا. سألتُه: ما لكَ لاتسكن في

(١) التكوين ١/ ٢٧-٢٨.

(٢) الجواب الفسيح، ص١٦٨.

البلد؟ لتسري مرة عن نفسك عناءها؟ قال: ثمة أناس على غاية من الحسن والجمال، وإن الفيل لينزلق قدمه حين تكثر الأزهار.

ولذلك امتن الله تعالى به فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١). وتذكَّر قولَ النبي صلى الله عليه وسلم لثلاثة رجال جاؤوا إلى بعض بيوت النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».(١)

ومن فوائده: تربية الأولاد، وتحصيل الأجر والثواب ليشبوا صالحين ويتَرَعْرَعُوا كاملين عابدين، ويكونوا له أخلافًا وأعمِدةً. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة ...، أو ولد صالح يدعو له».(٢)

ومنها: السكينة واطمينان القلب، وكون الزوجة عونًا له في أمور الدنيا والدين، شريكة له في السراء والضراء، والكلفة والفرحة. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرًا له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرَّته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نَصَحَتْه في نفسها وماله».(٣)

ومنها: الصبر على أخلاق النساء، ولا يخفى ما في الصبر من الأجر الجزيل.

فإن قلت: لما كان في النكاح مثل هاتيك الفوائد فلِمَ تركه عيسى عليه السلام، ويحيى عليه السلام؟ أجاب عنه الشيخ المراغي بقوله: وأما عيسى عليه السلام فأخذ بالحزم واحتاط لنفسه، ولعل حالته كانت حالة يؤثر فيها الاشتغال بالأهل، أو يتعذر فيها طلب الحلال، أو لا يتيسر.

---

(١) صحيح البخاري، رقم:٤٦٧٥.

(٢) صحيح مسلم، رقم:٣٠٨٤.

(٣) سنن ابن ماجه، رقم:١٨٤٧. وفي إسناده علي بن يزيد الألهاني، وهو ضعيف. قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص٥٧٤): «سنده ضعيف؛ لكن له شواهد تدل على أن له أصلًا».

ومنها: الجمع بين النكاح والتخلي للعبادة، فيؤدي حقوق النساء في جانب، ويؤدي حقوق الرب تعالى في جانب آخر، فينال البركتين.[١] وقد جاء في الحديث أن عيسى عليه السلام ينزل من السماء قريبًا من الساعة فيتزوج، ويولد له.[٢] وقد مضت لمعة منه فتَذَكَّرْ.

وبالجملة فالنكاح ينطوي على مصالح كثيرة وفوائد جمة، فالاشتغال به أولى من الرهبانية التي ابتدعوها فما رعوها، بل أضاعوها ومَحَوْها.

الكلام على تعدُّد الأزواج:

قبل أن نبين مصالح تعدد الزوجات، والجواب عن مطاعنهم، وأن ما شرعه الله تعالى موافق للحكمة والمصلحة، أذكر أن تعدد الزوجات الذي هو هدف نقد المسيحين، ليس بمخصوص بشريعتنا القدسية، بل هو سنة من سنن الأنبياء، فمطاعنهم ليست علينا، بل عليهم، فمن يبصُقُ على السماء يسقط على وجهه، فهذا إبراهيم عليه السلام يكرِّمونه ويعظمونه، كما في الأصحاح الثاني من رسالة يعقوب: «وتم الكتاب القائل: فآمن إبراهيم بالله فحُسِبَ له بِرًّا ودُعِيَ خليلَ الله، ترون إذن أنه بالأعمال يتبرر الإنسان، لا بالإيمان وحده».[٣] قد ذكرت له ثلاث زوجات في سفر التكوين وإليك نصه: «فأخذت سارى امرأة إبرام هاجرَ المصرية جاريتَها من بعد عشر سنين لإقامة إبرام في أرض كنعان، وأعطتها لإبرام وجعلها زوجة له، فدخل على هاجر فحبِلت».[٤] وفي هذا الأصحاح: «وأما سارى امرأة أبرام لم تلد له». والأصحاح الخامس والعشرين: «وعاد إبراهيم عليه السلام فأخذ زوجةً اسمها قطورة». فهذا إبراهيم عليه السلام ذُكِر له ثلاث زوجات: سارى، وهاجر، وقطورة.

---

(١) ملخص الزواج والطلاق في جميع الأديان.

(٢)أورده ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/ ٩١٥) بإسناده عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا، وقال: «هذا حديث لا يصح، والإفريقي ضعيف بمرة». وأورده أيضًا في كتابه «الوفاء في حقوق المصطفى» (٢/ ٨٢٤). وقال الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٢/ ٥٦٣): «قال ابن القطان: من الناس من يوثق عبد الرحمن الإفريقي ويربأ به عن حضيض رد الرواية، ولكن الحق فيه أنه ضعيف. وكان البخاري يقوى أمره، ولم يذكره في كتاب الضعفاء».وقال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في تعليقاته على «التصريح بما تواتر في نزول المسيح» (ص٢٤٠): «هذه رواية ضعيفة».

(٣) رسالة يعقوب ٢/ ٢٣-٢٤.

(٤) التكوين، ١٦/ ٣-٤.

وليعقوب عليه السلام أزواجًا كثيرة، إحداهن ليئة، وقد ذكرت في سفر التكوين: «ثم قال يعقوب لِلابانَ: أعطني امرأتي؛ لأن أيامي قد كملت فأدخل عليها، فجمع لابانُ جميع أهل المكان ووضع وليمة، وكان في المساء أنه أخذ ليئةَ ابنتَه وأتى بها إليه فدخل عليها».[١] والثانية: زِلفَةَ «وأعطى لابانُ زِلفةَ جاريته لِلَيْئة ابنتِه جاريةً».[٢] الثالثة: راحيلُ، كما في هذا السفر: «ففعل يعقوب هكذا، فأكمل أسبوع هذه، فأعطاه راحيلَ ابنتَه زوجةً له».[٣] الرابعة: بِلهَة، وذكرها أيضًا في هذا السفر: «وأعطى لابانُ راحيلَ ابنتَه بِلهَةَ جاريةً لَها فدخل على راحيل أيضًا وأحب أيضًا راحيل أكثر من ليئة وعاد فخدم عنده سبع سنين أخر».[٤]

وكذا لموسى عليه السلام الذي قيل في شأنه في التوراة «ولم يقم بعد بني إسرائيل مثل موسى عليه السلام الذي عرفه الرب وجهًا لِوجه».[٥] فقد صَرَّحت التوراة بثلاث زوجاته كما حققته، ولعل تحقيقي يكون ناقصًا، الأولى: صفورة، ولها ذكر في سفر الخروج: «فارتضى موسى أن يسكن مع الرجل، فأعطى موسى صفورةَ ابنتَه فولدت ابنًا، فدعا اسمه جرشوم».[٦] الثانية: بنت قيني، كما في القضاة من التوراة: «وبنو القيني حمي موسى صعدوا من مدينة النخل مع بني يهوذا إلى برية يهودا التي في جنوبي عراد، وذهبوا وسكنوا مع الشعب».[٧] الثالثة: ابنة حباب، في التوراة: «وحابرُ القَينِيُّ انفرد من قاين من بني حَوبابَ حَميُّ موسى، وخَيَّمَ حتى إلى بَلُّوطةٍ في صَعنايم التي عند قادِش».[٨] بل نطقت التوراة في موضع آخر أن لموسى عليه السلام أزواجًا كثيرة، حيث قال: «إذا خرجت لِـمُحاربة أعدائك ودفعهم الرب إلهك إلى يدك، وسَبَيْت منهم سبيا، ورأيت في السبي امرأة جميلة الصورة والتصقت بها واتخذتها لك زوجة فحين تُدخلها إلى بيتك تحلق رأسها وتقلم

---

(١) التكوين ٢٩/ ٢١-٢٣.

(٢) التكوين ٢٩/ ٢٤.

(٣) التكوين ٢٩/ ٢٨.

(٤) التكوين ٢٩/ ٢٩-٣٠.

(٥) التثنية ٣٤/ ١١.

(٦) الخروج ٢/ ٢١-٢٣.

(٧) قضاة ٤/ ١٦.

(٨) قصاة ٤/ ١١.

أظفارها وتنزع ثياب سبيها عنها وتعقد في بيتك وتبكي أباها وأمها شهرًا من الزمان، ثم بعد ذلك تدخل عليها وتتزوج بها فتكون لك زوجة».[1]

وكذلك ذكر لسليمان عليه الصلاة والسلام ألف زوجات حيث قيل في الملوك: «وكانت له سبع مئة من النساء السيدات، وثلاث مئة من السراري، فأمالت نِساؤُه قلبَه».[2]

وكذلك لداود عليه السلام. فاكتف بهذا القليل، فإنه يغني عن الكثير، والغرفة تنبئ من البحر الكبير. فهذه الآيات تصرح بأن تعداد الأنكحة سنة الأنبياء عليهم السلام، ليس بمختص بشريعة سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بل قال الدكتور عبد الواحد: فالحقيقة أن هذا النظام كان سائرًا قبل ظهور الإسلام في شعوب كثيرة: منها العبريون، والعرب في الجاهلية، وشعوب الصقالبة أو السلافيون، وهي التي ينتمي إليها معظم أهل البلاد التي نسميها الآن: «روسيا، وليتوانيا، وليثونيا، واستونيا، وبولونيا، وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا». وعند بعض الشعوب الجرمانية والسكسونية التي ينتمي إليها معظم أهل البلاد.[3]

فالإسلام أباح التعدد، لكن لا مطلقًا بل لمن يقدر على العدل بينهن والإنفاق وإعطاء المسكن واللباس وحقوق الزوجية، فإن لم يقدر على ذلك، أو خشي أن لا يتمكن من ذلك، فليقتصر على الواحدة أو ما ملكت يمينه من الجواري التي في ملكه، وفيه قال عز وجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ (النساء: ٣)

أفادت هذه الآية أن الله تعالى أباح التعدد بشرط أن يعدل الرجل وإلا فلا، والمراد من العدل الذي أوجبه الله تعالى على عباده العدل في الأمور التي يستطيع الإنسان أن يعدل فيها، كالمأكَل، والمشرب، والملبَس، والقَسْم. وأما الأمور التي لا يقدر الإنسان أن يعدل فيها فلا يجب فيه كالميل والحب القلبي، إذ ليس ذلك في قدرة الرجل، وليس هو مكلَّفا عليه. قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)، وإليه أشار الله تعالى في قوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن

---

(١) التثنية ٢١/ ١٠-١٤.

(٢) الملوك الأول ١١/ ٣.

(٣) حقوق الإنسان في الإسلام، ص٩٧.

﴿تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ (النساء: ١٢٩). وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: «اللهم هذا قَسْمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك».[1] يعني المحبة. أخرجه أحمد والأربعة وابن حبان وصححه من حديث أبي هريرة.

قال الشيخ ثناء الله رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: -مسئلة- بمقتضى هذه الآية والسنة: يجب على الزوج التسوية بين نسائه في القسم، فإن من ترك التسوية بينهن في فعل القَسْم عصى الله تعالى، وعليه قضاؤه للمظلومة.[2]

فالعدل واجب بين النساء، وكذا بين أولادهن، فإذا عجز الإنسان عن صيانة زوجاته أو عرضهن للخَنا والفساد، أو عجز عن الإنفاق عليهن أو على أولادهن، فإنه يحرم عليه أن يتزوج أكثر من واحدة بحيث لو فعل ذلك يكون مستوجبًا للتعزير، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية. فإن الناس كانوا في الجاهلية يتحرجون من أكل أموال اليتامى ويخافون من عدم العدل فيهم، ولا يتحرجون من ظلم النساء، فمنهم من يتزوج الثمانية من النساء، كما روي عن قيس بن الحارث أنه قال: أسلمت وعندي ثمان نسوة، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت ذلك له، فقال: «اختر منهن أربعًا».[3]

وعن عبد الله بن عمر قال: أسلم غيلانُ الثقفي وتحته عشر نسوة في الجاهلية، فأسلمن معه، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يختار منهن أربعًا. فقضى الله تعالى في هذه الآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ﴾ بأمرين، أحدهما: أنه لا يحل نكاح ما زاد على الأربع. والثاني: إقامة العدل، وبيَّن لهم أن العدل واجب بين النساء، كما أنه واجب في أموال اليتامى، فمناط الجواز ومداره العدل والإنصاف دون الجور والاعتساف، فمن يتيقن أو ظن أنه يقدر على أداء حقوق الأزواج المتعددة لوفور القوة الجسمية وكثرة المال تَسْمَح له الشريعة الإسلامية أن

(١) التفسير المظهري ٢/ ٢٥٥. والحديث رواه أبو داود في النكاح، باب القسم بين النساء، رقم: ١٨٢٢.

(٢) التفسير المظهري ٢/ ٢٥٦.

(٣) سنن ابن ماجه، رقم: ١٩٥٢.

ينكح أربعًا أو دونه، وأظن أن هذا الحكم (أي نفي تعدد الأزواج) ليس في شريعة عيسى عليه السلام، ولم يرد في الإنجيل نصٌّ صريحٌ يدل على هذا التحريم، بل سببه التقليد المَحض، كما قال الدكتور علي عبد الواحد: «فما ذلك إلا لأن معظم الأمم الأوروبية والوثنية التي انتشرت فيها المسيحية في أول الأمر، وهي شعوب اليونان والرومان كانت تقاليدها تحرِّم تعدد الزوجات المعقود عليهن، وقد سار أهلها بعد اعتناقهم المسيحيةَ على ما وجدوا عليه آباءهم من قبل».[1]

وبالجملة قد تقع ضرورة تُلجيء الإنسان إلى أن ينكح أزوجًا متعددة، فاستمع لمعة من الضرورات.

الأولى: إذا كانت عقيمًا لم يكن لها ولد، ويحتاج الإنسان إلى الولد في شؤونه وأفعاله ليتقوى به ويشُدَّ به أزره فما ذا يفعل؟ أليس من المصلحة والحكمة أن ينكح أخرى ليبقى نسله، ويتقوى في أفعاله، ويتخذه عونًا.

الثانية: إذا مرضت مرضًا يمنع من الجماع وكانت لها أولاد، فالعقل يحكم أن يتزوج أخرى لتخدم أولاده وتكون له حرثًا وحقلًا يستمتع بها.

الثالثة: إذا تَشَوَّهَتْ وجهًا وقبُحت صورةً وتقذرت شكلًا بسبب من الأسباب، فيكرهها الرجل كراهة طبيعية، فما ذا يكون حال الرجل؟ أليس له أن ينكح أخرى.

الرابعة: إذا وقعت حروب كثيرة عظيمة وهلك الرجال، (وهلاكهم أغلب وأكثر) وبقي عدد كبير وقدر كثير من النساء بلا أزواج وبعول، واضطر الناس إلى تكثير النسل ليكون عُدة وسلاحًا على العدوِّ، أفليس من الضروري أن يجوز في الشريعة تعدد الزوجات ليتكثر النسل ويوفي حقوق النساء اللاتي بقين بلا أزواج، أنفعل هكذا أم نتركهن أيامَى؟ مع الخوف من الوقوع في البغي، سيما في هذا الزمان الذي أصبح شره كثيرًا وخيره قليلًا.

فالحاصل أن تكثير النسل مقصود، وعظمة الأمم إنما يكون بكثرة العاملين من أبنائها، فمن الضروريات للدين تكثير النسل لينشأ فيهم مجاهدون، وعابدون، وعاملون، وكاملون،

(١) حقوق الإنسان، ص٩٨.

وعارفون، ومبلغون يبلغون آيات الله، ويخدمون الدين القويم، ويَهدون الناس إلى الصراط المستقيم.

الخامسة: إذا كان الرجل شابًّا قويًّا لا تكفيه الواحدة لوفور شهوته فما ذا يفعل؟ أليس من الضرورة أن يسوغ له التَّعدُّد ليحفظ نفسه من الزنا الذي هي فاحشة وكبيرة من الكبائر.

السادسة: إن عدد النساء يزيد على عدد الرجال في معظم الدنيا؛ لأن الرجال يموتون كثيرًا في الحروب والمُعتركات وغير ذلك من المشقات. قال الدكتور علي عبد الواحد: «إن المقرر في بحوث علم إحصاء السكان أن ذكور الآدميين بحسب طبعيتهم أكثر تعرضًا للوفاة من الإناث في أثناء الولادة وفي الطفولية الأولى، كما تدل على ذلك الإحصاءات الخاصة لوفيات الأطفال في جميع الشعوب الإنسانية».(١)

وقد زاد عليه وحيد دهره أشرف العلماء مولانا أشرف علي التهانوي رحمه الله تعالى فأفاد –ماتعريبه–: إن في إحصاءات السُّكَّان الماضية حاسَبَ بعض المُحاسبين عدد الرجال والنساء في بنغال فقط فوجد عددهن أكثر من عددهم، ومن شك في ذلك فليرجع إلى القرطاسات الحكومية، وفي بريطانية قبل حرب بوئرين كان عدد النساء زايداً على الرجال بميلون ومئتَي ألف ١٢٠٠،٠٠٠، ولم يكن لهاتيك أزواج على أصل وحدة الزوجة. وفي إحصاءات فرانسي ١٩٠٠م كان لكل ألف من الرجال ألف واثنتان وثلاثون امرأة ففي جميع أفراد الحكومة كان حوالي ٨٨٧٦٤٨ من النساء لم يكن لهن زوج على هذه القاعدة. وفي إحصاءات سويدن سنة ١٩٠١م عدد ١٢٢٨٧٠ من النساء، وفي هسبانية سنة ١٨٩٠م عدد ٤٥٧٢٦٢ من النساء لم يوجد لهن بعول وأزواج. وفي استراليا سنة ١٨٩٠م عدد ٦٤٤٧٩٦ من النساء لا يوجد لهن زوج.(٢)

السابعة: قد يكون الرجل منفردًا لا مُعِين له ولا يمكنه أن يقوم بحوائجه، فالفطرة السليمة تحكم له بجواز التعدد لتكون النساء عونًا له ومَدْعاةً لشجاعته وقوته ويساره.

---

(١) ملتقط من حقوق الإنسان في الإسلام، للدكتور علي عبد الواحد.

(٢) الرسالة الحميدية، ص٦٢.

الثامنة: إن الرجل لا يكون قادرًا على النكاح إلا إذ وجدت فيه شروط كثيرة من صحة الجسم، والقدرة على النفقة لزوجته وأولاده؛ لأنه يقوم بهذه الأعباء وهاتيك الأثقال، وهذه الشروط لا توجد في كل رجل، فالمتزوجون قليلون بالنسبة إلى المتزوجات، فلذا أحل التَّعدُّد والكثرة.

التاسعة: إن المرأة تيأس من سن الخمسين بقطع مادة الحيض وهذه رحمة منه تعالى ولطف، حيث أن الحمل والإرضاع والولادة والقيام بأمر الأولاد أضعفتها، فمقدار استعدادها للنسل من سن البلوغ إلى سن الأياس خمس وثلاثون سنة غالبًا، فلو منع من التعدد لعطل عليه تحديد نسله قدرًا كبيرًا من عمره.(١)

العاشرة: إنه تعرض للمرأة الأمراض الطبعية كالحيض والنفاس والاستحاضة والأعذار الأخر كغيبتها عنه أو سفره عنها، ويكون شابًّا قويًّا يخالط حبهن بدمه ولحمه. فاحفَظْ هذه النكتة اللطيفة، فتلك عشرة كاملة.

والحاصل أن فيه مصالح كثيرة وحِكمًا جليلةً، وغرر الفوائد يعرفها الذكي الفَطِن لا المسيحيون الذين هم صم بكم عمي فهم لا يرجعون.

چشم بد انديش كه بركنده باد ۞ عيب نمايد هنرش در نظر

معناه: لتهلك العين التي تتربص الدوائر بي؛ فإنه تحول الميزة عيبًا في الأعين.

مع أنهم يختارون هذا النظام (نظام التعدد) اضطرارًا إليه يدل عليه ما يلي، وعرَّبْتُه هكذا: قال عبد العزيز الشاويش: لاقيت مرة في لندن رجلًا فتكلمت معه في عدة مسائل. منها: تعدد الأزواج، فقال: يا ليتني كنت مسلمًا فأتزوج أخرى، فسألته عن سبب ذلك، فقال: إن زوجتي قد جُنَّتْ منذ زمن مديد، وهي الآن في المستشفى، والآن أنا أبحث عن الأخدان والعشيقات لعدم جواز التعدد في شريعتنا، فياليتني جاز لي النكاح الثاني فأتزوج وتكون لي أولاد يرثون مالي الكثير.(٢) فهم مضطرون إلى نظام الإسلام الذي ينتشر ضوؤه في الأطراف وتشرُق شمسه على الأكناف، ولنعم ما قيل:

---

(١) هذا الوجه متقارب مستفاد من الرسالة الحمدية، ص٦٢.

(٢) ملخص من *اسلام اور فطرت*، ص١٩٣.

أَفَلَتْ شُموس الأولين وشمسنا ۞ أبدًا على أُفُقِ العُلى لا تغرب(١)

فعلم أن نظامهم هذا نظام يتسبب لكثرة الزنا والبغى، وليس لهم منفَذ شرعي ينسلون به منه، فهم أحوج الخلق إلى نظام التعدد لِيُنْجوا أنفسهم من البغي والزنا الذي شاب بلحومهم، وانظر إلى عاقبة وختيمة لهذا النظام: ففي فرنسا بلغت نسبة أولاد السفاح لديهم في كثير من المدن بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ما يقرب من خمسين في المئة من مجموع المواليد هناك، وزاد في هذه المرحلة عدد البغايا الرسميات وغير الرسميات، وبلغت نسبة المصابين والمصابات لديهم بأمراض تناسلية زهاء ٧٠ في المئة.(٢)

ثم الآن نجيب عن اعتراضاتهم على تعدد الأزواج:

فأما قولهم: «هذه مَدعاة للشهوة، وهدر لحقوقهن، وإرغام لهن، فإن الأولى تتضرر بالثانية». الخ.

فالجواب عنه أن الفائدة الكبيرة في النكاح الثاني تكثير النسل وغيرها من فوائد جَمَّة ومصالح عامة، ولو سلمنا أن الغرض منه دفع الشهوة فليس بقبيح، فإن هذا تحصين من الزنا، فلولم يدفع شهوته بالنكاح لانجرَّ إلى السفاح. وليس ذلك هدرًا لحقوق الأولى؛ فإن هذا موقوف على حزم الزوج واحتياطه وعدله وانصافه، فإن كان عادلًا تقيًّا خائفًا من عذاب الرب القهار، هائبًا من نَكال الآخرة فإنه سيوفي حقوق كل منهن ويؤديها، وإن لم يكن عادلًا، بل عادلًا عن الحق فيعتصم بحبل الظلم والجَوْر ويصبح ظالـمًا وإن كانت له زوجة واحدة. وبهذا يندفع قولهم: «إن هذا منشأ الجدال الدائم». فإن المرأ لو كان عادلًا قادرًا على إعطاء كل منهن حقوقهن أدى حقوق كل واحدة ولم يهدِر. وكذا في حقوق أولادهن لم يقع شقاق ولا نفاق ولا جور ولا طلاق، وإن تجرد من الحزم والعدل والإنصاف يختل النظام وينهدم أساس الأسرة وتذهب حلاوة العيش، وقد رأينا كثيرًا من الرجال تكون النساء في يده كالكرَّة في يد الصبيان.

(١) هذا البيت مذكور في ديوان العلامة عبد الغني النابلسي، ص١٥٠، ونسبه العلامة الآلوسي رحمه الله تعالى في «غرائب الاغتراب» و«روح المعاني» ٢٢/ ٢٠، والعلامةُ اليافعيُّ في «مرأة الجنان» ٢/ ٦٠ إلى العالم الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى.

(٢) ملتقط من حقوق الإنسان في الإسلام، للدكتور علي عبد الواحد.

وأما قولهم: «فيه كثرة النسل وهو يفضي إلى الفقر والفاقة»، فأوهن من بيت العنكبوت، فإن كثرة النسل مبدأ خير كثير للأسرة والوطن والإنسانية، وقد غابت عنهم آية التوراة في الأصحاح الأول من سفر التكوين: «وباركهم الله وقال لهم: أثمروا وأكثِروا واملأوا الأرض». حفظت شيئا وغابت عنك أشياء! كثرة الأولاد تكون شرًّا إذا لم يقوا على الإنفاق، ولم نَقُلْ في هذه الصورة بالتعدد، بل ننهى عن أصل الزواج إذا تيقن ذلك. قال في الحميدية: «ولو خاف الجَور على الواحدة بنحو ظلمها أو عَجزه أو قصور يده عن الإنفاق عليها يحجر عليه أن يتزوج الواحدة».(١)

ثم إذا استَمْريتَ أخلاف فكرك واستقريت كنت على يقين بأن منع التعدد مما اخترعته أذهانهم، فأذهانهم أبو عذرته وابن بجدته. ولم يثبت في أناجيلهم، بل هي تؤمي إلى إباحته وجوازه، ففي إنجيل متى: «حينئذ يشبه ملكوت السماوات عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس...، وفيما هن ذاهبات ليبتعن جاء العريس والمستعدّات دخلن معه إلى العرس وأغلق الباب».(٢)

فهذا تمثيل بأزواج متعددة، ولو أن ذلك غير جائز لما مثَّل بهذا التمثيل الذي خلاصته طلب النساء الكثيرة للعريس ودخوله عليهن، ولو سلمنا أنه لا يجوز في دينهم، فلا يلزم أن يكون حراماً في ديننا أيضاً، فإنه لا يلزم أن يكون حكم شريعة موجوداً في شريعة أخرى، فإن نكاح الأخت كان جائزاً في دين إبراهيم كما جاء في التوراة: «وبالحقيقة هي (أي سارى) أيضا هي أختي ابنة أبي، غير أنها ليست ابنة أمي، فصارت لي زوجةً».(٣) وكان محرَّما في الديانة العيسوية. وكذا الطلاق كان جائزًا في شريعة موسى عليه السلام، ثم حرمه عيسى عليه السلام، فلو فرضنا أنه حرام في شريعة عيسى عليه السلام، فلعل وجهه إما أنه لم يمكن له الجمع بين العبادة والنكاح كما مضى بيانه، وإما أنه كان في شريعة موسى جواز النساء من غير حصر تغليبًا لِمَصلحة الرجال، وفي شريعة عيسى عليه السلام عدم جواز الكثرة تغليبًا لمصلحة النساء، وراعت شريعتُنا مصلحة النوعين.

---

(١) الرسالة الحميدية، ص٦٢.

(٢) متى ٢٥/ ١٠.

(٣) التكوين ٢٠/ ١٢.

والحكمة في أن موسى عليه السلام غلَّب مصلحة الرجال لأن فرعون كان يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، فناسب أن يغلب في شريعته مصلحةُ الرجال لقلتهم وكثرة النساء. والحكمة في أن عيسى عليه السلام غلَّب مصلحة النساء أنه خلق من أمه بلا أب، فناسب أن يغلب في شريعته مصلحة النساء.[١]

بقي ههنا سؤال وهو أنه لِـمَ لم يجز للنساء تعدد الرجال كالرجال. والجواب عنه: إن فيه قبائح: ففيه اختلاط الأنساب واشتباكها، ويكون الزَّواج الذي شُرع لأجل حفاظة الأنساب كالزنا مُضيعًا لها. ومنها أنه يؤدي إلى قلة الغيرة؛ لأن المرأة تصير مُشاعة بين رجال متعددين. وهذا النكاح كان في الجاهلية: يجتمع رهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلُّهم يصيبها أو يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة، لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا.[٢] فحرَّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن عيوبه أنها إذا كانت مشتركة يقتضي كل واحد منهم في كل وقت أن يجامعها فيقع النزاع، وإذا تولدت الأولاد فإن كان واحدًا يكون النزاع أشد، وإن كانت متعددة ففي هذه الصورة أيضًا يتنازعون لاختلاف الذكورة والأنوثة، والشكل والصلاحية والكمال.

فإن قيل: ما الحكمة في تعداد الأربع؟ فالجواب أن فيه نكتتين:

الأولى: إن العدد إذا بلغ أربعًا دخل حد الكثرة، فإن أقل الجمع الصحيح ثلاثة، فإذا جاوز الثلاثة فقد دخل في حد الكثرة، فالواحدة في القلة، والرابعة في حد الكثرة، فقد شُرِع العقد في الأقل إذا علم من حال الضعف لقضاء حقها، وشرع العقد في الأكثر إذا عرف القيام بحقهن.[٣]

الثانية: إن حكمة التعدد بالأربع لمقابلة كل واحد بنوع من أنواع المكاسب التي يرتفق منها الإنسان وينفق على زوجته، وهي: التجارة والصناعة والفلاحة والإمارة، وقد تكون إحداها وافرة، فتقوم مقام البقية.[٤]

---

(١) هذه النكتة مأخوذة من حاشية الجمل على شرح المنهج ٤/ ١٨٥.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٥١٢٧.

(٣) محاسن الإسلام، ص٤٧. لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن البخاري من مشايخ صاحب الهداية.

(٤) الرسالة الحميدية، ص٦٢.

والثالثة: إن الرجل إذا تزوج امرأة، فأقل ما تكفيه ثلاثة أشهر، إذ أن أقل مدة لاستقرار الحمل هي ثلاثة أشهر، فلو حملت امرأته في ثلاثة أشهر، ثم هاجت نفسه واشتدت شهوته، فإن ضاجعها أضرَّ بالجنين؛ فإن تزوج ثانية كفته ثلاثة أشهر على الأقل، ثم يضطر إلى التخلي عن مضاجعتها خوفًا من إسقاط الحمل، فهذه ستة أشهر، فإن تزوج ثالثة كفته ثلاثة أشهر أخرى على الأقل، فهذه تسعة أشهر، وتكون الأولى قد وضعت، لكنها تكون في حالة لا تقرب فيها لمدة ثلاثة أشهر تقريبًا، لذا يضطر إلى التزوج بالرابعة، فتكفيه ثلاثة أشهر على الأقل، وتكون الأولى قد تصلح للمضاجعة، وهكذا تتهيأ له واحدة بعد أخرى على سبيل التعاقب. فهذا التعدد من الزوجات يكفي ويفي لحاجة كل إنسان قوي الشهوة. وما هذا إلا قانون الحكمة الإلهية.[1]

الجواب عن الطعن في تعدد أزواج النبي محمد صلى الله عليه وسلم:

قد مر أنهم يطعنون في تعدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وسمَّوه -معاذ الله- اتباعًا للشهوات، وقالوا: هذا شائن في شأنه السامي، خصوصًا النكاح بامرأة زيد بن حارثة رضي الله عنه، الذي هو مُتَبَنَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا الطعن في شأنه صلى الله عليه وسلم قبيح أشد القبح، إذ طهارته وعفته عن كل ذنب لا ينتطح فيها كبشان، كما شهد به أبو سفيان -رضي الله عنه- حين كان كافرًا عند هرقل حين سأل عنه فقال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول هذا؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا. ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.[2] فانفلق منه أن الأعداء أيضًا كانوا يخضعون له، ولا يَقْدَحون في عفته، ولنعم ما قيل:

يا صاحب الجمال و يا سيد ۞ من وجهك المنير لقد نوِّر القمر
لا يمكن الثناء كما كان حقه ۞ *بعد از خدا بزرگ توئی قصه مختصر*

(معنى البيت الأخير: حاصل الكلام أنك أعظم درجةً في المخلوقات.)

فلم يجمع صلى الله عليه وسلم بين الزوجات المتعددة لشهوة أو لذة جسمانية، فإنه

---

(١) *احکام اسلام عقل کی نظر میں*، ص ١٤٤-١٤٥ .

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٧.

خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير، كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه مر بقوم بين أيديهم شاة مَصْلِيَّةٌ فدعَوْه، فأبى أن يأكل، وقال: خرج النبي صلى الله عليه وسلم من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير.[١] وكان يضطجع على رمال حصير حتى يؤثر الرمال بجنبه، ويعصُب على بطنه الحجر من الجوع مع ما يأتي من الأموال، لكن لا يصرف وجهه إلى الدنيا ومَرغوباتها، ويقول: «ما لي وللدنيا»،[٢] ويقول صلى الله عليه وسلم: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».[٣] فهل يتهم مثل هذا الرجل بهذا الاتهام العظيم؟ سبحانك هذا بهتان عظيم. ولقد صدق من قال:

یک زنده دل نرفت سلامت زخورده گیر ❁ کیں ماجرا بخضر علیه السلام رفت

معناه: لم يسلم أحد من سالمي القلب من الطعن، فإن هذه القصة حصلت للخضر عليه السلام. (فإن ما فعله الخضر لم يكن موافقًا بالشريعة في الظاهر).

على أن النبي صلى الله عليه وسلم لو أراد قضاء الشهوة على سبيل التقدير لأمكن له ذلك في عنفوان شبابه وشَرْخِ عمره، فإن النساء كانت كثيرة، وكان صلى الله عليه وسلم في معاشرة لا يعاب فيها تكثير الأزواج، لكنه صلى الله عليه وسلم عفَّ عَفافًا كاملًا وأمضى عهد شبابه بل أكثرَ عمره مع خديجة الكبرى رضي الله عنها، التي دخلت في سِنِّ الشيخوخة وكان عليه الصلاة والسلام في شبابه. قال هشام بن محمد: نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها وهو ابن خمس وعشرين سنة، وخديجة يومئذ ابنة أربعين سنة.[٤] ولم ينكح رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياتها أحدًا من النساء وماتت قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل: بأربع، وقيل: بثلاث، وكان لها من العمر خمس وستون.[٥] فانظر كيف قضى عليه السلام أكثر عمره أعني خمسين سنة على وجه التقريب مع امرأة كان لها خمس وستون سنة، ففي زمن ريعان الشباب وغاية القوة لم ينكح الأزواج الكثيرة، فهل

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ٥٤١٤.

(٢) جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه، باب هدية ما يكره لبسها، رقم: ٢٤٢١.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ٥٩٣٧.

(٤) تاريخ الطبري ٢/ ١٩٦.

(٥) الإكمال في أسماء الرجال، للشيخ ولي الدين صاحب مشكاة المصابيح. والإصابة في تمييز الصحابة ٧/ ٦٠٤.

صار بعد ذلك في زمان الشيخوخة شهويًّا؟ سبحانك هذا بهتان عظيم! وإلى الله المشتكى من هذه العِصابة الضالة نُخالة المضلين، ومن خرافاتهم، وهَذَيانِهِم وسخريتهم، وأباطيلهم، واجترائهم، ووقاحتهم، واستطالة ألسنتهم.

دنیا میں نہیں زور تو محشر میں ستم گر ۞ اللہ کے آگے تیری فریاد کریں گے

معناه: يا ظالم! إن لم نتمتع بالقوة في الدنيا، فلن نعجز عن الشكوى والتظلم ضدك إلى الله يوم المحشر!

ثم في تزوُّجه صلى الله عليه وسلم وتعديده فوائد ومصالح:

منها: إيجاد القرابة مع الصحابة الكبار، فقد كان لرابطة النسب عند قبائل العرب قيمة، كنكاحه صلى الله عليه وسلم عائشة مع صغر عمرها، فإنها كانت بنت ست سنوات إذا عقد عليها، وتسع سنوات إذا بنى بها.

ومنها: التزوج لتبليغ الدين الحق إلى الخلق، فإن الشريعة ضابطة كاملة للحياة الاجتماعية ومن الأحكام ما يتعلق بهن، وقد أثَّرت عائشة وحفصة رضي الله عنهما في تبليغ الدين، وإتقان القرآن، ونشر الأحاديث ما لا يبلغ شأوهما أحد.

ومنها: التزوج لغرض هداية قومها للإسلام، كما وقع له مع جويرية بنت الحارث، لما تزوج بها أَسْلَمَ قومُها.

ومنها: لضرورة التشريع، كما وقع له مع زينب بنت الجحش، ليعلم أن المُتبنَّى ليس في حكم الابن حتى تحرم زوجته.[1]

ثم إن شئت أن تعرف لتزوجه صلى الله عليه وسلم بكل منهن مصلحة وحكمة فاستمع لذلك:

فخديجة رضي الله عنها لحسن أخلاقها وكمالها وتَسْلِيتها للنبي صلى الله عليه وسلم في مهمات الأمور تَزوَّجها.

فلما تُوفيت نكح عليه السلام سودةَ بنت زمعة -وقد توفي زوجها- جبرًا لخاطرها

(١) ملتقط من أدلة اليقين.

بموت زوجها، ولتعصم من أذية القوم، فإنهم كانوا يؤذون المسلمين والمسلمات.

ونكاحه بعائشة وحفصة رضي الله عنهما، لا يخفى ما فيه من المصالح من ذكاوتهما وفَطانتهما وفِراستهما -ولا كفراسة إياس- وتبليغهما الدين، وليحصل له صلى الله عليه وسلم لُحمة في قريش.

وكان تزوجه بأم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنه من هذا القبيل، ولأن زوجها قد مات فتزوجها جبرًا لخاطرها الكسير وتسليةً لفوادها الكئيب، وكانت في الحبشة، ولأن بني أمية لم يسلموا في ذلك الوقت، فاختار النبي صلى الله عليه وسلم التعلق بهم ليقربوا من الإسلام.

ونكاحه صلى الله عليه وسلم جويرية وصفية بنت حُيي؛ لأنهما سُبيتا في الجهاد، والعرب كانت تُذَلِّل الجواري، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يقضي على هذه العادة الفاسدة فتزوج بهما، وسبُيت جويرية رضي الله عنها في غزوة بني المصطلق، وصفية رضي الله عنها بعد غزوة خيبر، وأعتق الله تعالى بسبب نكاح جويرية كثيرًا من الأرقاء والعبيد، إذ قالوا: هؤلاء أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا ينبغي لأحد أن يسبي أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتزوجه صلى الله عليه وسلم بزينب لِـمَا مرَّ من قطع العادة القبيحة.

وتزوجه بصفية سببٌ لدفع ضرر قومها، وهم اليهود. قال القاضي سليمان رحمة الله عليه: ولم يخرج بعد نكاح صفية وفد من اليهود لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كانوا يخرجون قبل ذلك إما جهرًا أو خفيةً.(١)

وتزوجه عليه السلام بميمونة سبب لدخول الإسلام والأمن والصلح في النجد.

ففي تزوجه عليه السلام وتعديده حِكَم ومصالح وفوائد لا يصل إلى كُنهها إلا الذكي اللبيب.

هزار نكتها باريك تر ز موئى اينجا است ۞ نه آنكه سر بتراشد قلندرى داند

---

(١) رحمة للعالمين ٢/ ١٣٤.

معناه: ثمة آلاف من النكات أدق من الشعرة؛ فكل من يحلق رأسه، لا يعرف القلندرية.

ثم أتصدَّى للبحث عن تزوجه بزينب الذي هو هدف خاص لسهم الملة المسيحية، وقد بذلوا وُسعهم واستنفدوا جهدهم في هذا الطعن، واختلقوا فيه الأكاذيب، واخترعوا الأساطير التي لا أثر لها في زبر الأحاديث. فاعلم أن الآية التي ذكرت فيها هذه الواقعة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (الأحزاب: ٣٧)

أخرج الحاكم في سبب نزولها عن أنس رضي الله عنه قال: جاء زيد بن حارثة يشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أمسك عليك أهلك».(١)

والتفصيل أن زينب رضي الله عنها كانت تَفخَر على زيد رضي الله عنه وتقول: أنا من أشراف قريش، وزيد رضي الله عنه وإن كان شريفَ النسب كريم المَحْتِدِ عظيمِ الأرومة في الواقع، ولم يكن من الموالى بل من قريش، لكن أخذه بعض الظلمة وباعه، فكانت زينب تستعلي عليه حتى نشأت بينهما البغضاء والمنازعة بحيث لم يمكن إصلاحها، فتشاور مع النبي صلى الله عليه وسلم في أمر طلاقها، فشاوره النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يطلقها، لكن لم يصلح ذات بينهما ووصل الأمر إلى الطلاق فطلقها، وأوحى الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها لتنقطع العادة القبيحة (وهو تحريم نكاح المُتبنَّى) فشاق على نفسه النفيسة ذلك لاستحكام تلك العادة في العرب، وكان هذا أمرًا قبيحًا عندهم، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.

فعلم من هذه الآية ثلاثة أمور:

الأوَّل: إن العلاقة بينهما لم تكن مرضية، وإليه الإشارة في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾.

(١) التفسير المظهري ٧/ ٣٤٦.

والثاني: إن الله أوحى إليه أن يرخص لزيد في الطلاق لقطع هذه العادة كما يشير إليه: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.

والثالث: بيان الحكمة والمصلحة في ذلك الزواج وإليه الإشارة في قوله تعالى:﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ إلى آخر الآية.

قال البغوي: روى سفيان عن علي بن زيد بن جدعان قال: سألني علي بن الحسين زين العابدين رضي الله عنه: ما يقول الحسن في قوله تعالى:﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾؟ قلت: يقول: لما جاء زيد إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله! إني أريد أن أفارق زينب، فأعجبه ذلك، فقال: «أمسك عليك زوجك واتق الله». قال علي بن الحسين: ليس كذلك، فإن الله قد أعلمَه أنها ستكون من أزواجه، وأن زيدًا سيطلقها، فلما جاء زيد قال: إني أريد أن أطلقها. قال: «أمسك عليك زوجَك». فعاتبه الله، وقال: لم قلت: أمسك عليك زوجك، وقد أعلمناك أنها ستكون من أزواجك.(١)

فالحاصل أن الذي كان يخفيه النبي صلى الله عليه وسلم هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك: خشيةُ قول الناس: تزوَّج امرأة ابنه.(٢)

وبالجملة أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوجها نقضًا لتلك العادة، وهي جعل المتبنَّى في حكم الابن، وقد رده الله تعالى بقوله:﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ (الأحزاب: ٤٠). هكذا ينبغي أن يفهم هذا المقام.

وأما ما قيل: إنه أبصرها فأحبها، باطل لا أصل له؛ لأنها كانت قريبةَ النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بينهما حجاب، فعدم الحب قبل النكاح وكانت بكرًا، و الحب بعد النكاح مع أنه عليه السلام زوَّجها بنفسه أعجب العجائب، وللقصاص في هذه القصة كلام لا ينبغي أن يجعل في حيز القبول، كذا في روح المعاني.(٣) وفي شرح المواقف: «وما يقال أنه

---

(١) التفسير المظهري ٧/ ٣٤٧.

(٢) فتح الباري ٨/ ٦٧٢.

(٣) روح المعاني ١٢/ ٢٤.

أحبها حين رآها، فممَّا يجب صيانة النبي صلى الله عليه وسلم عن مثله». [١]

ولا قبحَ في تزوُّج زوجة المتبنَّى بعد الطلاق، ولم يرد تحريمه في التوراة ولا في الإنجيل، ومن ادَّعى فعليه البيان. ولعل انكارهم (المسيحيين) على هذا النكاح لقطعه مادة ابنية المسيح، فإنه لما لم يكن زيد مع كونه إنسانًا بشرًا كالنبي صلى الله عليه وسلم ابنًا للنبي صلى الله عليه وسلم لفقد علاقة الولدية، فكيف يكون المسيح عليه السلام ابنًا لله مع التباين!!! فإنه عليه السلام بشر، والله منزَّه عن شوائب البشرية، نعم! يحرم هذا الزواج في مذهب المشركين مشركي العرب. ولا يجب أن تكون الشرائع السماوية متفقة -فضلًا عن اتفاق الدين الإسلامي- مع الدين الباطل دين مشركي العرب، فإن سارة زوجة إبراهيم عليه السلام كانت أختًا علاتية له. [٢] وكان ذلك الزَّواج جائزًا في دينه مع تحريمه في الدين الموسويِّ والدين العيسويِّ، ويعقوب عليه السلام جمع بين الأختين. [٣] وذلك حرام في هذين الدينين، فالشرائع لا تجب أن تكون متوافقة في الفروع -كما أن الأشجار لا تجب أن تكون متوافقة الشجون-، بل يغيرها الله تعالى بحسب مصلحة الأوقات.

فالطعن على أفضل الرسل محمد صلى الله عليه وسلم في نكاح زينب بنت جحش بنت عمة النبي صلى الله عليه وسلم طعن فاسد ووَهْم كاسد من أعداء الله، الذين اتخذوا المسيح عبدَ الله إلهًا وثالث ثلاثة - نعوذ بالله من قولهم هذا وجميع أقوالهم، فأقوالهم الباطلة تضحك منه الصبيان، وفي الحقيقة يلعب بهم الشيطان. وأحكام الشريعة المُحمدية متحلية بالحكم والمصالح، فتفحُّص المعايب فيها لا يعيبه، وعنادهم لا يضر، كمعاندة الخَفاشِ للشمس. وَلَنِعم ما قال السعدي الشيرازي رحمه الله تعالى:

هنر بچشم عداوت بزرگ تر عیب است ۞ گل است سعدی ودر چشم دشمنان خار است

معناه: الصناعة والفن أعظم عيب في عين العدو. وسعدي وردة، ولكنه شوكة في عيون الأعداء.

---

(١) إظهار الحق ٢/ ٥٥٨.

(٢) التكوين ٢/ ١٢.

(٣) التكوين، الإصحاح: ٢٩.

وقال البعض:

قيل إن الإله ذو ولد ۞ قيل إن الرسول قد كَهَنا
ما نجا الله والرسول معا ۞ من لسان الورى فكيف أنا

والله أعلم بالصواب، وعنده علم الكتاب.

الطلاق في الإسلام والمسيحية

أمر الطلاق في الديانة المسيحية:

لا يجوز في الدين المسيحي أن يطلق الرجل امرأتَه إلا أن بعضهم يُجَوِّزونه في بعض الأحوال والشؤون كالخيانة في الزوجية، وإن شئت تفصيل مذاهبهم في ذلك فاستمع لما يتلى عليك:

قد اختلفت عبارات الإنجيل في ذلك، فجاء في بعض عباراته عدم جوازه مطلقًا بدون تفريق. قال مرقس: «فتقدم الفريسيون إليه وسألوه: هل يحل للرجل أن يطلق امرأته ليُجَرِّبُوه، فأجاب وقال لهم: بماذا أوصاكم موسى؟ فقالوا: موسى أَذِن أن يكتب كتاب طلاق فتطلق، فأجاب يسوع وقال لهم: من أجل قساوة قلوبكم كتب لكم هذه الوصية، ولكن من بدء الخليقة ذكرًا وأنثى خلقهما الله تعالى، من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسدًا واحدًا إذًا ليسا بعدُ اثنين، بل جسد واحد فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان».(١)

فتلخص من هذه العبارة أن الطلاق لا يجوز في أية حالة؛ حالة الخيانة كانت أو لا، إذ فحواه أن ما جمعه الله لا قدرة للعبد أن يُشتِّته.

وبعض عباراته تدل على أنه يجوز في حالة الخيانة الزوجية، أي الزنا، قال متى: «وقيل: من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق، وأما أنا فأقول لكم: إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنا يجعلها تزني، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزني».(٢)

ولاختلاف عبارات الإنجيل اختلفت مذاهبهم في ذلك، كما بينه الدكتور علي عبد الواحد وافي، وإليك نصُّ عبارته في ذلك: «ترجع جميع المذاهب المسيحية التي تعتنقها أمم

(١) مرقس ١٠/ ٢-١٠.

(٢) متى ٥/ ٣١.

الغرب المسيحيِّ إلى ثلاثة مذاهب: المذهب الكاثوليكي، والمذهب الأرثوذكسي، والمذهب البروتستاني. فالمذهب الكاثوليكي يُحَرِّم الطلاق تحريمًا باتًّا ولايبيح فصمَ الزواج لأي سبب مَهْما عَظُمَ شأنه، وحتى الخيانة الزوجية نفسِها لا تُعدُّ في نظره مُبَرِّرًا للطلاق، وكل ما تبيحه في حالة الخيانة الزوجية هو: التفرقة الجسمية (حسب تعبيرهم) بين شخصي الزوجين، مع أن اعتبار الزوجية قائمة بينهما من الناحية الشرعية، فلا يجوز لواحد منهما أن يَّعْقِدَ زواجه على شخص آخر؛ لأن ذلك يعتبر تعددًا للزوجات. والديانة المسيحية لا تُبيح التعددَ بحال».

ثم قال بعد سطور: «والمذهبان المسيحيان الآخران الأرثوذكسي والبروتستاني يبيحان الطلاق في بعض حالات محدودة، من أهمها: الخيانة الزوجية، ولكنهما كذلك يحرمان على الرجل والمرأة كليهما أن يتزوجا بعد ذلك».[(١)]

أقول: مرجِع المذهَبين واحد، فإن الفرقة الأولى كما يحرِّم على الرجل أن يتزوج بعد التفرقة الجسمية، كذلك الثانية، فالفرق بينهما في التعبير والتحبير لا في الحقيقة. والله أعلم.

ويستدلون على تحريم التزوج بعد الطلاق بقول المسيح عليه السلام: «من يتزوج مطلقة فإنه يزني».[(٢)] وقوله عليه السلام لتلاميذه ما نصُّه: «ولما دخلوا البيت، سأله التلاميذ عن هذا الأمر، فقال لهم: من طلَّق امرأتَه وتزوج غيرَها زنى عليها، وإن طلقت المرأةُ زوجَها وتزوجت غيرَه زنتْ».[(٣)]

وقد زاد الشيخ عبد الله المراغي أسبابًا أخر للتطليق، أي التفريق الظاهري دون الحقيقي عند الفرقتين: الكاثوليكي وعند الروم الآرثوذكسي، فقال: الزواج الكاثوليكي رِباط لا ينفصم إلا بوفاة أحد الزوجين، على أنه مع بقاء الزوجية قائمة يجوز لأسباب خطيرة التفريق بين الزوجين: إذا زنا أحد الزوجين جاز للزوج الآخر أن يترك الحياة المشتركة إلا إذا رضي عن الجريمة، أو كان السبب في وقوعها أمر صفح عنها صراحةً أو ضمنًا أو ارتكبها من جانبه.

---

(١) حقوق الإنسان في الإسلام، ص ٥٨-٥٩.

(٢) متى ٥/ ٣١.

(٣) مرقس ١٠/ ١٠-١٢.

ثم قال بعد ذلك بسطور: يجوز لأحد الزوجين أن ينفصل عن الآخر بحكم من المَجلس، وذلك في الأحوال الآتية: إذا اعتنق الطرف الآخر مذهبًا غير كاثوليكي، أو ربَّى أولاده تربية منافية للعقيدة الكاثوليكية، أو سلك سلوكًا إجراميًّا أو مضيِّعًا للكرامة والاعتبار، أو جعل زوجته في حالة خطر جسيم جسدًا ونفسًا، أو أساء إليها بحالة يصعب معها استمرار الحياة المشتركة، أو ما شاء به ذلك من الأسباب التي يُقَدِّرها المجلس.(١)

وبين أسباب الطلاق في مذهب الآرثوذكس، فقال: لكل من الزوجين أن يطلب الطلاق بسبب زنا الآخر، أو إقدامه على عقد زيجة أخرى، ولا تُقبل دعوى الزوج الذي وافق على الزنا أو عقد قرينه زيجة ثانية. لكل من الزوجين أن يطلب الطلاق عند اختفاء الآخر مدة ثلاث سنوات، ولكل من الزوجين أن يطلب الطلاق في حالة ما يصاب الآخر في قُواه العقلية لدرجة تجعل حياة قرينه مَعْرَضة للخطر، ولا يكون لهذه العلة أمل بالشفاء، وتكون قد دامت ثلاث سنوات أثناء الزواج. ولكل من الزوجين أن يطلب أيضًا الطلاق إذا أصيب الآخر بالجذام. لكل من الزوجين أن يطلب الطلاق لعدم مَقْدِرة الآخر على استيفاء فرض الزواج بالجماع إذا كانت هذه العلة موجودة حين عقد الزواج وكان يجهلها الطالب ودامت ثلاث سنوات من حين الزواج واستمرت إلى وقت رفع الدعوى، وللزوجة أن ترفع دعوى الطلاق ولو قبل فوات ثلاث سنوات في حالة تكون العلة مستمرة وغيرَ قابلة للشفاء مُثبَتَةً بفحص طبي قانوني. لكل من الزوجين أن يطلب الطلاق إذا حكم على الآخر بالأشغال الشاقة المؤبدة. انتهى.(٢)

وهذا كله يخالف روح الإنجيل، فإن الإنجيل الموجود بأيديهم يحرم التفريق إلا لعلة الزنا، وتسمية هذا التفريق تفريقًا لا طلاقًا حقيقيًّا: حيلةٌ وخديعةٌ. وهذا في الحقيقة فرار من المذهب، فالمسيحيون اضطروا إلى ازدياد أسباب الطلاق وترك مذهبهم وكتابهم، الذي يزعمونه محفوظًا ومصونًا من التحريف.

---

(١) الزواج والطلاق في جميع الأديان، ص٣٤٥.

(٢) الزواج والطلاق في جميع الأديان، ص٣٢٦.

الجھا ہے پاؤں یار کے زلف دراز میں ۞ لو آپ اپنے دام میں صیاد آ گیا

معناه: أرجل الحبيب معقَّدة في جمته، فافهم أن الصياد اشتبك في حبالته.

وهذا كما أن القانون المدني الفرنْسيَّ جوَّز الطلاق لأحد من أسباب ثلاثة، فتجاوزوا من التوحيد إلى التثليث كما هو عادتهم وديدنهم. أحدها: الزنا من أحد الزوجين. وثانيها: تجاوز الحد، والإهانة البالغة في معاملة أحد الزوجين للآخر. وثالثها: الحكم على أحد الزوجين بعقوبة قضائية مُهينة، كما قال السيد عبد الله علي حسين في شأن القانون الفرنسي: أسباب الطلاق: ١- الزنا. ٢-سوء المعاملة، أو إهانة فوق الطاقة. ٣-الحكم بعقاب بدني قصاص أو مُخِلٍّ بالشرف.(١)

وأحد الأسباب الثلاثة التي ذكرها، أعني تجاوز الحد والإهانة البالغة يصعُب إثباته ويشكل تقديره، فإنهم لم يقدِّروا له حدًّا ينتهي إليه، وغاية يختتم بها. والثاني أعني الحكم بعقوبة قضائية مهينة لا يكاد يوجد إلا في حق المُجرمين، فلم يبق إلا الثالث، فلذا نبحث عليه إن شاء الله تعالى، ونقارنه مع دين الإسلام، واستمع بعض العبارات التي تدل على أنهم يعتبرون الزنا في الطلاق:

قال البادري بركت الله: إن الأقوام التي توجد فيها وحدة الزوجة وإحكام هذه الرابطة وتوكيدها تسلُك في سلك الرُّقي، ولكن الأقوام التي توجد فيها كثرة الأزواج وإجازة الطلاق يوجد فيها الزوال والتزلزل والاضطراب والتشتُّت.(٢)

قال العلامة شبلي رحمه الله تعالى في ذيل أن الطلاق لا يقع عند المسحيين إلا عند وقوع الزنا: لقد وقع في هذه المسئلة (أي الطلاق) عند المسيحين شدة بحيث لا يقع، أي الطلاق إلا في حال الزنا، ونتيجة هذا أن اليوم في أوربا التي هي مركز التهذيب والتمدن، تقع وقائع وحوادث مُفزِعة مُفضِحة لأجل هذه المسئلة.(٣)

وقال الشيخ عبد العزيز شاويش المصري في كتابه (والموجود عندي ترجمته الأردية):

---

(١) المقارنات التشريعية، ص١٩٤.

(٢) توضيح البيان في أصول القرآن، ص٤٤، ترجمة من الأردية.

(٣) الكلام، ص١٧٤.

لكن بعض الأقوام من غير المسلمين لا يجوزون الطلاق إلا لأجل الزنا، كما في قانون الإنجليز فإنهم يقولون: كل واحد من الفريقين إذا ارتكب الزنا يجب على الآخر أن يُحضِره في دار القضاء ليفرِّق القاضي على لسانهم بينهما.(١)

هذا مذهبهم في الطلاق، ويطعنون بألسنتهم في الإسلام بتجويزه الطلاق، ويقولون: هذا سُم ناقع وداء حاصد يؤذي به المجتمعات ويَقلِب سعادتها إلى شقاء وخوف، ولم يخلق الله الزوجة لتتفرق وتجتنب، بل ليسكن الزوج إليها ويتوادد إليها، ولم يتزوجها للفراق المُنشئ للبغض والحسد والعناد والفساد، وستسمع الجواب عنه إن شاء الله تعالى مفصلا، فانتظر ولا تعجل، وعلى الله فتوكل.

تاريخ الطلاق:

ثم الطلاق ليس بمخصوص بالدين المُحمدي المطهَّر، بل هذه سنة قديمة، فالإسلام ليس أبو عذرته، بل تنطق الأديان الأخر أيضًا بمشروعيتها. فمذهب اليهود أنهم لا يبالون بالطلاق، بل يطلقون بشيء تافه وكلام قليل وقع بينهما. ففي التوراة «إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها، فإن لم تجد نعمة في عينه؛ لأنه وجد فيها عيب شيء، وكتب لها كتاب طلاق، ودفعه إلى يديها وأطلقها من بيته، ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر، فإن أبغضها الرجل الآخر وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته أوإذا مات الرجل الأخير الذي اتخذها له زوجةً، لا يقدر زوجها الأول الذي طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجست؛ لأن ذلك رجس لدى الرب، فلا تجلب خطيئة على الأرض التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا».(٢)

أقول: فاعتراضهم على الإسلام بالطلاق يستوجب طعنًا في دين مُطاعهم موسى عليه السلام، وهذا يستلزم الاعتراض على نبيهم عيسى عليه السلام؛ لأن عيسى أمر بإطاعة موسى، حيث قال: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض، بل لأكمل، فإني الحقَّ أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة

---

(١) *اسلام اور فطرت* (الإسلام دين الفطرة)، ص٢١٥. لافتخار أحمد.

(٢) التثنية ٢٤/ ١-٥.

واحدة من الناموس حتى يكون الكل».[(١)]

وقال بعض المَهَرَة: لو رحنا نستقصي الطلاق كظاهرة اجتماعية في الناس في كافة أطوار البشرية، لرأينا أنه كان عملًا مشروعًا في كافة الشرائع قبل الإسلام إذا ما استثنينا الشريعة الهندوسية، غير أن هاتيك الشرائع لم تذهب في إباحته مذهبًا واحدًا، أو لم تنهج طريقة واحدة، ففي شريعة حمورابي ما معناه: أن للزوج أن يطلق زوجته إذا لم ترزق أولادًا؛ لأن الزواج يعتبر لاغيًا إذا لم يُعطِ ثماره. أما في شريعة اليهود، فقد أبيح الطلاق من غير عذر.[(٢)]

وقال العلامة الشبلي النعماني: واليهود في الطرف الآخر يجوزون، بل يستحسنون الطلاق لأجل أمر حقير وقع بينهما، فلو زاد الملح في الطعام أو رأى امرأة حسناء من الأولى يطلق الأولى بلا رؤية وتدبر.[(٣)]

فمذهب الإسلام بين إفراط اليهود وتفريط النصارى، وخير الأمور أوسطها. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣)

معنى الطلاق وأقسامه على سبيل الإجمال:

الطلاق معناه لغة: رفع القيد، لكن جعلوه في المرأة طلاقًا، وفي غيرها إطلاقا.[(٤)] وتوضيحه كما في «فتح القدير»: «واستعمل فِعلُه بالنسبة إلى غير نكاح المرأة من الإفعال: أطلقت بعيري وأسيري، وفيه من التفعيل: طلَّقت امرأتي».[(٥)]

وفي «منتهى الإرب»: «طلاق: *رہاشدنِ زن از قیدِ نکاح*».[(٦)] طُلِقَتْ من زوجها، كنصر وكرم طلاقًا: بانت فهي طالق.[(٧)] طُلِقت طلاقًا المرأةُ من زوجها: بانت عن زوجها وتركته

(١) متى ٥/ ١٨-١٩.

(٢) الإسلام نظام إنساني، ص٧٨.

(٣) الكلام، للعلامة الشبلي النعماني، ص١٧٥.

(٤) الدر المختار مع حاشيته رد المحتار ٣/ ٢٢٦.

(٥) فتح القدير ٣/ ٤٤١.

(٦) منتهى الإرب، لعبد الرحيم، ٤/ ٧٦٦.

(٧) قاموس ٢/ ٢٥٨ لمجد الدين الفيروز آبادي.

فهي طالق، طَلْق.[١]

وأقسامه ثلاثة: أحسن، وحسن، وبدعي. فالأحسن: طلقة رجعية فقط في طهر لا وطئ فيه وتركُها حتى تمضيَ عدتها. والحسن طلقة لغير موطوءة ولو في حيض، وتفريق الثلاث لموطوءة في ثلاثة أطهار لا وطئ فيها، ولا في حيض قبلها، ولا طلاقَ فيه فيمن تحيض، وفي ثلاثة أشهر في حق غيرها. والبدعي ثلاث متفرقة أو ثنتان بمرة أو مرتين في طهر واحد لا رجعة فيه، أو واحدة في طهر وُطِأَتْ فيه، أو واحدة في حيض موطوءة، كذا في الدر المختار.

الطلاق في الإسلام:

يسمح الإسلام للرجل أن يطلق امرأته، وعليه الإجماع بحيث لا ينتطح فيه كبشان ولا يختلف فيه اثنان، كما قال الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى: اتفقوا أن طلاق المسلم العاقل البالغ الذي ليس بسكران ولا مُكرَهًا ولا غضبان ولا محجورًا ولا مريضًا لزوجته التي قد تزوجها زواجًا صحيحًا جائز، إذا لفظ به بعد النكاح مختارًا له حينئذ.[٢]

وثبوته بالقرآن، والسنة، والإجماع، والعقل.

أما القرآن: فقوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ (البقرة: ٢٢٩)، وقوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾ (البقرة: ٢٣٠)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ (البقرة: ٢٣١)، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ (الطلاق: ١)

وأما السنة: فقوله عليه السلام: «كل طلاق جائز إلا طلاق المعتوه المغلوبِ على عقله».[٣] وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «طلاق الأمة تطليقتان».[٤] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن امرأة قيس بن ثابت أتت النبي صلى الله

---

(١) منجد، ص ٤٨٠.

(٢) مراتب الإجماع، للعلامة ابن حزم الظاهري، ص ١٢٧.

(٣) سنن الترمذي، رقم: ١١٩١، وإسناده ضعيف، والصحيح موقوف.

(٤) سنن الترمذي، رقم: ١١٠٢.

عليه وسلم فقالت: يا رسول الله! ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكن أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتُردِّين عليه حديقته»؟ قالت: نعم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقبل الحديقة وطلقها تطليقة».[1] وما إلى ذلك من من الأحاديث والآثار.

وأما الإجماع: فقد ذكرناه.

وأما العقل: فلأن بقاء النكاح وزِمامه في اختيار الزوج، وهو الناكح، فله أن يزيله، وقد تقع ضرورة شديدة إليه بحيث لا يتصور معها القيام بالنكاح، وتنقلب مصالح النكاح مفاسد، ويصبحا عدوَّين لا يمكن أن يتعاشرا تعاشر الزواج، فالَمصلحة حينئذ الطلاقُ والخلاص من الَمفسدة والمضرة.

لا شك أن الزواج لم ينعقد لِهَزْلٍ واستهزاء، بل للمودة والتعاشر والزواج الأبدي، هو الأليق بالإنسان والأحرى، وهو الُملائم لحوائجه وضرورياته، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١)، فالمرأة خُلِقت ليسكن الزوج إليها، لا ليذيقها ألم المفارقة والموادعة، ويدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «ما خلق الله شيئا على وجه الأرض أبغض إليه من الطلاق، وما خلق الله شيئا على وجه الأرض أحب إليه من العَتاق».[2] فصيَّره النبي صلى الله عليه وسلم مبغوضًا، ولذلك حكم الله حين الشقاق بين الزوجين بالصلح، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٥)، وقال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ (النساء: ١٢٨)

فتحكيم الحكمين ليعيدا المودَّةَ الزائلة، ويطفئا النار المشتَعِلة، وأوصى النبي صلى الله عليه وسلم زيدَ بن حارثة مولاه: أمسك عليك، كما حكى الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ (الأحزاب: ٣٧)، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا

(١) سنن النسائي، رقم: ٣٤٠٩.

(٢) السنن الكبرى، للبيهقي ٧/ ٣٦١.

تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ (النساء: ٣٤). ويستخرج منه أن الطلاق ممنوع في أصله إلا أنه شُرِع للضرورة، والضرورات تبيح المَحظورات، كما قيل في الفارسية:

گر ضرورت بود روا باشد ❁ بے ضرورت چنیں خطا باشد

معناه: يباح إذ اضطر إليه، وإلا فمن الخطأ إتيان مثله.

وإن الإسلام يحكم بالتعاشر بالمعروف، وفي هذا يقول الله تعالى:﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ (النساء: ١٩)

وقال عليه السلام: «لا يَفرَكْ (أي: لا يبغض) مؤمنٌ مؤمنةً، إن كره منها خُلُقًا رَضِيَ منها آخر».[١]

والإسلام أمر الزوج بعد الطلاق أن يؤدي الصداق ونفقتها ولباسها وسكناها ما دامت في العدة، وأن يربِّي أولاده الصغار، حتى لو امتنعت عن الإرضاع يؤتيها الأجر. قال تعالى:﴿ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ (الطلاق: ٦)، ذلك كله لينظر إلى هذه المشقات والأعباء والأحمال، ويمنع عن الطلاق، فالإسلام دبَّر للاجتناب عن الطلاق هاتيك التدابير وشرع من الأحكام ما يلي:

١- يأمره بالمعاشرة الحسنة، ويقول له: عسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا.

٢- لو حدث ذات البين أو خافا ذلك، يجب عليهما السعي في إصلاحه، وفيه يقول الله تعال:﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗا﴾ (النساء: ١٢٨)

٣- لو لم ينفع هذا شيئا فليعرضا أمرهما على مجلس عائلي يتألف من حكمين: حَكَم من أهله، وحكم من أهلها، ليوفقا بين رغبتها، ويعيدا إيلافهما، ويزيلا أسباب الشقاق والنفاق.

٤- فإن لم يظهر لهذا الدواء أيضًا تأثير ولم تنجح هذه الحيل، لم يبق حينئذ إلا الطلاق، فيباح له أن يطلقها طلاق السنة عند الضرورة.

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٤٦٩.

أقوال الفقهاء في كراهية الطلاق:

يدل على منع الطلاق عند عدم الضرورة كثير من أقوال فقهائنا. قال ابن الْهُمام رحمه الله تعالى: «والأصح حظره إلا لحاجة لِلأدلة المذكورة، ويحمل لفظ المباح على ما أبيح في بعض الأوقات». وقال بعد ذلك بسطور: «وأما إذا لم تكن حاجة فمحض كفران نعمة وسوء أدب ينكره النفوس».[(١)] وقال ابن عابدين رحمه الله تعالى: «وأما الطلاق فإن الأصل فيه الحظر، بمعنى أنه محظور إلا لعارض يبيحه. وهو معنى قولهم: الأصل فيه الحظر، والإباحة للحاجة إلى الخلاص، فإذا كان بلا سبب أصلًا لم يكن فيه حاجة إلى الخلاص، بل يكون حُمْقًا وسفاهةَ رأيٍ ومجرَّد كفران النعمة، وإخلاص الإيذاء بها وبأهلها وأولادها».[(٢)]

ويُطْرِبني في ذلك قول الدكتور مصطفى المراغي حيث قال: «إن لُجوء الإسلام إلى الطلاق هو لُجوء الطبيب إلى السموم القاتلة لِيُبيد بها الأدواء القاتلة، والطلاق في الإسلام مشروع للحاجة، لا للغاية».[(٣)]

ثم إن الإسلام خيَّره بعد الطلاق أن يرجع، ثم بعد الطلاق الحسن الذي هو طلقة واحدة في طهر لم يجامع فيه، خيَّره الإسلام بين الرجوع إليها وتسريحها أثناء عدتها التي هي ثلاثة قروء (أحياض، أو أطهار) على اختلاف المذهبين مذهب الإمام أبي حنيفة والشافعي رحمهما الله تعالى. فالإسلام بعد الطلاق أعطى للزوج فرصة طويلة، وأمهله مدة يرجع فيها بالقول أو الفعل، ولو طلقها بائنًا يجوز له أن يرجع إليها بالنكاح الجديد والمهر الجديد، ثم إذا طلقها طلقات ثلاث لا يجوز له أن يرجع حتى تنكح زوجًا غيره زجرًا له بإيقاعه الطلقات الثلاث جملةً أو متفرقًا. وهذا دليل على نفور طبيعته وفتور رغبته.

والإسلام جعل الطلاق في الحيض بدعيًّا؛ لأن الطلاق يبتني على الضرورة، والطلاق في حالة الحيض يدل على أنه لم يطلق للضرورة، بل لأن حالة الحيض حالة ضعف الرغبة والاشتياق، فلذا كرهه الشرع، وفيه جاء قول النبي صلى الله عليه وسلم في حق ابن عمر

---

(١) فتح القدير ٣/ ٤٦٤.

(٢) رد المحتار ٣/ ٢٢٨.

(٣) الإسلام نظام إنساني، ص٧٠.

رضي الله تعالى عنهما: «مره فليراجعها»، كما جاء في الحديث عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: طلقتُ امرأتي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي حائض، فذكر ذلك عمرُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «مره فليراجعها، ثم ليَدعْها حتى تطهُر، ثم تحيض حيضةً أخرى، فإذا طهرت فليُطلِّقها قبل أن يجامعها، أو يمسكها، فإنها العدة التي أمر الله أن يُطَلَّق لها النساء».[1]

ولذلك جعلت الطلقات الثلاث بدعيًّا؛ لأنها زائدة على الضرورة، والطلاق للضرورة، لا للتلذُّذ وتحصيل النشاط، حتى يزعم الرجل أنه مالك للطلاق كيف ما كان، بل إنما هو تشريعٌ ذو حكمة من جانب الحكيم العليم، وعلاج شاف لمرض ذات البين المُزمن، ولذلك أوصى الله تعالى بتحديد حدوده وتقدير غايته، ونهى عن تجاوزها، فقال عزت كلمته بعد ما ذكر آيات الطلاق: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢٩). وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ (الطلاق: ١)

فزبدة الكلام وعمدته أن الإسلام جوَّز الطلاق في صور وأوقات مخصوصة، لا في كل الأحايين والأحوال، لضرورة شديدة بعد المنافرة بينهما، لا لِتَتَضَرَّر المرأة، بل لرعايتها، وحفظ حقوقها، وإيفاء واجباتها، ونهى عن الإضرار بها، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ (البقرة: ٢٣١)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: ٢٣٢)، فتلك وصية أوصى بها الإسلام في حق الزوجة، وهذا نظام الطلاق في دين الإسلام.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ۞ إذا جمعتنا يا جرير المَجامعُ

وقال الشاعر:

گر نہ بیند بروز شپره چشم ۞ چشمہ آفتاب را چہ گناه

معناه: إذا كانت عين الخفاش لا ترى النهار، فهل من ذنب فيه لعين الشمس.

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٤٧١.

المقارنة بين النظامين: نظام الطلاق في الإسلام والمسيحية:

ثم بعد ذلك نقارن بين نظام الطلاقين: الطلاق في الشريعة الإسلامية والديانة المسيحية، فنقول: الطلاق في الديانة المسيحية لا يقع إلا عند وقوع الزنا. وفي الشريعة المطهرة الإسلامية يقع عند كل ضرورة. والزنا كثيرًا ما يصعب إثباتها ويشكل أمرها، فإن الناس لا يزنون غالبًا في الشوارع والطرق، بل في السرادب والغِيران والبيوت المُظلمة والمواضع المختفية، فتعليق الطلاق بالزنا كتعليق بأمر معدوم كالعنقاء والكيمياء. وإذا سمعت أنه لا يجوز في دينهم المصنوع الطلاق في غير حال الزنا، فما ذا يصنعون فيما يلي من الصور:

١- إذا وصل الشقاق والنفاق بينهما إلى حد لا يمكن الوِفاق، وتنشأ أحوال وشؤون تتكدر منها معاشرتهما ويتنغَّص عَيشهما، ويتعذر الأخذ بتعاليم الإنجيل وأحكامه.

٢- إذا تنافرت طباعهما وتباعدت قرائحهما تباعدًا شديدًا بحيث يُؤثر أحدهما الموت على رؤية صاحبه وتبطل جميع الوسائل التي تُوَفِّقُ بينهما، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء.

٣- إذا فسدت أخلاقها، فلا تراعي حقوق الزَّواج وحرماته، وتدندن في أسواق العشرة والفسق، وتبرُز في محافل الفسوق، والزوج في نظرها كالسوقي والخادم الحقير، فماذا يفعل حينئذ؟

٤- قد يمرض أحدهما مرضًا مُزمنًا، أو يجن جنونًا مطبقًا حتى تفقد خصوصيات الإنسانية من العقل والفهم، أو تكون عقيمًا، أفلا يجوز له في هذه الصور أن يطلقها إذا لم يمكن له الإنفاق عليها أو دواؤها والقيام بحقوقها؟ وإن قلت: فماذا تفعل في هذه الحالة وهي معذورة مجبورة مضطرة؟ قلت: الحكومة الإسلامية، أو أية حكومة كانت، أو جماعة المسلمين ضامنة كفيلة لمثل هؤلاء المعذورين.

٥- وقد تكون غنية لا تكتفي بالنفقة المتوسطة، وهو فقير معسر ضيق اليد لا يجد مالا، أفلا يجوز له آنئذ أن يطلقها حتى تنكح زوجًا يوافقها وينكح بزوجة تناسبه، وهذا ظاهر لا خَفاء فيه.

٦- وقد يغيب إما بالخروج عن الوطن أو بالسجن المؤبد بحيث لا يرجى رجوعه،

أفلا يناسب أن يطلقها حتى تنكح غيره؟ وغير ذلك من الأسباب التي لا تخفى على المتفطن الذي ألقى السمع وهو شهيد.

والمسيحيون لا تُجيزُ لهم الكنيسة أن يطلقوا، ولو طلبوه في بعض الأحايين لاختلاف يظهر فيما بين الزوجين، كما قص الدكتور عبد الواحد قصة، قال: وقد رفعت أخيرًا سيدة مسيحية مصرية دعوى أمام محكمة تطلب فيها تطليقها منه؛ لأنه تركها بدون الإنفاق، وبعد أن استرفعت المحكمة وقائعَ هذه القضية حكمت برفضها الدعوى اعتمادًا على أن أحكام الشريعة المسيحية مدونةٌ في الإنجيل، والطلاق حرام في ذلك إلا لعلة الزنا. انتهى باختصار قليل. وقد رفعت أمام هذه المحكمة نفسها دعوى يطلب فيها الزوج طلاق زوجته؛ لأنها اختلفت معه منذ سبع سنوات، وخرجت على طاعته، وتركت منزل الزوجية، وحرضت أولادها على إهانته والاعتداء عليه بالضرب، وقال: إنه يطلب الطلاق، وقد رَفَضَت المَحكمة هذه الدعوى.(١)

ولما أشكل عليهم هذا القانون، انحرف عنه بعض المسيحيون، فكان أهل أميريكة يعملون بهذا القانون زمانًا، ثم لما علموا أن للطلاق أسبابًا أخر غير الزنا، تدبروا وتذاكروا وتباحثوا في هذه المسئلة.(٢)

ومن القبائح في قانون طلاقهم أنهم لا يعطون حق التفريق إلا للقاضي المعروف بـ «جج»، ولا يجوز الطلاق إلا بسبب الزنا، فإذا زنا أحدهما يرفع الآخرُ الدعوى إلى المحكمة فيحكم بالتفريق، كما قال عبد العزيز الشاويش: لكن بعض أهل الأديان من غير المسلمين لا يجوزون الطلاق بغير الزنا، كما في قانون الإنجليز، فكل واحد من الفريقين إذا ارتكب الزنا يجب على الآخر أن يُحضِر الآخر المَحكمة ليفرق القاضي بينهما.

وفيه من القبائح ما لا يخفى، فإنه لو حكمت العدالة بالتفريق بالزنا يشيع الخبر من المشرق إلى المغرب، لاسيما في هذا الزمان الذي شاعت فيه وسائل الإشاعة والإذاعة من الجرائد اليومية والأسبوعية والمَجلات الشهرية وراديو والتلفزيون وغيرها، فيفتضح بين

---

(١) الإسلام نظام إنساني، ص ٦٠-٦١ بحوالة جريدة «الأهرام».

(٢) الإسلام دين الفطرة (*إسلام اور فطرت*)، ص ٢١٥. الأصل لعبد العزيز جاويش، والترجمة لافتخار أحمد.

الناس ويصير مُثْلَةً بين أهل العصر وإن تاب وآمن وعمل صالحًا وكان من المتقين، فلا تحسبنه خيرًا، بل هو شر لهم. بخلاف ما إذا فُوِّضت هذه المعاملة إلى الزوجين دون المحكمة، فإنه ليس فيه هذه الفضيحة والعار. فسبحان الذي رَزَقَنا دين الإسلام دين الفطرة والغيرة والمَحاسن، منزَّهاً عن كل عيب.

ثم الدين المسيحي يصرح بأن الزوجين بعد الطلاق لا يتزوجان أبدًا ويعيشان بدون نكاح وإن تابا وأصلحا. واستدل جميع طوائفهم في ذلك (أي تحريم الزواج بعد الطلاق) بما ورد في إنجيل متى: «من يتزوج مطلَّقةً يزني».[١] وما ورد في مرقس: «من طلَّق امرأته وتزوج وتزوج بأخرى يزني عليها، وإن طلقت المرأةُ زوجَها وتزوجت بآخر ارتكبت بذلك جريمة الزنا».[٢] فيعلم من هذا أنهما لا يتزوجان وإن اشتاقت نفوسهما وصالت بهيمة الشهوة عليهما. وقانون الإسلام المقدَّس يسمح لهما بعد الطلاق أن يتزوجا بمن شاءا، لا بأس عليهما في أن يلقيا على أكتافهما حبل الزواج، ويتزينا بزينة التضاجع.

ولا يخفى ما في مذهبهم من الخوف في وقوع السِّفاح. فإنهما لما وقعا في قعر الزنا وهما مقيَّدان في سلسلة النكاح، وتفرقا لأجل ذلك، فما ظنك بعد التفريق والحُرِّيَّة التامة. ولما صعب العمل على هذا القانون تركوه وأعرضوا عنه، ونبذوه وراء ظهورهم، كما حدث في موضوع مَلِك انجلترا الأسبق أدوارد الثامن الذي أراد أن يتزوج بمطلقة ملكت عليه تلبد (ليدي نسمبسون سابقًا ودوقة ومذسور الآن)، وكانت الظروف السياسية مواتية آنئذٍ لإخراج هذا الملك والوقوف في سبيل رغباته، فظهرت الكنيسة مهدِّدةً بأناجليها، وبان من يتزوج مطلقة يزني، فخُيِّر بين أن يمتثل لهذه القواعد ويحتفظ بالعرش أو يتنازل عن الملك، فآثر العقل على العقيدة والقلب على التاج. ومن الغريب أنه كان معروفًا لدى الخاص والعام ولدى الكنيسة والشعب أن هذا الملك كان يعاشر خليلته هذه، وهي لا تزول في عصمة زوجها قبل أن تطلق منه، وكان لها جناح خاص في قصره، وقد اعترفت هي نفسها بذلك في مذاكراتها التي نشرت أخيرًا في أحد الصحف المصرية.[٣]

---

(١) متى ٥/ ٣١.

(٢) مرقس ١٠/ ١١-١٢.

(٣) الإسلام نظام إنساني، ٦٦-٦٧، للدكتور علي عبد الواحد.

وقد حدث مثل ذلك أخيرًا للأميرة مرجريت (Margreat) أخت ملِكة الإنجليز الحالية، فقد أرادت من ضابط أحبته، وأحبها (الكابتن تانسند) فقامت قيامة الكنيسة في وجهها؛ لأن هذا الضابط قد طلَّق زوجته له من قبل، وقاعدة الكنيسة أن من يتزوج مطلَّقًا يزني.[(١)] فاستبان من هذا أن المسيحيين أنفسهم قد عجزوا عن هذا القانون أن يعملوا به. فسبحان الذي جعل الدين الإسلامي سمحًا سهلًا يمكن العمل عليه، بل يسهل، ولله الحمد والمنَّة.

ثم نورد بعض إيراداتهم على هذا النظام الحَسَنِ الانسجام مع الجواب عنها، ومَطَاعنهم مع الالتيام .

المطعن الأول: لِـمَ اختص هذا الحق (حق الطلاق) بالرجال، ولم يشترك بينهما، فإذا رأى الرجل من المرأة شيئًا يكرهه ويتنفر عنه يطلقه، فما ذا تفعل إذا رأت منه أمرًا كريهًا لا يمكن الصبر عليه؟ وأما المسيحيون فيعطون لكل منهما حق الطلاق، حتى إن زنى كل واحد منها يجب على الآخر أن يقدِّم المسألة في المَحكمة عند القاضي.

والجواب: أن الرجل لما كان مالكًا للنكاح، والمرأة ناقصة العقل لا تقدِّر العواقب، لا رأي لها ولا تدبيرَ جعل ذلك في يد الرجل، كما قال عبد الرحمن البخاري: ومن محاسن الطلاق أن جعل مِلْك الطلاق إلى الزوج دون المرأة، إما باعتبار أن الزوج هو المالك والمرأة مملوكة له، فكان إزالة الملك إلى من له الملك، لا إلى من عليه الملك، كما في ملك اليمين، أو باعتبار أن المرأة ناقصة العقل ضعيفة الرأي سريعة الاغتراء لا رأيَ لها في أمورها، فإن جعل الطلاق إليها لبادرت إلى الطلاق عند كل قليل وكثير، فإن رغد عيشها بَطِرَت فتأملت غيرة، وإن عسر أمرها ضجرت فحالت عنه، فقلما يحصل الدوام على النكاح، فالشرع جعل الطلاق إلى الزوج ليتأمل ويتفكر ويستعمل عقله في أن الصلاح في المُقام معها أو فى مفارقتها؟ فهذه حكمة بالغة، ورحمة من الله سابغة.[(٢)]

---

(١) الإسلام نظام إنساني، ص٦٧.

(٢) محاسن الإسلام، لعبدالرحمن البخاري، ص٥١.

فالحاصل أنا جعلنا أمر الطلاق بيد الرجل لكمال عقله وتدبيره وكونه مالكًا، فيتدبر ويفكر في نتائجه، فإن اتضح له أن الخير في الصحبة اختارها، وإن سنح له أن الصلاح في المفارقة اتخذها عُدَّة وصلاحًا. وهذا رحمة وشفقة بالزوجة وحفظ لها من الوقوع في ورطة الهلاك. ولو جعل ذلك في يدها لأساءت الاستعمال، وأفضى ذلك إلى نتائج قبيحة، كما صرَّح به بعض المهرة.

ولعل سائلًا يقول: لماذا أعطي الرجل وحده هذا الحقَّ ولم تسو فيه المرأة؟ ونكفينا للإجابة على ذلك الوقائع المعيبة والمضحكة التي تصل سمعَنا كل يوم من حوادث الطلاق في أمريكا، وهي الدولة التي جَعَلت الطلاقَ حقًّا يمارسه كل من الزوج والزوجة على السواء، لأسباب تافهة وقضايا بسيطة التي يتشبث بها الأمريكيون والأمريكيات للحصول على الطلاق، ولعل المنصف تأخذه الدهشة فيما يعلم أن أكثر من نصف مليون رجل وامرأة يتباغضون ويتحاسدون، ويتغير نظام معيشتهم كلَّ عام لسبب حوادث الطلاق المؤلمة، وإلى هذا يشير (نتبام) قائلة: الطلاق ضرورة اجتماعية، وإنما الذين يرون المساواة في إيقاعه إنما يضعون النساء في حد لا يحمد الوقوع فيه؛ إذ المساواة المطلقة تحيد بهن عن استعمال ما فيه وفي أزواجهن.(١)

وأما قولهم: «ما المَخلص للمرأة إذا رأت منه مكروهًا إذ لا تقضي حاجتها؟» فنقول: شريعتنا وافية بكل ذلك لمن نَظَرَ بعين الإنصاف وتجنَّب الاعتسافَ. فاستمع أن العيوب التي بها تتضجر المرأة وتتحرج ولا تستوفي حقوقها قد عالجت لها الشريعةُ الإسلامية السمحة البيضاء علاجات مختلفة، والعيوب مختلفة، فإن كان مجبوبًا لا يقدر على جماع فرج زوجته فرق بينهما كما هو المزبور في كتب الفقه. قال في «تنوير الأبصار»: «إذا وجدت زوجها مجبوبًا فُرِّقَ».(٢)

وقال في شرحه «الدر المختار»: (فرَّق) الحاكمُ بينهما بطلبها لو حُرةً بالغةً غيرَ رتقاءَ

(١) الإسلام نظام إنساني، ص٧٧.

(٢) تنوير الأبصار مع الشامي ٣/ ٣٩٤-٣٩٥ .

وقرناءَ، وغيرَ عالمة بحاله قبل النكاح وغيرَ راضية به بعده».[1] وهذا القيد، أي: غير عالمة. الخ. لا بد منه إذ من المتفق عليه بين العلماء أن أحد الزوجين إذا علم أن عيبًا بصاحبه قبل العقد أو بعده، ووجد دليل الرضا منه به أو نطق بالرضا لا يثبت له حق طلب الفسخ بذلك العيب.[2]

وإن كان عِنِّينًا يفرق بعد تأجيل سنة له، لاحتمال أن يرجع إليه قوته، وهو من لا يصل إلى النساء لمرض أو كبر أو سحر، ويسمى المعتوه. قال في «تنوير الأبصار»: ولو وجدتْه عنينًا أو خَصِيًّا أُجِّل سنة، ورمضان وأيام حيضها منها، لا مدة مرضه ومرضها، فإن وطئ وإلا بانت بالطلاق.[3] وقال في «الزواج والطلاق في جميع الأديان»: «وأبو حنيفة وأبو يوسف رحمهما الله تعالى ذهبا إلى أن الزوجة لها طلب التفريق إذا وجدت زوجها عنينًا أو خصيًّا أو مجبوبًا، وزاد الإمام محمد رحمه الله على ذلك أن المجنون والجذام والبرص حكمهما كذلك، ووافقه الأئمة الثلاثة، وللمرأة أن تطلب التفريق من القاضي بعد ثبوت دعواها».[4]

وإن كان معسرًا ولم يتيسر عيشها معه، لها أن تطلب التفريق عند مالك وأحمد والشافعي رحمهم الله تعالى، وليس لها ذلك عند ساداتنا الأحناف، بل يأمرها القاضي بالاستدانة عليه وإن أبى الزوج، لئلا يلحق ضرر بها، فالشريعة الإسلامة يُجَنِّبُها من الضرر والضيق والكلفة والمشقة. ومذهب الأحناف معقول يقبله الطبع السليم، ينبغي لها أن يعاشر في حالة العسر كما استمتعت معه في حالة اليسر وعاشرته في السرور والفرح، والصبر أليق بها وفاءً لحق الزوجية والمعاشرة القديمة، ولو أصرَّ على أنه لا يعطيها النفقة ولم يكن له مال ظاهر طلَّق عليه القاضي في الحال. ذكره المراغي قال: فإن امتنع الزوج عن الإنفاق على زوجته، فإن كان له مال ظاهر نفذ الحاكم عليه بالنفقة في ماله، وإن لم يكن له مال ظاهر ولم يقل إنه معسر أو موسر، ولكن أصرَّ على عدم الإنفاق طلق عليه القاضي في الحال.[5]

---

(١) الدر المختار مع الشامي ٣/ ٤٩٥ .

(٢) الزواج والطلاق في جميع الأديان، ص٢٣٥.

(٣) تنوير الأبصار مع الشامي ٣/ ٣٩٧-٣٩٨.

(٤) الزواج والطلاق في جميع الأديان، ص٢٣٦..

(٥) الزواج والطلاق في جميع الأديان، ص٢٣٦.

وإن كانت تتضرَّر منه لسوء معاملته، فعند مالك يثبت لها حق الفرقة إذ لم يوجد الإمساك بالمعروف، فيكون التسريح بالإحسان، وقال جمهور الأئمة: يَزْجُرُه القاضي ويأمره ويجبره بحسن المعاشرة. فأخرج جميع الأئمة لهذا المضيق مخرجًا ولم يُقِرُّوا الظلم عليها. وإن كان غائبًا فذهب الموالك إلى أن من حق المرأة أن ترفع الأمر إلى العدالة فيفرق القاضي، والأحناف والشوافع لم يروا ذلك مهما طالت الغَيْبة، فلا يسمع القاضي هذه الدعوى، بل يفرض لها النفقة، ففي «الدر المختار»: تفرض النفقة بأنواعها الثلاثة لزوجة الغائب.[1] فالشريعة الإسلامية لم تقبل بظلم الزوجة في حال من الأحوال.

وأما قول المسيحيين: يجوز للرجل أن يضرب امرأته وهذا ظلم، كما قال بادري بركت الله: القرآن يرخص للزوج أن يضرب امرأته كما قال: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ (النساء: ٣٤).[2] فهذا جهل عظيم وفِرْيَةٌ، فإن المقصود المطلوب من هذا ليس الظلم، بل التأديب. ومن المعلوم أن في النساء جهلًا وقصورَ عقل، فلو لم يجز هذا في بعض الأحوال لأدى إلى العثى والفساد. ويشهد على كونه للتأديب قوله عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع: «اتقوا الله فى النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يؤطِئن فرشكم أحدًا تكرهونه. فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مُبَرِّح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف».[3] وما ذكره من الآية فمع خطأ الحوالة؛ فإن عدد الآية ٣٤ لا ٣٨ كما ذكره. فالمراد منه التأديب. والآية التامة هكذا: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٤)

أفادت هذه الآية أمورًا ثلاثة عند نشوزها: ١-الوعظ. ٢-والهجر في المضاجع. ٣-والضرب، فالضرب عند عدم إفادة العلاجين الآخَرين، وبين الثلاثة ترتيب ينبغي أن يتدرَّج فيها. واتفقوا أن الضرب يكون غير مبرح، قال ابن عباس رضي الله عنه: ضربًا غير مبرح

(١) الدر المختار ٣/ ٦٠٤.

(٢) توضيح البيان في أصول القرآن، ص٤٥.

(٣) صحيح مسلم، رقم:٢١٣٧.

ولا شائن.[١] قال الحسن: ضربًا غير مُبَرَّحٍ وغير مؤثر.[٢] والضرب الخفيف بالسواك أو نحوه. قال ابن عباس رضي الله عنه: بالسواك ونحوه.[٣] وصرَّح أهل التحقيق بأنه إن كفى الطريق الخفيف لا يصار إلى الشديد، مهما حصل الغرض بالطريق الأخف وجب الاكتفاء به، ولم يجز الإقدام على الطريق الأشق.[٤]

فالحاصل أن هذا الضرب ليس ضرب ظلم، بل ضرب سواك للتأديب، وضرب أيوبي لا ضرب سليماني، وهو أيضًا بعد عدم إفادة العلاجين الآخَرين، فنظام الإسلام نظام جيد جدًّا، محيط بمصالح العالم وفوائده، فالمعترض عليه إما جاهل أو متجاهل.

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٢٠٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٩٥.

(٣) تفسير القرطبي ٥/ ١٧٣.

(٤) تفسير الرازي ١٠/ ٧٢.

الجهاد في الإسلام والمسيحية

الجهاد في الدين المسيحي:

يقول أهل الملة المسيحية: إن الجهاد والقتال محرَّم ممنوع في ديننا، وديننا المسيحية انتشرت بالأخلاق الحسنة والمحبة الصادقة، لا بالسيف والسنان والقتال والمحاربة. ولهذا لم يقاتل عيسى عليه السلام طول عمره. وإليك نص قولهم في ذلك:

قال البادري بركت الله -ما معرَّبه-: المسيحية تحرم القتال، كما أشاع المَجلس العالمي المنعقد في يروشلم في إبريل سنة ١٩٢٨م هذا القرار: ليس في دين المسيحية تفريق بين الأعلى والأدنى؛ لأنه روح الصلح، ولكونه مذهبًا عالميًّا شاملًا لجميع الأقوام والأفذاذ، فيه سواسية كأسنان المشط. ثم قال بعد ذلك: تقتضي خطبات الإنجيل وعباراته أنه لا يجوز لأحد مَن كان وأين كان أن يُحَرِّضَ الآخر ويستحثه على القتال، نعم! يوجد في القرآن الكريم أمر صريح للنبي صلى الله عليه وسلم بالقتال والجهاد، وبتحريض المسلمين عليه، والتشديد على الكافرين والمنافقين، وأُمِروا أن يقتلوا حتى لا يكون فتنة ويكون الدين كله لله.[(١)]

وقال مولانا رحمة الله الكيراني رحمة الله عليه: الأمر الرابع أن علماء بروتستنت يَدَّعون كذبًا أن دين الإسلام شاع وذاع بالسيف المسلول.[(٢)]

وتستدل الأمة المسيحية على تحريم الجهاد في دينهم بقول المسيح عليه السلام: «أما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر بالشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فَحوِّل له الآخر أيضًا، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء، ومن سخَّرك ميلًا واحدًا فاذهب معه ميلين».[(٣)] وقال القديس بطرس: «أعد سيفك إلى مكانه، لأن كل الذين يأخذون بالسيف،

---

(١) توضح البيان في أصول القرآن، ص٢١-٢٢. والكتاب بالأردية.

(٢) إظهار الحق ٢/ ٥٠٩.

(٣) متى ٥/ ٣٨-٤١.

بالسيف يهلكون».[1]

والخلاصة أن لهم طعنين:

الطعن الأول: إن الدين المسيحي دين الصلح والأمن، ودين الإسلام دين السيف والجهاد.

والطعن الثاني: إن دين الإسلام انتشر بالحُسام الصَّمصام، لا بالبرهان. وأن جهاد المشركين رذيلة من الرذائل ودنائة وخساسة، وأنها تنافي النبوة، فإن النبوة تستوجب الرحمة الكاملة الوافرة، بل من شأن النبي أن يتحمل إهانات الكفار، ويتعرض لأذيَّات الفجار بدون المقاومة. والإسلام عارٍ عن هذا الحسن والجمال، خال عن هاتي الزينة والكمال. معاذ الله.

قال البادري الدكتور او وي سيخ: الإسلام في نظر القرآن مذهب إجباري انبثَّ بالسيف، ليست فيه جاذبية من جهة الأخلاق أو البرهان، بخلاف الإنجيل، فإنه تمكن في القلوب بقوة أخلاقه.[2]

الجهاد في الدين الإسلامي:

الجهاد لغةً: مصدر جاهد في سبيل الله. وشرعًا: الدعاء إلى الدين الحق وقتال من لم يقبله.[3] وعرَّفه ابن الكمال بأنه: بذل الوُسع في القتال في سبيل الله مباشرةً، أو معاونة بمال أو رأي، أو تكثير سواد، أو غير ذالك. وهو فرض كفاية إذا حصل المقصود بالبعض، وإلا ففرض عين.[4] وقال في «منهاج التفسير»: الجهاد هو بذل الطاقة واستفراغ الوسع في مدافعة العدو. وهو قسمان عظيمان، تحت كل منها أنواع. فالقسم الأول: جهاد العدو الباطن، وتحته

(١) الجهاد، ص١٩٢، لأحمد محمد الحوفي.

(٢) *اسلام كا اخلاقى نظام*، ص٨٥ ، للشيخ القاري محمد طيب رحمه الله تعالى.

(٣) قاله الشمني، وهو تقي الدين أحمد بن محمد الشُّمُنِّي القُسَنْطيني الأصل، الإسكندري: محدّث مفسر نحوي. ولد بالإسكندرية، وتعلم ومات في القاهرة. من كتبه «شرح المغني» لابن هشام، و«مزيل الخفا عن ألفاظ الشفا»، و«كمال الدراية في شرح النقاية» في فقه الحنفية.

(٤) الدر المختار مع الشامي ٤/ ١٢١-١٢٣.

جهاد النفس، وجهاد الشيطان. والقسم الثاني: جهاد العدو الظاهر، وتحته ثلاثة أنواع: جهاد الكفار، جهاد المنافقين، جهاد أهل الظلم والبدع والضلالات الاعتقادية والعملية.[١]

الصلح هو الأصل في الإسلام:

ندب الإسلام إلى الصلح والسَّلْم إن لم يخف المسلمون من الكفار ويكون بهم ثقة، ويعلم المسلمون أنهم لا يغدرون ولا يقعون في أمور المسلمين وشؤونهم. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أيها الناس! لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا اللهَ العافيةَ. فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». ثم قال: «اللهم مُنْزِلَ الكتاب ومُجرِيَ السَّحاب وهازمَ الأحزاب اهزِمْهم، وانصرنا عليهم».[٢]

فالصلح والسلم هو الأصل في نظر الإسلام، لكن إن خاف هجوم الكفار، أو خاف على نفسه، أو ماله، افترض عليه القتال لإعلاء كلمة الله، وعصمة نفسه وماله وأولاده والمسلمين، فإن هجمونا فالجهاد فرض عين. وفي غير هاتين الصورتين الصلح هو الأصل. قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ (الأنفال: ٦١) يشير هذا إلى أن السلم هو الأصل.

قال عبد الرحمن الجزري: «السَّلْم في نظر الإسلام هو الأصل الذي يجب اتباعه دائمًا ما لم يُهدر الدين، والعِرْض، والنفس، والمال. وعند ذلك يجب على المسلمين أن يذودوا عن شرفهم، وأن يكفوا عنهم أعداءهم، فليس القتال عن طبيعة الإسلام كما يظن بعض الجهلاء من آيات القرآن.[٣]

وقال العلامة ثناء الله الباني بتي رحمه الله تعالى: «فإن الأمر بالقتال والجهاد ليس لأجل الإكراه على الدين، بل لدفع الفساد من الأرض، فإن الكفار يفسدون في الأرض ويصدون عباد الله عن الهدى والعبادة، فكان قتلهم كقتل الحية والعقرب».[٤]

وإذا كان الإسلام قد فرض الجهاد على المسلمين، فإنما هو عند ما تدعو إليه داعية

(١) منهاج التفسير، ص٩٥.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٣٠٢٤.

(٣) أدلة اليقين، ص٣٤، لعبد الرحمن الجزري.

(٤) التفسير المظهري ١/ ٣٦٣.

المجتمع.[١]

وبالجملة أن الأحوال ثلاث:

أولها: الهجوم على المسلمين والإغارة عليهم، ولاشك أن الدفاع والذَّود في هذه الصورة فرض عين، حتى تخرج المرأة بدون إذن زوجها، والعبد بغير إذن مولاه، بل المقصود في هذه الصورة الدفاع عن النفس، وإعلاء كلمة الله، كما في غزوة الخندق التي وقعت سنة ٥ هجرية، جمع أبو سفيان عشرة آلاف من الجيش ليغير على المدينة.

قالت عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ (الأحزاب: ١٠)، قالت: كان ذلك يومَ الخندق، وقال الله تعالى يَمُنُّ على المؤمنين بالفتح يوم الخندق: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (الأحزاب: ٩). وكما في غزوة بني المصطلق بلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن بني المصطلق يجتمعون له، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم، فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إليهم، حتى لقيهم على ماء من مياههم.[٢]

وثانيتها: الصد عن السبيل وإن لم يهاجموا ولم يَصُولوا على المسلمين إلا أن المسلمين يخافون من أذاهم إذ أنهم يصدون عن سبيل الله وعن إعلاء كلمة الله، فالجهاد في هذه الأحوال فرض كفاية لإعلاء كلمة الله، وبهذا الطريق انتهج الكفار مدة عمرهم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، كانوا يصدون عن سبيل الله ويؤذون المسلمين، كما يدل عليه واقعة الحديبية: خرج النبى صلى الله عليه وسلم عام الحديبية فى بضع عشرة مئة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلَّد الهدى وأشعره، وأحرم منها بعمرة، وبعث عينًا له من خُزاعة، وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان بغدير الأشطاط، أتاه عينه. قال: إن قريشا جمعوا لك جموعًا، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك. فقال: «أشيروا أيها الناس عليَّ! أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين

---

(١) نبذة من السيرة النبوية، لأبي النضر الطرازي، ص٩٥.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٦٤.

يريدون أن يصدونا عن البيت، فإن يأتونا كان الله عز وجل قد قطع عينا من المشركين، وإلا تركناهم محروبين». قال أبو بكر: يا رسول الله! خرجتَ عامدًا لهذا البيت، لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجَّه له، فمن صدَّنا عنه قاتلناه. قال: «امضوا على اسم الله».(١)

ولما كانت حال العرب هكذا، وكانوا منغمسين في غمرات الحراب والعراك، أُمِر بالجهاد، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة: ٣٥)، وقال تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ (الأنفال: ٣٩)، وقال عزت كلمته: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩)، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ (التحريم: ٩)، وقال تعالى: ﴿فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ﴾ (التوبة: ١٢)، وغير ذلك من الآيات.

الثالثة: أن لا يريدوا الهجوم والضرر، فالإسلام أيضًا لا يأمر بالتعرض والقضاء عليهم، بل يشير بالصلح والسَّلْم والإعراض عن القتال، كما سبق في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا».(٢) ولذا منع النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل الصبيان، والشيوخ، والنساء، ومن لا يقدر على القتال، فلو كان المطلوب في الإسلام استيصال الكفرة وقطع شافتهم لأمر بقتل الجميع، لكن لم يفعل هكذا، بل أمر بقتل المُقاتلين أو المُشاوَرين المُمَدِّين في ذلك، ونهى عن قتل غيرهم. وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بامرأة وقد قتلها خالد بن وليد، والناس مُتَقَصِّفُونَ عليها، فقال: ما هذا؟ فقالوا: امرأة قتلها خالد بن الوليد؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض من معه: «أدرك خالدًا، فقل له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهاك أن تقتل وليدًا أو امرأةً أو عسيفًا».(٣)

فالطاعن في الإسلام بأنه لم يقصد ولم يمل إلا إلى السيف دون الصلح جاهلٌ أو ضالٌّ

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ٤١٧٨.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٣٠٢٤.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٥٨. والحديث أخرجه ابن حبان في «صحيحه»، رقم: ٤٧٨٩.

مضلٌّ أو متحامقٌ.

فوائد الجهاد الدينية والدنيوية، وحكمُه ومصالحه:

لقد كنت على يقين أن الجهاد لما كان مشروعًا وفرضًا عينيًّا في بعض الأوقات، ففيه فوائد ومصالح وحِكَم من الله الحكيم، ففيه إعلاء كلمة الله الذي لا يحصل بصرف مال كثير ولا بالآلات والوسائل، وإقامة الدين، وتنفيذ الأحكام الشرعية، ورغم للشيطان اللعين، وإخراج الهالكين في ورطات الكفر من الظلمات إلى النور، فإن كثيرًا من الكفار أسلموا وانقادوا بعد الجهاد، وابتلاءُ الله تعالى بتمييز العاصي القاسي من المطيع المنقاد، فإن في الجهاد بذل النفوس والأموال في سبيل الله، فيخلص من ينفق ممن لا ينفق. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ (محمد: ٤)

وأما المنافع الأخروية، فأكثر من أن تحصى، وكفاك قول الله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ (النساء: ٩٥)، وقال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (التوبة: ٨٨).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل ميت يُخْتَمُ على عملِه إلا الذي بات مرابطًا في سبيل الله، فإنه يُنمَى له عمله إلى يوم القيامة، ويأمَن فتنة القبر».(١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تضمن الله لمن خرج في سبيله، لا يُخرِجُه إلا جهادًا في سبيلي، وإيمانًا بي، وتصديقًا برُسلي، فهو عليَّ ضامن أن أُدخِله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة».(٢)

هذا وأمثاله كثيرة، فالجهاد لا تحصى فوائده ولا تعد عوائده، وهو جائز دفاعًا كان أو هجومًا أوإقدامًا. قال ابن تيمية رحمه الله في «مجموع الفتاوى»: «إن الجهاد أفضل ما يتطوع به المسلم، وهو باتفاق العلماء أفضل من الحج والعمرة، وأفضل من صلاة التطوع، وأفضل من صوم التطوع، وهذا معلوم من الكتاب والسنة».(٣) ولا يختص بالدفاع كما يقول البعض، بل

---

(١) سنن الترمذي، رقم: ١٦٢١.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ١٨٧٦.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٤١٨. راجع لفوائد الجهاد «الجهاد»، ص١٢٢-١٤١، لأحمد محمد الحوفي.

يجوز الإقدام لدفع الظلم، وإعلاء كلمة الله، وهدم أساس الكفر، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما فرغوا عن غزوة الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا».[١]

قال بعض الفضلاء: الغرض الأصلي من الجهاد هو دفع الظلم، ودفع الفتنة، وإنجاء المظلوم من الظالم، سواء كان بالمدافعة، أو الهجوم ليعرض الدين على الناس في فضاء ساكن صامت عن الفساد، وبيئة حسنة جميلة .[٢]

فالجهاد سبيل مستحسن لدفع ظلم الكفار، خصوصًا في هذا الزمان الذي يجترئ فيه الكفار على المسلمين ويعينهم بعض الروافض والقادنيون -خذلهم الله تعالى في كل موضع- ألا تنظر إلى إسرائيل تبغي فسادًا في فلسطين وبيت المقدس وبلاد العرب، وبعض الهنود يجترؤون على المسلمين، فالواجب على المسلمين أن يكونوا يدًا واحدةً على الكفار وجسدًا واحدًا إن اشتكى بعضه اشتكى كله، ويدافع عن أعراضهم وأنفسهم وإخوانهم إعلاءً لكلمة الله وإبقاءً لدين الله تعالى. أبقاه الله إلى يوم القيامة. اللهم اجعلنا مجاهدين في سبيلك، متحدين لدينك، ولا تجعل في قلوبنا غِلًّا للذين آمنوا، إنك على كل شيء قدير. واحشرنا في زمرة الغزاة المغفورين. (آمين)

الاستدلال على القتال من أقوال اليسوع المسيح عليه السلام:

يثبت الجهاد والقتال من عِدَّة أقوال عيسى عليه السلام حيث قال: «لا تظنوا أني جئت لأحمل السلامَ إلى العالم، ما جئتُ لأحمل سلامًا بل سيفًا، جئتُ لأفرق بين الابن وأبيه، والبنتِ وأمِّها، والكَنَّة وحماتِها».[٣] وفي هذا الإصحاح: «من حفِظ حياته يخسَرها، ومن حياته من أجلي يحفظها».[٤] وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٤٦)

يعلم منه أن عيسى عليه السلام رغَّب في الجهاد والقتال وشدَّد فيه. وأما قوله: «من

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ٤١١٠.

(٢) اسلام کا اخلاقی نظام، ص١٩٥ ، للشيخ القاري محمد طيب رحمه الله تعالى.

(٣) متى ١٠/ ٣٤-٣٥.

(٤) متى ١٠/ ٣٩.

لطمك على وجهك الأيمن فحوِّل له الآخر» محمول على العفو وعلى حال الدعوة، وهذا لا ينافي الجهاد والقتال، ألا ترى أن الله تعالى قال لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩)، فأمره بالعفو مع أنه مأمور بالجهاد، ولعل عيسى عليه السلام يكون مأمورًا بالجهاد، ولكن لم يقاتل لعدم موافاة الشروط ككثرة الأعوان والفرصة وغير ذلك. والله أعلم، كذا في بعض الكتب.

ولو قلنا: إن عيسى عليه السلام لم يؤمَر بالجهاد، فلا ضير إذ لا يلزم أن تكون الشرائع متفقة، فإن الأنبياء عليهم السلام شرائعهم مختلفة مع وحدة أصول الدين، قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨)، فنكاح الأخت كان مشروعًا في شريعة إبراهيم عليه السلام كما يقولون: إن إبراهيم تزوَّج بأخته.[١] والتوراة ناطقة به، مع أنه محرم في شريعة موسى وعيسى عليهما السلام.[٢]

وهكذا يجوز أن يشرع الجهاد في دين محمد صلى الله عليه وسلم، ويحرم في دين عيسى عليه السلام، ولا شناعةَ فيه، فإن الله عز وجل قدَّر وعيَّن لتعذيب الكفار إذا لم يؤمنوا بالنبي المبعوث سُبلا وطرقا متنوعةً، فيمكن أن يختار الله لتعذيبهم طريقاً آخر غير الجهاد، وذلك على الله يسير، فاستمع الآن.

الطرق المختلفة لتعذيب الأمم:

أخفها الجهاد، فاختيار الجهاد اختيار لأخف طرق تعذيب الأمم، فاعلم أن الناس إذا لم يذعنوا لأحكام الله تعالى ويخلعوا رَبْقَة التقليد من رقابهم، وأصروا على الكفر والإنكار، ولم تُفِد فيهم الدعوة، ولم يُثمر فيهم اللِّين، وانقطع جميع وسائل التفهيم يقضي الله على عذابهم. وهذه سنة الله تعالى في الأمم، ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

فتارة يبيدهم بالإغراق، كما أغرق فرعون وجنوده، ففي سفر الخروج من التوراة:

---

(١) التكوين ٢٠/ ١١-١٣. ونصه: «فأجاب إبراهيم: ظننتُ أن لا وجود لخوف الله في هذا المكان، فيقتلني الناسُ بسبب امرأتي. وبالحقيقة هي أختي ابنة أبي لا ابنة أمي، فصارت امرأةً لي. فلمَّا شَرَّدني الله من بيت أبي قلتُ لها: تُحسنين إليَّ إن قلتِ عني حيثما ذهبنا: هو أخي».

(٢) التثنية: ٢٧/ ٢٢.

«فدفع الرب المصريين في وسط البحر، فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر، وما بقي منهم أحدٌ ».(١) وقال الله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ (الأنفال: ٥٤)، وقد صرَّح في سفر اللاوين بأن من لم ينفذ أوامر الله يُبيده الله. قال: «فلا تَقْذِفَنَّكم الأرض بتنجيسكم إياها كما قذفت الشعوبَ التي قبلكم، بل كل من عمل شيئًا من جميع هذه الرجسات تَقْطَعُ الأنفسَ التي تعملها من شعبها».(٢)

وتارة بإرسال الملك كما فعل بعسكر الأَشُّوريين إذ أرسل عليهم ملَكًا، فقتل منهم في ليلة واحدة مئة ألف وخمسة وثمانين ألفا، ففي سفر الملوك الثاني: «وكان في تلك الليلة أن ملاك الرب خرج وضرب من جيش أَشُّور مئة ألف وخمسة وثمانين ألفا، ولما بكروا صباحًا إذا هم جميعًا جُثُثٌ ميتة».(٣)

وتارة بالخسف، كما خسف قورع وداثان وابيرام، لما خالفوا موسى عليه السلام، قال في التوراة: «فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام انشقت الأرض التي تحتهم، وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم، وكل من كان لقورح مع كل الأموال، فنَزلوا هم وكل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية، وانطبقت عليهم الأرض، فبادروا من بين الجماعة، وكل إسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم، لأنهم قالوا: لعل الأرض تَبْتَلعنا، وخرجت نار من عند الرب وأكلت المئتين والخمسين رجلا الذين قربوا البخور».(٤)

وقد يُبيدهم بأيدي المؤمنين، وهذا أخف أنواع العذاب؛ لأن من عُذِّب بالعقوبات السابقة لم يبق منهم أحد وأُهلِكوا جميعًا، وأما الإبادة بأيدي المسلمين فيهلك بعض ويبقى بعض، فيسلم ويؤدي الجزية، وهذا النوع لا يختص بالمسلمين، بل يوجد في بني إسرائيل أيضًا، ففي التوراة: «حين تقرب من مدينة لكي تُحاربها، استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد ذلك، وإن لم تُسالِـمْكَ بل عمِلت معك حربا فحاصِرْها، واذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع

(١) الخروج ١٤/ ٢٨.
(٢) اللاوين ١٨/ ٢٨-٢٩.
(٣) الملوك الثاني ١٩/ ٣٥.
(٤) العدد ١٦/ ٣١-٣٥.

ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الربُّ إلهُك».(١)

فهذا نص التوراة يرشدنا إلى الجهاد بعد دعوة الصلح، فوقوعهم في عرض الإسلام وقوع في عرض دين موسى عليه السلام الذي هو مشحون بذكر القتال، فالتوراة قتال في قتال ونضال في نضال، ومن شاء فليتفرغ لِـمُطالعتها، يجدها كما وصفنا لك.

غزوات النبي صلى الله عليه وسلم:

اعلم أن المسيحيين يعترضون على غزوات النبي صلى الله عليه وسلم، كما يعترضون على الجهاد، ويقولون فيه كما يقولون في الجهاد بأن النبي صلى الله عليه وسلم أكره الناس بإدخالهم في الإسلام، ونشر الدين بالسيف القاطع، لا بالبرهان الواضح والدليل الساطع. فعلينا أن نبين حال غزواته صلى الله عليه وسلم، ونكشف أن الإسلام لم ينتشر بالسيف والسنان، بل بالحجة والبرهان، وهذا تَقَوُّل وتَفَوُّه.

فاعلم أن الله لما بعث نبيَّه وحبيبه وصفيه محمدًا صلى الله عليه وسلم جعله داعيًا ومبلغًا، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ (المائدة: ٦٧)، وقال تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر: ٩٤)، وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)، فبلغ رسول الله دين الله تعالى في كل واد وناد، وأوصل هذا النداء الإلهيَّ إلى كل فؤاد، حتى آمن خلق كثير بمكة برضًى ورغبة دون جبر وإكراه، فآمن أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وزيد بن حارثة، وأبو ذر، وبلال، ومصعب بن عمير، وجعفر الطيار، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الله بن سعد، وزبير، وطلحة، وعمار، وسمية، وياسر، وكعب، وطفيل بن عمرو الذي كان ملكًا لبعض نواحي اليمن، أسلم بمكة وانتشر بدعوته وببركته الإسلام في وطنه وقبيلته.(٢)

وآمن جم غفير بمكة، والحبشة، والمدينة، ونجران، وكيف يقال: إنهم آمنوا بجبر وإكراه، مع أن الإكراه كان من العِصابة الأخرى عِصابة الكفرة، فإن الكفار آذَوهم بالإسلام

---

(١) التثنية ٢٠/ ١٠-١٥.

(٢) رحمة للعالمين، للقاضي سليمان المنصور فوري ١/ ١١٥.

أشد إيذاء، وإليك نصًّا ذكرُ بعض من أوذي في سبيل الله:

كان بلال مولى أبي بكر، أعتقه أبو بكر، وكان أمية بن خلف بن وهب بن حُذافة بن جُمَحٍ يخرجه -وكان غلامًا له- إذا حَمِيت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له: لا والله لاتزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء: «أحد أحد».[1]

قال ابن إسحاق: وكانت بنو مخزوم يخرجون عمار بن ياسر رضي الله عنه بأبيه وأمه -وكانوا أهل بيت إسلام- إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم برمضاء مكة، فيمرُّ بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول فيما بلغني: «صبرًا آل ياسر! موعدكم الجنة»، فأما أمه فقتلوها.

ولا يفرقون بين الفقراء والأمراء، بل يؤذون جميعًا، فروى ابن هشام في أبي بكر. قال ابن إسحاق: وحدثني بعض آل أم كلثوم عن بنت أبي بكر أنها قالت: لقد رجع أبو بكر يومئذ وقد صدعوا فَرْقَ رأسه مما جبذوه بلحيته، وكان رجلًا كثير الشَّعر.[2]

وبالجملة أنهم كانوا يؤذون جميع المسلمين إذا قدروا. وكان أبو جهل الفاسق الذي يغري بهم في رجال من قريش، إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومَنَعَة أَنَّبَه وأخزاه وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنُسَفِّهَنَّ حلمك، ولنُفَيِّلَنَّ رأيك، ولَنَضَعَنَّ شرفك، وإن كان تاجرًا قال: والله لنُكَسِّدَنَّ تجارتك، ولنُهْلِكَنَّ مالك، وإن كان ضعيفًا ضَرَبه وأغرى به.[3]

فإيمان الصحابة بالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بالإكراه، بل بيقينهم الكامل، وتأثرهم من أخلاقه وأعماله، وتمرينهم صدقَه، ورؤيتهم معجزاته، واستماعهم القرآن الذي لا يؤتى له مثل. فروي أن أنيسًا الغفاري أخا أبي ذر الغفاري قال لأبي ذر: لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله. قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، ساحر، كاهن.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣١٨.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٩٠.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٢٠.

وكان أنيس أحد الشعراء، قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر، فلم يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون.(١)

فعلم أنهم آمنوا لاتضاح الدلائل والبراهين عندهم، لا بالجبر والإكراه. وكيف يكون إيمانهم بالإكراه؛ والإيمان المعتبر هو الذي يكون راسخًا في القلب، حتى لو آمن أحد بلسانه وكفر بقلبه يكون كافرًا منافقًا، وكفره أشد من كفر الكافر الجاهر، ويسمى منافقًا، وقد قال عزَّ وجل في حقه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ (النساء: ١٤٥)

فهل يكره أحد على ما لا يقبله سبحانه وتعالى، هذا بعيد عن العقل بمراحل ومنازل، وقد قال الله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦). قال العلامة الآلوسي في شأن نزوله: أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن رجلًا من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين، وكان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلًا مسلمًا، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: ألا أستكرههما؛ فإنهما أبيا إلا النصرانية، فأنزل الله تعالى فيه ذلك.(٢) فانظر إلى هذه الواقعة يلوح منها أن الإسلام ليس دين الإكراه والإجبار، بل دين الرضى والطواعية.

اشتداد الأذى على النبيﷺ، وهجرته إلى المدينة، والإذن بالقتال:

ثم النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتد عليه وعلى أصحابه الأذى، وبلغ السيلُ الزُّبى، وطُحِنوا في طاحونة الإيذاء، أُمِر بالهجرة. وإليك بعضَ الوقائع التي أَلَـمَّتْ ونزلت بهم، والإحاطة بالكل يقتضى دفترًا عظيمًا. فأخرج مسلم عن عبد الله قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ساجد وحوله الناس من قريش، إذ جاءه عقبة بن أبي معيط بِسَلا جَزور، فقذفه على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يرفع رأسه، فجاءت فاطمة، فأخذته عن ظهره ودعت على من صنع ذلك، فقال: «اللهم عليك بِملأ من قريش: أبا جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن أبي معيط، وأمية بن خلف -أو أُبيِّ بن خلف» -شعبة الشاك- قال: فلقد رأيتهم قُتِلوا يوم بدر فألقُوا في بئر، غير أن أمية أو أبيًّا تقطعت أوصالُه

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٣١٤. والحديث رواه مسلم في فضائل أبي ذر رضي الله عنه، رقم: ٤٥٢٠.
(٢) روح المعاني ٣/ ١٣.

فلم يُلقَ في البئر.(١)

وقد أصابته من أهل الطائف وقومه قريشٍ المصائبُ العظيمة والبلايا الكبيرة، ولم يزالوا على أذاه قائمين ونقعوا له الشر، حتى هاجر أصحابه إلى الحبشة. قال ابن جرير: ولم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مقيمًا مع قريش بمكة يدعوهم إلى الله سِرًّا وجهرًا، صابرًا على أذاهم، وتكذيبهم إياه، واستهزائهم به، حتى إن كان بعضهم فيما ذُكِرَ: يطرح عليه رَحِمَ الشاة وهو يصلي، ويطرحها في برمته إذا نُصِبت له، حتى إذا اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم فيما بلغني حِجْرًا يستتر به منهم إذا صلى.(٢)

ثم كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل، حتى آواه الله إلى المدينة الطيبة، فهاجر من مكة إلى المدينة، وقَوِيَ الإسلام وانتشر في سكك المدينة وشوارعها، وكفرت قريش نعمة الله، فرزقه الله تعالى الأنصارَ الأوس والخزرج أهلَ المدينة، بعد ما بَلَّغ فيهم ثلاث عشرة سنة، فلم يجد فيهم نفعًا معتدًّا به، ولم يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم رفع السيف في هذه المدة، بل أمر بالصلح والعفو والإعراض، لكن لما كانوا بعد الهجرة أيضًا مستعدين لإبادة المسلمين وإهلاكهم، وكانو منهمكين في التعاهد مع اليهود، وبلغت الفتنة منتهاها، ولم يبق سوى السيف علاج ودواء لهذا الداء والمرض المزمن، أذن الله للمسلمين في الجهاد بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ (الحج). قال ابن عباس رضي الله عنه: هذه أول آية نزلت في القتال.

فالغرض من السيف دفع ظلم الكفرة والانتصار لانتشار الإسلام، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل من لم يقاتل حينما ذكر آداب الجهاد والقتال، فعن عبد الله: وجدت امرأةٌ مقتولةً في بعض تلك المغازي، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء والصبيان.(٣)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أَمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٧٩٤.

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٢٢٩.

(٣) صحيح مسلم، رقم: ١٧٤٤.

بتقوى الله عز وجل، ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: «اغزوا بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تغدروا ولا تُمَثِّلوا ولا تقتلوا وليدًا. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال -أو خلال- فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم. ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن قبِلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبو أن يتحولوا منها فأخبِرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسَلْهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتِلْهم. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تُنَزِّلَهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلْهم على حكمك؛ فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا».(١)

وخلاصة الكلام أن الإسلام لو أراد أن يُبِيْدَ الكافرين ما خيَّر المسلمين فيهم وقد جاء الخيار، فإنهم إما أن يقبلوا الإسلام، فإن لم يسلموا يعطوا الجزية، فمن فعل ذلك كان في هذه الحياة الدنيا كالمسلمين، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، فإن لم يرتضوا ذلك يقاتلوا ويغزوا باسم الله بتوفية شرائطه وآدابه، وينوي إعلاء كلمة الله تعالى. قال في «تفسير آيات أحكام القرآن» في ذيل قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ (التوبة: ٢٩)، المراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أهل الكتاب. والغرض تميزهم عن المشركين في الحكم؛ لأن الواجب في المشركين القتال إلى أن يسلموا. وأما الواجب في أهل الكتاب، فهو القتال، أو الإسلام، أو الجزية.

وأما تعين القتال في المشركين مشركي العرب إن لم يسلموا، فلأنهم آذَوا النبي صلى الله عليه وسلم أنواع الأذى، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ١٩٣) أي: اقصُدوا بقتالهم أن تزول الفتنة والكفر وأنواع

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٧٣١.

الإيذاء والضرر التي تلحق المسلمين بوجودهم في مكة، وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يجتمع في جزيرة العرب دينان».(١)

ولو سلمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم نشر الإسلام بالسيف، فلا عيب فيه إذا كان من عند الله، فإن ما كان من عند الله لا يطعن فيه ولا يسئل عنه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٣)

قال العلامة محمد قاسم النانوتوي رحمه الله تعالى: اسمعوا إذا كان العبد مملوكًا ومحكومًا لله ومحبًّا مخلصًا لله تعالى، لابد أن يكون في العبد أمران بمقتضاه: الأول: أن يحب أولياء الله ويعينهم بمالِه ونفسه. والثاني: أن يبغض أعداء الله تعالى ويقاتلهم، يسمى الأولُ الحب في الله، ويتعلق به الجود، وحسن الأخلاق، وصلة الرحم، وستر العيوب، والنصيحة. ويسمى الثاني البغضُ في الله، ويتعلق به الجهاد، والجزية، والغنيمة، والمناظرة، وغير ذلك.(٢)

ونقول إلزامًا عليهم: إن قالوا: إن النبي صلى الله عليه وسلم أغار على قريش، فقد جاء في حق موسى عليه السلام وقومه أنه استعار الْحُلِيَّ من آل فرعون ثم خرجوا وسلبوهم، كما في الإصحاح الثاني عشر من سفر الخروج «وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى، طلبوا من المِصريين أمتعة فضةٍ وأمتعة ذهبٍ وثيابًا وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين، حتى أعاروهم فسلبوا لمصريين».(٣) فإذا جاز لموسى عليه السلام أن يستعير ويسلبهم، وهو خديعة في الظاهر، وإن كان في الحقيقة مال المشرك، وهو غنيمة. فلِمَ لَمْ يجز للنبي صلى الله عليه وسلم الجهاد وكسر الأصنام وأخذ الأموال مع وجود العدل في غزواته؟ وكان حبه وبغضه في الله ولإعلاء كلمته، كما قال الشوقي:

وإذا غضِبتَ فإنما هي غضبة ۞ في الحق لا ضَغْن ولا بغضاءُ
الحرب في حقٍ لديك شريعة ۞ ومن السموم الناقعات دواء
هل كان حولَ محمدٍ من قومه ۞ إلا صبي واحد و نساء

وذكر هذا الطعنَ وجوابَه العلامةُ الآلوسي ابن المفسر الشهير؛ ولجزالة ألفاظه، وحسن

---

(١) السنن الكبرى، للبيهقي ٦/ ١١٥. ومسند البزار، رقم: ٧٧٨٦.

(٢) حجة الإسلام، للعلامة محمد قاسم النانوتوي رحمه الله تعالى، ص١٠٢-١٠٣.

(٣) الخروج ١٢/ ٣٥-٣٦.

ترتيبه، وعذوبة لفظه أحكيها بلفظه بحذف بعض الأجزاء. قال رحمه الله نقلًا عن العلامة الماوردي في كتابه دلائل النبوة: فإن قيل: مجيء الأنبياء موضوع لمصالح العالَم، وهم مأمورون بالرأفة والرحمة، ومحمد صلى الله عليه وسلم جاء بالسيف وسَفْك الدماء وقتل النفوس، فصار منافيًا لما جاء به موسى وعيسى عليهما السلام، فزال عن حكمهما في النبوة لمخالفتهما في السيرة؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن الله بعث كل نبي بحسَب زمانه، فمنهم من بعثه بالسيف؛ لأن السيف أنجع، ومنهم من بعثه باللُّطف؛ لأن اللطف أنفع. كما خالف بين معجزاتهم بحسَب زمانهم، فبعث موسى بالعصا في زمان السحر، وبعث عيسى بإحياء الموتى في زمان الطِّب، وبعث محمدًا صلى الله عليه وسلم بالقرآن في زمان الفصاحة.

والجواب الثاني: إن السيف إذا كان لطلب الحق كان خيراً، واللطف إذا كان مع إقرار الباطل كان شرًّا؛ لأن الشرع موضوع لإقرار الفضائل الإلهية والحقوق الدينية، ولذلك جاء الشرع بالقتل والحدود ليستقر به الخير وينتفى به الشر؛ لأن النفوس الأشرة لا يكفها إلا الرهبة، فكان القهر لها أبلغ، وكانت العرب أكثر الناس شرًّا لكثرة عددهم وقوة شجاعتهم، فلذلك كان السيف فيهم أنفع من اللطف.

والجواب الثالث: أنه لم يكن في جهاده بدعًا من الرسل ولا أولَ من أثخن في أعداء الله. وقبل هذا إبراهيم عليه السلام جاهد الملوك الأربعة الذين ساروا إلى بلاد الجزيرة للغارة على أهلها، وحاربَهم حتى هزمهم بأحزابه وأتباعه. وهذا يوشع بن نون قتل نيفًا وثلاثين ملكًا من ملوك الشام وأباد من مُدُنها لم يبق لها أثر ولا من أهلها سافر من غير أن يدعوهم إلى دين أو يطلب منهم إتاوةً وساق الغنائم. وغزا داود من بلاد الشام ما لم يدع فيها رجلا ولا امرأة إلا قتلهم. وهو موجود في كتبهم (أي المسيحين: التوراة والإنجيل)، ومحمد صلى الله عليه وسلم بدأ بالاستدعاء وحارب بعد الإباء.[(١)]

على أن المسيحيين الذي يدَّعون أن القتال ممنوع في دينهم، مع ذلك تراهم منهمكين في القتال، لا أقول قتالًا عادلًا، بل قتالًا يتضمن الظلم والعدوان على المخلوق، وإن شئت أن

(١) الجواب الفسيح لرد عبد المسيح، ص٤٦٦-٤٦٧، للعلامة نعمان الآلوسي البغدادي رحمة الله عليه. وأعلام النبوة، للماوردي ١/ ١٧١.

ترى أنموذج ذلك فاقرأ ما ذكر أحمد محمد الحوفي في كتابه «الجهاد» ويقول السير توماس أرنولادو: ربما حلَّ الاضطهاد والتنفير الإجباري محلَّ الدعوة الهادية إلى كلمة الله، حتى كان الملك أولاف ترايجنون ينشر الدين المسيحي في فيكن والقسم الجنوبي من الفرويج بذبح الذين أبَوا الدخول في المسيحية، أو بقطع أيديهم وأرجلهم، أو بنفيهم وتشريديهم.(١)

والجهاد في الإسلام جهاد عادل مهذب، فلا يجوز أن تتعدى الحرب إلى غير المقاتلين من النساء، والرهبان، والصبيان، والعسيف (أي الأجير)، ولا يخون ولا يغدر ويخالف العهد، وأن يكون لإعلاء كلمة الله، ورَدْعًا للمعتدي وكفًّا لعدوانه، وأن لا يظلمَهم ولا يَمْنعهم الماء والطعام، ولا يقتل سفيرًا مستأمنًا، وغير ذلك من الآداب المستحسنة.

فالحاصل أن دخول الناس في دين الله فوجًا فوجًا لصداقة الإسلام بالمعجزات والأخلاق الحسنة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما بعثت لأُتَمِّم مكارم الأخلاق».(٢) وقال الله تعالى لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما شيءٌ أثقل في ميزان المؤمن يومَ القيامة من خُلُق حسَن، وإن الله ليُبْغِض الفاحشَ البذيءَ».(٣)

والقرآن أبلغ تاثيرًا وأشد إبلاغًا، كما قال الوليد بن المغيرة: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لَـمُثمِرٌ. وإن أسفله لَـمُغدِقٌ، وما يقول هذا بشر.(٤) وللتبليغ حظ وافر في الإصلاح، قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٤)، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ ﴾ (المدثر).

أُمِر أولًا صلى الله عليه وسلم بتبليغ قبيلته وعشيرته وقومه. قال الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ

(١) الجهاد، ص١٩٣، لأحمد محمد الحوفي.

(٢) مسند البزار، رقم: ٨٩٤٩.

(٣) سنن الترمذي، رقم: ٢٠٠٢.

(٤) مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ص٨٥.

عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ (الشعراء)، ثم بإنذار من بمكة ومن حولها من القرى. قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ (الأنعام: ٩٢)، ثم بالتبليغ العامِّ لجميع الناس، قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (سبأ: ٢٨)، وقال عزَّ وجل: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١)

وانتهج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على هذا المنهاج، فإن جعفر الطيار رضي الله عنه لما هاجر إلى الحبشة وعرض على ملك الحبشة أصحمة الإسلامَ بلَّغ الإسلام تبليغًا تَحارُ منه العقول وتَبْهَتُ منه الفحول، فقال ما مغزاه: كنا مُتَهَوِّكِين في عبادة الأصنام والزنا وقطع الطريق والقاذورات والنجاسات والعادات الذميمة والأفعال القبيحة، فبعث الله إلينا نبيًّا ينهانا عن ذلك كلِّه ويأمرنا بحسن السلوك والهدي الحسن والتجنب من أكل الحرام، فَخَضَعْنا لهذه التعاليم المطهرة. ثم تلا آيات من سورة مريم، فبكي أصحمة وأسلم على يديه.

ولله دَرُّ من قال في الأردية، فقد أجاد وأفاد:

غلط بالکل غلط اسلام کیا تلوار سے پھیلا ۞ یہ اپنے حسن سے اوصاف سے انوار سے پھیلا

یہ اپنے صدق سے اخلاق سے ایثار سے پھیلا ۞ یہ اپنے جذب سے اخلاق سے اطوار سے پھیلا

معناه: باطل باطل أن الإسلام انتشر بالسيف، لقد انتشر بحسنه، وصفاته وأنواره. لقد انتشر بصدقه، وأخلاقه، وإيثاره. لقد انتشر بجاذبيته، وأخلاقه، وأطواره.

وقال الشاعر:

نہیں ہو سکتا تھا شمشیر زن سے حسن ظن پیدا ۞ نہیں ہو سکتے تھے شمشیر سے شمشیر زن پیدا

معناه: لن يورث ضربةُ السيف حسن الظن، ولن يوجِد السيفُ ضاربَ السيف.

الأخلاق وحقوق الإنسان في المسيحية والإسلام

ادَّعى المسيحيون أن الإنجيل يعلِّم حقوق الإنسان بِرُمَّتِها ويسدد طرق الكرامة والنجابة بطريق أعلى وأرقى وأوفى وأنصف وأطهر من القرآن والإسلام. وإن تعاليم المسيحية توافق أمزِجة الأناس وطبائعهم وغزائرهم بخلاف القرآن، فالمسيحية تعلِّم أصول المساواة والأخوة والإنسانية، وتستبين مخايل المساواة من غصونها، وتلوح آثار العدل من جبينها، ولا يُحْرَمُ منها فرد ولا جماعة، يستوي فيه الغلام والحر، والفقير والموسر، والأعلى والأدنى، والعالم والجاهل، والناقص والكامل، والرجل والمرأة. ويلتجئون في إثباته إلى بعض عبارات الإنجيل ودونه خرط القتاد. منها: قول متى: «وأما أنتم فلا تدعوا سيِّدي سيدي؛ لأن معلِّمَكم واحد المسيح، وأنتم جميعًا إخوة».[١]، وأيضًا: «تحب قريبك كنفسك. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء».[٢]، وقال يوحنا: «وصية جديدة أنا أعطيكم: أن تحبوا بعضكم بعضًا كما أحببتُكم أنا، تحبون أنتم أيضًا بعضُكم بعضًا».[٣] وقال: «ليس لأحد حبٌّ أعظم من هذا: أن يضع أحد نفسَه لأجل أحبائه».[٤]

هذه نبذة من الإشارات التي أشار إليها البادري بركت الله في كتابه «*مسيحيت كى عالم گيرى*»، «عالمية المسيحية» واعترض بذلك على القرآن، وهو متعالٍ عن أفق الاعتراض، بأنه لا يلقي ولا يعلِّم أصول المساواة إلا للطبقة المخصوصة، وهم المسلمون، وأشار في ذلك إلى بعض آيات القرآن الكريم مثلًا: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾ (الحجرات: ١٠).

مع أن الأخوة عندنا معشر المسلمين على أقسام: (١)أخوة إسلامية. (٢)وأخوة رضاعية. (٣)وأخوة قومية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبًا﴾ (الأعراف: ٨٥).

---

(١) متى ٢٣/ ٨-٩.

(٢) متى ٢٢/ ٤٠.

(٣) يوحنا ١٣/ ٣٤.

(٤) يوحنا ١٥/ ١٢.

(٤)وأخوة وطنية، كما في قوله تعالى:﴿ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴾(ق: ١٣). (٥)والأخوة النسبية، كأخوة هارون لموسى عليهما السلام. (٦) وأخوة إنسانية كأولاد آدم عليه السلام كلهم إخوة إنسانية. فتخصيص الأخوة بالأخوة الدينية إما عصبية أو تجاهل.

وذكر البادري بركت الله في ذلك بعض آيات الجهاد واتحاد المؤمنين واعتصامهم على حبل المودة، كقوله عزَّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (التحريم: ٩)، وقوله تعالى:﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ (الأنفال: ٣٩)، وقوله تعالى:﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠)، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ (الأنفال: ٦٥)، وقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (الصف: ٤)، وقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦). هذا تقرير قَدْحهم في أصول القرآن، وطعنهم في بِنية الإسلام.

كشف القناع عن هذه المساواة:

لا يخفى على العالم الأريب والمُحَنَّك اللبيب أنه لا يستفاد منه (الإنجيل) المساواة الإنسانية التي يدَّعيها المصنف، ويُدَنْدِنُ حولَها، فإن الأقوال التي ذكرها لا تدل على المساواة كما هو الظاهر الزاهر، بل فيه تلقين الرَّحِم والوداد والمحبة والرقة بين المخاطبين، وهم المسيحيون فقط. بل المسيح عليه السلام -كما زعموا- قد شدَّد على الأجانب الأغيار، وإليك أنموذجًا مما هو غرر النقول عندهم، فقال متى: «ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيدا، وإذا امرأةٌ كَنعانيةٌ خارجة من تلك التُّخوم، صَرَخت إليه قائلة: ارحمني يا سيِّدي يا ابن داود! ابنتي مجنونة جدًّا، فلم يجبها بكلمة، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين: اصرفها؛ لأنها تصيح وراءَنا، فأجاب وقال: لم أرسَل إلا إلى خِراف بيت إسرائيل الضالة، فأتت وسجدت له قائلة: يا سيد! أعنِّي. فأجاب وقال: ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب».[1]

---

(١) متى ١٥/ ٢١-٢٧.

هذه هي المساواة التي تدَّعونها، ألم تر كيف فَرَّق بين بني إسرائيل وغيره، وقال: لم أرسل إليك، وردَّ حاجتها. ألا يصدق عليهم قول المسيح عليه السلام: «إنكم ترون القذاة في أعين الناس، ولا ترون الخشب في أعينكم».[١] قال الشاعر:

واعظاں کیں جلوه بر محراب و ممبر می کنند ۞ چوں بخلوت می روند ایں کار دیگر می کنند

معناه: الوعاظ هم الذين يظهرون على المحاريب والمنابر لمعان خطابتهم وبريق كلماتهم، فإذا خلوا بأنفسهم فعلوا غير ما يقولون.

ولا ينظرون أن المسيح عليه السلام (بقولكم) شبَّه المستجيرة بالكلب، هل تجد له مثالًا في مخاطبات رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحاوراته؟ كلَّا وحاشا! ثم كلَّا وحاشا!

الرحِم والوِداد والأخلاق الحسنة في الإسلام:

لا ريب أن القرآن والإسلام رغَّب في الرَّحم والوِداد بين الشعب المختلفة، فأوجبها بين المسلمين. والأخبار والآيات فيها بكثرة لا يمكن إحصاؤها، وإليكم بعضَها، فاسمعوها وعوها، قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ (الفتح: ٢٩)، وقال عزَّ وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٦٣﴾ (الأنفال)، وقال تعالى: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ (الحشر: ٩)

انظر إلى هذه الآيات، وقول المسيح عليه السلام: «تحب قريبك كنفسك». ترى فيهما فرقًا جليًّا أبين من صديع الفجر. وقال محمد صلى الله عليه وسلم في محبة المؤمنين فيما بينهم: «إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي اليوم أُظِلُّهم في ظلي يوم لا ظلَّ إلا ظلي».[٢] وكان بعض المسلمين يصوم الدهر فنهاه.[٣] ولقد صدق الله وهو أصدق القائلين: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ (التوبة: ١٢٨)

---

(١) متى ٧/ ٣-٤. ولفظه: «و لماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك، وأما الخشبة في عينك فلا تَفْطُن لها، أم كيف تقول لأخيك: دعني أخرج القذَى من عينك».

(٢) صحيح مسلم، رقم: ٤٦٥٥.

(٣) إحياء العلوم ٣/ ١٠٤. والحديث رواه البخاري في الصوم، باب صوم الدهر، رقم: ١٨٤٠.

ورأى النبي صلى الله عليه وسلم شيخاً يُهادَى بين ابنيه فقال: «ما بال هذا ؟» قالوا: نذر أن يمشي إلى الكعبة. قال: «إن الله عن تعذيب هذا نفسَه لغني». وأمره أن يركب.[١] وقال النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه: «اللهم إني أسألك حبَّك، وحُبَّ من يُحبُّك، والعمل الذي يُبلِّغني حبَّك، اللهم اجعل حبَّك أحبَّ إليَّ من نفسي وأهلي، ومن الماء البارد».[٢]

ولما هاجر المسلمون من مكة -كرمها الله وحرسها- إلى المدينة -حفظها الله- آخى بين المهاجرين والأنصار، وكان الأنصاريُّ يُشرك المهاجرَ في ماله، ويصدق قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ (آل عمران: ١٠٣) أي: متحابين. وقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ (آل عمران: ١٠٣)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الترغيب في الإخوة في الله: «من آخى أخا في الله رفعه الله درجة في الجنة، لا ينالها بشيء من عمله».[٣] وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله عزَّ وجلَّ يقول: قد حقَّت محبتي للذين يتحابُّون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتصافُّون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتباذلون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتناصرون من أجلي».[٤]

الرحم والرقة على الكفار:

لا يختص الرحم في الإسلام بالمسلمين، بل يعم الكفار، وقد قال الله تعالى في حق حبيبه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، فالرسول رحمة للكفار كما هو رحمة للمسلمين. وقال عز وجل: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩)، وقال في موضع آخر: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤)

---

(١) سنن أبي داود، رقم: ٢٨٧١.

(٢) سنن الترمذي، رقم ٣٤١٢، ٣٤١٣.

(٣) إحياء العلوم ٢/ ١٧٢. قال العراقي في تخريجه: أخرجه ابن أبي الدُّنيا فِي كتاب الإخوان من حديث أنس «ما أحدث عبدٌ أخا في الله إلا أحدث الله له درجة في الجنَّة» وإسناده ضعيف.

(٤) مسند أحمد، رقم: ١٩٤٣٨.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله! ادع على المشركين. قال: «إني لم أبعث لعَّانًا وإنما بعثت رحمةً».(١)

والمزية التي اختصَّ بها النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يرحم على كل مخلوق، حتى على الكافر المخالف. قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس».(٢) وقال عليه الصلاة والسلام في يهود بني عوف في وثيقة العهد الذي عقده صلى الله عيه وسلم مع اليهود حين قدم المدينة: «إن يهود بني عوف أمة من المؤمنين(٣)، لليهود دينهم وللمؤمنين دينهم، إلا من ظلم وأثم،... وأن بينكم النُّصح والنصيحة، والنصر للمظلوم، ... وأن البر دون الاثم».(٤) ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ (المائدة: ٢)

ورحم على النصارى ورقَّ عليهم بهذه الكلمات الطيبات: «لِنَجران وحاشيتِها جوار الله وذِمَّة محمد النبي على أنفسهم ومِلتهم وأرضِهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبِيَعِهم، وأن لا يُغَيِّروا مما كانوا عليه، ولا يُغَيَّر حقٌّ من حقوقهم ولا مِلَّتهم،... وكُلِّ ما تحتَ أيديهم من قليل أو كثيرٍ».(٥)

وسَمَّت بنت الحارث اليهودية شاةً مَشْوِيَّة وأكثرت في الذراع لحب النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فأخبره الذراع فلَفَظَه، ثم جمع اليهود وسألهم عن أمور. منها: «أجعلتم في هذه الشاة سَمًّا؟» قالوا: نعم. قال: «ما حملكم على ذلك». قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح منك، وإن كنت نبيًّا لم يضرك.(٦) وجيء بالمرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: أردت قتلك. فقال: «ما كان الله لِيُسَلِّطَكِ عليَّ». قالوا: ألا نقتلها؟ قال: «لا».(٧) ولم يتعرض

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ٦٧٧٨.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٦٩٤١.

(٣) معنى كون يهود بني عوف من المؤمنين: أنهم يكونون معهم في النصرة، وتلزمهم النفقة على الحرب، وليس المراد أنهم من المؤمنين.

(٤) الأموال، لابن زنجوية، رقم: ٧٥٠. ورحمة للعالمين ٢/ ٤٣٦. وسيرة ابن هشام ١/ ٥٠٣.

(٥) دلائل النبوة، للبيهقي ٥/ ٣٨٩. تاريخ المدينة، لابن شبة ٢/ ٥٨٤. وسبل الهدى والرشاد ٦/ ٤٢٠.

(٦) دلائل النبوة، للبيهقي ٤/ ٢٥٦.

(٧) صحيح مسلم، رقم: ٢١٩٠.

لها ولم يعاقبها.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: «لا تجهزن على جريح ولا يُتَبَّعَنَّ مدبر ولا يقتلن أسير، ومن أغلق بابه فهو آمن».(١)

ولَـمَّا كان يوم فتح مكة قال النبي صلى الله عليه وسلم لقريش: «ما تظنون» ؟ قالوا: نظن خيرًا، ونقول خيرًا: أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قدَرتَ. قال: «فإني أقول كما قال أخي يوسف عليه السلام: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين. ألا كل دين ومال ومأثرة كانت في الجاهلة فهي تحت قدمي إلا سِدانة البيت وسقاية الحاج».(٢)

وانظر إلى الرأفة على أبي سفيان -رضي الله عنه-، وكان عدوًّا للنبي عليه الصلاة والسلام، قال ابن اسحاق: وقد كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبدُ الله بن أمية بن مغيرة قد لقيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنِيْقِ العُقَاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلَّمته أمُّ سلمة فيهما فقالت: يا رسول الله! ابن عمك وابن عمتك وصهرك. قال: «لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهَتَكَ عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال». قال: فلما خرج الخبر إليهما بذلك، ومع أبي سفيان بُنَيٌّ له فقال: والله ليأذنن لي أو لأخذن بيدي بُنَيَّ هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتي نموت عَطشًا وجوعًا. فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه رَقَّ لهما، ثم أذن لهما فدخلا عليه فأسلما.(٣)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه عند توزيع الأسارى في غزوة بدر: «استوصوا بالأسارى خيرًا».(٤) ومر النبي صلى الله عليه وسلم يومَ حنين بامرأة وقد قتلها خالد بن الوليد والناس متقصِّفُون عليها فقال: «ما هذا»؟ فقالوا: امرأة قتلها خالد بن

(١) فتوح البلدان، ص٤٧ لأحمد بن يحيي البغدادي الشهير بالبلاذري.

(٢) أخبار مكة، للأزرقي ٢/ ١٢١. والأمو ال، لابن زنجويه، رقم: ٤٥٦. وسيرة ابن هشام ٢/ ٤١١.

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ٩/ ٧٢٦٤)، والحاكم في «المستدرك» (رقم:٤٣٥٩)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٣٢) من طريق محمد بن إسحاق: حدثني الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس به. وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٦٧) : «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح».

(٤) المعجم الصغير، للطبراني، رقم: ٤٠٩.

الوليد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض من معه: «أدرِكْ خالدًا فقل له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهاك أن تقتل وليدًا أو امرأةً أو عسيفًا».(١)

وانظر إلى رحمة نبيِّ الرحمة على الذين كانوا يؤذونه ليلًا ونهارًا، يلقون عليه سلا جزور وهو يصلي، ويحثون على رأسه التراب، ويطؤون عنقه وهو في الصلاة، ويقصدون أن يَشدَخوا بالحجر رأسه، فروى أنس رضي الله عنه أن ثمانين رجلًا من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جبل التنعيم مُتسلِّحين يريدون غِرَّة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فأخذهم سِلْمًا فاستحياهم. وفي رواية: أعتقهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ (الفتح: ٢٤)

وأطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمامة بن أثال بعد ثلاثة أيام فتأثر من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين وأسلم.(٢)

ولما منعت أسماء بنت أبي بكر أمَّها وكانت كافرة وأبت أن تُدخلها إلى البيت وأن تقبل هديتها، منعها النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا الصنيع، كما روي عن أبي الزبير رضي الله عنه: نزلت هذه الآية الآتية في أسماء، وكانت أمها يقال لها قتيله جاءتها بهدايا فلم تقبلها حتى سألت النبي صلى الله عليه وسلم، فنزلت ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ (الممتحنة:٨).(٣) وفي «صحيح البخاري» قالت: يا رسول الله إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأَصِلُ أمي؟ قال: «نعم! صِلِي أمك».(٤)

هذه نبذة من رحمة النبي صلى الله عليه وسلم على الكفار ورأفته وشفقته ورقته، هل يمكن بعد ذلك لأحد أن يتفوَّه أن القرآن والإسلام والنبيَّ صلى الله عليه وسلم خصَّ حلمه وعفوه ورحمته على المسلمين؟ ومن قال ذلك فقد جاء ظلمًا وزورًا. والحق أن النبي رحمة للعالمين، ورحمته عامة للكفار والمسلمين، والفجار والمتقين، ولمن خالف ولمن وافق.

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام ٢/ ٤٥٨. والحديث أخرجه ابن حبان في «صحيحه»، رقم: ٤٧٨٩.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في «صحيحه»، رقم: ٤٣٧٢.

(٣) تفسير الطبري ٢٣/ ٣٢٢.

(٤) صحيح البخاري، رقم: ٥٩٧٩.

طعنهم في آيات الجهاد:

طعن المسيحيون وعلى رأسهم البادري بركت الله في آيات الجهاد وقال: إنها مانعة من التساوي بين الشعب المختلفة. وإنه لا يعلم أن القرآن يعلِّم المساواة والبر والقسط في حالة الجهاد أيضًا. قال الله عز وجل: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٨)، وقال عزت كلمته: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ (المائدة: ٢)، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨)

ألم تر إلى هذه الآيات البينات الدالة على أن الإسلام لا يظلم أحدًا، بل يعطي كلَّ واحد حقه، ويرحَم كل أحد مسلمًا كان أو كافرًا. ولعل البادري لم يلتفت لَفْتَة العجلان إلى قوله: ﴿ٱعْدِلُواْ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾. فإن تعليم البر والقسط والعدل والإنصاف في الإسلام بالكافر والمخالف للدين كما هو مع المسلم، من الأمور التي يعلمها صبيانُ المكاتب فضلًا عن فحول المذاهب. وإذا هجموا على المسلمين أو صاروا سَدًّا لبلاغ الدين القويم، فالجهاد والقتال ضدَّهم معقول حسن. والتوراة مشحونة منه على أن الإسلام أمر بالعدل والإحسان في أوان الحرب نفسها حين ينشب القتالُ، فأمر أن لا يقتَل المُعاهدُ والصغير والنساء والشيخ الكبير، كما مرَّ مرارًا.

عفو النبي صلى الله عليه وسلم وصبره وصلحه:

وما قالوا: إن الإسلام عاطل عن حُليِّ العفو، فينبغي أن لا يُلتفتَ إليه، فإن القرآن مليء بترغيب العفو والصبر. قال الله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٦)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠)

فهذا أمر بالصبر على الشدائد والمِحن والبلايا في أمر الدين المتين، وإرشاد للإقامة في الثُّغور رابطين للعدوِّ متربصين للجهاد. وقال عز وجل: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا

وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ (الشورى: ٤٠)

انظر إلى أمر القرآن في العفو. وإن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى حمزة رضي الله عنه وقد مُثِّل به فقال: «والله لئن أظفرني الله بهم لأُمَثِّلَنَّ بسبعين مكانك». فنزلت﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧﴾ (النحل).[1]

ووصف الله المتقين بأنهم يخشون ربهم والذين هم يصبرون. قال عز وجل:﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (آل عمران: ١٨٦)، وقال عزَّ وجل:﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت: ٣٤) ، وقال تعالى:﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (فصلت: ٣٥)

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يصبر ويسمح ويصلح، حتى كان يحب الأسماء التي تدل على الصلح والمواطاة، فقد أراد علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يسميَ ابنه من السيدة فاطمة: حربًا، فلما سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن الاسم الذي اختاره قال: حرب. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «بل هو حسن». ثم ولد له ابنه الثاني فسماه عليٌّ حربًا، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم سماه حسينًا.[2]

هذا ما علمت من صبر النبي صلى الله عليه وسلم وعفوه ورحمه على الكفار، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه في شيء قط إلا أن ينتهك حرمة الله فينتقم لله بها.[3] وروي عن جابر رضي الله عنه أنه سئل عن الإيمان «الصبر والسماحة».[4] بل جعل الصبر آية الإيمان ورايته، كما في حديث عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمر ومعه ناس من أصحابه، فقال: «أمؤمنون أنتم؟» فسكتوا –ثلاث مرات–، فقال عمر في آخرهم: نؤمن على ما آتيتنا به، ونحمد الله في الرخاء، ونصبر على البلاء، ونؤمن بالقضاء. فقال صلى الله عليه وسلم:

---

(١) التفسير البيضاوي ١/ ٤٧٣.

(٢) مسند أحمد، رقم: ٧٦٩.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ٣٢٩٦.

(٤) مسند أحمد، رقم:١٩٤٣٥.

«مؤمنون وربِّ الكعبة».[١]

رحمته صلى الله عليه وسلم بالصغار والحيوانات:

قد ذكرنا أن رحمة النبي صلى الله عليه وسلم لا تختص بفرقة وشعبة وعصابة دون عصابة، بل غيث رحمته المِدْرار يعمُّ كل أرض جدباء، وفَوْحات أخلاقه ينتشر في كل بقعة نتناء. ومن ذلك رحمته وشفقته على الصغار، فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم رآه الأقرعُ بن حابس يقبِّلُ الحسنَ فقال: إن لي عشرةً من الولد ما قبَّلْتُ منهم أحدًا. فنظر إليه رسول الله صلى الله عيه وسلم ثم قال: «من لا يَرحمُ لا يُرحمُ».[٢] وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَصُفُّ عبد الله وعبيد الله وكُثَيِّرًا بني العباس ثم يقول: «من سبق إليَّ فله كذا وكذا»، قال: فيستبقون إليه، فيقعون على ظهره وصدره فيُقبِّلهم ويلتَزِمُهم.[٣] ويجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين، ويعود المريض في أقصى المدينة.[٤]

ونختم الكلام على ما رواه أبو البختري رضي الله عنه قال: ما شتم رسول الله أحدًا من المؤمنين بشتيمة إلا جعل لها كفارة، وما لعن امرأةً قط ولا خادمًا بلعنة. وقيل له وهو في القتال: لو لعنتَهم يا رسول الله! فقال: «إني لم أبعث لعانًا وإنما بعثتُ رحمة».[٥] وكان إذا سُئل أن يدعوَ على أحد مسلمٍ أو كافر عامٍّ أو خاصٍّ عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له.[٦]

وكل هذه الأمور أسوة حسنة للأمة حيث قال عزَّ وجل: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ (النساء: ٥٩)، وقال عزَّ وجل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١)

---

(١) المعجم الأوسط، للطبراني، رقم: ٩٤٢٧. ومثله في المعجم الكبير، للطبراني ١١/ ١٥٣، رقم:١١٣٣٦.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٥٩٩٧.

(٣) مسند أحمد، رقم: ١٨٣٦.

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ١٢١.

(٥) صحيح مسلم، رقم: ٤٧٠٤.

(٦) إحياء العلوم ٢/ ٢٩٤-٢٩٥.

الحقوق الإنسانية في الإسلام:

قد جعل أهل المسيحية نظام الرق في الإسلام هَدَفًا ومرمًى لسهامهم، فيقولون: هذا سلب الحرية الإنسانية ونفي المساواة التي يدَّعيها الإسلام، فإن العبد لا يقدر على ما يقدر عليه الحر، ولا يجوز نكاحه بدون إذن السيد، ولا ينفذ تصرفه إلا أن يُنفِذه المولى، ويُعرض للبيع كبيع الحيوانات في الأسواق والشوارع، وإذا كانت أمةً، يجوز تسرِّيها أي للسيد أن يخصها للجماع بدون نكاح، كما يدل عليه القرآن قال الله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ (المؤمنون)

قال البادري بركت الله: فالإسلام يفرق بين الحر والعبد، ولم يمح هذه العادة القبيحة والشر الشنيع عن وجه الدنيا وإن رغب الإسلام بأن لا يكلِّفهم فوق طاقتهم، وجعل تحريرهم سببًا للثواب، لكن ليس مقصوده ومطلوبه إعفاء هذه العادة من بسيط الغبراء، فالعبيد تشترى وتهدى وتورث، فلا تَنْزِلْ درجتهم عن درجة العجْماوات والأموال المنقولة، ولا يملك العبد شيئًا من الأشياء، وتنحط رتبته عن الأحرار بأن لا تقبل شهادته، ولو قتله أحد فلا قصاص عليه، بل تؤدَّى قيمته، ولا يمكن له أن يتزوج بدون إذن مالكه. وقانون الرق موجود في السعودية العربية حتى الآن.[1] انتهى قوله معرَّبًا ملخَّصًا.

نظام الرق يوجد في مذهبهم:

هذا طعنهم في هذا النظام المشروع في الإسلام، وهذا حُمق منهم وجهل، فإن هذا النظام الذي يتعقبونه مسطورٌ في كتابهم الذي أمِروا باتباعه، وهي التوراة التي قال فيها متى: «فإني الحقَّ أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكلُّ، فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلَّم الناسَ هكذا يدعى أصغر في ملكوت السماوات، وأما من عمل وعلَّم فهذا يدعى عظيما في ملكوت السماوات».[2]

هذا تصريح منه بأنهم مأمورون باتباع التوراة كما يقولون به، ومن أعرض عنه

(١) توضيح البيان، ص ٣٤-٣٥.

(٢) متى ٥/ ١٨-١٩.

يستخف في ملكوت السماوات، وحكم الرق قد ذُكر فيها، فاسمعه، قال: «إذا خرجتَ لِـمحاربة أعدائك ودفعهم الرب إلهك إلى يدك، وسبَيْتَ منهم سبيا، ورأيت في السبي امرأةً جميلة الصورة والتصقتَ بها واتخذتَها لك زوجة، فحين تُدخلها إلى بيتك تحلق رأسها وتقلم أظفارها...».[١]

وفي التثنية: «حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكلُّ الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير وسيتعبد لك، وإن لم تُسالِـمْكَ بل عَمِلَتْ معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها منها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها، فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعداءك التي أعطاك الرب إلهك».[٢]

وقال بولس الرسول في رسالته إلى تيمورتاوس: «على جميع الذين تحت نِيرِ العبُودِيَّة أن يحسَبوا سادتَهم أهلًا لكلِّ احترامٍ، لئَلا يُجدَّف أحدٌ على اسم الله وعلى التعاليم. وإذا كان سادتُهم من المؤمنين، فلا يَستَخِفُّوا بهم لأنهم إخوةٌ، بل عليهم أن يزيدوهم خِدمةً لأن الذين يستفيدون من خدمتهم هم مؤمنون وأحبَّاءُ».[٣]

يشهد ما حكينا على أن السبي والرِّقَّ جائزان في شريعة موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام، كما في الإسلام، بل علم من رسالة بولس أن الأَرِقَّاء مكلَّفون بإطاعة مواليهم وسادتهم، سواء كان المولى مسلمًا أو كافرًا، ثم خَصَّص السادة المسلمين بعدم استهانتهم. وكان هذا النظام في اليهود واليونان والروما، وبعد ما جاء عيسى عليه الصلاة والسلام لم يبين الأحكام الواضحة والتسهيلات في العبيد ولا رغَّب في العتق، فبقي هذا النظام كما كان، حتى جاء ضوء الإسلام فكشف الظلام عن وجه هذا النظام. وستقرأ لهذا مزيد تفصيل إن شاء الله تعالى.

وبالجملة أن الرق جائز في شريعتهم، فما هو جوابهم فهو جوابنا. قال الشاعر:

---

(١) التثنية ٢١/ ١٠-١٣.

(٢) التثنية ٢٠/ ١٠-١٥.

(٣) الرسالة الأولى لبولس إلى تيموتاوس ٦/ ١-٢.

الجھا ہے پاؤں یار کے زلف دراز میں ۞ لو آپ اپنے دام میں صیاد آ گیا

معناه: أرجل الحبيب معقودة في جمته، فافهم أن الصياد اشتبك في حبالته.

نظام الرِّقِّ قبل الإسلام:

لم يكن هذا النظام أول قارورة كُسِرتْ في الإسلام، بل الإسلام جاء والناس محفوفون بهذا النظام، وكان الرق في الجاهلية على أقسامٍ بيَّنه عبد الواحد الوافي، قال: كانت روافد الرق في العصر الذي ظهر فيه الإسلام كثيرة متنوعة، أهمها سبعة روافد. أحدها: الحرب. وثانيها: الخطف والسبي. وثالثها: ارتكاب بعض الجرائم الخطيرة كالقتل والسرقة والزنا. ورابعها: عَجز المَدِين عن دفع دينه. وخامسها: سلطة الوالد على أولاده، فكان يباح له أن يبيعهم بيع الأرقاء. وسادسها: سلطة الشخص، فكان يباح للمعوِّز أن يتنازل عن حريته ويبيع نفسَه لقاء ثمن معين. وسابعها: تناسل الأرقاء، فكان ولد الأمة يولد رقيقًا ولو كان أبوه حرا.[(١)] انتهى بحذف.

جاء الإسلام والرِّقّ في مثل هذا الترقي والتعلِّي، بيد أن الإسلام سدَّ أكثر منافذه، بل لم يذكر القرآن الكريم الرِّق في الأسارى، إذ قال عز وجل: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ (محمد: ٤)

فسدَّ الإسلام أكثر الطرق ولم يجوز الرق إلا في الحرب أو الوراثة أو البيع، وقيَّده بقيود تكاد تقضي على هذا النظام، وتقطع أوداجه، فلو جامع المولى بها تكون أم ولد وتعتق عليه بعد موته، ويكون ولده حرًّا، كما في «الهداية». أو اشتراه وكان ذا رحم محرم منه يُعتَق عليه. أو كاتَبَه يصير عتيقًا بعد أداء الكتابة. قال في البداية: «وإذا كاتب المولى عبده أو أمته على مال شرطه عليه وقبِل العبد ذلك صار مكاتبًا، ويعتق بأدائه، وإن لم يقل المولى: إذا أديتَها فأنت حر».[(٢)] «وإذا ولدت الأمة من مولاها فقد صارت أمَّ ولد لا يجوز بيعها ولا تمليكها؛ لقوله عليه السلام: «أَعْتَقَها ولدُها».[(٣)] وإذا قال المولى لمملوكه: إذا مت فأنت حر، أو أنت حر عن

(١) الإسلام نظام إنساني، ص١٢٦-١٢٧.

(٢) الهداية، كتاب المكاتب ٣/ ٢٥٠، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) الهداية، باب الاستيلاد ٢/ ٣١٣. والحديث رواه ابن ماجه في الأحكام، باب أمهات الأولاد، رقم:٢٥٠٧.

دبر مني، أو أنت مدبر، أو قد دبرتك، فقد صار مدبَّرًا، ثم لا يجوز بيعه ولا هبته ولا إخراجه عن ملكه، إلا إلى الحرية.(١)

فقد تحقق بهذا أن الإسلام قيَّد الرق بقيود كثيرة وضيَّق حلقته، فإذا قال لعبده أو أمته: أنت حر أو عتيق، يعتق وإن لم ينو، أو أُكرِه، فالهزل والصواب والإكراه والرضاء والسَّكْر والصحو سواء، وهكذا جعل لهم طريق التحرير في الكفارات، فيحرر في كفارة اليمين، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ (المائدة: ٨٩)، وفي كفارة القتل، فقال عزَّ وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ (النساء: ٩٢)، وفي كفارة الظهار، قال عزَّت كلمته: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ (المجادلة: ٣)، وفي كفارة الإفطار في شهر رمضان، كما ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه رجل فقال: هلكتُ. قال: «ما لَكَ»؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم. فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «هل تجد رقبة تعتقها»؟ قال: لا. قال: «فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين»؟ قال: لا. قال: «هل تجد إطعام ستين مسكينا»؟ إلى آخر الحديث.(٢)

وقد جعل الإسلام تحرير الأرقَّاء سببًا للأجرالعظيم والثواب الفخيم، قال الله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ (البلد)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضوًا من النار حتى فرجه بفرجه».(٣) وعن عمرو بن عنبسة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من بنى مسجدًا ليذكر الله فيه بنى له بيتًا في الجنة، ومن أعتق نفسًا مسلمةً كانت فدية من جهنم، ومن شاب شَيْبَةً في سبيل الله كانت له نورًا يوم القيامة».(٤) وأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) الهداية، باب التدبير ٢/ ٣١٢.

(٢) صحيح البخاري، باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء، رقم: ١٨٠٠.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ٦٢٢١.

(٤) المستدرك للحاكم، رقم: ٤٣٧١، وقال: صحيح. ووافقه الذهبي.

برجل قد أوجب يعني النار بالقتل، فقال: «اعتقوا عنه يعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار». (١)

فاستخلص أن الإسلام قَيَّد الرق بقيود كثيرة تكاد تقطع جَذْر هذا النظام، وهي الطرق المختلفة للإعتاق: ١-الكتابة، وقد رغَّب الله تعالى في ذلك فقال:﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ (النور: ٣٣)، ورغَّب في إعطاء المال إياهم قال عزَّ وجل: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (النور: ٣٣)، بل جاز أن يُصرف جزءٌ من الزكاة إليهم، قال الله تعالى:﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ﴾ (التوبة: ٦٠)، والمراد بالرقاب أن يعان المكاتبون فكًّا لِرقابهم. ٢-التدبير، يعني من دبَّر غلامه يعتق بعد موته بأن قال له: إن متُّ فأنت حر، أو أنت حر عن دبر مني، أو قد دبرتك. ٣-جرت على لسانه ألفاظ العتق. ٤-يعتق في كفارة اليمين. ٥-في كفارة إفطار الصوم. ٦-في كفارة الظهار. ٧- في سبيل الله من غير سبب. فبهذه الأسباب يعتق حظ كبير وقدر وافر من الأرقَّاء.

الرفق بالرقيق والمساواة بالأحرار:

أمر الإسلام بتحسين المعاملة بالأرقاء، فأمر بإحسان المملوك في ذيل الأمر بإحسان الوالدين وذوي القربى، فقال عزَّ وجل:﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (النساء: ٣٦)، فذكر ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، وهم العبيد، في جنب الوالدين وذوي القربى، فالإحسان إليهم أمر عظيم أهم كالإحسان إلى الوالدين. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله أخاه تحت يديه فليُطعِمه مما يأكل، وليُلبسه مما يلبس، ولا يكلِّفه من العمل ما يَغلبه، فإن كلَّفه ما يغلبه فليعنه عليه». (٢)

وعن أبي مسعود البدْري رضي الله عنه قال: كنت أضرِب غلامًا لي فسمعت من خلفي

(١) المستدرك للحاكم، رقم: ٢٨٤٤، وقال: صحيح. ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٥٥٩٠.

صوتًا: «اعلم أبا مسعود! للهُ أقدر عليك منك عليه». فالتفتُّ فإذا هو رسول الله، فقلت: يا رسول الله! هو حُرٌّ لوجه الله. فقال: «أمَا لو لم تفعل للَفَحَتْك النار أو لمسَّتْك النار».(١)

وقد ضاعف الله أجر الغلام إذا أطاع الله وأطاع المولى وفاز في الاختبار، فقال عليه الصلاة والسلام: «نعِمَّا للعبد أن يتوفاه الله بحسن عبادة ربه، وبطاعة سيده، نعِمَّا له، ونعِمَّا له».(٢) وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين».(٣)

وقد ساوى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين ابن فاتح مصر وقائد جيشها وحاكمها العام (عمرو بن العاص) وبين غلامٍ قبطي، إذ تسابقا فسبق القبطيُّ ابنَ الحاكم فصَفَعه هذا وقال: أتسبقني وأنا ابن الأكرمين، فلما رُفِع الأمر إلى عمر رضي الله عنه لم يرض إلا أن يصفَح القبطيُّ ابن الفاتح الحاكم كما صفَعَه، وقال لعمرو بن العاص كلمته الذهبية المشهورة: «يا عمرو! منذُ كَم تعبدتم الناسَ وقد ولدتْهم أمهاتُهم أحرارًا».(٤) وقصة عمر رضي الله عنه مع الغلام في السفر، والمناوبة على البعير(٥) مشهورة من قِفَا نَبْكِ، فتذكرها.

التساوي في التعليم:

اعلم أن الإسلام لم يخص الأحرار بالتعليم والدراسة، بل حرَّض على تعليم العبيد والمماليك أيضًا ليكونوا كالأحرار في المعاملات والعبادات، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رجل كانت عنده أمة فأدَّبها، فأحسن تأديبها، وعلَّمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، فله أجران».(٦) وفي رواية أخرى: «أيما رجل كانت له جارية فأدَّبَها فأحسن تأديبها، وأعتقها وتزوجها، فله أجران، وأيما عبد أدى حق الله وحق مواليه، فله أجران».(٧)

---

(١) صحيح مسلم، رقم:٣١٣٦.

(٢) مسند أحمد، رقم: ٧٦٥٥.

(٣) صحيح مسلم، رقم:٣١٤٦.

(٤) تفسير المنار ٦/ ٣٥٥.

(٥) إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء ٣/ ٢١٧، للشاه ولي الله الدهلوي رحمه الله تعالى.

(٦) صحيح البخاري، رقم: ٩٧.

(٧) صحيح البخاري، رقم: ٢٥٤٧.

بل الرق كان رحمة على الأرقاء في الإسلام؛ لأنهم كانوا جاهلين كالأعراب، لا يعرفون شيئًا من السياسة الدينية والدنيوية، فصاروا بعد ما كانوا جهلاء: عالمين، رؤساء حاكمين، رواة الأخبار، فقهاء عاملين، كل ذلك يشهد عليه التاريخ.

الرِّق رحمة للمرقوقين في الإسلام:

إنما يطعن المسيحيون في نظام الرِّق في الإسلام؛ لأنهم يقيسون نظام رقَّ الإسلام على نظام رقهم، والرق فيهم أقبح وأشنع مَضَرَّةً وأشد نفرة، قال الشيخ حسن أفندي: كما كان (الرق) جاريا من زمن ليس ببعيد في أوربا إلى الآن في بعض ممالك أميركا، فيُضرب الرقيق فيها ويُهان، ويذوق الجوع والعرى، ويقيَّد كالبهائم، ويحمل من مشاق الخدمة ما لا يطاق، ويعد كأنه ليس من النوع الإنساني، لاسيما إذا كان أسود اللون، ولا يعد تحريره من مثوبات الدين، ولا يحرَّر إلا في نادر الأحوال.(١)

وقال الشيخ عبد العزيز الشاويش ما حاصله: ثم إن أوربا جعلت لكنائسهم عبيدًا، وأجازت للغير ذلك، وفيهم جمع كبير يعتقد الرق أمرًا مرضيًّا، ويقولون: هو أفضل من السؤال وقطع الطريق.(٢)

وقال -ما خلاصته-: يجب أن يلاحظ ههنا أمر، وهو أن أقبح أقسام الرق كان في أمريكا الشمالية، مع أنها ذات علم كبير، ويسبقون في التمدن على أقوام وشعوب أُخر، لكن العدد الكبير منهم يعتقدون العقيدة العتيقة في الرق، فإن الجنس الأبيض منهم يجعلون الجنس الأسود عبيدًا، بل لأولاد البيض فيهم حق بيع أمهاتهم.(٣)

لكن الإسلام ليس كما يزعمون، بل هو دين العدل والرفق والرقة، إنما الرق يوجد فيه اسمه ورسمه لا حقيقته، ولذا نادى الإسلام بالمساواة بين جميع الشعب والقبائل، وإنما التفاضل بالأعمال الصالحة فقط، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ (الحجرات: ١٣)، بل جعل الإسلام الرقيق مساويًا لمولاه

(١) الرسالة الحميدية، للحسن أفندي، ص ١٧٥.

(٢) الإسلام دين الفطرة بالأردية، لافتخار أحمد، ص١٦٦.

(٣) ترجمة الإسلام دين الفطرة.

في الأكل والشرب واللباس، فترى الغلام والسيد في الإسلام قائمَين في صف واحد في الصلاة، مساويين في الفرائض.

والآن نحقق أن الإسلام قد أحسن إلى المماليك حيث جعلهم عبيدًا. لكن نقدِّم لك أولًا أن الإسلام لم يفرض على المسلمين أن يرقِّقوا أُسراءهم، بل لهم الخيار في أخذ الفدية والمال، أو الإطلاق مجانًا، أو جَعْلهم عبيدًا. واستمع بعد هذا أن الأسرى في الجهاد إذا قبض عليهم المسلمون يُجَوِّزُ العقل فيهم أربعة طرق: إما أن يطلقوهم، أو يأخذوا الفداء، أو يأسروهم في السجن، أو يجعلوهم عبيدًا، والإطلاق مجَّانًا ربما يكون مُضِرًّا بالمصالح الدنيوية، وفيه تشجيع للعدو على أنفس المسلمين كما هو الظاهر، وإن كان جائزًا شرعًا. وأخذ فدية النفس قد لا يمكن العمل به بأن يكون أسراؤهم كثيرين وأسراؤنا فيهم قليلين، فتفوت المساواة المطلوبة. والثالث: أي جعلهم في السجن يكون ثقيلًا على كاهل الحكومة، فالأنفع الأفيد أن يقسموا بين الغانمين، لا تقسيم الحيوانات، بل يكون كل منهم ركنا في البيت ويُطْعَم مما يُطْعَمُونه ويُلبَس مما يَلْبَسُونه ويُحفظ من شدائد السجن، ويطوف كالأحرار في الأسواق والطرق والشوارع ويتعلم، ويصير سيِّدًا بعد جهله ورقِّه، وهذا كثير تشهد عليه الأوراق الذهبية التاريخية. فانظر إلى زيد بن حارثة رضي الله عنه كان رقيقًا، ثم أُعتِقَ وجعله النبي صلى الله عليه وسلم قائد الجيش في مؤتة. وصار كثير منهم أمراء. ويجوز له أن يتزوج بابنة المولى، وهذا كثير إذا رضي أخلاقه وأعماله وآدابه وسيرته وهديه، فيصير سيدًا بعد ما كان مغلَقًا في سلاسل الرق.

ولو أُسِرت النساء الكثيرة، فالأصلح لهن أن يقسمن بين الغانمين ويصرن زوجات لهم أو سريات وأمهات أولاد، خصوصًا إذا قُتِل أزواجهن وبقين وحيدات متفردات باكيات متضرعات.

فالحاصل أن الشرع جعل لهم حقوقًا تساوي حقوق الأحرار، فهو ينكح الحرة والأمة كما ينكحها الحرُّ، ويجب القصاص بقتله سواء قتله الحر أو العبد، ويُقتص في أعضائه كما يقتص في أعضاء الحر. وأما بيع العبد فليس إلا الانتقال من يد إلى يد أخرى ليس فيه إهانة ولا استخفاف، بل إذا كان العبد مثلًا غيرَ مطيع باغيًا لا يطيع من هو تحت ظلِّه، ينتقل من

يده إلى يد أخرى، وهذا ليس كبيع الحيوانات؛ فإن العبد إنسان كباقي الناس، حقوقه كحقوق إخوته من الأحرار، فليس هذا إلا كنقله أو انتقاله من بلد إلى بلد آخر لعله يوافق مزاجه، وليس كالحيوانات لها مكان على حِدةٍ ومأكل ومشرب مُفرَز ويُضرب ويقاد في الشوارع والسِّكك، على أن الكفار لما أنكروا وأعرضوا عن إطاعة الله تعالى وقبول أحكامه جعلهم الله عبيد العبيد، وهذا الأمر أخف في حقهم؛ لأنهم لو قُتِلوا أو عُدِموا لم يكن أوفق بهم وأصلح لهم، وقد شهد التاريخ على أن العبيد صاروا علماء وصلحاء وقضاة وشهداء، وفازوا بالمناصب الجليلة والمراتب العظيمة.

حقوق النساء في الإسلام والمسيحية

من مطاعن المسحيين في الملة الحنيفية السَّمحة البيضاء مسألة حقوق النساء وحُرِّيَّتهن، فإنهم يطعنون أن المرأة في الإسلام ضعيفة مظلومة ليس لها اعتبار. يظلم من ناحية الحجاب، فالرجال يمشون في الأسواق يسيحون في كل ميادين الحياة، والمرأة تلازم بيتها، بل بيت زوجها كالحلس لا يمكن لها أن تخرج من بيتها إلا أن يأذن لها زوجها، فكأنها مقيَّدٌ زمامها في يد الرجل. ومن جهة الإرث فإرثها نصف إرث الرجل. ومن جهة الطلاق فلا تستطيع أن تطلق الرجل وتخلص نفسها من يده كما أن العكس جار وسار، شائع وذائع. ومن ناحية قيام الشهادة، فجَعَلَها ناقصة العقل تساوي شهادةُ ثنتين منهن بشهادة واحد من الرجال. ومن جهة القيام وتدبير الأسرة، فالرجل يُدبِّر الأسرة والبيت، والمرأة محكومة خادمة البيت.

وأورد البادري بركت الله هذه الشبهة والطعن غير مرة في كتبه. وأقدِّم إليك خلاصة ما قال في توضيح البيان، قال: الأحكام القرانية تخالف مساواة الرجل المرأة، يعني الإسلام فَضَّل الرجال على النساء، حدَّد القرآن للنساء حدًّا خاصًّا لا يتجاوزنه، ونتيجتها الإهانة والإذلال. وقد أكد القرآن للنساء أن يحجبن، حيث قال: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (الأحزاب: ٣٣)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ (الأحزاب: ٥٣). وقد بغى مُسلِمُو هذا الزمان على هذا الحكم ولم يُلقو له بالًا.

ثم ادعى بزعمه أن المرأة في الجاهلية وإن كانت أحطَّ درجة وأنزل رتبة، وأن الإسلام عزَّزها ورفع قدرها قليلًا، لكن الكلام ليس في المقارنة بعهد الجاهلية، بل المطلوب أن يرى أن الإسلام كيف وكم رَفَع قدرَها في مقابلة المسيحية ليكون مذهبًا عالميًّا. كانت النساء تباع في الجاهلية بأداء المهر، فأقرَّ الإسلام هذا القانون فيتزوجن بأداء روبيات معدودة، وتصير محكومةً. ولذا قال في القرآن: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ

أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ (النساء: ٣٤) إلى أن جاء في الحديث: «لو جاز لأحد أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن يسجد لزوجها». والقرآن يصرح بانحطاط رتبة النساء ويقول: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ (البقرة: ٢٢٨)، وتنشرح فضيلة الرجل على المرأة من قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ (النجم)، يظهر من هذه الآية أن رتبتهم أعلى وأعز من رتبتهن. وكذلك في الإرث حيث قال تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ (النساء: ١١)، وفي الشهادة تساوي اثنتان منهن بواحد منهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، ولا توجد في القرآن شرائط للطلاق، بل الرجل مختار ومطلق العنان في أمر الطلاق، وليس للمرأة حظ منه. ويرخص القرآن الرجل أن يضرب امرأته، بل قال القرآن: إن المرأة محل شهوة الرجل وحرثه، كما قال عز وجل: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٣)، والقرآن نَقَّص درجة النساء حتى جعلهن في الجنة أداة لتسكين الشهوة و إخمادها، كما قال في القرآن: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (البقرة: ٢٥)، وفيه أيضًا: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ (الدخان: ٥٤)، وفيه:

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾ (الرحمن)

ولم يقتنع بهذا، بل طعن في سائر نعيم الجنة، فأنهار اللبن والشراب والعسل والماء في نظرهم أمور خيالية يسخرون منها، كما قال البادري بركت الله: الجنة عند المسلمين مقام يعطى فيه للشهوات النفسانية حظُّها الأوفر. ونقل بعض الآيات القرآنية في ذلك كقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ (الحجر)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (الحج: ٢٣)، وقوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (الطور: ٢٢)، وكتب في الآخر هذا الشعر:

چهار چيز كه غم مى برد كدام چهار ❁ شراب وسبزه وآب رواں وروئے نگار

معناه: أربعة أشياء تذهب الهموم والغموم، وما هن الأربعة؟: الخمر، والخضرة، والماء الجاري، ووجه الحبيب.

هذه خلاصة ما تفوَّه به النصرانيُّ بالأردية وأتى بالهذيان، وقال ما لا ينبغي له أن يقول.(١) والآن اسمع رد كل هفوة من هفواته لتكون على بصيرة ويقين بأن الإسلام باقَةُ المَحاسن والفضائل.

حقوق النساء في دين الإسلام - نضَّره الله إلى يوم القيامة:

قبل أن نبين حقوق النساء في الإسلام يحرى أن نذكر شأن المسيحية في النساء، فالحق أن المسحية جعلت المرأة مبدأً كل شر ومركز كل طعن، فتنطق التوراة بأن آدم أخطأ وأخرج من أجل زوجته، وهكذا بثت الإثمَ الأصليَّ في العالم، ولم يمكن لشيء أن يُكفره إلى أن جاء المسيح فكفَّر. وهذا تنطق به التوراة قال: «فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بَهْجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجُلَها أيضًا منها، فأكل».(٢) بخلاف القرآن، فإنه نسب الزلة إليهما، والإزلال إلى الشيطان. إذ قال: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ (البقرة: ٣٦)، وقال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ (الأعراف: ٢٠)

وقد أثبتت التوراة سُؤدَدَ الرجل على المرأة فقال: «وقال للمرأة تكثيرا: أكثر أتعاب حملك بالوجع، تلدين أولادًا وإلى رجُلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك».(٣) بل وجع بنات آدم من السيادة حين الحمل أي المخاض بسبب الإثم الصادر منها، ونساء بني آدم عندهم يتألمن بإثم أمهن، فانظر إلى هذه القضية غير المعقولة؛ إذ كلهن يتحملن جزاء إثم لم يفعلن ولم يرتكبن. ثم يطعنون في الإسلام بأن الإسلام لا يعطي النساء حقوقهن. والمسيحيون عديموا الحياء إذ يدَّعون المساواة الإنسانية ولا ينظرون إلى ما قال إلههم المسيح اليسوع للمرأة التي جاءت مستجيرة عنده تقول: «ارحمني يا سيد! يا ابن داود! ابنتي مجنونة جدًّا، فلم يجبها بكلمة، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين: اصرفها؛ لأنها تصيح وراءنا، فأجاب وقال: لم أرسل إلا إلى خِراف بيت بني إسرائيل الضالة، فأتت وسجدت له قائلةً: يا

(١) توضيح البيان في أصول القرآن، ص٣٦-٤٢.
(٢) تكوين ٣/ ٦.
(٣) تكوين ٣/ ١٦.

سيدي أعني، فأجاب وقال: ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب». الخ.[١]

في هذه الآيات أمور فالتفت إليها: ١- الصمت والسكوت في معرض الجواب، وبه يتضجر قلب الإنسان السائل وينكسر. ٢- ردها بأنه لم يرسَل إلا إلى بني إسرائيل مع أنه قضى حاجتها بعد ذلك. ٣- تشبيه المرأة بالكلب.

ثم انظر إلى عمل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حيث خصَّص للنساء يومًا يُعلِّمهن، كما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النساء للنبي صلى الله عليه وسلم غَلَبَنا عليك الرجالُ فاجعل لنا يومًا من نفسك، فوَعَدَهُنَّ يومًا، لقيهن فيه فوعظهنَّ وأمرهن فكان فيما قال لهن: «ما منكن امرأة تقدِّم ثلاثةً من ولدها إلا كان لها حجابًا من النار». فقالت امرأة: واثنين. فقال: «واثنين».[٢] وعن أنس رضي الله عنه أن امرأة كانت في عقلها شيء فقالت: يا رسول الله إن لي إليك حاجة، فقال: «يا أم فلان انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك» فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها.[٣]

أعلن الإسلام المساواة بين الرجل والمرأة في كثير من الأشياء، يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ (الحجرات: ١٣)، وقال عز وجل: ﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾ (النساء: ١)، فذكرهن بجنب الرجال ولم يخصهم بالذكر. وروي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله إني أسمع الله يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء، فنزلت: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ (آل عمران: ١٩٥).[٤] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ (النساء: ١٢٤)

وقد أحسن الله إلى النساء حيث جعل في القرآن سورتين تسميان باسمهن لكثرة ذكر أحكامهن فيهما. إحداها: سورة النساء الكبرى. والأخرى: سورة النساء الصغرى، وهي سورة الطلاق. مع أنه بُيِّنت أحكامهن في سور أخرى أيضًا. ومع هذا يزعم الزاعمون أن

---

(١) متى ١٥/ ٢١-٢٥.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٩٩.

(٣) صحيح مسلم، رقم: ٤٢٩٣.

(٤) تفسير البغوي ١/ ٥٥٧.

الإسلام أسقط منْزِلتها، والحال أن الرجال كما يستحقون الحقوق عليهنَّ كذلك هن يستحققن الحقوق عليهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ (البقرة: ٢٢٨)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن النساء شقائق الرجال».(١)

مساواة المرأة الرجل في مُعظم الأحكام:

قد سوَّتْ شريعتُنا الشريعة الإسلامية في معظم الأحكام بين الصنفين: صنف الرجال وصنف النساء، فالعبادات كما هي واجبة على الرجال، واجبة على النساء، كالصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، والسنن، والآداب، والحياء، والرفق، والعدل، والكرامة، وحسن الخلق، وأداء الحقوق، وغيرها. وسوَّتهما في الإكرام والتعظيم والإحسان إليهما، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ (النساء: ٣٦)، بل الإحسان إلى الأم آكد من الإحسان إلى الأب، كما تشهد به الأحاديث النبوية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله من أحق بحسن صحابتي؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال ثم من؟ قال: «ثم أبوك».(٢) وفي رواية قال: «أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أباك، ثم أدناك، فأدناك».(٣) بل لو كانت كافرة ينبغي أن يُحسن إليها، كما روي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: قدِمت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد قريش، فقلت: يا رسول الله إن أمي قدمت عليّ وهي راغبة أن أصلها، قال: «نعم صِليها».(٤)

فعلم أن الإسلام أَكَّدَ الإحسان إلى الأم لما تحملت مشاقَّ الحمل والإرضاع والحضانة والخدمة وغيرها، وهكذا تساوي الرجل في المعاملات، فالمعاملات التي تجوز للرجال جائزة للنساء كالبيع والشراء والوكالة والكفالة والإقالة وغيرها.

وبالجملة جميع معاملاتها صحيحة ولا يأبى عليها أحد في ذلك. وهكذا تساويه في

---

(١) سنن الترمذي، رقم: ١١٣.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٥٩٧١.

(٣) صحيح مسلم، رقم: ٢٥٤٨.

(٤) صحيح البخاري، رقم: ٢٩٤٦.

أمور الآخرة، فإن كانت مسلمة مخلصة تجب لها الجنة، وإن كانت كافرة مشركة تجب لها النار، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧)

وبالجملة المعاصي في حقها كالمعاصي في حقه، والأعمال الصاحلة في حقها كالأعمال الصالحة في حقه. فهما سواسية فيما أمِرا وما نُهِيا إلا ما ندر ونذر، هذا والعلم عند الخالق القوي القدير.

حق التعليم للمرأة:

أعطى الإسلامُ المرأةَ حق التعليم والتعلُّم بحيث لا تتجاوز عن حدود نسوانية، إذا لم تخرج من الحجب النسوانية الواجبة إلى ملاهي الأسواق والشوارع، ولا تختلط بالرجال ولا تختلي بهم، وتشتغل في أعمال تكون لائقة بها معينة لها في شؤون الحياة. وكانت الصحابيات عالمات يرجع إليهن المسلمون في كثير من المسائل، وقد رغَّب النبي صلى الله عليه وسلم في تعليم الجواري كما مضى. وقال البلاذري رحمه الله: كانت حفصة -رضي الله عنها- زوج النبي صلى الله عليه وسلم تكتب، وكانت عائشة -رضي الله عنها- تقرأ المصحف ولا تكتب. وقال بسنده: إن النبي صلى الله عيه وسلم قال للشفاء بنت عبد الله العدوية من رهط عمر بن الخطاب: «ألا تُعَلِّمِين حفصة رُقْية النملة كما علَّمْتِيها الكتابة».[1] وكانت الشفاء كاتبة في الجاهلية.[2]

وكانت فاطمة بنت محمد علاء الدين السمرقندي زوجة العلامة الكاساني صاحب «بدائع الصنائع» تفقَّهت على أبيها، وحفظت «التحفة» تصنيف أبيها. قال ابن العديم: حكى والدي أنها كانت تنقل المذاهب نقلًا جيدًا، وكان زوجها الكاساني ربما يهم في الفتيا، فترده إلى الصواب وتعرفه وجه الخطأ، فيرجع إلى قولها. قال: وكانت تفتي، وكان زوجها يحترمها ويُكرمها، وكانت الفتوى أولًا يخرج عليها خطها وخط أبيها السمرقندي، فلما تزوجت

---

(١) سنن أبي داود، رقم: ٣٣٨٧.

(٢) فتوح البلدان، ص٣٧٧-٣٧٨.

بالكاساني صاحب «بدائع الصنائع» كانت الفتوى تخرج بخط الثلاثة.[1]

وسبب تزويجها بالكاساني أنه لزم والدَها واشتغل عليه وبَرَع في علمي الأصول والفروع، وصنَّف كتاب «البدائع» وهو شرح للتُّحفَة، وعرَضه على شيخه، فازداد فرحًا به، وزوَّجه ابنته، وجعل مهرَها منه ذلك، فقال الفقهاء في عصره: «شرح تحفَته، وزوَّجه ابنتَه».

وبالجملة يجوز لها أن تتعلم الأكساب التي تناسبها مثل الخياطة، والتطريز، والتطبيب، والتعليم، وآداب الجهاد. قال ابن عابدين نقلًا عن الخير الرملي: «لو استغنت الأنثى: بنحو خياطة وغزل يجب أن تكون نفقتها في كسبها كما هو ظاهر، ولا نقول: تجب على الأب مع ذلك، إلا إذا كان لا يكفيها فتجب على الأب كفايتها بدفع القدر المعجوز عنه، ولم أره لأصحابنا. ولاينافيه قولهم: بخلاف الأنثى؛ لأن الممنوع إيجارُها، ولا يلزم منه عدم إلزامِها بحرفة تعلَمُها». وقال بعد ذلك: «وعليه فله دفعُها لامرأة تُعلِّمها حِرفة كتطريز وخياطة.[2]

التساوي في الجهاد:

سوَّى الإسلام بينهما في الجهاد، فرخَّص أن تخرج للجهاد كما يخرج، بل يلزم عليها إذا كان النفير عامًّا. وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم لأم حرام بنت ملحان أن يجعلها من الغزاة. فخرجت للجهاد واستُشهدت في سبيل الله تعالى. والحديث بتفصيله مذكور في صحيح البخاري في مواضع مختلفة.[3] وقد عقد البخاري رحمه الله تعالى بابًا لغزو النساء وقتالهن مع الرجال. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يُقرِع بين نسائه عند خروجه إلى الجهاد.[4] وعن أنس رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولقد رأيت عائشة رضي الله عنها بنت أبي بكر رضي الله عنه وأمَّ سليم رضي الله عنها وأنهما لَمُشَمِّرتان، أرى خَدَمَ سوقهما تُنقِزان القربَ. وقال غيره: تَنقُلان القرب على متونهما، ثم تُفرِغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملئانها، ثم تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم. وعن

---

(١) الجوهر المضية، في باب النساء ٢ / ٢٧٨، لعبد القادر القرشي.

(٢) رد المحتار ٣/ ٦١٢.

(٣) منها في باب الدعاء بالجهاد، رقم: ٢٥٨٠. وباب الرؤيا بالنهار، رقم: ٧٠٠١. وباب من زار قومًا فقال عندهم.

(٤) راجع: صحيح البخاري، باب حديث الإفك، رقم: ٣٨٢٦.

الربيع بنت معوذ قالت: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم نسقي الماء ونداوي الجرحى ونرد القتلى إلى المدينة.[1]

وفي عهدنا هذا أيضًا ينبغي أن تستعد للدفاع والحرب، وتتعلم طريق المُحاربة حتى لو كان في إقليمٍ قلةُ الرجال يكن مُمِدَّات لهم وعونًا، لكن كل ذلك يجب أن لا يكون متجاوزًا عن الحدود المقدَّرة لها في الإسلام.

المرأة في الأمم المسيحية:

يناسب أن نذكر حال المرأة في الأمم المسيحية لينكشف أن المسيحيين كاذبون في دعوى حماية النساء وتساويهن بالرجال في المذاهب المسيحية، وليظهر أن المسيحية ليست محافِظة لحقوقهن. قال القديس ترقوليان: إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان ناقضة لنواميس الله، مشوِّهة لصورة الرجل.

ولما دخلت أمم الغرب في المسيحية كانت آراء رجال الدين قد أثَّرتْ في نظرتهم إلى المرأة، فعقد الفرنسيون في عام ٥٨٦ الميلادي (أي في أيام شباب النبي صلى الله عليه وسلم) موتمرًا للبحث: هل تعد المرأة إنسانًا أم غير إنسان؟ وأخيرًا قرروا أنها إنسان خلقت لخدمة الرجل فحسب. ومن الطريف أن نذكر أن القانون الإنجليزي حتى عام ١٨٠٥ كان يبيح للرجل أن يبيع زوجته، وقد حدَّد ثمن الزوجة بستة بنسات «نصف شلن ربع ليدة سورية».[2]

بعض الفوارق بين الرجل والمرأة:

الإسلام وإن سوَّى بين كلا الصنفين، لكن وجد بعض الفوارق بينهما لمصالح وحكم وفوائد، ستحيط بها إن شاء الله تعالى.

---

(١) صحيح البخاري، باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال، رقم:٢٦٦٧. وباب مداواة النساء الجرحى في الغزو، رقم:٢٦٦٩.

(٢) المرأة بين الفقه والقانون، ص ٢٠-٢١، للدكتور مصطفى السباعي.

الفرق في الشهادة:

فشهادة اثنتين منهن تساوي واحدًا منهم، وهذا ليس إسقاطًا لكرامتها وتنقيصًا لها، بل مبنيٌّ على مصالح اجتماعية.

الأولى: إن المرأة تكون مشغولة بأشغال بيتها وتربية أولادها وشؤون أسرتها، ولهذا لا تشتغل بالمعاملات الدنيوية من البيع والشراء. وما لا تشتغل به لا تحرص على ذكره ولا تبالي به، فاحتمال النسيان والخطأ والذهول أقوى. والشهادة لابد فيها من التثبت والاحتياط، فلذا جبرنا رأيها برأي الصاحبة ليكون الرأيان كالحبل المتين، وتقوى الشهادة، ويمحو أثر الذهول والنسيان.[1] وقد اعتُبِرت شهادتها وحدها في مسائل لا يطلع عليها الرجال كالولادة والبكارة، كما قال المرغيناني في «الهداية»: «ويقبل في الولادة، والبكارة، والعيوب بالنساء في موضع لا يطلع عليه الرجال شهادة امرأة واحدة».[2] فلو كان هذا تنقيصًا لها وإسقاطًا لكرامتها وإنسانيتها لم تقبل ههنا.

الثانية: إن القوى الإدراكية للرجل تكون قَوِية حساسة بالنسبة إلى المرأة، بل أعضاء المرأة التي تشابه أعضاء الرجل ظاهرًا تختلف عنها في القوة.

وبالجملة: الرجل قوي بالنسبة إلى المرأة في الإحساس والإدراك والعضلات والحواس الخمسة، وقد بين هذا العلامةُ الفريد وجدي رحمه الله تعالى في كتابه «المرأة المسلمة» بشهادات علماء التشريح. من شاء فليراجعه، وترجمه بالأردية الشيخ الزعيم السياسيُّ الكبير مولانا أبو الكلام آزاد رحمه الله، وسماه بـ «*مسلمان عورت*». ولما كانت قواها ضعيفة طبْعًا ضُمَّ إلى رأيها رأي أختها؛ ليتقوى الشهادة ويحصل المطلوب بلا ريب.

الثالثة: إن جهة الحَنان والعاطفة والانفعال قوية فيها، وكثيرًا ما تنسى لغلبة جهة الانعطاف والرعب عليها ونقصان التفكير والإدراك، فلذا أجبِر رأيها برأي مثلها، وصارت شهادتها كشهادة واحد منهم، ولهذا لم تقبل شهادتها في أمور خطيرة مُهلِكة كالحدود والقصاص، وأيضًا التزكية أمر مقصود في الشهادة وتسهل حين تكون امرأة بجنبها.

---

(١) ملتقط من المرأة بين القانون والفقه، ص٣٢.

(٢) الهداية ٣/ ١٥٥.

الفرق في الميراث:

وهكذا فرَّق الإسلام بينهما في الإرث، فإن حظه يكون مثل حظ المرأتين، وهذا هدف ثانٍ للطاعنين الجاهلين، ولكن فيه أيضًا مصحلة عظيمة، فإن المرأة بطبعها مجبولة على تكثير النسل وحفاظته، ويتعرض لها مشاكل ومصائب ترتَعِد منها الفرائص وتهاب منها القلوب، وهي الحمل ووضعه والرضاعة والحضانة وترتيب أمور البيت وتنسيقها، وكل منها مشقة كبيرة لا تتفرغ بسببها لاشتغالٍ آخر، ولهذا جعل الشرعُ نفقتها قبل النكاح على أكتاف الأب أو غيره من الأقارب لضعفها واشتغالها بأمور البيت، وبعد النكاح على أكتاف الزوج، لتكون فارغة للأشغال المَجبولة عليها، وعلى هذا ليست لها حاجة إلى المال، فإن كفالتها ونفقتها ومسكنها وكسوتها على الرجل، كما قال الله تعالى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ (الطلاق: ٧)، ومع ذلك أعطاها الإسلام نصفَ ما يعطَى للرجال، وفرض لها المهر، وقد يكون مالًا كثيرًا. ولـمَّا نظرنا إلى حظِّها وحصتها نرى أن المرأة أسعد حظًا من الرجل، فالرجل يأخذ الحظ الكامل، لكن يُنفق منه على نفسه وزوجته وأولاده ويؤدي المهر فينقص ماله، بل قد يفنى. والمرأة كل مالها محفوظ، على أن هذا الحكم –أي: زيادة حظ الرجل– ليس قانونًا كليًّا وأصلًا عامًّا شاملًا، بل في بعض الصور يكون حظها مساويًا لِحَظِّه، كما في الأخوات لأم إذا اختلطن بالإخوة، ففي هذه الصورة يستوي الفريقان، ويكون لها مثل ما يكون له سواءً بسواء. وكما إذا ترك ابنًا وأبوين يأخذ كل واحد منهما السدس. قال الشيخ سراج الدين: وأما لأولاد الأم فأحوال ثلاث: السدس للواحد، والثلث للاثنين فصاعدًا، ذكورهم وإناثهم في القسمة والاستحقاق سواء.[1] بل قد يكون حظها أزيد من حظه، كما إذا ترك بنتًا وأبوين، يكون لها النصف ولهما السدس، فيكون حظ البنت زائدًا على حظ الأب. وصورته هكذا:

زيد ميت

٦

بنت	أب	أم
٣	٢	١

(١) السراجي، ص٦.

فمسألة الميراث ليست نقصًا في الإنسانية، وإلا تكون إنسانيتها في الصورة الأخيرة أوفى وأحظى من إنسانيته، بل نقول: المفهوم من سِفر أيوب عليه السلام أن الأخوات لا تستحق الإرث مع الإخوان، حيث قال: «ولم توجد نساء جميلات كبنات أيوب في كل الأرض، وأعطاهن أبوهن ميراثًا بين إخوتهن».(١)

يقترح الفَطِن الذكي من هذه العبارة أن أيوب عليه الصلاة والسلام أحسن إلى البنات إذ أعطاهن مع البنين وإن كن غير مستحقات. والله أعلم.

والعجب أن النصارى مع ادِّعائهم عالَـمِيَّة المسيحية لا توجد فيها أحكام الميراث. قال العلامة الآلوسي: «ومن أعظم الأدلة على أن الإسلام هو الحكم الإلهي مسئلة الفرائض وتقسيم المواريث، فإن اليهود يقسمون تركة الميت حسبَ شريعتهم، والنصارى ليس لهم أحكام شريعة في ذلك، بل يرجعون في تقسيم تركات موتاهم على ورثتهم إلى المسلمين، ويستفتون على مقتضى الشريعة المُحمَّدية، فَيُفْتَون. وليت شعري قبل مجيء الشريعة الإسلامية كيف كانوا يفعلون في ذلك؟ فإن كانوا يقسمونها على ما تقتضيه شريعة موسى عليه السلام، فَلِمَ عدلوا عن ذلك، وإن لم يقسموها على حكم التوراة، فكيف كانوا يفعلون؟ إذ الإنجيل ليس فيه من الأحكام إلا الشيء اليسير كرفع حكم السبت، وأكل كل شيء، وعدم جواز التطليق، ونحو ذلك من الأمور القليلة بزعمهم!!!».(٢)

الفرق في رئاسة الأسرة:

وهكذا فرَّق الإسلام بينهما في رئاسة الأسرة، فالرجل رئيس الأسرة وقَيِّمها، وهذا هو الطعن للمسيحيين والمستشرقين على المسلمين. والعجب أنهم يستنكفون عن رئاسة الرجل مع أن التوارة صرَّحت بسيادة الرجل على المرأة كما في الإصحاح الثالث من التكوين: «إلى زوجكِ يكون اشتياقُكِ، وهو عليكِ يسودُ».(٣) ومع ذلك يطعنون في الإسلام، وهل هذا إلا التعامي والتجاهل. ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

---

(١) أيوب ٤٢/ ١٥.

(٢) الجواب الفسيح، ص٢٣٧.

(٣) التكوين ٣/ ١٦.

وفيه مصالح وحكم وفوائد: **أحدها:** أن الله أعطى الرجل قوة زائدة على المرأة في العضلات والجسامة والقامة والثقل والعقل، كما مرت لَـمْعة منه. فالمعقول أن يكون حاكمًا عليها لقوة في جسمه وتفكيره وتدبيره.

قال الدكتور دوناريني في دائرة المعارف: فعضلات الرجل يختلف من عضلاتها، فإن عضلاتها خفيفة بحد لو قُسِمت عضلات الرجل ثلاثة أجزاء كان الجزءان حظَّه والواحد حظها، وهكذا حركة عضلاته سريعة بالنسبة إلى حركة عضلاتها.[1]

وأشار القرآن الكريم إلى مصلحتين أُخْرَيَيْن لِقِوَامه على الأسرة في هذه الآية: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ (النساء: ٣٤)، فقوله عزَّ وجل﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ يشير إلى أن القِوام يكون عنده لفضيلته وميزاته، وذلك لأن ميلان الرجل ورجحانه إلى التفكير الكامل وترتيب الأمور، ورغبتها إلى الرحمة واللين والانفعال. والظاهر أن الرئاسة تناسب التفكير وهو في الرجال، ولا تأتلف بالعطوفة واللِّيْن اللَّذَين هما في النساء. فإنك ترى النساء لا يمكن لهن أن يقتلن أحدًا أو أن يضربن، ولا يستطعن أن يخضن في مواقع الخطرات، بل يجتنبن من المخاوف والمهالك. وكل ذلك دليل اللِّيْن والحَنان والعطوفة والانفعال. بخلاف الرجل، فإنك تراه يخوض في المهالك والمعارك، ويجترئ بطبعه، وهو بَسولٌ بفطرته، لا أشك أن يشك فيه أحد. وقوله عزَّ وجل:﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ تلميح إلى المصلحة الثانية، وهو أنه يقوم بالإنفاق عليهن وبالبيع والشراء والمعاملات ودفع المَضرات والخروج لأسباب الرزق، وهذا يقتضي أن يكون رئيسًا زعيمًا قيِّما لأمرها، حاكمًا عليها، سيدًا.

وقد تلقى المسيحيون ما نقول بالقبول عملًا، فإن أهم المناصب وأعلاها عندهم مفوَّضة إلى الرجال، كما لا يخفى على من له أدنى إلمام بأحوالهم، فإنكارهم كإنكار الخَفاش ضوء الشمس. وسمعت أن واحدة من النساء لم تنتخب إلى اللآن للرئاسة العامة في أمريكا الشمالية. والله أعلم.

---

(١) المرأة المسلمة (*مسلمان عورت*).

التفريق بالحجاب:

ههنا مسئلتان. الأولى: الستر. والثانية: الحجاب.

أما الستر فالرجل والمرأة كلاهما فيه مساويان، يعني كما لا يسوغ لها أن تُبديَ عورتَها من السرة إلى الركبة لأحد كذالك لا تجوز له هذه الشنيعة. ويجوز أن تبدي رأسها وصدرها وساقيها وعضديها للمَحْرَم. ويجوز للمَحْرَم أن ينظر إلى الأعضاء المذكورة. ويجوز للرجل أن ينظر من الأجنبية وجهها وكفيها بشرطِ أمنِ الشهوة، وعند الضرورة. ولا يحل من غير ضرورة. قال البيضاوي -بيَّض الله وجهَه يوم تبيض وجوه وتسود وجوه- في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (النور: ٣١): والأظهر أن هذا في الصلاة لا في النظر، فإن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرَم النظر إلى شيء منها إلا لضرورة، كالمُعالجة وتحمُّل الشهادة.[1] ويجوز للزوج أن ينظر إلى كل بدن زوجته.

والثانية: الحجاب. أي عدم اختلاطهن بالرجال، والقرار في البيوت، وعدم التبرج إلا في ثلاثة مواطن: مواضع العبادة، كالمساجد عند غير الأحناف. وأماكن العلم مع الحجاب، وميادين الجهاد مع رعاية حدود الشرع. وعدم تبرج المسلمة هو الهدف للطاعنين المسيحيين ويَقْفو قَفْوَهم من هو ضعيف عقلًا وعقيدةً من المسلمين الذين تأثروا بعقائدهم ورُعِبوا من اختراعاتهم، فانتهجوا منهجهم. وهذا (أي الحجاب) واجب عليهن. كما قال الله تعالى خطابًا لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ (الأحزاب: ٣٣)، وقال عزَّ وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ (الأحزاب: ٥٣)، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ الآية.(الأحزاب: ٥٩)، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ٩٨.

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣١)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المرأة عورة، فإذا خرجتْ استشرفها الشيطان».[1]

فاستخلص من هذه الآيات أمور.

الأولى: أن العزيمة في المرأة أن تكون زينة بيتها كحِلس البيت، ولا تخرج لما فيه من المفاسد، لكن قد تقع الضرورة إلى الخروج، فعند الضرورة أمِرن بأن يُدنين عليهن جلابيبهن، يعني لا يخرجن متبرجات، بل يلبسن جلابيبهن لتكون أشخاصهن محجوبة عن الأعين الضارة التي هي كالسُّم الناقع. ثم قد تقع الضرورة إلى إخراج الأيدي والوجه في المعاملات والشهادات وغيرها، فيجوز حينئذ إخراجها. وإليه الإشارة في قوله عز وجل: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، يعني ما ظهر للضرورة، ولهذا لم يقل (ما أظهرن) إذ الإظهار ليس بجائز.

وههنا اعتراض ساقه بعض المستشرقين وأذنابهم، وهو: إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، فاستثنى الله تعالى ما ظهر من الزينة. والظاهر أن المراد منه مواضع الزينة، كما ذهب إليه أرباب التفسير، فيجوز إبدائها للأجانب.

والجواب عنه **أولًا**: أن المراد مما ظهر: الظهور بالاضطرار للحاجة، لا بالقصد؛ لأنه ليس من المعقول أن يمنع الله من ضرب الرِّجل على الأرض ويسمح في إظهار الوجه، وأن يردَع من إظهار الرأس ويجيز في إظهار الوجه.

وثانيًا: إن الله بين في هذه الآية قسمين من مواضع الزينة: أحدهما: المواضع التي تستحق التستُّر والتحجب، ولا تتحرج في تسترها كالساقين. وثانيهما: المواضع التي تطلب التستر وتلحقها الحرج في تسترها كالوجه واليدين، فأشار الله إلى قسمين بقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾، ثم بيَّن وأرشد أن مواضع الزينة سواء كانت ما ظهر كالوجه أو لم تكن ظاهرة بطبعها كالساقين يجوز أن تُظهِر للمحارم. وأشار إلى الأول بقوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، وإلى الثاني بقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ...﴾. فالحاصل أن المراد الظهور بين يدي المحارم، لا الأجانب.

وثالثًا: ما قاله المفسرون أن المراد مما ظَهَرَ في الصلاة، يعني كل بدنها عورة لا تُبديها إلَّا

---

(١) سنن الترمذي، رقم: ١٠٩٣.

ما ظهر منها في الصلاة، فإن الوجه والكفين والقدمين تظهر في الصلاة.

والأحناف قائلون بإباحة كشف الوجه واليدين بشرائط: الأول: عدم الفتنة، والثاني: عدم الاختلاط بالرجال، والثالث: عدم الخلوة، كما يفهم من كتب الفقه والحديث، فلا يباح في هذا الزمان زمان الفتنة.

فوائد الحجاب:

أما أولًا فقد بيَّنَّا أن المرأة مجبولة على الميل والرجحان لترتيب أمور البيت وتربية الأولاد وتحمُّل المشقة في ذلك. ومع ذلك لو كلَّفناها بالعمل خارج البيت وأخرجناها من البيت تكون كُلْفة ومشقة لا تكاد أن تحملها. فالأوفق بالفطرة أن تشتغل في البيت ولا تخرج منه.

وثانيًا أن في خروجها من البيت فتنة عظيمة، فإن المرأة فتنة إذا بدت في لباس بَرَّاق شفاف، وظهرت في ديباج واستبرق، وكحلت عينيها، وزيَّنت وجهها، تدع الناظرين من الفساق في حيرة، وترى الرجال في مثل هذا المجتَمع لا تقع سهام نظرهم إلا على جسم نظيف، وحسن لطيف، يهز الأرواح والأشباح. وتراهن في الأسواق متحلِّيات بالجمال، يتلألأن تلألؤ القمر، أو كالنور الزاهر. تجدهن مقبلاتٍ بأجياد بارعة، وخُصور دقيقة، وبياض مشوب بالحمرة، يتسَرْبَلْنَ بملاحة، ويتسَرْوَلْنَ بِتَبَخْتُرٍ وتمايل. فهل يقول أحد في الرُّبْع المَسكون أن نسوةً هذا شأنُهنَّ يستحققن الخروج من البيوتات إلى المَجامع والأسواق؟ كلا وحاشا! هل تظن أيها العاقل أن فيهن شائبة من الحياء، أو رائحة من الغيرة والفتوة؟ وهل أكرههنَّ الإسلام على الرقص في الاحتفالات، والتبرج في المُنتديات، وهل أرشدهن الدينُ إلى أن يصرن لُعبة للرجال، وذريعة للبياعات؟ فمن افترى على الله الكذب فأولئك هم الكافرون وأولئك هم الظالمون.

هذا كله من مَضَرَّات التبرُّج، والخروج إلى الأسواق والطُّرقات، والبروز في السِّكك والشوارع العامة. فالأمر بالقرار في الدار يوافق روح المُجتمع. وفيه سدٌّ لِباب الزنا، فإن مشي الفتيات من دواعي الزنا، فإذا اجتمع الفِتيان والفتيات في المكاتب والكليات بلا حجابٍ ولا مانعٍ مع وفور دواعي الشهوة، وتزيُّنها بأنواع الزينة يقضي العقل السليم بإيقاد نار الشهوة.

وكثيرًا ما تراهن تعتكفُ العيون على محراب جبينهن، وتتوجه الأنظار إلى قِبلة حسنهن. وبالآخر ينتج ما يَمُجُّه العقل، ويستنكره الشرع، وهو التلاقي بغير العقد الشرعي، والسِّفاح بدون النكاح.

وقد جاء في الإنجيل في العهد الجديد: «وأما أنا فأقول لكم: أن كل من ينظر إلى امرأة لِيشتهيها فقد زنى بها في قلبه، فإن كانت عينك اليمنى تُعْثِرُك فاقلعها وألقها عنك».[١]

أيها المسيحيون! إذا خرجت نساؤكم إلى الأسواق والمُجتمعات هل يمكن العمل على هذا الحكم؟ وظني أنهم لو عمِلوا بكلمة الإنجيل لتقلع أعين ألوف من المسيحيين كل يوم. فما ذا فتواكم في الناظرين المُتَمَتِّعِين كل حين بجمال النساء؟

شهادة المسيحيين على ضرورة الحجاب:

يتمنى أهل المَغرب ويتأسفون على حالهم في أمر الحجاب، ويتشوقون أن لو كانوا مغمورين في نعمة الحجاب. والشهادات في ذلك كثيرة. تقول الكاتبة الشهيدة «اني رورد» في مقالة نشرتها في جريدة «الاسترن ميل» في عدد ١٠ مايو ١٩٠١م: لأن تشتغل بناتُنا في البيوت خوادم أو كالخوادم خير وأخف بلاءً من اشتغالهن في المَعامل حيث تصبح البنت مُلَوَّثة بادرانٍ تذهب بِرونق حياتِها إلى الأبد. ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين، فيها الحِشْمَة والعَفاف والطهارة، رداء الخادمة والرقيق يتنعَّمان بأرغد عيش ويعامَلان تعامل البيت، ولا تمس الأعراض بسوء. نعم! إنه لعار على بلاد الإنجليز أن تجعل بناتها مُثُلًا للرزائل بكثرة مخالطة الرجال. فما بالنا لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل بما يوافق فِطرتَها الطبعية من القيام في البيت، وترك أعمال الرجال للرِّجال سلامةً لشرافتها.[٢]

ويقول «جرل سيمون» في مجلة من المَجلَّات الفرنسية: المرأة التي تشتغل خارجَ بيتها تؤدي عمل عامل بسيط، ولكنها لا تؤدي عمل امرأة. وإن شئت تفصيل هذه الشهادة فراجع «المرأة بين الفقه والقانون».

---

(١) متى ٥/ ٢٩.

(٢) المرأة بين الفقه والقانون، ص١٧٨.

وثالثًا من فوائد الحجاب: إن الله قسم الأعمال بين الصنفين، فالرجل مجبول على العمل والإنفاق على الأسرة، والمرأة بالحضانة وتنسيق أمور البيت، فلو اشتغلت في الأعمال لتعطل أمر البيت، وهذا قلب الموضوع، وتصير طالبة للوَظائف في المتاجر والدواوين، ويتعطل بذلك كثير من الرجال ويقعدون في البيت، وقد شهِد بذلك الأوربيون حامِلو عَلَم حرية النساء.

قال الدكتور مصطفى: ومثل ذلك يقع الآن في أمريكا، فقد أدَّتْ مزاحمةُ المرأة للرجل إلى بطالة معيشةٍ في الرجال تزداد يومًا بعد يوم.(١)

فاستخلص من هذا:

١- أن المرأة زينةُ البيت وجمال الأسرة، لا ينبغي لها أن تخرُج.

٢- ولو خرجت تخرج مُتَقَنِّعةً بالقِناع والحجاب.

٣- لا يمنعهن الإسلام من التعليم والدراسة، بل تدرُس كما ينبغي لها.

٤- ورخَّصتِ الشريعةُ خُروجَها للجهاد إذا احتيج إليها، فينبغي أن تستعدَّ للجهاد وتَتَهيَّأَ في حدود الشريعة الإسلامية.

٥- لا تُمنَع من العمل بل يفوَّض إليها ما يناسب شأنَها من تطبيب النساء والأطفال، وتعليمهن، وتأديبهن، والغزل، وتشغيل مَاكِينَة الخِياطة، وتطريز الثياب، وغسلها، وغيرها من الأعمال اللَّيِّنة السهلة. والله أعلم.

الجواب عن طعن المسيحي العنيد:

وما قال البادري بركة الله: «إن المرأة محل شهوة الرجل والحرث له، وهذه إهانة لها واستخفاف بها». فهذا عجيب منه، فإن الرجل والمرأة مطبوعان على الميلان والشَّبَقِ والشهوة، فكل منهما محل شهوة الآخر، وعيش كل واحد لا يَهنَأ إلا بالآخر، وكل منهما يسكن إلى الآخر، فقد جعل الله بينهما رحمة ومحبة وميلًا، حتى كأنهما صارا جسدًا واحدًا،

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون، ص١٩٣.

وإنهما للحياة كالعَجَلَتَين لا يمكن أن تتحرك الحياةُ بأحدهما بدون الآخر. ونقول لهذا السَّخيف: إن هذا طعن في قانون الفطرة؛ فإن الله عز وجل جعلها حرثًا للرجل، ولو لم يجعلها حرثًا لانْمحى عَبَدَةُ المسيح عن صفحة الأرض وانقطع نسلهم ولم يبق من بذرهم شيء. نعم! لو كان عندهم مصنع جديد لتوليد الأولاد لكان الأمر سهلًا. فوا أسفا على قوم جعلوا نساءهم آلات اللعب، يدفعونهن إلى مذالق الشهوة، ويجرونهن إلى مجالس الرقص والغناء والخمر، ثم يطعنون في الإسلام وتعاليمه، ولنعم ما قيل:

ہم آہ بھی کرتے ہیں تو ہو جاتے ہیں بدنام ۞ تم قتل بھی کرتے ہو تو چرچا نہیں ہوتا

معناه: تتشوه سمعتنا ولو تَأَوَّهْنَا، وأنت تقتل دون أن يتحدث به أحد. هذا من أعجب العجائب.

وقد طعن هذا المسحيُّ عدوُّ الله في نعيم الجنة، وافتراش النساء فيها، وغيرِه من النِّعم. وهذا طعن قديم لأسلافه، فهذه نَغمة قديمة تخرج من طنبورهم حينا بعد حين، فإن مذهبهم أن في الجنة نِعمًا روحانية، لا جسمانية، والذين يدخلونها يصيرون كالملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا يتزوجون. ودليلهم في ذلك ما ورد في إنجيل مرقس: «وجاء إليه قوم من الصدوقيين الذين يقولون: ليس قيامة، وسألوه قائلين: يا مُعَلِّمَ كُتُبِ موسى لنا! إن مات لأحد أخ وترك امرأة ومات ولم يترك نسلا، فأخذها الثاني ومات ولم يترك هو أيضًا نسلًا، وهكذا الثالث، فأخذها السبعة ولم يتركوا نسلًا، وآخر الكل ماتت المرأة أيضًا، ففي القيامة متى قاموا لمن منهم تكون زوجةً؟ لأنها كانت زوجة للسبعة؟ فأجاب يسوع وقال لهم: أليس لهذا تَضِلون إذ لا تعرفون الكتب، ولا قوة الله؛ لأنهم متى قاموا من الأموات لا يزوِّجون ولا يزوَّجون، بل يكونون كملائكة في السماوات».(١)

والقرآن ناطق بوجود الأزواج المطهرة، والحور العين، وظِلٍّ، وفواكه مما يشتهون، والنِّعم التي لا تزول في الجنة. ترى الكتاب المَجيد مملوءًا منها. فهذا الحكم الموجود في الإنجيل قد امتَدَّتْ إليه يد التحريف، إذ هو خبر لا يمكن نسخه. ووجود هذه النعم في الجنة

---

(١) مرقس ١٢/ ١٨-٢٦.

موافق للعقل، فإن هذه الأشياء نِعم في الدنيا، والله يعطي الأجر الذي يسرُّ به العبد في الآخرة ويرضى به، فإعطاؤها في الدنيا التي هي دار غرور وتكُّدرٍ ومنعُها في الدار الآخرة التي هي دار السرور والنعمة مما يَمُجُّه العقل السليم والطبع المستقيم. ونقول: العذاب عندكم في الجسم يدل عليه الإنجيل في مسئلة حرمة النظر إلى المرأة. قال: «فإن كانت عينك اليمى تُعْثِرك، فاقلعها وألقها عنك؛ لأنه خير لك أن يهلِك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك في جهنم».[1]

فلما كان العذاب في الجسم والروح، فالثواب والنعيم أيضًا يكون في الجسم، إذ هما أخوان. ولقد أشار كتاب الزبور إلى الجنة بقوله: «الصديقيون يرثون الأرض ويسكنونها إلى الأبد».[2] والسكون والبقاء إلى الأبد يكون في الجنة. وإلى هذا أشار القرآن الكريم بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥)، والمراد بالأرض أرض الجنة على قول، فتطابقت الآيتان.

وقد أبطل الشيخ الجزري في «أدلة اليقين» قولَهم، وأقدم لكم خلاصة ما أفاد، قال: على أنا لو قلنا: إن الناس يكونوا كالملائكة، فالملائكة مُستَوُون في الخلقة، فعلى هذا يكون الكافر مُساويًا بالمسلم، وإن علماء الأرواح أجمعوا على أن الروح المُجرَّدة عن المادة لا تعمل إلا إذا تعلق بالبدن. وأيضًا من المقرَّر أن الله يخاطب بحسَب عقول الناس، وهم يعرفون اللذة والألم بالجسد، فيخاطَبون بذلك، وأما إذا خُوطبوا بالأجر المجهول، فلا معنى له إلا تعطيل العمل.

وأيضًا نسأل هل يُبعث النوع الإنساني يوم القيامة، ولكن يُنْزَع منه الحِسُّ وما يتعلق به من دواعي اللذات، أو ينقرض النوع الإنساني في هذه الحياة الدنيا ويَبيد، وتبقى الأرواح كالملائكة؟ كلاهما باطل بالبداهة. أما الأول: فإنه مما لا ريب فيه أن فُقدان حواسِّ الإنسان نقص واضح في تكوينه، فإذا وُجد إنسان ليس فيه الحِسُّ، فهو إنسان ناقص. وإن كان الثاني فهذا إلغاء النوع الإنساني، لأنه ثبت أن الله ميَّز الإنسان من الحيوانات بالعقل، ومن الملائكة

(١) متى ٥/ ٢٩.

(٢) زبور ٣٧/ ٢٩.

بالشَّهوة، فالإنسان جامع بين العقل والشهوة، فإلغاؤها إلغاء النوع الإنساني، ولما كان أفضل أنواع المخلوقات، فلا يصح أن يُعدِمه الله كغيره من الحيوانات.[١]

ويترشح من مواضع عديدة من الكتاب المقدس وجود النِّعم الجسمانية في الجنة عند الله؛ فإن شرب العصير عند الله مذكور في الإصحاح السادس والعشرين من متى.[٢] وإذا ثبت عندهم أكلُ الله عزَّ وجل بعد ما تجسَّد في بطن مريم، فأي حرج في أكل عامة أفراد الإنسان؟ والإنسان في الجنة وإن كان كالملائكة، كما أجاب به المسيحُ، فهذا لا ينافي الأكل والشرب، فإن الملائكة يأكلون عندهم كما ينبئ عنه الآية الثامنة في الإصحاح الثاني عشر من التكوين «إن الملائكة جاءت إلى إبراهيم عليه السلام، فهَيَّأ لهم الطعامَ من العِجْل والحليب والزبد فأكلوا». كذا في الجواب الفسيح.

فنحن نعتقد أن الجنة محفوفة بالنِّعم الجسمانية والْمِنح البدنية. وإن الناس يسكنون فيها فَرِحين بها يَسْتَلِذُّونه ويستحلونه. وإن أجسامهم تكون إن شاء الله مغمورة في حلاوة ولذة ونعمة وعزة وشراب وطعام وعصير وبساتينَ وحورٍ وغلمان تَقَرُّ بها أعينهم، وتسر قلوبهم، لا تبلى أجسامهم، وتلمع قصورهم، وتَشِفُّ خيامهم.

والعبد الضعيف محتار في أن المسيحيين الذي جعلوا الدنيا أكبرَ همهم، ومتاعها إنسان عيونهم، ومرمى عقولهم، وفدَوها بدينهم وشريعتهم ونواميسهم، كيف ينكرون وجود النساء والنعم الجسمانية في الآخرة، ويشمئزُّون عما يكون ذريعة للقَرار والطُّمَأنينة والفرح والسكينة، إن هذا إلا عناد وخصومة، أو عمًى بأبصارهم وبصائرهم، فيتنفرون عما هو مقصود حياتهم، ولا أرى أن الجنة التي لا تكون فيها النساء اللاتي جعلهن الكتاب المقدس جزءَ جسمٍ يرتضيها المسيحيون من جذر قلوبهم، فإن أرواحهم ونفوسهم متعلقة بالنساء حبًّا واختلاطًا ومُغازلةً ومشيًا في الأسواق، فترى نساءَهم شريكات في جميع شؤونهم، فانظر -يا رعاك الله- إذا كان الله عزَّ وجل يمنح ويُكمِل ويتم جميع أماني الإنسان في الجنة، كيف لا

(١) أدلة اليقين، باب الجنة ونعيمها في نظر المبرزين.

(٢) وعبارة إنجيل متى هكذا: «أقول لكم لا أشرَب بعد اليوم من عصير الكَرمة هذا، حتى يجيء يوم فيه أشربه معكم جديدًا في ملكوت أبي».(متى ٢٦/ ٢٩).

يمنحه هذه النعمة العظمى والأُمْنِيَّةَ الكبرى.

ربَّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

دسائس المسيحيين للمسلمين وعُطوفة المسلمين بهم:

قد مر منا في أوائل المقالة أن الجنود الإنجليز لما سَيْطروا على أرض الهند أخذوا في تبديل دين المسلمين. ونحن نذكِّر لِـمُدَّعي المصلحة والرقة والأمن ما فعلوا بالمسلمين حينما تسلَّطوا وسَيْطروا على أرض الهند. وإليك أنموذجًا منه: لما اجتمع المسلمون ضِدَّ الإنجليز وجعلوا قائدَهم سراج الدين بهادر شاه، وتغلب عليهم جنود الإنجليز لأسباب لا حاجة إلى ذكرها، ظلموا أهل الهند، خصوصًا المسلمين منهم؛ لما علموا أن الحظ الكبير في هذا لهم؛ لأنهم يعتقدون الجهاد فرضًا دينيًّا، فقتلوا بعد إعطاء الأمان ثلاثةً من أبناء الملوك، وثلاثة وعشرين من أسرته، وطردوا المَلِكَ إلى بلدة رنكون، وصارت البلدة خاوية لا ترى فيها إلا قتلى وصرعى أمواتًا وشهداء، كما ساقه الشيخ أبو الحسن علي الندوي بتفصيله، وسَرَده السيدُ طفيل أحمد في كتابه «*روشن مستقبل*» «المستقبل الزاهر» بلفظ –تعريبه–: أنهم اعلنوا بعد ما تسلَّطوا: لقد استخففنا بقاطني الهند، ونسخنا قانون إرثهم، وبدَّلنا أصول نكاحهم، ومحونا عاداتهم، وغصبنا أراضيَهم، وكفَّرناهم في القانون الرسمي. إلى آخر ما قال.[1]

وانظر إلى ما قال ضابط منهم: قتلنا ألوفًا من أهل القرى غيرَ آثمين، وصلبناهم، وعلَّقناهم بالأشجار من أنباله إلى دهلي، وثُقِبَتْ أجسامُهم ونُحِتتْ بالصنجات، وألقموا الهنودَ من أهل الهند لحومَ البقرات. وقال طاس: عُريَّ بعض مسلمي الهند، ثم طُرِحوا على الأرض مربوطين مشدودين، ثم كُوِيت أجسادهم وأبدانهم بالرصاص المُذاب، وضيَّقوا عليهم أرضًا وسعها الله عليهم، وخِيْطوا في جلود الخِنْزير. فانظر إلى هذا الظلم الذي يصمُّ الآذانَ ويستوحش من استماعه الأسماع ويرتعد من تصوُّره الفرائصُ ويرتعش منه الأعضاء. ثم قابِلْ ضَيْمَهم واعتداءهم برحم المسلمين وعَطفهم وإشفاقهم شفقةً كبيرةً. أقدِّم منه واقعةً ذكرها محمد علي:

---

(١) *روشن مستقبل*، ص٦٨.

«لما استرجع السلطان صلاح الدين البيت المقدس ٥٨٣هـ أُسِرَ من الصليبين مئة ألف، منهم ستون ألف راجل وفارس سوى من تَبِعهم من النساء والأطفال فأبقى صلاح الدين على حياتهم، واستوصى بهم خيرًا، واكتفى بأن ضرب على كل واحد منهم عشرةَ دنانير، وعلى كل امرأة خمسةً، وعلى كل طفلٍ دينارين. وعجز بعضهم عن دفع الفدية فأدَّى أخو صلاح الدين عن ألفين منهم، واقتدى به صلاح الدين فعفى عن كثير منهم، وعامل نساء الإفرنج مُعامَلة لُطف، وسهَّل سبيل الخروج لملكتين عظيمتين بما معهما من جواهر وأموال وخدم، ورخَّص للبطريك الأكبر وعالمهم الكبير أن يسيرَ آمنا بأموال البيع وذخائر الجوامع. ولما قال المسلمون لصلاح الدين: إن هذا البطريك يقوَى بها أخذ على حرب المسلمين. قال: لا أغدر به. ولم يأخذ منه إلا عشرة دنانير. ولما أخذ مَلِك الإنجليز ألفين وسبع مئة من أسرى المسلمين قتلهم بمرآى من عساكر صلاح الدين، وبَقَرَ عسكرُه بطونَ المقتولين ليروا إن كان فيها شيء من الجواهر والذهب».(١)

---

(١) الإسلام والحضارة العربية بحذف وتغير، لمحمد علي، ص٢٩٨.

كلمة الختام

وأخيرًا، فهذا سعيٌ حثيث وجُهد ضئيل، وإن شئتَ فقل: هو خوض البحر ممن لا يعرف السِّباحة. قدَّمته إلى الناظرين العافين عن زلاتي وعثراتي، السادلين على معايب كلامي ستور الصفح الجميل. وها أنا معترف من صميم القلب وأعماق الصدر بأمرين، أريد أن أُبديهما لحضراتكم:

أحدهما: أني لست من فُرسان هذا الميدان، وليس لي في هذا المِضمار يدان، وأنا رثيث علمًا، متأخر عملًا وحفظًا، كسيرُ البال، كثير البلبال. لست ممن يَجُوب هذه المَهامِهَ، والجبال الشامخات، ليس عندي قلم الفصحاء الكتَّاب، ولا علم العلماء الذين يَدقُّون كل باب. فإن عدَّني الناظرون في عِدَاد الطلبة، وستروا عيوبي بطيلسان العفو، وقدروا جهدي وانكماشي، فوا فرحاه! وهذا غاية المأمول، ونهاية المطلوب، ولنعم ما قيل:

وعينُ الرِّضا عن كل عيب كليلةٌ ۞ ولكن عينَ السُّخط تبدي المَساوِيا(١)

على أن حَظًّا كبيرًا مما نمقتُ محكيٌّ عن كلمات أكابر الملة، وجهابذة الأمة، ونفثات صدورهم، فأنا أَقِرُّ على رؤوس الأشهاد، وأعلن في كل محفل وناد: إن من أمارات الساعة أن يرقُص القلم في كف أمثالي، ويدور اليَرَاعُ على مدار أناملنا، ويحق لي أن أتمثل بقول الشاعر الهندي الدكتور محمد إقبال المغفور له بأدنى تغير لحكمة يعرفها اللبيب:

خدا کی شان ہے وہ لوگ رکن محفل ہیں ۞ کہ جن کو دور کی نسبت نہیں ہے محفل سے

معناه: أتعجب من الذين هم أعضاء الحفل، وليس لهم أيّ علاقة ومناسبة بالحفلة.

ثم أترنَّم بشعر أفضل شعراء المتأخرين المُتنبي حيث قال:

إن السِّلاح جميع الناس تحمِله ۞ وليس كل ذوات المِخْلبِ السَّبُع

ثم أُنشد بأعلى صوت:

وما كل مخضوب البَنان بُثَيْنَةٌ ۞ وماكل مَصْقولُ الحديد يَمَان

---

(١) البيت للإمام الشافعي رحمه الله تعالى. انظر: ديوانه، ص١٢٢.

والثاني: إني لم أقض حق مقالتي التي أُلقِيت على كاهلي، فكنت أردت، بل عزمتُ عزمًا وكيدًا أن أوشحها بلآلئ المقارنة في البياعات، وأحليها بمقارنة المعاملات الرائجة في الفريقين: الملة المسلمة والمسيحية، وأُحَبِّرها بالتباين بين المعاشرتين كتباين الأرض والسماء. وإن شئت فقل: بين الثَّرى والثُّريّا. بيد أني لم يتيسر لي هذا العمل لتراكم الأسقام، وقلة الفرص، وفقد الكتب التي تُنجِد في هذا الموضوع، بل أقول كما قلت في أوائل المقالة من غير خوف لومة لائم: إن ما يوجَد في هذا الموضوع من الكتب في اللغة الإنكليزية البليغة التي هي بعيدة عن متناوَلنا، ولا حظ لنا منها إلا حظ قطرة من البحر المَوَّاج تعلقت بِمِنقار عصفور في قصة سفينة خضر. والأمر بيد الله وهو العزيز الحكيم. ولا عليَّ أن أُضمِّنَ مصراع شاعر وهو نار على عَلَم، وأشهر من قِفَا نَبْكِ.

فلم أَستطع حتى تراخت عزيمتي ❁ وكم حسرات في بطون المقابر

ثم إني أرجو رَجاء قويًّا من فضل الله سبحانه وتعالى وإنعامه أن يجعل طَلِّي وابِلًا غزيرًا وأن يوفقني لإتمام مُنيتي، وإكمال بُغيتي على أكمل وجه وأحسنه، فيراها الناظرون متحليةً بِحُلي البَياعات متقلدةً بقِلادة أزهار ما طويتُ في نيتي، وما يخطر بالبال ويدورُ. فبيد الله أزمة جميع الأمور، فنكِلُ أمرنا إليه، ونرجوه الإكمال، وإن كان على ممر الدهور، نسأله أن يرحمنا في الدين والدنيا والآخرة، ولا يعذِّبنا بعد ما يُخفينا الترابُ في زوايا القبور. ومما قلت في مقالتي التي بين يديك متعجلا من غير إعماق فكرٍ ورَوِيَّة، قال الشاعر:

إذا استحسنتَ شيئا من كلامي ❁ فمأخوذ من آراء الفحول
وإن وافيتَ نقصًا أيَّ نقص ❁ فمنسوب إلى العبد الجهول
فجُهدي فيه أني قد نظمت ❁ وسقت إليك من غرر النقول
و إن ينفعُكَ فادع الله ربي ❁ يكن ذُخرًا وأجرًا للذَّلول
ترى فيها عيوبًا في عيوب ❁ فسامِحْ عنه بالصفح الجميل
فأهلُ الله دَيْدَنُهم جميعًا ❁ تسابقهم إلى العفو الجزيل

وأسأل الله إله العالَمِين أن يجعلَها خالصةً لوجهه الكريم، وذريعة لخدمة الدين القويم، وهِداية للمتحيِّرين الضالين. ومنَهلًا عَذْبًا للواردين الصادين، وروضًا آنفًا للمتنزهين،

ومِسكًا فائحًا وروحًا وريحانًا تَعْبَقُ منها الفوائح إلى أذهان الطالبين، ومعاطس المسترشدين.

اللهم إنك عزيز مقتدر، ما تشاء من أمرٍ يكون، تقَبَّلْ مني هذه الكلمات، بل الكليمات الرخيصة الضئيلة. وحق لي أن أقول كما قال إخوة يوسف على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (يوسف: ٨٨)

وصلَّى الله على أشرف خلقه، وسيِّد أنبيائه، وخاتَم رُسله محمَّد، وآله، وأصحابه أجمعين. آمين.

الفقير إليه تعالى:

رضاء الحق عفا الله عنه وعن والديه

وغفر ذنوبه وستر عيوبه، وكان له في الدنيا والآخرة

يقول الفقير إلى الله تعالى رضاء الحق عفا الله عنه:

فرغتُ بحمد الله تعالى وعونه من كتابة هذا البحث سنة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م في جامعة العلوم الإسلامية، علامة بنوري تاؤن، كراتشي. ثم شُغِلتُ عن إعادة النظر فيه وتقديمه إلى المطبعة باشتغالي بالتدريس والإفتاء في جامعة العلوم الإسلامية، وبعدها في دار العلوم زكريا. ثم أسعدني الله بإعادة النظر فيه في ربيع الثاني ١٤٢٩/ إبريل ٢٠٠٨م. ثم نظرت فيه مرة ثالثةً في شهر ربيع الأول سنة ١٤٣٢/ فبراير ٢٠١١م، فقوبلت النصوص بالأصل المنقول منه حينما ظُفِر به، وقد فرغت من خدمته نِهائيا وتَهيئتِه للطبع في ٢٥ربيع الأول سنة ١٤٣٢/ ١مارس ٢٠١١م.

وفي الختام أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يُجزِل النفع به ويتقبَّله مني. وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب. وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه وتابعيهم أجمعين.

وأن يجزي الخير من كتب هذه المقالة بالكمبيوتر وقابل النصوص بالأصول: الشيخ الأخ محمد عثمان البستوي -ناظم المكتبة-، والأخ محمد أويس بن يعقوب حفظهما الله تعالى ورعاهما.

الربا في الديانة المسيحية والإسلام

تحريم الربا في الديانة المسيحية:

جاء في سِفر الخروج: «إن أقرضتَ مالًا لمسكين من شعبي، فلا تُعامِله كالمُرابي، ولا تُقرِض عليه رِبًا». (الخروج ٢٢/ ٢٤).

وفي سِفر اللاوين: «إذا افتقَر إسرائيليٌّ عندك وقصُرَت يدُه عن العيش، فأعِنْهُ وليَعِشْ معك كغريبٍ ومقيمٍ لا تأخُذ منه رِبًا ولا رِبحًا، بل اتق إلهك فيعيش معك. لا تُقرِضه مالك بربًا، ولا تُطعِمه برِبحٍ». (اللاوين ٢٥/ ٣٥-٣٧)

وفي سفر التثنية: «لا تُقرِضوا إخوتَكم من بني قومِكم بربًا يدفعونه إليكم فضةً أو طعامًا، أو أي شيءٍ آخر مما يُقرَض بالرِّبا، بل أقرِضوا الغريبَ بالربَا، ولا تُقرضِوا إخوتَكم من بني قومكم». (التثنية ٢٣/ ٢٠).

هذه النصوص تؤكد حرمة التعامل لليهود بالربا مع يهودي مثله، سواء كان ربا نقدا أو ربا طعام، والنص الثالث يبيح لليهودي أن يأكل الربا إذا كان المقترض غير يهودي.

وفي مزامير داود في وصفه لمن سيدخل الجنة: «يا رب من يُجاوِر مسكَنك؟ ومن يُسكِن في جبلك المقدَّس؟ هو الذي يسلُك بنَزاهة، ويصدُق في جميع أعماله، ...، لا يعطي ماله بالربا، ولا يقبل الرشوَةَ على البريءِ، من يعمل بهذا كله لا يتزعزع أبدًا». (مزامير ١٥/ ١-٥).

وفي الأمثال المنسوبة لسليمان عليه السلام: «مَن يجمع مالَه بالربا الزائد، فلِمَن يَحِنُّ على الفقراء جمعَه». (أمثال ٢٨/ ٨).

وفي سفر حزقيال: «ويُقرِض ماله بالربا، أفيحيا، بل يموت؛ لأنه فعل جميع تلك الأرجاس ويكون دمُه عليه». (حزقيال ١٨/ ١٣).

وكذا جاء التوبيخ عن أخذ الربا في سفر نحميا (٥/ ٧)، وفي سفر حزقيال (٢٢/ ١٢) و(١٨/ ٨).

هذه نصوص الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى والكتب التي وردت فيها هذه النصوص من العهد القديم حرَّمت الربا على الإطلاق.

وفي إنجيل لوقا أوصى المسيح أتباعه بالإحسان المجرد البعدي عن الغرض (القرض الحسن)، قال: «وإن أقرَضتم مَن ترجُون أن تستَرِدُّوا منهم قرضَكم، فأيُّ فضلٍ لكم؟ لأن الخاطِئِين أنفسَهم يُقرِضون الخاطئِينَ لِيستردُّوا قرضَهم، ولكن أحِبُّوا أعداءَكم، أحسِنوا وأقرِضوا غيرَ راجين شيئًا، فيكون أجرُكم عظيمًا». (لوقا: ٦/ ٣٤-٣٥).

ويعلِّم المسيح أتباعَه أن لا يردُّوا من يطلب منهم الاقتراض، قال: «من سألك فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده». (متى ٥/ ٤٢).

وقال القِدِّيس غريغوار دو نازيانز Gregoire de Nazianze (٣٢٩-٣٨٩م): الربا كجريمة من الجرائم التي تدنس الكنيسة وتلقى الناس في العذاب الخالد. ويلوم «من أفسد الأرض ولوثها بالربا والفائدة، يجمع من حيث لم يبذر، ويحصد من حيث لم يزرع، ويستمد يسره وثراءه ليس من زراعة الأرض، ولكن من عوز الفقراء ومجاعتهم». (مصرف التنمية الإسلامي أو محاولة جديدة في الربا والفائدة والبنك، للدكتور رفيق المصري، ص٩٧، ط: مؤسسة الرسالة).

وقال القِدِّيس غريغوار: «فليعلم من يقرِض بربا أنه يزيد عوز مدينه بدلًا من أن يخفف منه». (مصرف التنمية الإسلامي، ص٩٩).

وقال القدِّيس جان كرزوستوم Saint Jean Chrysostome (٣٤٤-٤٠٧م) : «في النقد الحساس حرم الله أكل الفوائد لأي سبب، ولماذا؛ لأن كل واحد من المتعاقدين يتضرَّر بذلك ضررًا كبيرًا، ففي حين أن فقر أحدهم يشتدُّ، فإن الآخر يكسب عددًا من الخطايا يزداد بزيادة ثروته». (مصرف التنمية الإسلامي، ص١٠٠)

وقال القديس آمبرواز Saint Ambroise: «من أخذ من الغير شيئًا ما على سبيل الربا فقد ارتكب إثمًا لا يتناسب إلا مع النفوس المنحطة والخسيسة. ومن أضر الغير لينتفع هو فقد خالف الفطرة». (مصرف التنمية الإسلامي، ص١٠١).

وقال القديس جيروم Saint Jerome (٣٤٤-٤٢٠م): «يرى بعضهم أن الربا لا يكون إلا في النقد، وإذ ينبئ الكتاب المقدس بوقوع هذه الخطيئة يحرم الزيادة في أي شيء كان، حتى لا يأخذ أحدهم أبدًا أكثر مما أعطى. ففي الريف يمارس الربا في القمح والذرة، وفي الخمر والزيت، وسائر الأطعمة والأرزاق. هذا هو الربا الذي يسميه الكتاب زيادة». (مصرف التنمية الإسلامي، ص١٠١).

تحريم الربا في الإسلام:

الربا لغة: الزيادة. ومنه قوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ (النحل: ٩٢)، أي: أكثر عددًا. وقال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ (الحج: ٥)، أي: زادت. فمعنى الربا تتضمن الزيادة.

وأما معناه الشرعي، فهو: «فضل خال عن عوض، بمعيار شرعي، مشروط لأحد المتعاقدين في المعاوضة». (تنوير الأبصار مع الدر المختار)

هذا التعريف عند الحنفية، وقد اختلف الفقهاء في تعريفه، تبعًا لاختلافهم في علته.

لم يكن تحريم الربا في الإسلام مفاجأة على دفعة واحدة، ولكنه كان تدريجًا على مراحل أربع، كما حصل بالنسبة لتحريم الخمر.(١)

---

(١) جاء تحريم الخمر في القرآن الكريم في أربعة مراحل:

المرحلة الأولى: قال الله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ (النحل: ٦٧) في هذه الآية أومأ برفق إلى أن ما يتَّخذ سكرًا ليس من الرزق الحسن.

المرحلة الثانية: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء: ٤٣) في هذه الآية قد انتزع الله تعالى من نفوس الكثيرين حب الخمر، وجعل التقرب إلى الله الأسمى والأعظم بالنسة لهم، بعيدًا عن حب الشهوات والملذات.

المرحلة الثالثة: قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ (البقرة: ٢١٩) جاء في هذه الآية بأن شرب الخمر إثم كبير، لكن لم يأت تحريم الخمر في تصريح. والمراد بالإثم الضرر، لا المعصية. أو هو سبب الإثم بالتضارب والمقاتلة فيما بين الناس.

المرحلة الرابعة: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ (المائدة) في هذه الآية جاء تحريم الخمر، حيث أمر الله عباده بالتخلي عن الأشياء المفسدة لعقولهم، ويحثهم على بغض بعضهم البعض والصد عن العبادات.

مراحل تحريم الربا في الإسلام:

جاء تحريم الربا في القرآن الكريم في أربعة مراحل، وكان أول مرحلة منها وحيا مكيًّا، والثلاثة الباقية مدنية:

المرحلة الأولى:

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ (الروم: ٣٩)

هذه الآية من سورة الروم، وهي مكية باتفاق المفسرين. والمشهور أن الربا لم يحرَّم إلا في المدينة؛ لذلك ذهب المفسرون من أن المراد بالربا في هذه الآية الهديةُ التي تعطى لشخص ليردَّ إليه أكثر منها، فهذا لا ثواب له عند الله، وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه، إلا أنه قد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة، قاله الضحاك، واستدل بقوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ (المدثر: ٦) أي: لا تعط العطاء تريد أكثر منه. (تفسير ابن كثير ٦/ ٣١٨)

والواقع أن هذه الآية هي موعظة سلبية لإيقاظ النفوس المؤمنة لترك الربا، وليس فيها تحريم صريح. بين الله فيه أن الربا لا خير فيه وأن الزكاة كلها خير. نزلت هذه الآية لتمس موضوع الربا مسًّا خفيًّا لا يصل إلى درجة التحريم.

وممن ذهب من المفسرين بأن المراد بالربا في هذه الآية معناه المشهور عند العرب أبو بكر الجصاص، فقد قال عند تفسير آيات الربا: «والربا الذي كانت العرب تعرفه وتفعله إنما كان قرض الدراهم والدنانير إلى أجَلٍ بزيادةٍ على مقدار ما اُستُقرِض على ما يتراضَون به، ولم يكونوا يعرفون البيعَ بالنقد إذا كان متفاضلا من جنس واحد، هذا كان المتعارف المشهور بينهم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾، فأخبر أن تلك الزيادة المشروطة إنما كانت ربا في المال العين؛ لأنه لا عوض لها من جهة المُقرِض». (أحكام القرآن للجصاص ٢/ ١٨٤).

وقال العلامة الآلوسي: «الظاهر أنه أريد به الزيادة المعروفة في المعاملة التي حرمها الشارع، إليه ذهب الجبائي، وروي ذلك عن الحسن، ويشهد له ما روي عن السدي من أن الآية نزلت في ربا ثقيف كانوا يربون، وكذا كانت قريش». (روح المعاني ١١/ ٤٥).

المرحلة الثانية:

قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ (النساء).

في هذه الآية درس وعبرة قصَّها الله علينا من سيرة اليهود، الذين حرِّم عليهم الربا فأكلوه، وعاقبهم الله بمعصيتهم. فالقرآن لم يوجه الخطاب فيها مباشرة للمؤمنين بالأمر بتركه، إلا أن فيها تلميحًا بأن الربا سيحرَّم على المسلمين، كما حرِّم على اليهود، وأنه غير مرغوب فيه.

ففي هذه الآية تحريم الربا بالتلويح، والتعريض، لا بالنص الصريح.

المرحلة الثالثة:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ (آل عمران)

قال الإمام الرازي في «تفسيره» للآية: «كان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان مئة درهم إلى أجل، فإذا جاء الأجل ولم يكن المديون واجدًا لذلك المال، قال: زِدْ في المال حتى أزيد في الأجَل، فربَّما جعله مئتين، ثم إذا حل الأجل الثاني فعل مثل ذلك، ثم إلى آجال كثيرة، فيأخذ بسبب تلك المئة أضعافها، فهذا هو المراد من قوله: ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾». (تفسير الرازي ٩/ ٣٦٣).

ومثله قال القرطبي، والآلوسي، والزمخشري، وابن كثير في تفاسيرهم في تفسير هذه الآية.

وكان أبو حنيفة رحمه اللهَّ يقول: «هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه». (الكشاف ١/ ٤١٤).

قال بعض العلماء: هذه الآية شملت أيضًا تحريم القليل والكثير، وقالوا: إنما ذكر التضعيف لبيان الحال الذي كانوا عليه وتوبيخًا لهم، وأن الآية ليست مقتصرة على الأضعاف المضاعفة. قال الزمخشري في «الكشاف» (١/ ٤١٤): «نهى عن الربا مع توبيخ بما

كانوا عليه من تضعيفه».

وقال بعض العلماء: المراد بالآية تحريم التضعيف، كما أفادت بمنطوقها التصريح تحريمَ أكل الربا أضعافًا مضاعفةً، وهو تضعيف الربا بعد حلول الأجل.

قال الشيخ رشيد رضا: «هذه أول آية نزلت في تحريم الربا، فهو تحريم لربا مخصوص بهذا القيد، وهو المشهور عندهم». (تفسير المنار ٣/ ٩٥).

وقال ابن عاشور: «إنها أول آية نزلت في تحريم الربا، وجاءت بعدها آية البقرة، لأن صيغة هذه الآية تناسب ابتداء التشريع، وصيغة آية البقرة تدل على أن الحكم قد تقرَّر، ولذلك ذكر في تلك الآية العذاب المستمر على أكل الربا. وذكر غرور من ظن الربا مثل البيع». (التحرير والتنوير ٤/ ٨٦).

ومما يدل على أن هذه الآية نهت عن التضعيف، ولم تشمل النهي عن القليل والكثير، أن سبحانه وتعالى لم يطالب المسلمينَ الذين أكلوا الربا بعد نزول ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ برد ما أخذوه من ربا، لعدم شمولها للنهي عن أكل الربا، بل قال تعالى: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ (البقرة: ٢٧٥)

وقال بعض العلماء: النهي عن أكل الربا أضعافًا مضاعفةً نهي عن مطلق الربا، وقوله: ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ لزيادة التقبيح، أي: أيها المعرضون عن الرحم، البعيدون عن الرقة واللطف، أنتم تأخذون الربا ثم تضاعفونه! فهذا أقبح. وهذا مثل: «لا تشتم في المسجد»، أو «لا تسب وأنت عالم»، فقوله «في المسجد»، «وأنت عالم» لزيادة التقبيح، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ (النور: ٣٣)، أي: إكراههن على الزنا عند إرادة التحصن أقبح وأشنع.

المرحلة الرابعة:

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ (البقرة)

هذه الآية هي التي حرمت أصل الربا قليله وكثيره. أخبر الله تعالى بأن الربا محرم. والوعيد الشديد المذكور في الآية يدل على حرمته، وعلى كونه كبيرة من الكبائر، وقد ذكرت الآية بأن آكل الربا يقوم من قبره مجنونًا، كالذي يتخبطه الشيطان من المس.

ويؤكد تحريم القليل والكثير ما نزل بعد هذه الآية، وهي آخر الآيات نزولًا في الربا وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۝٢٧٩﴾ (البقرة)

هذه الآيات شاملة لكل ربا، المضاعف وغير المضاعف، القليل والكثير. وبهذا يتضح أن الربا محرم المضاعف منه وغير المضاعف، قليله وكثيره بالإجماع.

والآية المذكورة فيها وعيد شديد لمن يتعامل بالربا ولم يكف عنه، وهذا الوعيد هو الحرب من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا الوعيد الشديد يدل على حرمة الربا، وعلى كونه كبيرة من الكبائر، إذ لا وعيد شرعا إلا على كبيرة.(١)

حرمة الربا في السنة:

عن جابر، قال: «لعَن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكِل الربا، ومُؤكِلَه، وكاتِبه، وشاهدَيه». (صحيح مسلم، رقم:١٥٩٨).

واللعن يدل على أن المنهي عنه محرمًا شرعًا، وأنه كبيرة من كبائر الذنوب.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات». (صحيح البخاري، رقم:٢٧٦٦).

أمر النبي صلى الله عليه وسلم باجتناب الربا وعدَّه من المهلكات، واقترنه بالشرك والسحر وقتل النفس التي حرم الله بغير حق وأكل مال اليتيم ؛ وكل هذا يدل على أنه حرام، وأنه من الكبائر.

---

(١) للتفصيل راجع: تحريم الربا في الإسلام والديانتين اليهودية والمسيحية، للدكتور محمد رامز عبد الفتاح العزيزي، ط: دار الفرقان، عمان. وذكر الشيخ وهبة الزحيلي مراحل تحريم الربا والخمر بالاختصار في تفسيره (٣/ ٩١-٩٢).

وقد أجمعت الأمة سلفًا وخلفًا على تحريم الربا سواء كان قليلًا أو كثيرًا، ربا فضل أو نسيئة، وقد نقل إلينا هذا الإجماع كثير من العلماء. قال النووي: «أجمع المسلمون على تحريم الربا وعلى أنه من الكبائر، وقيل: إنه كان محرما في جميع الشرائع، وممن حكاه الماوردي». (المجموع ٩/ ٣٩١).

والربا القرآني حرمةُ زيادة الدراهم والدنانير بزيادة الأجل، والربا الحديثي حرمةُ التفاضل فيما بين الشيئين إذا كانا من جنس واحد. وعلة حرمة الربا عند الأحناف القدر، أي: الكيل والوزون مع الجنس، فيجوز التفاضل في العدديات كالبيضة بالبيضتين. وعلة حرمة الربا عند الشافعية الطعم في المطعومات والثمن في الثمنيات أي الدراهم والدنانير، فيجوز عندهم في كيس من الجص بكيسين منه لكونه غير مطعوم ولا ثمن. وعلة حرمة الربا عند المالكيية الثمنيةُ، أو القوتُ مع الادخار ، فيجوز الربا عند ه في الخضراوات التي تفسد عاجلًا في خارج الثلاجة. (الفقه الإسلامي وأدلته ٤/ ٦٦٨-٦٨٨).

حكمة في تحريم الربا:

إن الله تعالى نهى عنه دون أن يكلفنا البحث عن حكمة تحريمه، إلا أن أفعاله تعالى لا تخلو من الحِكم، وأوامره ونواهيه مليئة بالأسرار والعبر.

ذكر الإمام الرازي بعض حكم تحريم الربا، فقال: «ذكروا في سبب تحريم الربا وجوهًا:

أحدها: الربا يقتضي أخذ مال الإنسان من غير عوض، لأن من يبيع الدرهم بالدرهمين نقدًا أو نسيئةً فيحصل له زيادة درهم من غير عوض، ومال الإنسان متعلق حاجته، وله حرمة عظيمة، قال صلى الله عليه وسلم: «حرمة مال الإنسان كحرمة دمه»، فوجب أن يكون أخذ ماله من غير عوض محرمًا.

ثم قال: وثانيها: قال بعضهم: الله تعالى إنما حرم الربا من حيث إنه يمنع الناس عن الاشتغال بالمكاسب، وذلك لأن صاحب الدرهم إذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد نقدًا كان أو نسيئة خف عليه اكتساب وجه المعيشة، فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والتجارة والصناعات الشاقة، وذلك يفضي إلى انقطاع منافع الخلق، ومن المعلوم أن

مصالح العالم لا تنتظم إلا بالتجارات والحِرَف والصناعات والعمارات.

وثالثها: قيل: السبب في تحريم عقد الربا، أنه يفضي إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض، لأن المعروف إقراض الفقير الدراهم واسترجاع مثله فقط. ولو حل الربا لكانت حاجة المحتاج تحمله على أخذ الدرهم بدرهمين، فيفضي ذلك إلى انقطاع المواساة والمعروف والإحسان.

ورابعها: هو أن الغالب أن المقرض يكون غنيا، والمستقرض يكون فقيرًا، فالقول بتجويز عقد الربا تمكين للغني من أن يأخذ من الفقير الضعيف مالًا زائدًا، وذلك غير جائز برحمة الرحيم». (تفسير الرازي ٧/ ٧٥).

أضرار الربا، وأخطاره ومفاسده علاوة على ما ذكرنا من قبلُ:

لا شك أن للربا أضرار جسيمة، وعواقب وخيمة على الفرد والجماعة الذين يشتَرِكون فيها. وهو كسبٌ خبيث محرَّم مشؤوم، وسُحْتٌ لا خيرَ فيه، ولا بركة منه، بل يجلب الضَّرر والنقيصة في الدِّين والدنيا، والحاضر والمستقبل. والدين الإسلامي لم يأمر البشرية بشيء إلا وفيه سعادتها، وعزها في الدنيا والآخرة، ولم ينهها عن شيء إلا وفيه شقاوتها، وخسارتها في الدنيا والآخرة. وللربا أضرار عديدة دينية ودنيوية.

أضرار الربا الدينية:

١- الربا معصيةٌ لله ورسوله:

إن الذي يعامل بالربا أو يُعِين عليه يُخالِف ما جاء عن الله ورسوله بخصوصه، وقد قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور: ٦٣)

٢- الربا من معاملات اليهود والمشركين:

اليهود يتعاملون بالربا، حتى كان أكلهم له سببًا من أسباب عقوبتهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ (النساء)

وكان من أعظم أمور الجاهلية وتعاملاتهم المالية ممارسة الربا، وكسب الأموال عن طريقه؛ ولذا أعلن النبي صلى الله عليه وسلم إلغاءَه في حجة الودع، فقال: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع». ثم قال: «وربا الجاهلية موضوع، وأول ربًا أضع ربانا: ربَا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله». (صحيح مسلم، رقم:١٢١٨).

٣- لا يقبل الصدقة من الربا:

الربا كسبٌ خبيثٌ، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ (البقرة: ٢٦٧)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله طيب لا يَقبَل إلا طيبًا». (صحيح مسلم، رقم: ١٠١٥).

٤- لا يستجاب دعاءُ آكل الربا:

في الحديث الصحيح أنَّه صلى الله عليه وسلم: «ذكَر الرجل يُطِيل السفر، أشعَث أغبَر، يمدُّ يدَيْه إلى السماء، يا رب يا رب، ومَطعَمه حرامٌ، ومَشرَبه حَرام، ومَلبَسه حَرامٌ، وغُذِيَ بالحرام، فأنَّى يُستَجاب لذلك». (صحيح مسلم، رقم:١٠١٥).

ورُوِي عنه صلى الله عليه وسلم أنَّه قال لسعدٍ - وقد سألَه أنْ يدعو الله له أنْ يكون مستجاب الدعاء: «أطِبْ مَطعَمك، تكنْ مُستَجاب الدعوة».(المعجم الأوسط، رقم:٦٤٩٥).

٥- الربا فيه كفران لنعمة المال:

لم يكتف المتعامل بالربا بما رزقه الله من مال، ولم يشكر نعمة الله تعالى به عليه؛ فأراد الزيادة ولو كانت إثما، فكان كفورًا لنعمة ربه عليه، فمآل ماله إلى المحق ونزع البركة، كما قال تعالى: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (البقرة: ٢٧٦)

قال الحافظ ابن كثير: «المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من التكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل». (تفسير ابن كثير، البقرة:٢٧٨).

٦- الربا مخلٌّ بالإيمان:

كل معصية تخل بإيمان العبد، وعلى قدر المعصية يكون اختلال الإيمان. وقد قال تعالى

في شأن الربا: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٧٨)

قال الإمام أبو الحسن الحرالي: «فبين أن الربا والإيمان لا يجتمعان».(نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤/ ١٣٩. تفسير القاسمي ٢/ ٢٣٠).

٧- الربا أعظم إثما من الزنا:

ورد في السنة النبوة أحاديث كشفت حقيقة جريمة الربا النكراء وأبانت بشاعتها وقبحها بما يردع كل مؤمن بالله تعالى عن مقاربتها بله مقارفتها، ومنها: ما روى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الربا ثلاثة وسبعون بابا، أيسرُها مثل أن ينكح الرجل أمه». (المستدرك للحاكم، رقم:٢٢٥٩، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي).

ومنها: ما رواه عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم، أشد من ستة وثلاثين زنية». (مسند أحمد، رقم:٢١٩٥٧. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١١٧: رواه أحمد، والطبراني في الكبير، والأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح).

تبين مما تقدم أن درهما واحدا أشد من ست وثلاثين زنية، مع ما في الزنا من فساد الدين والدنيا. فإذا كان هذا في درهم واحد فكيف بحال من يأكلون الألوف من الربا، بل الملايين والمليارات!

وكم من خسارة على من أسس تجارته على الربا، ومن كان كسبه من فوائد الربا الخبيثة، وما هو مصير جسد ما نبت إلا من ربا، وأولاد ما أطعموا إلا من كسبه الخبيث؟!

٨- الصد عن أبواب الخير وفُرَصه:

آكل الربا يحال بينه وبين أبواب الخير في الغالب، فلا يقرض القرض الحسن، ولا ينظر المعسر، ولا ينفس الكربة عن المكروب؛ لأنه يصعب عليه إعطاء المال بدون فوائد محسوسة، وقد لا يُوَفَّقون لِفِعل الخير، ولو ذُكِّروا ونُصحوا لا يفهمون قبحَ عاقبة الربا إلا من شاء الله. وصدَق الله العظيم إذ يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ (البقرة: ٨٦)

٩- أكل الربا من أعظم المهلكات:

الربا يَغمِس صاحبَه في الإثم، ثم في النار؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله، وما هي؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكْل الربا...».(صحيح البخاري، رقم: ٢٧٦٦).

فذكره مقرونًا بالشرك والسحر اللَّذين هما أكبر الكبائر، وتوعُّد الله عليهما بالنار دليلٌ على قبح الربا وخطره وسُوء عاقبته على أهله في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال تعالى:﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ (البقرة: ٢٧٦)

١٠- أكل الربا سببٌ لحرب من الله ورسوله:

وكَفَى بها خطرًا على الشخص والمال والمجتمع في كلِّ شأنٍ من شؤونه، ومَن ذا الذي سيَثْبُتُ لحربٍ من الله ورسوله ببَدَنِه أو ماله وعشيرته وكلِّ ما أوتي من قوَّة، يقول تعالى مُهدِّدًا أكَلَة الربا:﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٧٩) أي: عُقوبةً لكم على أكْلِكم الربا.

ولا شكَّ أنَّ آثار هذه الحرب مشهودةٌ في واقع الناس ومعلومةٌ، ممَّا يأخُذ الله به أكَلَة الربا من النَّقص في الأنفُس والأموال والثمرات، بالحرق والغرق ووُجوه ذَهاب المال وتلَفِه بالكليَّة أو بعضه، واضطراب أحوالهم، وتشتت بالهم، وتناوب الأهوال عليهم حتى إنهم لا يستريحون ولا ينامون إلا بالحبوب المُنَوِّمَة.

وكذلك ما يُصِيبهم من أنواع الأوجاع المستَدِيمة التي تُكدِّر صفوَ الحياة، وتحرمهم الطيِّبات وأنواع الملذَّات ومُتَع الحياة، مع ما يُصِيبهم من الهمِّ والحزن، والعَجز والكسَل والشحِّ، وأسباب القلَق، ومُوجِبات الأرَق، وتسلط عِصابات الإجرام وأنظِمة الجور على أنفُسهم وممتَلكاتهم في جهاتٍ عدَّة من العالم بفنون التسلُّط والقهْر؛﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٩). وربما ودَّ أحدُهم أنْ يبذل مالَه كله ويعيش عَيْشَ الفقراء وطمأنينتهم.

١١- آكل الربا والمتعامل به ملعون على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم:

اللَّعن: هو الطَّرد والإبعاد عن مَظانِّ الرحمة. وقد جاء اللعنة على كلِّ مَن اشتَرَك في الربا أكلًا أو إعانةً بأيِّ وجهٍ من الوجوه - كما في الحديث عن جابرٍ رضي الله عنه قال «لعَن

رسول الله صلى الله عليه وسلم آكِلَ الربا، ومُوكِله، وكاتبَه، وشاهدَيْه»، وقال: «هم سَواء». (صحيح مسلم، رقم:١٥٩٨).

والأكل: يُرادُ به الانتِفاع بالربا بأيِّ وجهٍ من الوُجوه، وإنما جاء التعبير بالأكْل؛ لأنَّه هو الأعمُّ الأغلب، أو لأنَّه أوَّل ما يُقصَد من الربا وأهمُّه.

وأمَّا الكاتب والشُّهود؛ فلِمَا قاموا به من الإعانة عليه؛ سَواء كان ذلك تبرُّعًا أو بأجرة، وإذا كان هذا جَزاء مَن اشتَرَك في عَقْدٍ واحدٍ من عُقود الربا، وهو أقلُّ ما يمكن، فكيف بمَن أمضى سنوات طويلة من عُمره وهو يَأكُله، أو يُوكِله، أو يكتُبه، أو يشهد عليه، أو يُعِينه، أو يُدافِع عنهم ويَنصُرهم؟! فيمضي فترةً ثمينة من عمره وهو عاصٍ لله، محاربٌ له، متعرِّض للَعنِه وسُوء عُقوبته، وصدَق الله العظيم في وَصْفِه الإنسانَ بقوله:﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب: ٧٢)؛ أي: ظَلُومًا لنفسه يُحمِّلها ما لا تُطِيق من البَلاء، جَهُولًا بعاقِبة أمره.

١٢- أكْل الربا مجرَّبٌ أنَّه من أسباب سُوء الخاتمة لآكِله:

أكل الربا يختم لصاحبه بسُوء عمَلِه، ويُفتَن به عند الموت، ولعل من ذلك أنه يموت مصرًّا على أكْل الربا؛ فيَلقَى ربه مُرابيًا، عاصيًا لله ورسوله، محادًّا لله، ظالمًا لعباده؛ فيفارق الدنيا على أسوَأ حالٍ، منقلبًا إلى أسوَأ مَآل، بسبب ما جمَعَه من مالٍ حرام خلفه وراء ظهره، فحمل وزرَه وشرَّه، وتركه لورثته.

والمقصود: أنَّ المرابي على خطر أنْ يُنزَع منه الإيمان عند موته؛ لأنَّ من الذنوب ما يستَوجِب به صاحبه نزْع الإيمان، ويُخاف عليه منه، ومن ذلك ذنْب أخْذ الربا؛ فقد ذكَر القرطبي في تفسيره عند قوله تعالى:﴿ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾ (آل عمران: ١٣٠) عن أبي بكرٍ الورَّاق عن أبي حنيفة رحمه الله قال: أكثَرُ ما يُنزَع الإيمانُ من العبد عند الموت، ثم قال أبو بكرٍ: فنظرنا في الذنوب التي تَنزِع الإيمان، فلم نجدْ شيئًا أسرع نزعًا للإيمان من ظُلم العباد».

قلت: وأخْذ الربا وفرضُه على الناس من أظلم الظُّلم، وأعظم العُدوان؛ لأنَّه قَرِينُ القتل، فحُرمة مال المسلم كحُرمة دمه؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنَّ دِماءَكم

وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حرامٌ». (صحيح البخاري، رقم:١٦٣٩). فقرَن بين حُرمة الدم وحُرمة المال والعِرض.

١٣- آكِل الربا يعذب بعد موته بالسباحة في نهر من دم، وتقذف في فيه الحجارة:

أخبَرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك بقوله: «رأيت الليلة رجلين أتياني، فأخرجاني إلى أرض مقدسة، فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد الرجل أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه، فرده حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر، فيرجع كما كان، فقلت ما هذا؟ فقال: الذي رأيته في النهر آكل الربا». (صحيح البخاري، رقم:٢٠٨٥).

هكذا يُعذَّب آكِلُ الربا بعد موته بالسباحة في نهرٍ من دم، وتُقذَف في فيه الحِجارةُ، فتقذف به في وسط النهر.

١٤- يقومُ أكَلَة الربا من قُبورهم كقِيام المجانين الذين مسَّهم الشيطان:

وكفى بذلك خِزيًا وفضيحة ونذيرًا بسوء المستقبل قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾ (البقرة: ٢٧٥)؛ أي: يقومون من قبورهم في صُوَرِ المجانين، ولعلَّ ذلك من سُوء حالهم وكونهم يعدون كالمجانين خلف الأموال، وما يعتَرِيهم من وَحشةٍ في قُبورهم، وما نالَهم من عذاب بعد موتهم؛ وذلك من أجْل تَعامُلهم بالربا المحرَّم، واحتيالهم على الله بأنواع الحِيَل -وهو يعلم سرهم ونجواهم- ليستحلُّوا محارِمَه، ويَمكُروا بعباده ليَأكُلوا أموالهم بالباطل بأنواع الظُّلم، ولافترائهم على الله بقولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ (البقرة: ٢٧٥)

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «آكِلُ الربا يُبعَث يوم القيامة مجنونًا يُخنَق». (تفسير ابن أبي حاتم، رقم:٢٨٨٩).

١٥- آكل الربا متوعد بالنار إن لم يتب:

إنه مُتوعَّد بالنار التي أُعدت للكافرين، فهي أصلًا عقوبةٌ للكافرين، لكن مَن عمل عملَهم - ومن ذلك أَكْلُ الربا - فإنَّه يُعاقب مثل عِقابهم؛ قال الله عز وجل: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ

وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (البقرة: ٢٧٥).

أي: مَن عاد إلى أكْل الربا بعد علمه بحُكمه، فهو من أصحاب النار المُلازمين لها ملازمةَ الصاحب لصاحبه، ثم زادَ في الوعيد فحكَم عليهم بالخُلود في النار، وهو تهديدٌ خطيرٌ يتصدَّع منه القلب، ويقشعرُّ لِهَولِه الجلد؛ ولهذا يُروَى عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله أنَّه قال في قوله تعالى:﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣١): «هي أخوف آيةٍ في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المُعَدَّة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه». (الكشاف ١/ ٤١٤).

أضرار الربا الدنيوية:

إذا تلوثت الأجواء أصاب كل من يتنفس الهواء نصيب من هذا التلوث، وإذا تكدرت المياه دخل شيء من كدرتها جوف كل شارب منها، وهكذا يقال في كل شيء متلوث يباشره الناس، حتى الأموال إذا داخلها الكسب الخبيث أصاب المتعاملين بها بيعًا وشراءً وأخذًا وعطاءً شيءٌ من خبثها وسحتها؛ فكيف إذا كانت بنية الاقتصاد العالمي على الكسب الخبيث؛ وفقًا للنظرية الرأسمالية المبنية على الحرية المطلقة في الأموال، فلا شك أن تتلوث الأموال عالميا بالكسب الخبيث؛ حتى إن من حاول الاحتراز والتوقي يصيبه رذاذ خبث الأموال، وغبار الربا المتصاعد منها، مصداقًا لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:«ليأتين على الناس زمان لا يبقى أحد إلا أكَل الربا، فإن لم يأكله أصابه من غُباره». (سنن أبي داود، رقم:٣٣٣١).

ومن تلكم الأضرار الدنيوية ما يلي:

١- أضرار الربا الأخلاقية:

الربا له أضرار أخلاقية وروحية؛ لأننا لا نجد من يتعامل بالربا إلا إنسانا منطبعا في نفسه البخل، وضيق الصدر، وتحجر القلب، والعبودية للمال، والتكالب على المادة وما إلى ذلك من الصفات الرذيلة.

٢- أضرار الربا الاجتماعية:

الربا له أضرار اجتماعية لأن المجتمع الذي يتعامل بالربا مجتمع منحل، متفكك، لا يتساعد أفراده فيما بينهم، ولا يساعد أحد غيرَه إلا إذا كان يرجو من ورائه فائدةً ماليةً، والطبقات الموسرةُ تضاد وتعادي الطبقات المعدمة.

٣- أضرار الربا الاقتصادية:

الربا له أضرار اقتصادية؛ فكل من وقع في يد المرابي مرةً واحدةً لا يكاد يتخلص منه طول حياته، سواء كان آخذ القرضِ الفردُ المحتاج، أو أخذه التجار والصناع، ومُلَّاك الأراضي لاستغلالها في شؤونهم المثمرة، أو أخذته الحكومات من أسواق المال في البلاد الأخرى لقضاء حاجاتها.

وهذه القروض ضررها كله يعود على الجميع بالخسارة الكبيرة التي لا يكاد يتخلص منها ذلك الفرد أو المجتمع أو تلك الحكومات، وما ذلك إلا لعدم اتباع المنهج الإسلامي، الذي يدعو إلى كل خير ويأمر بالعطف على الفقراء والمساكين، وذوي الحاجات، قال الله تعالى:﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (المائدة: ٢)

٤- أكل الربا يسبب قسوةَ القلب ودخولَ الران عليه:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب سقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (المطففين: ١٤). (سنن الترمذي، رقم: ٣٣٣٤، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح).

٥- الربا سبب نزْع البركة من الرزق، وسبب الحرمان من التوفيق:

الربا من الكبائر الماحقة للبركة في العمر والولد والصحة، وسبب الحرمان من التوفيق، ويرى أثر ذلك على ولده وزوجه وأهله.

وحجَّة ذلك قوله تعالى:﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ (البقرة: ٢٧٦)، فهذا نصٌّ كريم يُنذِر بشُؤم

عاقبة الربا على صاحِبه من كلِّ وجه، فقد يُسلِّط الله عليه أسباب النقص والتَّلف، من غرقٍ، أو حرقٍ، أو لصوصٍ، أو أنظِمة الجور التي تأخُذ منه ما تَشاء قهرًا وهَوانًا، وقد يُذهِبه سبحانه من يد صاحبه بالكليَّة، فلا يَبقَى منه شيءٌ.

وكم رأى الناسُ من الأثرياء المُرابِين، أو الذين تأسَّست تجارَتُهم من الربا وعليه، لم تمضِ عليهم بضعُ سنواتٍ حتى مُحِق ما بأيديهم؛ حيث علقَتْهم الديون، وغلقت منهم الرهون، وأخذَهُم الله بالعذاب الهُون، فصارُوا عالةً يتكفَّفون الناس.

وكم كان مثلُ هذا المال سببًا في هَلاك صاحِبه، أو تعرُّضه للمخاطر في أحوال غامضة، وظُروف قاهرة!

وقال النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: «الربا وإنْ كَثُرَ، فعاقبَتُه تصيرُ إلى قُلٍّ».(مسند أحمد، رقم: ٣٧٥٤. والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٣. وإسناده صحيح).

وقال صلى الله عليه وسلم: «ما أحدٌ أكثرَ من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قِلَّة». (سنن ابن ماجه، رقم: ٢٢٧٩. وإسناده صحيح).

ولا يشك مؤمن أن القليل المبارك من المال خيرٌ من الكثير الممحوق البركة، ولو كان الكثير محل إعجاب الناس وتطلعاتهم ورغباتهم، ولذا قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ﴾ (المائدة: ١٠٠)

والواقع المشاهد يؤكد هذا الحقيقة التي قررتها نصوص الشريعة سواء على المستوي الفردي أو الجماعي والأممي.

أما على المستوى الفردي فإن أكثر الناس في هذا العصر – عصر الربا– يشكون من قلة بركة أموالهم رغم كثرة دخلهم، وتعدد سبل كسبها.

أما على المستوي الأممي – العالمي– فرغم اختراع الآلة واستغلال ثروات الأرض، وتنوع الصناعات، وتعدد الزراعات التي أصبح الإنسان المعاصر ينتج منها في اليوم ما لم يستطع إنتاجه من قبل في سنوات؛ حتى صارت أرقام الإنتاج الزراعي والصناعي أرقامًا عالية جدا؛ رغم ذلك كله فإن أكثر سكان الأرض يعيشون فقرًا، ولا يجدون كفافًا، وفي كل يوم يموت منهم جموع من الجوع والمرض؛ فأين هي المنتجات الزراعية والصناعية؟ لِـمَ لم

تسد جوع الملايين من البشر وهي تبلغ ملايين الملايين من الأطنان؟ فما كانت إذن قلة إنتاج؛ ولكنها قلة بركة فيما ينتجون ويزرعون ويصنعون!

وأما حلول العقوبات، فإن المحسوس المشاهد منها، الذي يعاني منه البشر في عصر الربا من التنوع والكثرة بما لا يعد. وهناك عقوبات معنوية يعاني منها أكثر الناس ولم يكتشفوا سر تلك المعاناة. ومنها استعباد المادة للإنسان بحيث تحولت من كونها وسيلة لراحته وهنائه إلى غاية ينصب في تحصيلها، ثم يشقى بحفظها، ويخشى فواتها، وتلك عقوبة أي عقوبة!

٦- الربا سبب لازدياد الفقر:

سيطرة المادة على الناس، وخوفهم من الفقر والحاجة، وانعدام قناعتهم بالضروري من العيش، وتطلعهم إلى كماليات لا يحتاجونها، إلى غير ذلك، انتشرت وسادت في العصر الرأسمالي الربوي. وكل ذلك وتوابعه ليست أخلاقًا ذميمةً فحسب؛ بل هي عقوبات وعذاب يتألم الناس من جرائها في زمن انتشار الربا؛ حتى أصبح الفقير يريد الغني، والغني يريد أن يكون أكثر ثراء، وصاحب الثراء الفاحش يريد السيطرة على أسواق المال في سلسلة لا تنتهي من الجشع، وحب الذات، وكراهية المنافسين.

وإذا ما استمر العالم على هذا النحو من تفشي الربا، وارتباط المعاملات المالية به؛ فإن النهاية المحتوية: ازدياد الفقر والجوع، واجتماع المال في خزائن فئة معدودة من كبار المرابين.

٧- الربا سبب لرفع الأمن وانتشار الخوف والجوع:

تسود الأنانية وحب الذات وانعدام الرحمة كل المجتمعات التي ينتشر فيها الربا؛ فالموسرون المرابون يقرضون الفقراء المحتاجين بفوائد الربا التي تزداد مع طول المدة وشدة الحاجة، مما يجعلهم عاجزين عن السداد. والنتيجة النهائية: إما أن يسرقوا لسداد القروض الربوية، وإما أن يتصادر أملاكهم وتباع للمقرضين؛ ليعيشوا بقية أعمارهم على قارعة الطريق.

إن الربا هو السبب الرئيس لانتحار كثير من المقترضين الذين عجزوا عن سداد ديونهم فالبلاد التي يكثر فيها الانتحار، وهو السبب في انتشار الجريمة والانتقام بين أصحاب رؤوس الأموال وكبار المرابين، مما يكون سببًا في رفع الأمن، وبسط الخوف والذعر في المجتمعات.

٨- الربا يسبب العداوة والبغضاء:

الربا يسبب العداوة والبغضاء بين الأفراد والجماعات، ويحدث التقاطع والفتنة. كما هو المشاهد.

٩- أكل الربا يسبب حلول العذاب والدمار:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله». (المستدرك للحاكم، رقم:٢٢٦١، وقال الحاكم: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي).

١٠- أكل الربا يكون سببا في الحرمان من الطيِّبات:

قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ (النساء)

ففي هذه الآية الكريمة التصريحُ بأنَّ أخْذ الربا وأكْل أموال الناس بالباطل، كان من أسباب تحريم الله الطيِّبات على اليهود، وهو تحريمٌ قدَرِيٌّ وشرعيٌّ، وفي الحديث: «ومَن تشبَّه بقوم فهو منهم». (سنن أبي داود، رقم:٤٠٣١، وإسناده صحيح)، فالمتشبِّهون من هذه الأمَّة باليهود في أخْذ الربا وأكْل أموال الناس بالباطل، قد عرَّضوا أنفسهم أنْ يُصِيبهم عقاب من جنس ما عاقَب الله به اليهود.

وكم عرف الناس في هذا الزمان من الأثرياء الكِبار الذين يَعِيشون في أنفُسهم عِيشةً تَعِسَة، في شظف وصعوبة من العيش وسوء الحال؛ بسبب ما يعتَرِيهم من القلَق والخوف والشحِّ والهلع والجزع!

وبعضُهم بما أنزل الله بهم من الأمراض الخطيرة المستعصية، التي يَحْتَمُون بسببها عن كثيرٍ من الطيبات؛ من المآكل والمشارب والمناكح، وسائر أنواع المتع! وصار حظُّهم منها

النظر إليها فقط؛ لتزيد حسرتهم، وتعظم شقوتهم، حتى إنَّ بعضهم لا تستقرُّ حياته إلا بتغطية عَقلِه بأنواع المخدِّرات والمسكرات؛ ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١١٧)

١١- ظُلم الناس والتعرُّض لسُوء عاقبته:

إنَّ مُؤسَّسات الربا والمتعامِلين به يَظلِمون الناس ظُلمًا عظيمًا متكرِّرًا، فإنهم يظلمونهم ابتداءً باشتراط الفائدة (الزيادة) عند البيع والقرض، ثم يظلمونهم أخرى عندما يتعذَّر وَفاء القسط أو الأقساط حين حُلول الأجَل، والأخطَرُ في ذلك أنَّ الزيادة تَتضاعَف تلقائيًّا كلَّما تأخَّر المال في ذمَّة المَدِين حسب النظام الربوي الشائع اليوم، حتى يكون الربا أضعافًا مُضاعَفة، وينتهي بمُصادَرة المرابين لممتلكات المحتاجين، وإذلالهم وقهْرهم حتى يترُكوهم عظمًا بلا لحم، بل جسمًا بلا رُوح، بسبب الربا.

١٢- الاعتماد على الربا يَمنَع أهلَه -غالبًا- عن الاشتِغال بالبَضائع التجاريَّة والمشروعات الإنتاجيَّة:

التجارات والإنتاجات تنمي البلاد، وتَنفَع العِباد؛ ولكن هذه الأمور في نظَر أهل الربا تتعرَّض للربح والخسارة، وهم لا يُرِيدون إلا أرباحًا مضمونة قدر المستطاع، ولذلك يقصرون نشاطَهم الاقتصادي على العملات والأثمان فقط بوجوهٍ من التعامُل كلها ربا؛ من الإقراض بفائدة، أو أخْذ الفائدة على الديون، أو بيع هذه الأشياء بجِنسها مع تفضيل أحد المبيعين على الآخَر، أو بيعها دون قبضٍ وحِيازة، أو تشغيلها في بنوكٍ خارجيَّة بالربا ونحو ذلك، أمَّا المصانع والمزارع ونحوها، فيندر أنْ يُشارِكوا فيها.

١٣- الربا يقتل مشاعر الشفقة عند الإنسان:

إن المرابي لا يتردد في تجريد المدين من جميع أمواله عند قدرته على ذلك، ولهذا جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي».(سنن أبي داود، رقم:٤٩٤٢).

١٤- الربا سبب لإفلاس كثيرٍ من الدول والمجتمعات والمؤسسات الماليَّة:

إنَّ الطمع في أرباحه دفَع المُتَعامِلين به إلى تحويل أرصدتهم وسحْب السيولة النقديَّة من

بِلادهم إلى بُلدان أخرى قويَّة وذات نفوذ، فتتمكَّن تلك الدُّوَل الأخيرة من الهيمنة على هذه الأموال، ربما بشكلٍ يعرضها للخطر من عدَّة جِهات، بينما تتعرَّض بلدان ذوي الأموال لنَقص السيولة النقديَّة، وتتعرَّض لكسادٍ اقتصادي غير متوقَّع.

وكم شهد الناس من مُؤسَّسات أفلسَتْ، ودول شُنَّت عليها الحروب المدمِّرة التي استَنزَفت ثرواتها.

١٥- الربا سبب واضح للاستِعمار على عدَّة دول في القَرْنِ الماضي:

إنَّ التاريخ يشهد بأنَّ الربا كان هو الوسيلة الفعليَّة والذَّريعة الواضحة للاستِعمار الذي تعرَّضت له عدَّة دول إسلاميَّة وغير إسلاميَّة في القَرْنِ الماضي؛ حيث اقترضت تلك الدول الفقيرة من دولٍ غنيَّة بالربا، ثم فتَحتْ أبوابها للمُرابِين الأجانب، فلم تمضِ بضعُ سنوات حتى تسرَّبت الثروة التي بيد سكَّان الدُّوَل الفقيرة إلى الأجانب، وحين أرادت تلك المجتمعات الضعيفة الذود عن نفسها استَعدَى المرابون الأجانب دولهم، فتدخَّلت الدول الغنيَّة تحت ستار حماية رَعاياهم، ثم تَغلغَلتْ حتى وضَعتْ يدها على سائر شُؤون تلك المجتمعات والدُّوَل الفقيرة، فتحقَّق الاستِعمار بجميع أشكاله، ومَن قرأ تاريخ الاستعمار في شبه القارة الهندية وشمال إفريقيا، تبيَّن له ذلك.

١٦- الربا من المهلكات للأفراد والأمم:

أما الأفراد فقد عد النبي صلى الله عليه وسلم الربا من السبع الموبقات.(صحيح البخاري، رقم: ٢٧٦٦).

وأما على مستوى الأمم فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه: «ما ظهر في قوم الربا والزنا، إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله عز وجل». (مسند أحمد، رقم:٣٨٠٩).

١٧- الربا سبب للأزمات الاقتصادية العالمية:

وقد ثبت أنَّ الأزمات التي تَعتري الأفراد، والاقتصاد العالمي تكون بسبب الديون التي تركب الأفراد والشركات، فإن العجز عن السَّداد عند الكساد يدفع إلى الخروج بالبضائع بأقلِّ الأثمان إن وجدت مَن يشتري. لذلك كانتْ هذه الأزمات الجائحة تُعالج

بتقليل الديون بطرقٍ مختلفة، أو إعادة جَدْولتها.

ولو استبدل بذلك النظام الاقتصادي نظام اقتصادي أساسه التعاون بين الدائن والمدين في المغنم والمغرم معًا، لكان أجلب للاطمئنان، وأعدل وأقوم وأهدى سبيلًا من ذلك النظام الربوي الذي يجعل الدائن آكلًا غانمًا دائمًا، والمَدين مأكولًا غارِقًا في أكثر الأحوال أو في كثير منها.

١٨- الشقاء الدائم:

ومن مضاره: دخول المدين في مغامرات ومهالك لا قِبَلَ له باحتمال نتائجها، فتُلاحقه الديون، وتُثقله الفائدة، مما قد يضطرُّه للبيع - إذا لم يتعرَّض ماله للهلاك قبل ذلك - في الوقت الذي لا يناسبه فتكون الخسارة فادحةً، والإفلاس المدمِّر، وقد يضطرُّ لمزيد من الاقتراض الربويِّ، مما يجعل الديون تحيط بذمته، كما تحيط الأغلال بعنقه.

ومن مضاره: اضطراب النفس، وانشغال باله المستمر مما يُؤثِّر على صحته وجهده، فوق ما يحدثه له القرض مِن اضطراب في تجارته والنظام الاقتصادي.

ومن مضاره: تعرُّضه لكثير مِن الأمراض التي تُصيب القلب؛ كضغط الدم، أو الذبحة الصدرية، أو الجلطة الدموية، أو نزيفٍ بالمخ، أو الموت المفاجئ. ولزوم الهمِّ والغمِّ وسوء التصرُّف، وذلك إمَّا لخسارته أو لعجزه عن سداد الدين، أو للمشاكل المترتِّبة عليه، سواء مشاكل نفسية أو اجتماعية أو مالية.

وأضرار الربا لا تحصى، ويكفي أن نعلم أن الله تعالى لا يحرم إلا كل ما فيه ضرر ومفسدة خالصة أو ما ضرره ومفسدته أكثر من نفعه، فأسأل الله لي ولجميع المسلمين العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

هذا ما لخصته من كتاب الشيخ إبراهيم بن محمد الحقيل «الربا آثام وأضرار»، ومن كتاب الشيخ سعيد بن علي القحطاني «الربا أضراره وآثاره»، وغيرهما من الكتب والرسائل.

المصادر والمراجع

اقتصرت فيها على ذكر الكتب المهمة التي أحلتُ عليها في الكتاب، وأغفلتُ ما رجعتُ إليه ولم أنقل عنه.

١. القرآن الكريم: كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، المحفوظ من التحريف والغلط.

٢. تفسير ابن كثير، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، ط: دار المعرفة، بيروت.

٣. تفسير الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

٤. تفسير المنار، للشيخ محمد رشيد رضا، ط: دار الفكر.

٥. تفسير الكشاف، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، ط: دار المعرفة.

٦. التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي، ط: دار الفكر.

٧. تفسير المراغي، لأحمد بن مصطفي المراغي المصري، ط: مصطفى الباب الحلبي.

٨. الدر المنثور، للإمام جلال الدين السيوطي، ط: دار الفكر، بيروت.

٩. روح المعاني، للسيد محمود الآلوسي البغدادي، ط: ديوبند، الهند.

١٠. التبيان في علوم القرآن، لمحمد علي الصابوني، ط: عالم الكتاب، بيروت.

١١. شهادة القرآن، لمحمد إبراهيم السيالكوتي.

١٢. التفسير الماجدي، لمولانا عبد الماجد الدريا آبادي، ط: مجلس نشريات قرآن، كراتشي.

١٣. مقدمة التفسير الحقاني، لأبي محمد عبد الحق الحقاني، ط: قديمي كتب خانه كراتشي.

١٤. صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ط: دار طوق النجاة.

١٥. صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ط: دار إحياء التراث، بيروت.

١٦. سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ط: المكتبة العصرية،بيروت.

١٧. سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، ط: دار الغرب الإسلامي.

١٨. سنن النسائي، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، ط: حلب.

١٩. سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ط: دار إحياء الكتب العربية.
٢٠. الموطأ، للإمام مالك، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢١. الموطأ، للإمام محمد، ط: المكتبة العلمية، بيروت.
٢٢. المسند، للإمام أحمد بن حنبل، بتحقيق شعيب الأرناؤوط، ط: مؤسسة الرسالة.
٢٣. مسند أبي داود الطيالسي، لسليمان بن داود الفارسي، ط: مكتبة حسينية، باكستان.
٢٤. مجمع الزوائد، لِنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ط: مؤسسة المعارف، بيروت.
٢٥. شرح النووي مع الصحيح لمسلم، للإمام النووي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٦. فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٧. ترجمان السنة، للشيخ مولانا محمد بدر عالم الميرتهي، ط: لاهور، باكستان.
٢٨. ظفر الأماني، للشيخ محمد بن عبد الحي اللكنوي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٩. رد المحتار، لابن عابدين الشامي، ط: دار الفكر.
٣٠. الفتاوى الهندية، للشيخ نظام وجماعة من علماء الهند، ط: كوئته، باكستان.
٣١. فتح القدير، للعلامة كمال الدين، المعروف بابن الهمام، ط: ديوبند، الهند.
٣٢. الجواهر المضيئة، لعبد القادر الحنفي، ط: مير محمد كتب خانه، كراتشي.
٣٣. التعليق الصبيح، للشيخ مولانا محمد إدريس الكاندهلوي، ط: لاهور، باكستان.
٣٤. الأركان الأربعة، للشيخ أبي الحسن علي الندوي، ط: لكنئو، الهند.
٣٥. المرأة بين الفقه والقانون، للدكتور مصطفى السباعي، ط: دارالسلام.
٣٦. السيرة النبوية، لابن هشام، ط: دار المعرفة، بيروت.
٣٧. زاد المعاد، لابن قيم الجوزية، ط: مؤسسة الرسالة.
٣٨. سبل الهدى والرشاد، للإمام محمد يو سف الصالحي الشامي، ط: دار الكتب العلمية.
٣٩. مختصر سيرة الرسولﷺ، للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ط: مكتبة المؤيد، الرياض.
٤٠. الفضائل المحمدية، ليوسف إسماعيل النبهاني، ط: منشورات دار القلم العربي، بحلب.
٤١. رحمة للعالمين، للقاضي محمد سليمان سلمان منصور فوري، ط: ديوبند، الهند.
٤٢. إحياء علوم الدين، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، ط: دار الفكر، بيروت.
٤٣. مراتب الإجماع، للعلامة محمد بن حزم الظاهري، ط: دار ابن حزم.

٤٤. فيض الإله المالك، للسيد عمر بركات الشامي البقاعي، ط: أصح المطابع ممبئي، الهند.
٤٥. الجواب الفسيح عما لفَّقه عبد المسيح، للسيد النحرير الإمام مفتي الحنفية العلامة أبو البركات نعمان خير الدين الآفندي الآلوسي البغدادي، ط: دار البيان الغربي، القاهرة.
٤٦. إظهار الحق، للعلامة رحمة الله الهندي الكيرانوي، ط: المؤسسة العالمية، قطر.
٤٧. إزالة الشكوك، للشيخ رحمة الله الهندي الكيرانوي.
٤٨. أدلة اليقين في الرد على مطاعن المبشرين، لعبد الرحمن الجزيري، ط: أسمار باريس.
٤٩. الكتاب المقدس (The Bible).
٥٠. الفارق بين المخلوق والخالق، لعبد الرحمن الباجه جي زاده، ط: مطابع البيان، دبي.
٥١. ذيل الفارق، المطبوع مع الفارق بين المخلوق والخالق، لعبد الرحمن الباجه جي زاده.
٥٢. الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، لشهاب الدين أحمد بن إدريس المالكي القرافي.
٥٣. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، لابن قيم الجوزية، ط: دار القلم، جدة.
٥٤. حقوق الإنسان في الإسلام، للدكتور علي عبد الواحد، ط: دار نهضة مصر.
٥٥. محاسن الإسلام، لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن البخاري من مشايخ صاحب الهداية.
٥٦. منحة القريب المجيب في الرد على عُبّاد الصليب، للشيخ عبد العزيز بن أحمد بن ناصر.
٥٧. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن قيم الجوزية، ط: مكتبة المعارف، الرياض.
٥٨. الملل والنحل، للإمام محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، ط: دار الكتب العلمية.
٥٩. مفاتيح العلوم، للشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي، ط: القاهرة.
٦٠. بشائر النبيين، لمولانا محمد إدريس الكاندهلوي.
٦١. أحسن الحديث، لمولانا محمد إدريس الكاندهلوي ثم اللاهوري.
٦٢. بشارات النبيين، لمولانا محمد إدريس الكاندهلوي ثم اللاهوري.
٦٣. تاريخ الطبري، لمحمد بن جرير الطبري، دار التراث، بيروت.
٦٤. نزهة الخواطر، لمؤرخ الهند الكبير عبد الحي بن فخر الدين الحسني، ط: ملتان.
٦٥. تاريخ ابن خلدون، للعلامة عبد الرحمن ابن خلدون، ط: دار الفكر، بيروت.
٦٦. الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ط: دار الكتاب العربي، بيروت.
٦٧. توضيح البيان في أصول القرآن، لبادري بركت الله.

٦٨. دعاء عام، (الدعاء العام) بالأردية، رتب للأمة المسيحية.

٦٩. إنجيل برنا باس، لبرناباس، ترجمه من الإنجليزية الدكتور خليل سعادة.

70. ترجمة «الإسلام دين الفطرة». *اسلام دین فطرت ہے۔*

٧١. حجة الإسلام، لمولانا محمد قاسم النانوتوي مؤسس دارالعلوم ديوبند.

٧٢. تاريخ كليسا، لبادري بركت الله.

٧٣. المسيح والمسيحية، للشيخ عبد الحليم شرر.

٧٤. *اسلام اور فطرت*، الأصل لعبد العزيزي الشاويش، والترجمة لافتخار أحمد.

٧٥. *اسلام کا اخلاقی نظام*، للشيخ القاري محمد طيب رحمه الله، ط: ديوبند، الهند.

٧٦. *عیسائیت کیا ہے*؟ (ماهي المسحية)، لمولانا محمد تقي العثماني، ط: كراتشي.

٧٧. *عیسائیت کا پس منظر*، لمولانا سرفراز خان صفدر، المكتبة الصفدرية، كوجرانوالة، باكستان.

٧٨. *بائبل سے قرآن تک* (ترجمة إظهار الحق)، الترجمة لمولانا أكبر علي، والشرح والتحقيق لمولانا محمد تقي العثماني، ط: مكتبة دار العلوم كراتشي.

٧٩. الزواج والطلاق في جميع الأديان، للشيخ عبد الله المراغي، ط: مكتبة المهتدين.

٨٠. منتهى الإرب في لغة العرب، للشيخ عبد الرحيم بن عبد الكريم، ط: كتابخانه سنائي.

٨١. كشاف اصطلاحات الفنون، للقاضي محمد أعلى التهانوي، ط: لاهور، باكستان.

٨٢. المنجد، لِلُونيس معلوف، ط: دار الشرق، بيروت.

٨٣. غياث اللغات، لمحمد غياث الدين بن جلال الدين، ط: ايج ايم سعيد كمبني،كراتشي.

٨٤. الاختلافات في الكتاب المقدس، للشيخ سمير شامي شحانة.

٨٥. الربا آثام وأضرار، لإبراهيم بن محمد الحقيل، ط: دار ابن خزيمة.

٨٦. الربا أضراره وآثاره في ضوء الكتاب والسنة، للدكتور سعيد بن علي القحطاني.

٨٧. تحريم الربا في الإسلام والديانتين اليهودية والمسيحية، للدكتور محمد رامز عبد الفتاح العزيزي، ط: دار الفرقان، عمان.

٨٨. خلاصة الأدلة السنية على صدق أصول الديانة المسيحية، طبع في بيروت في مطبعة الأميركان سنة ١٨٧٧ مسيحية.

فهرس الموضوعات

المؤلفات التي طبعت تحت إشراف دار التأليف والتصنيف ودار الإفتاء بدار العلوم زكريا، لنيشيا، جنوب إفريقيا

١- «**إعلام الفئام بمحاسن الإسلام وتنبيه البرية على مطاعن المسيحية**»، للشيخ المفتي رضاء الحق حفظه الله تعالى، وهي رسالة التخصص المقدَّمة بكلية الدعوة والإرشاد بجامعة العلوم الإسلامية، علامة بنوري تاؤن، كراتشي، باكستان، سنة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م. ط: زمزم ببلشرز، كراتشي، باكستان.

كتاب مفيد جدا لطلبة العلم والعلماء، مشتمل على المقارنة بين الإسلام والمسيحية بأسلوب سهل واضح. من طالعه خرج منه وقد حصلت له بصيرة في هذا الموضوع.

٢- «**خطبات الأحكام لجمعات العام**»، للشيخ العلامة حكيم الأمة أشرف علي التهانوي رحمه الله تعالى (م:١٢٨٠هـ/ ١٣٦٢هـ)، بتعليق محمد عثمان البستوي. تحت إشراف الشيخ المفتي رضاء الحق حفظه الله تعالى، ومشاركته. ط: زمزم ببلشرز، كراتشي، باكستان. / مجلس البحوث والإفتاء، ممبئي، الهند.

تشرف الشيخ بتصحيح متن الكتاب والتنبيه على الأخطاء المطبعية التي تسرَّبت إليه، ثم التعليق عليه تعليقًا قيما جدا، وذلك ببيان لغته، وتخريج الأحاديث الواردة فيه، وذكر بعض المسائل المهمة إذا دعت الضرورة إليه.

٣- «**مجموعة الخطب المنبرية**»، للعلامة عبد الحي الكفليتوي (م:١٣٣١هـ)، بتعليق الشيخ محمد بهولات، والشيخ عبيد الله آدم رحمه الله تعالى. تحت إشراف الشيخ المفتي رضاء الحق حفظه الله تعالى، ومشاركته. ط: دار المعارف، ديوبند، الهند. أَلَّف هذه المجموعة من الخطب عالمٌ من كبار العلماء والدعاة والأدباء. وكتب الله لمؤلفاته قبولا حسنا إلى أن صار أحدُ مؤلفاته «أطيب المرام في فرائض الإسلام» من المقررات الدِّراسية فى الجامع الأزهر.

٤- «**الفتاوى السراجية**»، للشيخ الإمام سراج الدين علي بن عثمان الأوشي الحنفي (م:٥٦٩هـ) بتعليق محمد عثمان البستوي. تحت إشراف الشيخ المفتي رضاء الحق حفظه الله تعالى، ومشاركته. ط: زمزم ببلشرز، كراتشي./ دار الكتب العلمية، بيروت./ مكتبة

الاتحاد، ديوبند، الهند.

كتاب قيم جدا فى الفقه الحنفي، استفاد منه الفقهاء الكبار والأئمة الأعلام. اهتم الشيخ محمد عثمان البستوي بتصحيح متنه ثم علَّق عليه في ضوء ما أفاد عليه فضيلة المفتي رضاء الحق، فصار –بتوفيق الله– كتابًا ممتازًا جدًّا من حيث التعليق، وقد طبع خلال عشر سنوات عشر طبعات على الأقل. وبعد هذه الطبعات توجَّه إلينا بعض العلماء من العرب بطلب ترجمة العبارات الفارسية المذكورة في «الفتاوى السراجية» وتعريبها، وهي كثيرة، إذ لم نترجمها من قبل؛ لأن أكثر العلماء في الهند وباكستان يفهمون اللغة الفارسية بقدر الحاجة، ولكن أكثر المشايخ في بلاد العرب لا يفهمون اللغة الفارسية فلبَّينا طلبهم.

٥- «**الدرة الفردة شرح قصيدة البردة**» (مجلدان) في اللغة العربية والأردية. الكتاب درس «قصيدة البردة» للشيخ المفتي رضاء الحق حفظه الله تعالى. جمع وترتيب وتحقيق: أويس بن الشيخ يعقوب بنجابي، خريج دار العلوم زكريا وأستاذ الجامعة الإسلامية تعليم الدين، دابيل، ولاية غجرات، الهند. إكمال: الشيخ محمد عثمان البستوي، أستاذ دار العلوم زكريا.

اشتمل الكتاب على مباحث السيرة النبوية المفيدة والتحقيقات الغالية الأنيقة، وهو بحق كتاب لا مثيل له في موضوعه. أصل الكتاب بالأردية وطبع فى الهند وباكستان، ثم ترجم إلى العربية وطبع بنفس الاسم من دار الكتب العلمية، بيروت. نقله إلى العربية: الأستاذ/ محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري، أستاذ بدارالعلوم/ ديوبند، الهند.

٦- «**جواهر الأصول في مصطلح أحاديث الرسول**»، للعلامة شيخ الحديث أبو عبيد عبدالرحمن المينوي. بتعليق محمد عثمان البستوي، ودانيال شريف. تحت إشراف الشيخ المفتي رضاء الحق حفظه الله تعالى، ومشاركته. ط: زمزم ببلشرز، كراتشي.

هذا الكتاب موجزٌ في مبانيه، محيطٌ بالأصول الهامة، رصينٌ في معانيه، سهلٌ في حفظه، جمَّةٌ فوائده، كثيرةٌ فرائده. ينبغي لكل طالب أن يحفظ متنه لإيجاز كلماته، وعذوبة عباراته.

٧- «***قرارِدل***» (ومعناه بالعربية: طمأنينة القلب). مجموعة القصائد = ديوان، لفضيلة الشيخ المفتي رضاء الحق حفظه الله تعالى. بعض القصائد بالعربية، وبعضها بالأردية. وهي قصائد في مدح الله تعالى، ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وبيان سيرة مشايخ ديوبند، ومراثي

شخصيات بارزة. وهذا الكتاب طبع مرات، كما هو أقدم الكتب المطبوعة للمؤلف.

٨- «*بدر الليالي شرح بدء الأمالي*» (مجلدان). من إفادات فضيلة الشيخ المفتي رضاء الحق حفظه الله تعالى. تهذيب وترتيب: الشيخ مولانا علاء الدين جمال –رحمه الله تعالى، والشيخ مولانا عامر عبد الله. ترتيب وتعليق: محمد عثمان البستوي، والمفتي محمد فهيم من زامبيا.

هذا الكتاب يتناول موضوع العقيدة في أسلوب علمي محقق مدلل، وفيه تنبيهات على الأخطاء والزلات التي صدرت من بعض الناس في ضوء الأدلة والبراهين. طبع مرات.

٩- «العصيدة السماوية شرح العقيدة الطحاوية» (مجلدان) في اللغة العربية والأردية. من إفادات فضيلة الشيخ المفتي رضاء الحق حفظه الله تعالى. تحقيق وترتيب: محمد عثمان البستوي. أصل الكتاب بالأردية وطبع أربع مرات فى الهند وباكستان، ثم ترجم إلى العربية، وفيها فوائد مزيدة على الطبعة الأردية، وطبع بنفس الاسم من زمزم ببلشرز باكستان. نقله إلى العربية: الأستاذ/ محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري، أستاذ بدارالعلوم/ ديوبند، الهند.

يتناول الشرحُ العقائدَ الإسلامية بمزيد من الشرح والبيان والتنقيح. ويتطرق إلى عدد من المسائل التي لم يتعرض لها كتاب «بدر الليالي». وفيه كلام متين عادل مبسوط على مشاجرات الصحابة، ومسائل صفات الباري تعالى، والتوسل والاستغاثة، وما تفرد به العلامة ابن تيمية رحمه الله تعالى. وتحقيق وتصحيح نصوص الكتاب مقارَنةً مع ٣٦ من المخطوطات، وعدد من النسخ المطبوعة. وتعريف بعددٍ من الشروح على كتاب «العقيدة الطحاوية»، والتعليق العادل اللازم عليها. وفيه تعقيب وتعليق مفصل على كتاب «شرح العقيدة الطحاوية» لصاحبه ابن أبي العز الحنفي بزعمه المشهور، وتنبيهات على عدد من الأخطاء الـمُـتَسَرِّبة إليه. نرجو أن يكون هذا الكتاب –إن شاء الله تعالى– أول كتاب يتناول علم العقائد بهذا الشمول والاستقصاء في شبه القارَّة الهندية، والجمع بين المواد الغزيرة والأسلوب الميسور.

١٠- «*فتاوى دار العلوم زكريا*» في تسع مجلدات كبار. وهي فتاوى فضيلة الشيخ المفتي رضاءالحق حفظه الله تعالى. تنقيح وتحقيق: المفتي محمد إلياس شيخ، أستاذ دار العلوم زكريا وعضو

هيئة الإفتاء بها.

كتابٌ كثرت الاستفادة منه فى السنوات الأخيرة في كثير من بلدان العالم، كتابٌ يمتاز بعمق التحقيق والتوضيح، كما يتعرض لكثيرمن المسائل والتحقيقات التي لا يتعرض لها كتب أخرى.

١١- «**الجزء اللطيف في الاستدلال بالحديث الضعيف**»، أُلف بمشاركة الشيخ المفتي رضاء الحق حفظه الله تعالى. رتَّب إفادات الشيخ وحققها ونقلها من الكتب المعتبرة: المفتي محمد إلياس شيخ، أستاذ دار العلوم زكريا وعضو هيئة الإفتاء بها.

كتابٌ مهمٌّ جدا في بابه، فريد في مباحثه، تعرض لتوضيح مسألة أصولية كثر فيها الإفراط والتفريط.

١٢- «***مستورات کی جماعتوں میں بھلائی کا راستہ***» (سبيل الخيرات فى جماعات المتنقبات)، لفضيلة الشيخ المفتي رضاء الحق حفظه الله تعالى. رتَّب إفادات الشيخ وحققها: المفتي محمد إلياس شيخ، والشيخ عبيد الله بن آدم. اشتمل على بيان حكم خروج النساء في سبيل الله وفق منهج «جماعة الدعوة والتبليغ».

١٣- «***ذِکر اجتماعی وجہری شریعت کے آئینہ میں***» (غرس الأشجار لأثمار الجهر بالأذكار). رتب إفادات الشيخ وحققها: المفتي محمد إلياس شيخ، أستاذ دار العلوم زكريا وعضو هيئة الإفتاء بها. كتابٌ لم يؤلَّف مثله في موضوعه، تلقاه العلماء بالقبول، طبع عدة مرات.

١٤- «**تزيين الظرف بأزهار قوانين الصرف**». هذا الكتاب مجموع الأمالي من حضرة الأستاذ المفتي رضاء الحق حفظه الله تعالى، التي ألقاها في ابتداء تدريسه في دار العلوم زكريا، فجمعها تلميذه القاري صالح بيك، ورتبه مولانا جنيد دودهيا، ثم حققه مولانا طلحه العطاس، وزاد عليه بعض المباحث المفيدة.

فيه إيضاح قوانين الاعتلال وغيرها بشكل سهل واضح حتى لا يصعب على المبتدئين فهمه. طبع هذا الكتاب ثلاث مرات بفضل الله تعالى، وزيد في الطبعة الثالثة تمارين بذكر المصادر لإثراء معرفة الطلاب بكثير من المصادر.